الخيال العلمي الاجتماعي

تأليف

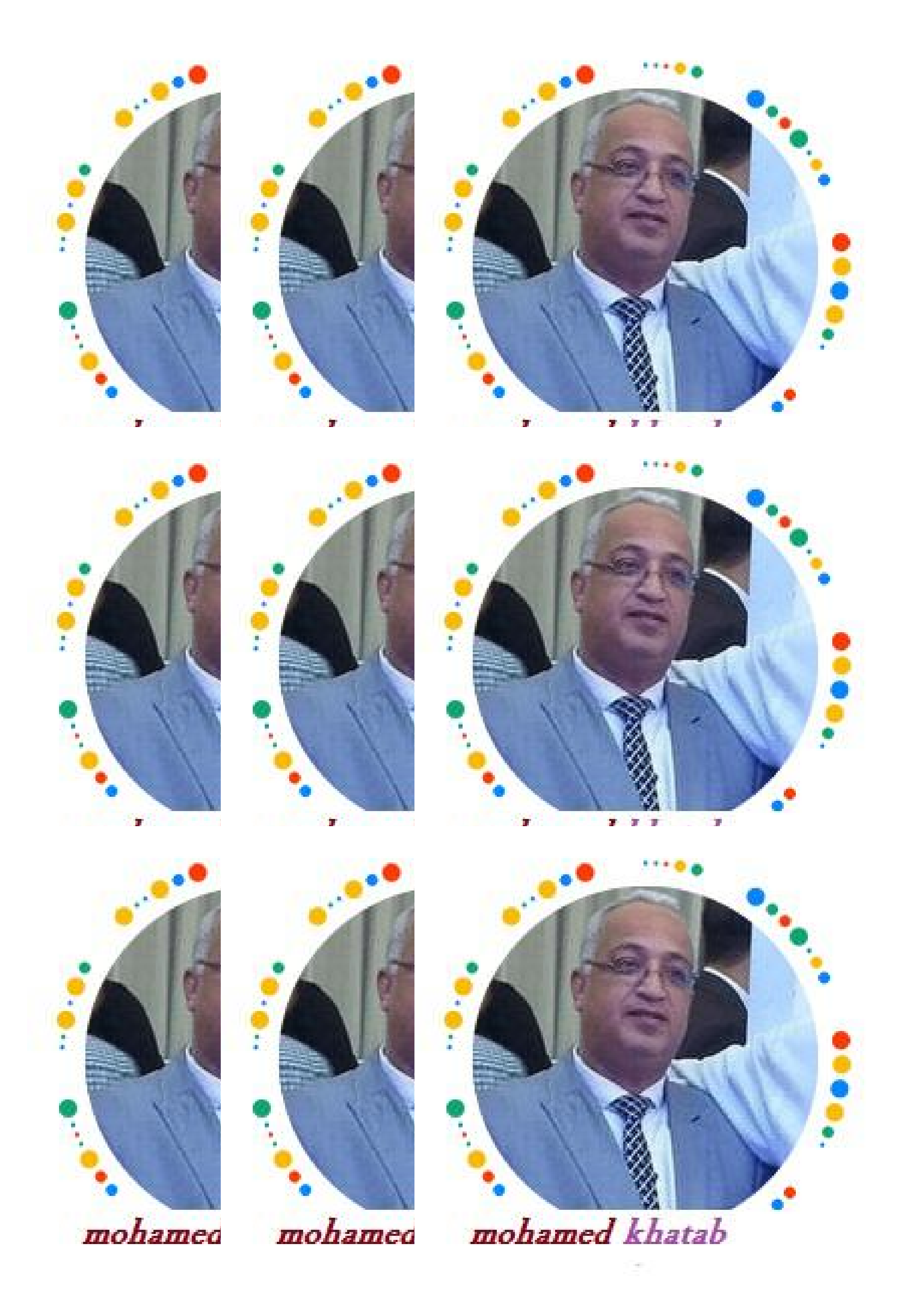
ترجمة

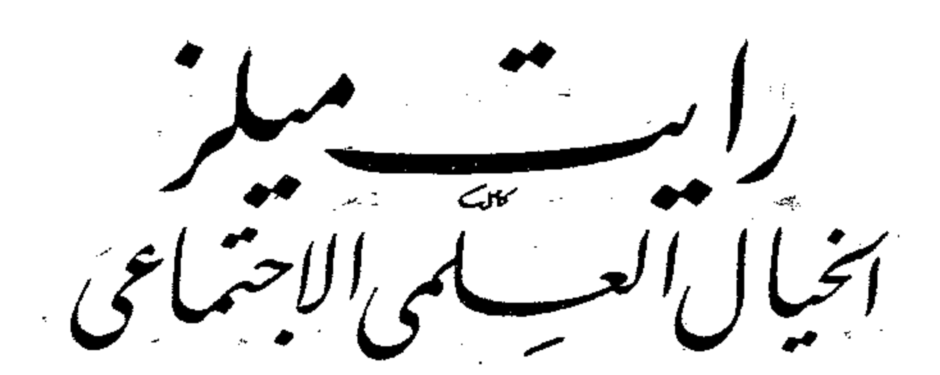
تقديم

رايت ميــــلز



الخيال العلمى الاجتماعى


mohamed khatab



ترجمة

الأستاذ الدكتور عبد الباسط عبد المعطي — الدكتور عادل مختار الهوارى

تقـديم

الأستاذ الدكتور سمير نعيم أحمد

١٩٨٦

الناشر
دار المعرفة الجامعية

هذه ترجمة كاملة لكتاب : ـ

C. WRIGHT MILLS :

The Sociological Imagination

Penguin Books. 1955.

بسم الله الرحمن الرحيم



محتويات الكتاب



تقـــــديم

ان تشكيل الوعى الانسانى الاجتماعى كان ، ولايزال ، الهدف الرئيسى لعلم الاجتماع ، ذلك أن موقف الانسان من هذا الواقع قبولا ، أو رفضا ، ترسيخا ، أو تغييرا ، يعتمد على طبيعة هذا الوعى • ولهذا تبلور فى ذلك العلم منذ نشأته تياران رئيسيان أحدهمـا يهـدف الى تزييف هذا الوعى وتجهيل هذا الواقع ، أى جعله موضوعا غير قابل للفهم والاستيعاب وبالتالى يصبح عاجزا عن تغيير مساره ، والآخر يهدف الى تحقيق فهم موضوعى لهذا الواقع وفض المجهلة عنه ، أى جعله قابلا للفهم وبالتالى جعل الانسان قادرا على تناوله بالتغيير وفقا لارادته •

واتخـذ الاتجاه الأول لتحقيق هدفه أساليب متنوعة منها محاولة الغاء الذات المفكرة لدى البـاحث الاجتمـاعى أو حتى لدى المواطن العادى ، وقصر دوره على اعمال الذات المدركة التى تكتفى بتسجيل ما هو قائم بوصفه حقائق واقعة دون اعمال العقل فيها ، أى قبولهـا بشكل ايجابى دون أى محاولة لنفيها أو نقدها • « وهذا هـو جوهر الاتجاه الوضعى فى علم الاجتماع الذى أسسه أوجيست كونت ونحا نحوه كثير من علماء الاجتماع الوضعيين والتجريبيين » (١) •

---

(١) انظر : هربرت ماركيوز ، العقل والثورة ، ترجمة فؤاد زكريا ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٩ •
وانظر ايضا ، عبد الباسط عبد المعطى ، اتجاهات نظرية فى علم الاجتماع ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، رقم ٤٤ ، اغسطس ، ١٩٨١ •

ومن هذه الأساليب أيضا التغافل عن الواقع الاجتماعى بحقائقه العيانية الملوسة وبكل ما يشتمل عليه من صراعات وتناقضات ومعاناة والاستغراق فى حالة من التأمل الفكرى النظرى المكتبى ، أى التجريد العقلى من خلال التعامل مع مفهومات مجردة بالغة التعقيد لا صلة لها بالواقع المعاش للانسان فى المجتمع . وهناك تقاليع متعددة ظهرت فى مجال علم الاجتماع تمثل ذلك الاتجاه مثل الظاهراتية والتفاعلية الرمزية والبنائية الوظيفية والصورية ... الخ . ومن أهم سمات ذلك الأسلوب استخدامه تركيبات لغوية تستعصى على الفهم وتظهر المتحدث بمظهر العالم الفذ المتمكن وتخفى حقيقة تعالمه .

ومن هذه الأساليب أيضا ما يمكن أن نطلق عليه تسمية «الحرفية» أى أن تصبح المهمة الرئيسية للعالم أو المفكر أو الباحث الاجتماعى هى استنباط أدوات محددة لاستخدامها فى البحث الاجتماعى وتطويرها وتنميتها وانفاق الوقت والجهد فى اعدادها وتطبيقها ، مما يجعله ينشغل كلية بها فينسى أو فيغفل الواقع الاجتماعى التى يستخدمها من أجل فهمه واستجلاء حقيقته .

وفى مقابل ذلك ، يعمل الاتجاه الآخر جاهدا على جعل الانسان قادرا على كشف وفهم واستيعاب حقائق الواقع المعاش بكل ما يتضمنه من صراعات وتناقضات ومعاناة ، وعلى تزويد الانسان بالمعرفة التى تمكنه من المواجهة الفعالة لمشكلات ذلك الواقع وتسخير امكانياته من أجل ايجاد الحلول المناسبة لها . وفى سبيل تحقيق ذلك يستخدم أساليب مغايرة لتلك التى يستخدمها التيار الأول ، فهو يؤكد على ضرورة عدم الفصل بين الذات المفكرة والذات المدركة أى يدعو الى دراسة الواقع ورصده وتحليله مع نقده وفقا لمعايير تعلو على هذا الواقع ، أى يتصور دائما واقعا بديلا أكثر تحقيقا لانسانية الانسان مما هو قائم ، ثم يقيس على أساسه

الواقع المعاش ويدعو الى تغييره لكى يتــلاءم مع صــيرورة مأمولة تم تحديدها بناء على ما هو ممكن على ضوء التجارب التاريخية الانسانية. ومن هذه الأساليب أيضا محاولته الدؤوبة لأن يكون واضــحا مفهوما لا للمشتغلين بعــلم الاجتمــاع فحسب ولكن لعامة الناس ، أى أنه لا « يتعالم » .

على هذا الأساس ننظر ونصنف آلاف المؤلفات فى علم الاجتماع منذ أن اكتسب ذلك العلم شرعيته التى أضفاها عليه أوجيست كونت بأعماله فى القرن الثامن عشر . وأعتقد أن قرار ترجمة هذا الكتــاب الذى اتخذه الزميلان الدكتور عبد الباسط عبد المعطى والدكتور عادل مختار الهوارى، كان بفعل تلك القدرة الفائقة التى يتمتعان بها على ادراك هذا التمييز الجوهرى بين مؤلفات علم الاجتماع واستيعاب الهــدف الصريح والضمنى وراءها ، أى أنهما قد تمتعا بالفعل بما أسماه مؤلف هذا الكتاب « بالخيال العلمى الاجتماعى » ، والذى سيتضح معنــاه للقارىء من خلال قراءته فصول ذلك الكتاب * .

ان « رايت ميلز » مؤلف ذلك العمل الذى يترجم لأول مرة الى اللغة العربية بعد مرور ما يقرب من الثلاثين عاما على صدوره ، وبعد أن ترجم الى العديد من اللغات العالمية ، والذى لم يتصد لتقديمه أى من المترجمين أو المؤلفين المترجمين له فى العالم العربى ، ينتمى الى ذلك التيار الآخر من علم الاجتماع الذى يهدف الى تجلية الواقع الاجتماعى وجعله مفهوما للانسان العادى وليس للمتخصص فحسب .

---

* قام الاستاذ الدكتور عبد الباسط عبد المعطى بترجمة الفصول الثلاثة الاولى ، وقام الدكتور عادل مختار الهوارى بترجمة بقية فصول الكتــاب .

ان « رايت ميلز » انسان أمريكى تمتع بموهبة فذة جعلته قادرا على مواجهة ذاته ومواجهة الواقع الذى يعيش فيه بجرأة وشجاعة ورزانة وعقلانية وموضوعية ، كما مكنته تلك الموهبة من أن يخاطب أخيه الانسان فى كل مكان بلغة سهلة ، مفهومة ، وسلسة ، جعلت مؤلفه يتجاوز حدود الزمان والمكان ، فقد قرأ هذا الكتاب منذ صدوره وحتى الآن ملايين البشر فى قارات العالم الخمس .

ويمكننا أن نلخص كل هذا الكتاب فى عبارة موجزة واحدة ، ذكرها المؤلف ذاته ، حيث يقول ما معناه : ان مشكلتك الشخصية التى تعانى منها لا يمكن حلها أو استيعابها الا اذا نظرت اليها فى سياقها الكلى ، أى أنك لن تفهمها قط الا اذا كانت لديك القدرة على ادراكها بوصفها مسألة اجتماعية وليست مجرد مشكلة فردية . فأنت فى نهاية المطاف صنيعة تاريخ اجتماعى عام ومشكلاتك لا يمكن حلها ، أو حتى فهمها ، دون ادراكك لمشكلات الآخرين ليس فى محيطك المباشر ولا فى مجتمعك المحلى فحسب ولكن فى الاطار العالمى . ويكاد « رايت ميلز » أن يقول أن مشكلة الفلاح المصرى زارع القطن حين يعجز عن زواج ابنته أو ابنه لا ترجع الى قصور فى امكانياته الذاتية ، ولكنها لابد أن تفهم على أساس السوق العالمية لتجارة القطن التى تتأثر بما بين الدول من علاقات ، وبما بين القوى الاجتماعية من صراعات .

ويدعو «رايت ميلز» كل انسان الى أن يتفهم واقعه على ضوء خبراته الشخصية المباشرة وعلى أساس السياق الاجتماعى الكلى الذى يعيش فيه ، والسياق التاريخى الذى حدد كلا من أوضاعه الشخصية وأوضاع مجتمعه فى فترة تاريخية محددة . كما يؤكد أيضا ، أن القدرة على الانتقال بين ما هو شخصى وما هو عام وبين ما هو آنى وما هو

ماض وما هو آت ، هى تلك السمة الأساسية التى يجب أن يتمتع بها الانسان المثقف والذى يطلق عليها «الخيال العلمى الاجتماعى» .

وقد وضـــع رايت ميلز عددا من الأسس الهامة التى يتعين على من يرمى الى تحقيق فهـــم واقعى لمجتمعه أن يضـــعها تصـــب عينيه ويسترشد بها خلال تحليله لهذا الواقع ومحاولته التعامل معه ، فقد حدد عدد من الأسئلة مثل : « ما هو البناء الاجتماعى للمجتمع المحدد فى كليته ؟ ما هى مكوناته الجوهرية وكيف يرتبط كل مكون منها بالآخر ؟ وكيف يختلف هذا البناء الاجتماعى عن غـــيره من النظـــم الاجتماعية المتباينـــة ؟ وما هى دلالة وما هـــو مغـــزى كل ملمح نوعى بالنسبة لاستمرارية هذا البناء وتغيره ؟ أين يقف هذا المجتمـــع من التـــاريخ الانسانى ؟ ما هى ميكانيزمات واليات تغيـــيره ؟ ما هو مكانة ودلالته بالنسبة لتطور الانسانية ككل ؟ كيف يؤثر ويتأثر كل ملمح نوعى نفحصه بالمرحلة التاريخية التى يمر بها المجتمع ؟ ما هى الملامح الجوهرية لهذه المرحلة ؟ وكيف تختلف ملامحها عن ملامح المراحل الاخرى ؟ وما هى أساليبها المتميزة فى صناعة التاريخ ؟ ما هى نوعيات الرجال والنساء الذين لهم السيادة فى هذا المجتمع فى هذه المرحلة التاريخية ؟ وما هى النوعيات التى ستسود أو المرشحة للسيادة ؟ بأى الأساليب يتم انتقاؤهم وتشكيلهم ؟ وتحريرهم أو اخضاعهم ، وجعلهم أكثر فعالية أو أكثر سلبية ؟ ما هى الطبيعة الانسانية التى نلاحظها فى هذا المجتمع ، وفى هذه المرحلة التاريخية من خلال دراستنا للسلوك والشخصية ؟ وما هى دلالة ومغزى كل ملمح من ملامح المجتمع الذى ندرسه بالنسبة للطبيعة الانسانية ؟ » (٣) .

---

(٢) انظر : رايت ميلز : الخيال العلمى الاجتماعى ، ص ٥ - ٦ .

وقد طبق ميلز أسسه المنهجية هــذه فى دراســاته عن الواقــع الاجتماعى وعن علم الاجتماع فى العالم الغربى ، تلك الدراسات التى حظيت باحترام وتقدير الأوساط العلمية الاجتماعية والثقافية فى العالم أجمع والتى شكلت أساسا متينــا للتيارات الراديكالية التقدمية الجادة لا على صــعيد علم الاجتمــاع فحسب ولكن على صــعيد الممارسات السياسية والحركات الثقافية .

وقد تميزت هذه الدراسات جميعا باتخاذ موقف نقدى تحليلى لكل من التراث النظرى فى علم الاجتماع والواقع الاجتماعى فى المجتمــع الرأسمالى الغربى وبخاصة المجتمع الامريكى، حيث كشف ميلز زيف العلم الاجتماعى التقليدى الذى يمثله تالكوت بارسونز وذلك فى مؤلفه الخيال العلمى الاجتماعى (١٩٥٩) (الذى نقدم لترجمته) والشخصية والبناء الاجتماعى (١٩٥٣) وعلم الاجتماع والبراجماتية (١٩٦٤) كمــا كشف زيف ادعاء مجتمع الرفاهية والعدالة الذى يمثله المجتمع الأمريكى وذلك فى مؤلفاته : الياقات البيضاء (١٩٥٣) وصفوة القوة (١٩٥٦) وأسباب الحرب العالمية الثالثة (١٩٥٨) واستمع أيها الأمريكى : الثورة فى كوبا (١٩٦٠) والسلطة والسياسة والشعب (١٩٦٣) .

ان البدء فى ترجمة أعمال رايت ميلز ، العالم الانسانى ، الى اللغة العربية يشكل فى رأينا نقطة انطلاق نحو نشر الفكر العالمى الملتزم والجاد ، ولهذا فليس من المستغرب أن يكون المقدمان عليه من شباب علم الاجتماع العربى الذى تتوفر لديه أهم صفتين لابد من توفرهما فى مفكرينا فى تلك المرحلة العصيبة التى يمر بهــا مجتمعنا العــربى : الالتزام والجدية .

وانني لواثق من أن ترجمة هذا الكتاب وما سيليه من ترجمات لأعمال أخرى لرايت ميلز ولغيره من المفكرين التقدميين فى العالم سوف تسهم فى تشكيل الفكر الاجتماعى فى عالمنا العربى على أســس علمية سليمة ترشد جماهير أمتنا فى كفاحها من أجل تجاوز التخلف والتبعية والاستغلال وتحقيق انسانية وكرامة الانسان العربى ٠

سمير نعيــم أحمــد

القاهرة ١٩٨٦/٩/٦

الفصل الأول

الوعد



الفصل الأول

الوعـــــــد

فى أيامنا هذه ، غالبا ما يشعر الناس بأن حياتهم الخاصة عبارة عن سلسلة من المتاعب • ويشعرون أيضا بأنهم فى خضم حياتهم اليومية ، لا يستطيعون التغلب على متاعبهم ، وهم فى شعورهم هـذا ، غالبـا ما يكونوا على حق : فما يدركونه ادراكا مباشرا وما يحاولون عمـله مرتبط بالعوالم المباشرة التى يعيشونها والتى ترتبط بمشاهد الحيـاة اليومية التى تتم فى العمل ، والأسرة ، والجوار ، وغيرها من الأوساط التى يتحركون من خلالها بحذر ويظلوا مجرد مشاهدين لها • وكلما ازداد ادراكهم ـــ مهما يكن غموض هذا الادراك ـــ بالطموحات وبالتهديدات التى تتجاوز مجتمعاتهم المحلية المباشرة ، زادت المتاعب التى يبـدو أنهم يشعرون بها •

ويبدو أن الذى يحـدد احساسهم بالمتاعب هو التغـيرات غـير الشخصية التى تحدث فى بنى مجتمعات المعمورة • ان وقائع التاريخ المعاصر ، هى أيضا وقائع حول نجـاح أو فشـل الأفراد من الرجال والنساء • فعندما يتم تصنيع المجتمع ، يتحول الفـلاح الى عامل ، ويختفى السيد الاقطاعى أو يصبح رجل أعمال ؛ وعندما تصعد الطبقات أو تسقط ، يصبح الانسان عاملا أو عاطلا ، وعنـدما يرتفـع معـدل الاستثمار أو ينخفض ، يشعر الانسان بالنشوة أو بالأسى • وعندما تقع الحروب ، يصبح بائع بوالص التأمين جندى أمام بطارية صاروخ، ويصبح أمين المخزن أمام الراذار ، وتضحى الزوجة وحيدة ، وينمـو

الطفل ويكبر بدون وجود الأب • لذلك ، لا يمكن فهم حياة الفرد أو تاريخ المجتمع الا بفهم كليهما •

ومع ذلك ، فان الناس لا يحددون غالبا المتاعب التى يعانون منها فى ضوء التغير التاريخى والتناقض المؤسس • كما أنهم لا يربطون متعة حياتهم فى الغالب بما يحدث فى مجتمعاتهم من تقدم أو انكسار • ولأن الناس لا يعرفون بين أنماط حياتهم وبين مسار تاريخ العالم ، فانهم عادة لا يعرفون ماذا تعنى هذه الصلة بالنسبة للنوعية من البشر التى هم عليها ولا بالنسبة لأنماط التاريخ التى قد يشاركون فيها • انهم لا يمتلكون النوعية من العقل الضرورية لاستيعاب حالة التفاعل بين الانسان والمجتمع ، وبين السير الذاتية والتاريخ ، وبين الذات والعالم • كما أنهم لا يستطيعون السيطرة على متاعبهم الشخصية من خلال ضبط التحولات البنائية الكامنة خلف هذه المتاعب •

ومن المؤكد أن الناس لا يعرفون فى أى فترة من الفترات حدث لهم ذلك التغير الذى يشبه فى سرعته الزلزال !! ان الأمريكيين لا يعرفون بمثل تلك التغيرات التى تشبه الكوارث كما عرفها الناس رجالا ونساءا فى مجتمعات أخرى • وربما يعزى هذا الى الحقائق التاريخية التى أصبحت الآن « مجرد تاريخ » • ان التاريخ الذى يؤثر الآن فى كل انسان هو تاريخ العالم • وفى نطاق المشهد والمرحلة الرهينتين فى جيل واحد ، تحول حوالى سدس البشرية من النظم الاقطاعية والتخلف الى تحديث وتقدم مخيفين • لقد تحررت المستعمرات السياسية من الصيغ القديمة للاستعمار ولكن ظهرت أشكالا امبريالية جديدة غير منظورة •

(٦)

لقد حدثت ثورات ، وارتبط الناس بالأنماط الجديدة من السلطة وظهرت المجتمعات الشمولية ، التى وقعت فى تجاوزات ، وحققت نجاحات لافتة . وبعد قرنين بدت الرأسمالية كما لو كانت الطريق الوحيد الى التصنيع . وبعد قرنين من التطلع والأمل انحصرت حتى الديموقراطية الصورية فى قسم محدود من الانسانية . لقد تحطمت الأساليب والطرائق القديمة للحياة فى كل مكان فى العالم النامى ، وحلت محلها توقعات غامضة أضحت أكثر الحاحا . وفى العالم الأكثر نموا أضحت وسائل السلطة والعنف أكثر شمولية وانتشارا فى مجالها ، وأكثر بيروقراطية فى صيغتها . إن الانسانية نفسها تحتضر أمامنا فى الوقت الذى تبذل فيه كلا القوتين العظيمتين أقصى الجهود استعدادا للحرب العالمية الثالثة .

ان عملية صياغة التاريخ وتشكيله فى الوقت الحاضر تتجاوز قدرة الناس على توجيه أنفسهم بما يتسق والقيم التى يعتنقونها . ولكن أى قيم تلك ؟ ان الناس وحتى عندما لا يكترثون ، يحسون غالبا بأن الطرائق القديمة فى التفكير قد انهارت ، وأن الجديدة البازغة على درجة من الغموض يجعلها فاقدة المعنى الأخلاقى . وهل من دهشة بعد ذلك لأن الناس لا يقدرون على استيعاب العوالم الأرحب التى تواجههم فجأة ؟ وأنهم لا يفهمون مغزى الحقبة التاريخية التى يعيشونها ؟ وأنهم ــ كدفاع عن النفس ــ يصبحون غير مكترثين ويلوذون الى البقاء سويا فى حدود عوالمهم المحددة الخاصة ؟ وهل من غرابة والأحوال هكذا ، أن يتملكهم احساس بالكمد ؟ .

ان الناس لا يحتاجون فقط الى المعلومات — فى عصر الحقيقة هذا الذى تسيطر فيه المعلومات على انتباه الناس وتركيزهم وتشل قدرتهم على تمثل هذه المعلومات واستيعابها ، كما أنهم لا يحتاجون فقط الى القدرة على التفكير والاستنباط — بالرغم من جهادهم لتحصيلها ، والذى يستنفذ غالبا طاقاتهم المعنوية المحدودة .

ان ما يحتاجه الناس ، ويشعرون بالفعل أنهم فى حاجة ماسة اليه، نوعية من العقل والتفكير تساعدهم على استخدام المعلومات وتطوير التفسير والاستنباط كى يتمكنوا من فهم واستيعاب مجمل ما يدور فى العالم الخارجى ، وما يحدث لهم . ان هذه النوعية من التفكير والمنطق، التى ارتضيتها ، والتى ينتظرها الصحفيون والدارسون والفنانون والعامة والعلماء والمحررون ، هى ما أطلق عليه الخيال العلمى الاجتماعى .

هذا الخيال العلمى الاجتماعى هو الذى يمكن صاحبه من فهم الاطار التاريخى الأوسع ، فى ضوء معانيه ودلالاته سواء بالنسبة للحياة الذاتية الشخصية أو بالنسبة للمسار الخارجى لأنماط كثيرة من الأفراد . وهذا الخيال هو الذى يمكن صاحبه من ادراك الكيفية التى يصبح بها وعى الناس المعرفى فى تجاربهم وحياتهم اليومية ، وعيا زائفا بأوضاعهم الاجتماعية . ان رؤية اطار المجتمع الحديث تتم من خلال الانغماس والغرق فى خضم هذه الحياة اليومية ، وفى داخله ومن خلاله، أيضا تصاغ الخصائص النفسية للجموع المتغايرة من الرجال والنساء . على أنه بوسائل بعينها يقدمها الخيال العلمى الاجتماعى يمكن بلورة المشكلات الفردية كمتاعب واضحة ، كما يمكن تحويل عدم اكتراث العامة الى اهتمام بالقضايا العامة والمشتركة .

ان الغاية الأولى من هذا الخيال العلمى الاجتماعى — والدرس الأول الذى على العلم الاجتماعى تجسيده — تجسيد الفكرة التى تذهب الى أن الفرد يمكن له فهم تجربته وأوضاعه وتقدير قدره ومصيره اذا ما وضع نفسه فى سياق مرحلته التاريخية . وأنه يستطيع معرفة وتحديد فرصه فى الحياة اذا ما أدرك فرص الأفراد الآخرين الذين يشاركونه ظروفه وأوضاعه . ان هذا الدرس الذى على العلم الاجتماعى تجسيده درس قاس من عدة وجوه ، كما أنه درس رائع مبهر من عدة وجوه أخرى .

اننا لا نعرف حدود قدرات الانسان على السمو أو على التردى، على تحمل الألم أو الابتهاج ، على التلذذ بالوحشة أو دعة الفكر والعقل . على أننا فى زمننا هذا نعرف أن حدود الطبيعة الانسانية لا نهائية وغير محدودة . كما أننا نعرف أن كل فرد من جيل الى جيل يعيش فى مجتمع ، وأن له سيرة حياة ، وتسلسل تاريخى . ولأن حياته فى المجتمع حقيقة واضحة فهو يسهم — حتى وان كان اسهاما محدودا — فى تشكيل مجتمعه وفى مسار تاريخه ، هذا المجتمع الذى صنعه ، باندفاعاته وانكساراته التاريخية .

ان الخيال العلمى الاجتماعى هو الذى يمكننا من استيعاب التاريخ وسير الحياة الذاتية ، وأيضا ادراك العلاقة بينهما فى سياق المجتمع . ومن ثم كان هو المهمة وكان هو الوعد . ان تحقيق هذه المهمة والوفاء بذلك الوعد كانا غاية بارزة فى جهود المحللين الاجتماعيين الكلاسيكيين فى العلم الاجتماعى . لقد كان ملمحا جوهريا فى أعمال هربرت سبنسر ، وسبب تضخم وشمول وتعدد اهتمامات ادوارس روس ، وتشهد عليه رشاقة أسلوب وشهرة أوجيست كونت وايميل دور كايم . وكانت هذه

المهمة وذلك الوعد أيضا حاضرين فى كتـابات كارل مانهايم المعقـدة والحاذقة فى وقت واحد • وكانا هما سر الكيف الكامن من وراء الابداع الفكرى لدى ماركس ، ومحرك البصيرة الساخرة واللماحة لدى ثورشتين فيبلن ، ويعود اليهما تلك الرؤية المتعددة الأبعاد لدى جوزيف شومبيتر ، والشمول السيكولوجى لدى ليسكى الذى لا يعد أقل وضوحا وعمقا من ماكس فيبر • وكان السعى نحو هذا الوعد هو العلامة التى ميزت أفضل الدراسات المعاصرة حول الانسان والمجتمع •

وبوسع المدقق فى الدراسات الاجتماعية التوصل الى أنه لا توجد دراسة واحدة عادت الى اشكاليتى التاريخ والسير الذاتية وتقاطعهما داخل المجتمع ، استطاعت أن تكمل مهمتها الفكرية سواء كانت المشكلات محدودة أو رحبة فى واقعها الاجتماعى الذى عنى المحللون الكلاسيكيون بتحريه وتقصيه • ومع ذلك ، فالذين كانوا أكثر وعيا بهذا الوعد فى أعمالهم ، هم الذين اهتموا بطرح متسق لثلاث مجموعات من الأسئلة ، كانت على النحو التالى :

المجموعة الأولى : وكانت تركز على أسئلة : ما هو البنـاء الاجتماعى للمجتمع المحدد فى كليته ؟ ما هى مكوناته الجوهرية وكيف يرتبط كل مكون منها بالآخر ؟ وكيف يختلف هـذا البنـاء الاجتماعى عن غيره من النظم الاجتماعية المتباينة ؟ وما هى دلالة وما هو مغزى كل ملمح نوعى بالنسبة لاستمرارية هذا البناء وتغيره ؟ •

المجموعة الثانية : وتشمل أسئلة مثل : أين يقف هذا المجتمع من التاريخ الانسانى ؟ ما هى ميكانيزمات وآليات تغييره ؟ وما هو

مكانه ، ودلالته ، بالنسبة لتطور الانسانية ككل ؟ كيف يؤثر ، ويتأثر كل ملمح نوعى نفحصه بالمرحلة التاريخية التى يمر بها المجتمع ؟ ما هى الملامح الجوهرية لهذه المرحلة ؟ وكيف تختلف ملامحها عن ملامح المراحل الأخرى ؟ وما هى أساليبها المتميزة فى صناعة التاريخ ؟

المجموعة الثالثة : وتركز على أسئلة : ما هى نوعيات الرجال والنساء الذين لهم السيادة فى هذا المجتمع ، فى هذه المرحلة التاريخية ؟ وما هى النوعيات التى ستسود أو المرشحة للسيادة ؟ بأى الأساليب يتم انتقاؤهم وتشكيلهم ؟ وتحريرهم أو اخضاعهم ، وجعلهم أكثر فعالية أو أكثر سلبية ؟ ما هى الطبيعة الانسانية التى نلاحظها فى هذا المجتمع ، وفى هذه المرحلة التاريخية ، من خلال دراستنا للسلوك والشخصية ؟ وما هى دلالة ومغزى كل ملمح من ملامح المجتمع الذى ندرسه بالنسبة للطبيعة الانسانية ؟

وسواء كان موضع اهتمام الباحث هو قوة كبرى أو كتابة أدبية ، أو أسرة ، أو سجن ، أو مهن — فهذه هى أنواع الأسئلة التى تناولها أفضل الباحثين الاجتماعيين ، لأنها تشكل المحاور الفكرية التى قامت عليها الدراسات الكلاسيكية للانسان فى المجتمع — كما أنها هى الأسئلة التى يثيرها حتما أى عقل يمتلك الخيال العلمى الاجتماعى . ذلك لأن الخيال العلمى الاجتماعى هو القدرة على الانتقال من منظور لآخر — من المنظور السياسى الى المنظور السيكولوجى — من عملية بحث أسرة واحدة الى الدراسة المقارنة لميزانيات بلدان العالم ، من المدرسة اللاهوتية الى المؤسسة العسكرية ، ومن الاهتمام باحدى الصناعات

البترولية الى دراسات بالشعر المعاصر ؟ان الخيال العلمى الاجتماعى يعنى القدرة على الانتقال من التحولات اللاشخصية والتحولات النائية الى أكثر السمات قربا والتصاقا بالذات البشرية — والقدرة على رؤية العلاقات بين هذه التحولات وتلك السمات والخصائص • ويكمن وراء استخدام هذا الخيال العلمى الاجتماعى الرغبة والتطلع الى معرفة المغزى الاجتماعى والتاريخى للفرد فى المجتمع وفى المرحلة التاريخية التى تحدد وجوده وطابعه النوعى •

لكل هذا ، باختصار ، يتطلع الناس الى استخدام الخيال العلمى الاجتماعى لاستيعاب ما يجرى فى العالم ، ولفهم ما يحدث داخلهم بوصفهم نقاطا هامة فى تقاطع السير الذاتية مع تاريخ المجتمع • ان الوعى الذاتى للانسان المعاصر ، والذى يصور الانسان كما لو كان شخصا خارج المجتمع وربما غريبا عليه ، يعتمد على الادراك المتعمق للنسبية الاجتماعية وللقوة المحركة للتاريخ • ان الخيال العلمى الاجتماعى أكثر افادة واثراء للوعى الذاتى • فباستخدام هذا الخيال ، سيشعر الناس الذين ظلت عقولهم محصورة فى مجموعة محددة من الدوائر وكأنهم استيقظوا فجأة على حقيقة مغايرة لتلك التى كانوا يظنون أنفسهم على معرفة بها • وسواء كان هذا الأمر صحيح أو غير صحيح ، فانهم يشعرون غالبا بأنه أصبح فى حوزتهم محصلة معرفية ملائمة وتخمينات متماسكة وتوجهات شاملة • وتبدو لهم القرارات القديمة التى كانت معقولة ، أنها قرارات ، تبدو لهم الآن ، لم تأت فى عقول تجيد الحساب • وتغدو قدرتهم على الدهشة أكثر حيوية ، وبالاضافة الى هذا يحوزون أسلوبا جديدا فى التفكير ، وفى ممارسة نقد القيم ، أنهم بايجاز ، يدركون ويتذوقون الدلالة الثقافية للعلوم الاجتماعية •

(٢)

على أن أنواع التمييز ثراءا والتى يساعدنا عليها الخيال العلمى الاجتماعى هو التمييز بين المتاعب الشخصية الناتجة عن الخبرة المباشرة للانسان وبين القضايا العامة الناتجة عن البناء الاجتماعى • ان هـذا التمييز يعد أداة هامة من أدوات الخيال العلمى الاجتماعى ومعلم من معالم الأعمال الكلاسيكية فى العلم الاجتماعى •

— تحدث « المتاعب » فى نطاق بيئة شخصية الفرد وفى نطاق علاقاته المباشرة بالآخرين ، فهى ذات صلة بذاته وبتلك المجالات المحدودة من الحياة الاجتماعية التى يعيها بصورة مباشرة وشخصية • وبناء على ذلك، فان ادراك نوعية المتاعب والأسلوب الأنسب لمواجهتها يكمن لدى الفرد بوصفه كيانا له ظروفه التاريخية الخاصة المتميزة ، وفى نطاق الوسط الاجتماعى المباشر ـ المحيط الاجتماعى الذى يؤثر بشكل مباشر على نشاطه الارادى • فالمتاعب اذن مسألة خاصة : قيم يعتنقها الفرد ويشعر أنها معرضة للخطر •

— أما « القضايا » فانها تتعلق بالأمور التى تتجاوز هذه الاوساط الاجتماعية المحلية للفرد ومجال حياته الداخلية • حيث ترتبط بتنظيم كثير من تلك الاوسـاط الاجتماعية فى شـكل المؤسسات ذات الطابع التاريخى الاجتماعى الشمولى ، وبتلك السبل التى تتداخل بها الاوساط البيئية العديدة وتتلاحم لتشكل البنـاء الاجتماعى الاشـمل للحيـاة الاجتماعية والتاريخية • فالقضية هى مسألة عامة : أى أن عامة الناس يشعرون بأن قيمة ما من التى يعتنقونها قد أصبحت فى خطر • وغالبا ما يدور الجدل حول ماهية هذه القيمة وعما يتهددها بالفعل ؟ وعادة لا يكون الجدل متمركزا حول بؤرة محددة نظرا للطبيعة الخاصة لتلك

القضية ، ان لم يكن لأسباب أخرى بعكس المتاعب ، أى أنه لا يمكن تحديدها على أساس الخبرة المباشرة • فالقضية فى الواقع ، تعنى أزمة فى النظم الاجتماعية ، كما أنها تعنى ما يسميه الماركسيون « تناقضات » أو « عداءات » •

ـــ وفى هذا الاطار ، ننظر الى مشكلة البطالة : عندما يكون عدد العاطلين فى مدينة تضم (١٠٠,٠٠٠ نسمة) هو رجل واحد فقط ، فهذا يعتبر مشكلته هو الشخصية ، وللتخفيف منها فاننا ننظر الى شخصية الرجل ، لمهاراته ، ولفرصه الفورية المباشرة • لكن عندما يتعلق الامر بأمة بها ٥٠ مليون عامل منهم ١٥ مليون انسان عاطل ، فهذه تعتبر قضية عامة ، وقد لا نأمل فى ايجاد حل لها فى حدود الفرص المتاحة لأى فرد واحد ، ذلك لأن بناء الفرص ذاته قد انهار • ومن هنا فان كلا من البيان الصحيح للمشكلة ، ومجال الحلول الممكنة يتطلب منا دراسة أنظمة المجتمع الاقتصادية والسياسية ، وليس فقط مجرد الموقف الشخصى والصفات الشخصية لمجموعة متناثرة من الافراد •

ـــ ولننظر الى الحرب : المشكلة الشخصية فى الحرب ، عندما تقع ، هى كيفية البقاء على قيد الحياة أو الموت فيها بشرف ، كيف تستغلها فى الحصول على الاموال منها ، أو كيف تتسلق الى أعلى درجات الامان فى الجهاز العسكرى ، أو كيف تسهم فى انهاء الحرب • باختصار ، يتوقف الامر على قيم الانسان ، حيث يختار ما بين مجموعة من الاوساط الاجتماعية اما أن يعيش فيها من موقعه الحرب أو أن يجعل الموت فيها شىء له مغزاه • ومع ذلك ، فان القضايا البنائية للحرب لها علاقة بأسبابها ، وبأى أنماط من الناس تضعهم فى القيادة ، وبآثارها على المؤسسات الاقتصادية والسياسية ، الاسرية والدينية ، وانعدام مسئولية عالم من الدول الأممية •

ـ ولننظر الى الزواج : داخل الزواج ، قد يمارس الرجل والمرأة مشاكل شخصية ، ولكن عندما يكون معدل الطلاق خلال السنوات الاربع الاولى من الزواج هو ٢٥٠ من بين كل ١٠٠٠ محاولة طلاق ، فهذا يعد بمثابة مؤشر عن وجود قضية بنائية لها علاقة بنظامى الزواج والاسرة وغيرها من الانظمة الاجتماعية الاخرى التى تقوم عليهما .

ـ أو انظر الى حياة المدينة العاصمة ــ ذلك المسطح المخيف ، الجميل، القبيح ، الرائع للمدينة الكبيرة . ان الحل الشخصى ، بالنسبة للكثيرين من أهل الطبقة العليا ، لـ « مشكلة المدينة » هو امتلاك شقة يقع أسفلها جراج خاص فى قلب المدينة ، ثم على بعد أربعين ميل يكون هناك منزل من تصميم « هنرى هيل » ملحق به حديقة من تنسيق « جاريت ايكبو » ويقع على مائة فدان من الاراضى الخاصة . فى هاتين البيئتين المحكومتين ــ وبكل منهما مجموعة صغيرة من العاملين وحلقة الوصل بينهما طائرة هيلوكوبتر خاصة ــ يمكن لمعظم الناس حول الكثير من المشاكل ذات الوسط الشخصى الناجمة عن حقائق المدينة . ومع ذلك ، فان كل هذا ، مهما كانت روعته ، لا يحل القضايا العامة التى تفرضها الحقيقة البنائية للمدينة . اذن ، ما الذى يجب عمله مع كل هذه البشاعة الواضحة فى المدينة ؟ هل يتم تفتيتها الى وحدات متناثرة مع توحيد مكان الاقامة والعمل ؟ هل يتم اعادة تجديدها وصقلها حيث هى قائمة ؟ أم هل يتم نسفها بعد ترحيل من فيها واقامة مدن جديدة بناء على خطط جديدة فى مواقع جديدة ؟ ثم ما هى ماهية تخطيط المدينة ومن هو الذى سيقرر وسيقوم بتنفيذ ما يقع عليه الاختيار ؟ أن هذه المسائل كلها بمثابة قضايا بنائية يتطلب مواجهتها وحلها منا تقدير القضايا السياسية والاقتصادية التى تؤثر على الاوساط الاجتماعية التى لا حصر لها .

والى ذلك الحد الذى يتم فيه ترتيب الاقتصاد ومع ذلك تحــدث نوبات الكساد ، فان مشكلة البطالة تصبح غير قابلة للحل الفردى • والى الحد الذى تكون فيه الحرب متلازمة مع نسق الدولة ـ الامة ومع عملية التصنيع غير المتكافىء فى العالم ، فان الفرد العادى فى وسطه البيئى المحدود سيكون عاجز وبلا قوة ـ أو بدون دعم سيكولوجى ـ عن حل المتاعب التى يفرضها عليه هذا النسق أو الخلل فى النســق • وأيضا ، الى الحد الذى تقوم فيه الاسرة كمؤسسة اجتماعية بتحويل النساء الى جاريات صغيرات معولات والرجال الى عائلين ، فان مشكلة الزواج المشبع تبقى غير قابلة للحل الفردى الخالص • وأخيرا ، فانه الى الحد الذى تكون فيه العاصمة الكبيرة الاكثر نموا والسيارة الفارهة والتى تعد سمات لصيقة للمجتمع الاكثر تقــدما ، فان قضايا الحياة الحضرية لن تحلها البراعة الفردية والثروة الخاصة •

ان ما خبرناه من خلال الاوساط الاجتماعية المتعددة والمحدودة ، وكما لاحظت ، فهى تنتج عن التغيرات البنائية ، وبناء على ذلك ، فانه لكى يمكن فهم التغيرات التى تقع فى كثـــير من الاوســـاط الشخصية المباشرة ، فان الامر يتطلب منا أن ننظر الى ما يكمن وراءها • كما ان عدد وتنوع مثل هذه التغيرات البنائية يزيد عنــدما تصبح المؤسسات الاجتماعية التى نعيش فيها أكثر احتضانا وأكثر تشابكا فى صلتها أحدها مع الآخر • وأن تلم بفكرة البناء الاجتمـــاعى ولكى تستخدمها بحس دقيق معناه أن تكون قادر على تعقب مثل هذه الصلات بـــين عدد بالغ التنوع من الاوساط الاجتماعية المباشرة ، وأن تكون قادر على ذلك معناه أن تمتلك الخيال العلمى الاجتماعى •

(٣)

ما هى القضايا الرئيسية لعامة الناس ، وما هى المتاعب الأساسية للافراد فى عصرنا الحالى ؟ لكى يتم تحديد القضايا والمتاعب ، علينا أن نتساءل ما هى القيم التى يعتنقها الناس ومع ذلك مهددة بأخطر ، وما هى القيم التى يعتنقها الناس وتلقى الدعم والمساندة ، بالتيارات التى يتميز بها عصرنا ؟ وفى كل من حالتى التهديد والدعم علينا أن نتساءل ما هى تناقضات البناء الاجتماعى الكامنة والمتضمنة فى كل من المتاعب والقضايا ؟ •

وعندما يعتنق الناس قيم بعينها ولا يشعرون بأى قدر من التهديد ازاءها ، فانهم يشعرون بأن حياتهم رحبة أو مواتية • أما عندما يعتنقون قيما ولكنهم يشعرون « فعلا » أنها مهددة ، فانهم يشعرون بالازمة — التى يكون الاحساس بها اما متاعب شخصية أو كقضية عامة • أما اذا بدت جميع قيمهم خاضعة للتهديد ، تنتابهم حالة من الهلع •

لكن ، لنفترض أن الناس لا هم مدركن لأى قيم يعتنقونها ولا يشعرون بأى تهديد لها ؟ عندئذ تكون حالة « اللامبالاة » التى ، وان اشتملت على جميع قيمهم يكون الجمود والبلادة • ولنفترض أخيرا ، أنهم لا يدركون أى قيم من تلك يعتنقونها ، ولكنهم لا يزالوا يدركون التهديد الواقع عليها ، فان تلك حالة من «القلق» المضنى التى ، اذا كانت شاملة بدرجة كافية ، فانها تصبح عملية مميتة للناس •

ان زماننا هو زمن القلق واللامبالاة — الذى لم تتحد صيغته بعد بطريقة تسمح باعمال العقل واستخدام الحس المرهف • وبدلا من وجود المتاعب — المحددة فى اطار القيم والتهديدات — غالبا ما يكون هناك

بؤس القلق المبهم ، وبدلا من القضايا الواضحة ، غالبا ما يكون هنـــاك مجرد الاحساس المنهك بأن كل شيء ليس ، الى حد ما ، على ما يرام • اذن ، اذا لم تتضح لدينا القيم المهددة أو ما يتهددها ، أي باختصار ، لم تصل الامور بعد الى اتخاذ قرار بشأنها ، فعلى الاقل يجب أن تصاغ كمشاكل تدخل فى اهتمامات علم الاجتماع •

فى الثلاثينات ، لم يكن هناك سوى قدر ضئيل من الشك ـ باستثناء بعض دوائر الاعمـــال المعينة المخـــدوعة ـ حيث كانت هنـــاك قضية اقتصادية وكان يعزى اليها المتاعب الشخصية • وفى خضم المناقشـــات حول « أزمة الرأسمالية » ربما كانت الصياغات التى وضـــعها ماركس والكثير من الافكار التى أعيد صياغتها ، التى أنكرها البعض عليه ، كانت المفاتيح الرئيسية لهذه القضية ، والتى مكنت الناس من فهـــم متاعبهم الشخصية • ولقد كانت القيم المهددة واضـــحة لدى كل من يعتنقها ، وكانت أيضا التناقضات البنائية التى تهـــدد هذه القيم على جانب كبير من الوضوح ، وكانت خبرة الناس ، ســـواء بالقيـــم أو بالتناقضات البنائية على جانب من الوضوح والفهم العميق ، فالعصر كان عصر الوعى السياسى •

لكن القيم المهددة فى حقبة ما بعد الحرب العالميه الثانية ، والتى لم تكن معترف بها كقيم عامة ولم يكن هناك شعور عام بأنها مهددة • وكان كثير من القلق الخاص يظل دون تحديد ، كما أن كثير من العلل العامة والكثير من القرارات لم تكن لها دلالة بنائية بشـــكل يحولهـــا الى قضايا عامة • فبالنسبة للذين يقبلون بالقيم الموروثة كقيم العقل والحرية ، فالقلق ذاته مصدر المتاعب ، فى حين اعتبرت اللامبالاة قضية

عامة . لقد أصبح القلق واللامبالاة ، والحال هكذا ، هو الذي يشكل السمة البارزة لعصرنا .

كل هذا قد بات لافت للنظر لدرجة أن المراقبين غالبا ما يفسرونه على أنه بمثابة تحول فى ذات نوعية المشاكل التى تحتاج الآن لمزيد من الصياغة والتحديد . فكثيرا ما قيل لنا أن مشاكل العقد الذى نعيش فيه ، أو حتى الازمات السائدة فى عصرنا ، قد تحولت من مجال الاقتصاديات وأضحى ينظر اليها بمنظور نوعية الحياة الفردية — ومع أنه فى الواقع ، لا يوجد شىء يمكن لنا وصفه بأنه حياة فردية . لقد أضحى الاهتمام بالكتب الهزلية أكثر من عمل الاطفال ، وأضحى الاهتمام بشغل أوقات الفراغ أكثر من الاهتمام بالفقر . لقد وصف الكثير من القضايا العامة وكذلك العديد من المتاعب الخاصة قد توصف فى اطار «الطب النفسى» — وهو ما يبدو غالبا بمثابة محاولة عاطفية لتجنب القضايا والمشاكل الكبرى لمجتمعنا العصرى . وهذا القول، غالبا يبدو أنه يرتكز على ضيق أفق يقصر الاهتمام على المجتمعات الغربية، أو أن شئت الدقة على الولايات المتحدة — متجاهلا بذلك ثلثى البشرية . كما أنه غالبا ، يفصل فصلا تعسفيا ما بين الحياة الفردية والمؤسسات الاوسع التى شرعت فيها هذه الحياة ، والتى يعول عليها فى تفسير وفهم هذه الحياة أكثر من الاعتماد على البيئة المباشرة للطفولة .

فالمتاعب الخاصة باللهو ووقت الفراغ ، على سبيل المثال ، لايمكن دراستها وتوضيحها دون وضع مشاكل العمل فى الاعتبار ، ومتاعب الاسرة التى يعبر عنها من خلال الكتب الهزلية لا يمكن صياغتها كمشاكل دون أخذ لحالة الأسرة المعاصرة فى الاعتبار خاصة علاقاتها الجديدة بالمؤسسات الجديدة فى البنية الاجتماعية . كذلك ، فانه لا اللهو والفراغ

ولا توظيفهما الواهى الموهن يمكن فهمهما كمشاكل دون معرفة المدى الذى وصلت اليه حالة الوهن واللامبالاة الآن فى تشكيل المناخ الشخصى والاجتماعى للمجتمع الأمريكى المعاصر • وفى هذا المنـــاخ ، لا يمكن تحديد وحل أى نوع من المشاكل المتعلقة بـــ «الحياة الخاصـــة» دون معرفة بأزمة التطلع التى تعد جزءا من حياة الناس العملية ذاتها فى مجال العمل فى اقتصاد يعتمد على الشركات الكبيرة •

وقد يكون من الصحيح ، كما يوضح المحللون النفسيون بصـــفة مستمرة ، أن الناس غالبا ما يكون لديهم «الاحساس المتزايد بوجود قوى غامضة فى داخلهم تقوم بتحريكهم ، وهى قوى يعجزون عن تحديد كنهها » • ولكن «ليس» من الصحيح ، كما يؤكد ارنست جونز ، أن «الخطر والعدو الرئيسى للانسان هى طبيعته الخاصة المتمردة والقوى المظلمة المحبوســـة فى داخله» بل على العكس ، «ان الخطـــر الرئيسى للانسان يكمن اليوم فى القوى المتمردة فى المجتمع المعاصر نفسه ، بما فيه من أساليب انتاجية مغتربة عن النـــاس ، وبأساليبه فى الهيمنـــة السياسية التى تحيط بالانسان وبفوضويته الدولية ــ أى بما فيه من تحولات تتغلغل فى ذات «طبيعة» الانسان وشروط وأهداف حياته» •

هى اذن المهمة السياسية والفكرية الأولى لعالم الاجتماع ــ حيث يتوافق الاثنان هنا ــ أن يجلى عناصر القلق واللامبالاة المعاصرين ، هو اذن المطلب المركزى المفروض عليه من الآخرين المشتغلين بالثقافة ، ومن علماء الطبيعة ، ومن الفنانين ، أى من جانب المجتمع الفكرى عموما • أنهبسبب هذه المهمة وهذه المطالب ، كما أعتقد ، باتت العلوم الاجتماعية تشكل المطمح المشترك فى عصرنا الثقافى ، وبات الخيال العلمى الاجتماعى هو أشد احتياجاتنا المطلوبة للارتقاء بنوعية الفكر •

فى كل من العصور الفكرية ، يكون هناك اسلوب واحد لتصويره الأساليب الفكرية ينحو لان يكون هو المطمح المشترك للحياه الثقافيه • وفى ايامنا هذه ، نجد ان الكثير من البدع والتقاليع الفكريه التى يؤخذ بها بشكل عام ، وقابله ان تزاح ، يحل محلهـــا بدع اخرى جديدة فى غضون عام أو عامين • ومثل هذا الحماس ، رغم انه قد يضيف بعض التوابل للمسرح الثقافى ، الا انه لا يخلف وراءه اى اثار فكريه مفيدة • ولكن ذلك لايصدق بالنسبة لأساليب من الفكر مثل اساليب فيزياء نيوتن وعلم الحياة الداروني ، الذى تجاوزا كل منهما فى تاثيره هذين المجالين المحددين من الفكر والخيال • ففى ضوئهما ، او انطلاقا منهما ، بات الدارسين المجهولين وكذلك المعلقين المحدثين يركزون مرة أخرى محور ملاحظاتهم ويعيدون صياغة وتشكيل اهتماماتهم •

وخلال العصر الحديث ، كان علما الطبيعة والبيولوجيا هما القاسم المشترك الأعظم للفكر الجدى والميتافيزيقيات المألوفة فى المجتمعـــات الغربية • فقد صار الأسلوب المعملى — التجريبى — هو الأسلوب الأكثر قبولاً للمنهج العلمى ومصدراً للأمان الفكرى • وهذا هو أحد معـــانى القاسم الفكرى المشترك : حيث يمكن للناس التعبير عن أقوى القناعات لديهم فى حدوده ، أما الحدود الأخرى والأســـاليب الأخرى للتـــأمل والتفكير فتبدو مجرد وسائل للهروب والغموض •

وكون أن قاسما فكريا مشتركا هو السائد ، لا يعنى أنه لا توجد أى أساليب أخرى للفكر أو أنماط أخرى من الادراك العقلى ، وانمـــا يعنى أن الاهتمامات الفكرية الأكثر عمومية تنحو للسير فى هذا النطاق ، ولكى تصاغ بوضوح من خلال هذا المجال ، فانها بصياغتها بمثابة وسيلة مفيدة يؤخذ بها ، حتى وان لم تصل بنا الى الحل المنشود •

ولقد أصبح الخيال العلمى الاجتماعى ، كما أعتقد ، هو القاسم المشترك الأعظم لحياتنا الثقافية وسمتها المميزة • ورغم أن هذه الصفة الذهنية موجودة فى العلوم الاجتماعية والنفسية ، الا أنها تتجاوز هذه العلوم بكثير كما نعرفها الآن • ان المام الأفراد بالخيال العلمى الاجتماعى وأيضا ادراك المجتمع الثقافى له بعامة ادراكا بطيئا ، وغالبا ما يكون مترددا ، بل ان كثير من علماء الاجتماع أنفسهم ليسوا على وعى تام بهذا الخيال العلمى الاجتماعى • فيبدو عليهم أنهم يعرفون أن استخدام هـــذا الخيـــال العلمى الاجتمـــاعى أصبح مطلبا مركزيا لأفضل الأعمال التى عليهم أن يحققونها ، وأنه باخفاقهم فى تطويره واستخدامه قـــد أخفقوا فى تحقيق وتلبية التوقعات الثقافية المطلوبة منهم ، وبدون هذا الخيال العلمى أيضا لن يستوعبوا التراث الكلاسيكى لعلومهم الاستيعاب المطلوب •

ومع ذلك ، ففى مجال اهتمامات الواقع والاهتمامات الأخلاقية ، وفى مجال العمل الأدبى والتحليل السياسى ، تكون الخصائص النوعية بهذا الخيال العلمى الاجتماعى أمرا مطلوبا بصفة منتظمة • ففى مجالات متنوعة من مجالات التعبير ، أصبحت هذه الخصائص سمات مركزية للمسعى الفكرى والادراك الثقافى • لقد جســـد كبار النقـــاد ورجال الصحافة هذه الخصائص ــ حيث أن أعمال كل منهما غالبا ما يتم الحكم عليها فى الحقيقة فى ضوء المقولات الشائعة للنقد • فنجد مثلا أن صنوف ودرجات النقد المألوفة ــ الراقيـــة ، والمتوسطة ، والهابطة ــ يمكن اعتبارها الآن ، على الأقل ، سوسيولوجية بقـــدر ما هى جماليـــة • والروائيون ــ الذين تتجسد فى أعمالهم أكثر التعريفات انتشارا للواقع البشرى ، كثيرا ما يمتلكون هذا الخيـــال العلمى الاجتماعى ، ويفعلون

الكثير لاستيفاء متطلباته . فعن طريق هذا الخيال العلمى الاجتماعى يكون مسعى التوجه للحاضر وكذلك للتاريخ . كما أنه كلما أصبحت صور «الطبيعة البشرية» أكثر اشكالية ، كلما ازداد الشعور بالحاجة الى اعطاء اهتمام أكبر وأكثر خيالا للجوانب الاجتماعية الروتينية والمآسى التى تكشف (وتشكل) طبيعة الانسان فى هذا الزمن الذى يتميز بالاضطراب والقلق المدنى والصراع الأيديولوجى . ورغم أن الموضة غالبا ما تنكشف نتيجة المحاولات لاستخدامها ، الا أن الخيال العلمى الاجتماعى ليس بالموضة ، فهو بمثابة صفة للعقل الذى يعد بأكثر الصور التى تعد بفهم الحقائق الثابتة الملتصقة بأنفسنا فى اطار صلتها بالحقائق الاجتماعية الأكبر . والمسألة ليست مجرد صفة نوعية للعقل والتفكير وسط ذلك المجال المعاصر للادراك الثقافى — لأن المقصود هو «الصفة» التى تقدم الوعد لكل جوانب الادراك الانسانى — بل وفى الحقيقة العقل البشرى ذاته — سوف يلعب دورا أكبر فى الأمور الانسانية .

ولقد بات المغزى الثقافى لعلم الفيزياء — القاسم المشترك الرئيسى الأكثر قدما — محاط بالشك . فعلم الفيزياء ، كأسلوب فكرى ، فى طريقة لأن يصبح لدى الكثيرين أسلوبا غير ملائم . ومع أن مسألة عدم ملاءمة الأساليب العلمية فى مجال الفكر والشعور والخيال والحس ، كانت منذ بدايتها مسألة معرضة بطبيعة الحال للشك الدينى والجدل الكهنوتى، الا أن أجدادنا وآباؤنا العلميين استطاعوا دحض مثل هذه الشكوك الدينية . أما مشاعر الشك الراهنة ، من النوع الدنيوى البشرى ، فهى حافلة بالغموض . ان التطورات الأخيرة فى مجال علم الفيزياء — مع ما بلغته هذه التطورات من تقدم تكنولوجى تجسد فى انتاج القنبلة الهيدروجينية وفى وسائل حملها عبر الأرض — لم نخابرها بوصفها حلا لأى من المشكلات الشائعة فى الأوساط الفكرية الأوسع وبين الجماهير

المثقفة ، لقد كانت النظرة الصائبة لهذه التطورات هى التى اعتبرتها نتيجة لبحث واستقصاء تخصصيين ، كما اعتبرتها نتيجة احساس ملىء بالدهشة • ولقد أثارت هذه التطورات مزيدا من المشكلات ـ الفكرية والأخلاقية ـ بأكثر مما قدمت حلولا لها • فهذه المشكلات التى أثارتها هذه التطورات تقع ، وبشكل كامل تقريبا ، فى مجال الأمور الاجتماعية وليس الفيزيائية • لقد اعتقد الناس فى المجتمعات الأكثر نموا أن كثيرا من المسائل الهامة كقهر الطبيعة والتغلب على مسألة الندرة ، مسائل قد أنجزت على نحو مرضى ، مع أنه يلاحظ الآن وفى المجتمعات نفسها أن العلم ـ باعتباره أداة الانجاز ـ قد أضحى مهتزا فى يقينه ، غير واضح الأهداف ومن ثم هو فى حاجة الى اعادة تقويم •

ولفترة طويلة كانت القيمة العصرية المعطاة للعلم مجرد أمرا مفترضا ، أما الآن ، فالروح التقنية وذلك النوع من الخيال الهندسى المرتبطان بالعلم فهما أقرب لأن يكونا مبعث للرعب والغموض عن كونهما مبعث للأمل والتقدم • وبطبيعة الحال ، فليس هذا هو كل شىء بالنسبة «للعلم» ، ولكن ما يثير الخوف أن يتوقف العلم عند هذا الحد • والشعور بالحاجة لاعادة تقويم علم الفيزياء ، هو شعور يعكس مدى الحاجة الى قاسم مشترك جديد • ان المغزى الانسانى والدور الاجتماعى للعلم ، وقضاياه العسكرية والتجارية ، ودلالته السياسية ، أمور لا تخضع لاعادة تقييم محدد • ورغم أن التطورات العلمية فى مجال التسليح قد تؤدى الى خلق «ضرورة» اعادة الترتيبات السياسية العالمية ـ الا أن مثل هذه «الضرورة» لا يوجد الشعور تجاهها التى يصعب حلها بالاعتماد على العلم الطبيعى نفسه •

والكثير مما أنجزه «العلم» ينظر اليه الآن بأنه مجرد فلسفة مبهمة

مشكوك فيها ، والكثير مما كان يؤمن به على أنه «علم حقيقى» غالبا ما ينظر اليه على أنه لا يعطى سوى بعض الحقائق المجزأة التى تثير الخلط بين الناس . ولم يعد باستطاعة رجال العلم تصوير الواقع تصويرا شاملا أو يعرضون اطارا حقيقيا للمصير البشرى . الأكثر من هذا ، أن «العلم» يبدو للكثيرين أنه أقل ابداعا وأسلوبا للتوجه عن كونه مجرد مجموعة من الآليات العلمية التى يقوم بتشغيلها فنيون ويسيطر عليها رجال اقتصاد وعسكريون ، لا هم يجسدون ولا هم يفهمون العلم باعتباره ابداعا وتوجها . فى ذات الوقت ، فان الفلاسفة الذين يتحدثون باسم العلم غالبا ما يحولونه الى «مجرد تعالم» ، ويجعلون التجربة المستخرجة منه شىء مطابق للتجربة البشرية ، ويزعمون أن مشاكل الحياة يمكن حلها بمنهجه فقط . وبهذا كله ، بات الكثيرون من رجال الثقافة يشعرون بأن «العلم» هو المسيح الدجال أو المزيف ، أو على الأقل هو عنصر على درجة بالغة من الغموض فى الحضارة الحديثة .

ومع هذا ، فعند «س. ب. سنو» ، هناك «ثقافتان» : العلمية والانسانية . وسواء كانت الثقافة الانسانية هى تاريخ أو دراما ، بيوجرافيا ، أو تاريخ ، أو شعر ، أو قصة . فان جوهر وروح الثقافة الانسانية هى الأدب . ومع هذا فكثيرا ما يقال الآن أن الأدب قد أصبح من نواح كثيرة مجرد فن ثانوى . ولو كان الأمر هكذا ، فان سببه ليس فقط هو ما حدث من تطور لجماهير الناس ووسائل الاتصال الجماهيرى، وما يعنيه كل هذا بالنسبة للانتاج الجاد من الأدب ؛ بل أن مرجعه أيضا هو ذات الصفة التى يتسم بها تاريخ زماننا ونوعية الحاجة التى يشعر بها أصحاب الحس الدقيق للاحاطة بهذه الصفة النوعية .

وهنا يمكن التساؤل عن ماهية أدب الخيال العلمى ، وماهية

الصحافة ، وماهية المسعى الفنى التى تبارى الواقع التاريخى والحقائق السياسية لعصرنا ؟ وما هى تلك الرؤية الدرامية للجحيم التى يمكن أن تبارى وتنافس الأحداث الناجمة عن حرب القـــرن العشرين ؟ وما هى تلك الفضائح التاريخية التى يمكن أن تقاس وتقف على قدم المساواة مع انعدام الحس الأخلاقى لدى البشر فى خضـــم التراكم الأولى ؟ انه ذلك الواقع الاجتماعى والتاريخى هـــو الذى يتطلع النـــاس لمعرفته ، وغالبا ما لا يجدون فى الأدب المعاصر الوسيلة الكافية والمناسبة لمعرفته. فالناس يصبون للحقائق ويبحثون عن معانيها ، انهم يريدون «صورة مكبرة» يمكن أن يؤمنوا بها ويتأتى لهم من خلالها فهم أنفسهم . فى الوقت نفسه ، فانهم يتطلعون أيضا قيما للتوجيه ، وســـبل مناســـبة للشعور وأساليب للعاطفة ، ومفردات لغوية للتعبير عن الدافع ، وكل هذا لا يجدونه فى تناولهم فى أدب اليوم . والأمر لا يهم سواء كانت هذه الصفات موجودة أو غير موجودة ، انما المهـــم هو أن النـــاس غالبـــا ما لا يجدونها هناك .

وقام رجال الأدب فى الماضى بدور النقاد والمؤرخين بالكتابة عن انجلترا وعن الرحلات فى أمريكا . ولقد حاول هؤلاء توصيف المجتمعات ككليات واظهار ما تعنيه أخلاقيا . ولو كان «توكفيل وتين» على قيد الحياة الآن ، ألم يكن من الممكن اعتبارهما من علماء الاجتماع ؟؟ وبهذا السؤال عن «تين» على صفحات «التايمز» يقول أحد الكتاب : « لقد كان تين دائما يرى الانسان أساسا على أنه حيوان اجتماعى وأن المجتمع بمثابة تجمع من الجماعات . لقد كان بامكانه ملاحظة الدقائق الصغيرة، والقيام بدور باحث ميدانى لا يكل ويمتلك صفة ... تظهر قيمتها بصفة خاصة عند ادراك العلاقات القائمة بين الظواهر الاجتماعية ـــ هى صفة المرونة . ولقد كان شديد الاهتمام بالحاضر بما يجعله مؤرخا جيدا ،

ويتمتع بقدر كبير من صفات المنظر مما يجعله يجرب باعه كروائى ، وشديد التفكير فى الأدب باعتباره توثيق لثقافة عصر أو بلد مما مكنه من الوصول الى مكانة الناقد من الدرجة الأولى ... وعمله عن الأدب الانجليزى لا يدور حول الأدب الانجليزى بقدر ما يمثل تعليقا على أخلاق وسيكولوجية المجتمع الانجليزى ووسيلة لاظهار منهجه الوضعى. ان تين هو منظر اجتماعى قبل أى شىء آخر »[1] .

أما كونه قد ظل «رجل أدب» أكثر من كونه «عالم اجتماع» ، فربما يرجع ذلك الى ما ساد من العلم الاجتماعى بالقرن التاسع عشر من حماسة البحث عن «القوانين» التى تسمح بالمقارنة بتلك التى يسود التصور بأن علماء الطبيعة يكتشفونها . وفى غياب علم اجتماع ملائم ، بات النقاد والروائيين ، وكتاب المسرح والشعراء هم العناصر الرئيسية، وغالبا الوحيدة ، التى تقوم بصياغة المتاعب الخاصة وكذلك القضايا العامة . ويعبر الفن عن مثل هذه المشاعر ويبرزها ــ كأفضل ما يكون من الدقة الدرامية ــ ولكن لم يتم ذلك بالوضوح الفكرى المطلوب لفهمها أو للافصاح عنها . أن الفن لا يقوم بل ولا يستطيع صياغة هــذه المشاعر والمشاكل المتضمنة للمتاعب الخاصة والقضايا العامة التى ينبغى على الناس مواجهتها الآن اذا كان عليهم أن يتغلبو على قلقهم ولا مبالاتهم والمآسى المعقدة المتشابكة التى تؤدى الى هــذه المتــاعب والقضايا . فالفنان فى الواقع ، لا يحاول غالبا القيام بهذا ، بل أكثر من ذلك ، الفنان الملتزم نفسه واقع فى هذه المتاعب ، وفى امكانه القيام بهذا جيدا بقدر من المعاونة الفكرية والثقافية يحصل عليها من خلال علم اجتماع ينشطه الخيال العلمى الاجتماعى .

ان هدف الذى أسعى اليه فى هذا الكتاب ، هو تعـــريف مغزى العلوم الاجتماعية بالنسبة للمهام الثقافية لعصرنا . اننى أريد هنـــا تحديد خاصية الجهود الكامنة وراء تطور الخيـــال العلمى الاجتمـــاعى والاشارة الى مدلولاته بالنسبة للحياة السياسية والثقافية ، وربما أيضا اقتراح شىء ما لما هو مطلوب حتى يمكن امتلاكه . وبهذا الشكل فاننى أريد توضيح طبيعة واستخدامات العلوم الاجتماعية اليوم ، واعطاء بيان محدود عن ظرفها المعاصر فى الولايات المتحدة [٢] .

وبطبيعة الحال ، فى أى لحظة معينة فان العلم الاجتماعى يتألف بالطبع من ذلك الذى يدرك علماء الاجتماع أنهم يفعلوه — وان لم يكن جميعهم يفعلون نفس الشىء ، أونوعيته ، والعلم الاجتماعى هو ما أنجزه العلماء الاجتماعيون فى الماضى — وان كان مختلف الدارسين يختارون ويتذكرون التقاليد المختلفة القائمة فى تخصصهم . وأنا عندما أتحدث عن «الوعد» الخاص بعلم الاجتماع ، آمل أن يكون واضحا كما تراءى لى .

وفى الوقت الراهن ، تسود بين علماء الاجتماع مشاعر من القلق والانزعاج الفكرى والأخلاقى ازاء الاتجاه الذى تسير فيه الدراسات التى اختاروها . وهذا القلق والانزعاج ، وكذلك النوازع السيئة التى تسهم فى اثارته ، هى كما أتصور ، بمثابة جزء من العلة العامة من علل الحياة الفكرية المعاصرة ، وان كان هذا القلق ، ربما يكون أكثر حدة عند علماء الاجتماع ، حتى لو كان ذلك فقط بسبب الوعد الأكبر الذى سار على هديه قدر كبـــير من الأعمـــال المبكرة فى مجالهـــم ، وبسبب الموضوعات التى يعالجونها ، وبسبب الحاجة الملحة الى انجاز عمل اليوم يكون له شأنه .

وهذا الشعور بالقلق والانزعاج ، لا يشارك فيه كل فرد ، وان كانت الحقيقة بأن الكثيرين لا يفعلون ذلك فى ذاتها سبب لمزيد من القلق والانزعاج عند أولئك الذين يشعرون بالتأهب للوعد ويتوافر لديهم من الأمانة والاخلاص بما يكفى للاعتراف «بالتوفيقية المزعومة» لقدر كبير من الجهد الراهن . وبصراحة ، فان أملى أن يزداد هذا الشعور بالقلق والانزعاج لتحديد بعض مصادره ؛ وللمساعدة فى تحويله الى دافع محدد يحث على تحقيق «وعد» علم الاجتماع ؛ ولتمهيد الأرض لبدايات جديدة : أى باختصار ، أن تكون هناك رؤية واضحة للمهام القائمة الآن وللوسائل المتاحة لانجاز العمل الذى يجب انجازه الآن .

وأخيرا ، فان المفهوم الذى أتصوره عن علم الاجتماع ليس هو المفهوم السائد . فهذا المفهوم يقف فى مواجهة علم الاجتماع كمجموعة من الأساليب البيروقراطية التى تعوق البحث الاجتماعى بادعاءات «منهجية» تزحم هذا المسعى بمفاهيم تتسم بالغموض ، أو تقلل من شأنه بالاهتمام بمشاكل صغيرة تافهة ليس لها دلالة بقضايا الناس العامة . هذه الاعاقة ، والغموض ، والتفاهة قد أدت الى خلق أزمة فى الدراسات الاجتماعية اليوم دون أن تطرح على الأقل وسيلة الخروج من هذه الأزمة .

فهناك بعض علماء الاجتماع يؤكدون على الحاجة الى تشكيل «فرق بحث من الفنيين» ، وآخرون يؤكدون على أولوية الدارس الفرد . وهناك البعض الذين ينفقون قدرا كبيرا من الجهد على تنقيح مناهج وأساليب البحث ، وآخرون يعتقدون أن أساليب محترفى الفكر لرجال المهنة من المفكرين قد أهملت وينبغى الآن اعادة الاهتمام بها من جديد . والبعض يدور حول عمله وفقا لمجموعة جامدة من الأساليب التى تتصف بالآلية ؛ والبعض الآخر يسعون للتطوير ، والدعوة ، والاستخدام

للخيال العلمى الاجتماعى . وهناك بعض علماء الاجتماع ـ وقد أصبح مدمنا للأخذ بالشكلية البالغة «للنظرية» ـ يقوم بالربط بين المفـاهيم وحلها فيما يبدو للآخرين أنها طريقة تتســم ببراعة البحث ، وهؤلاء الآخرين لا يحثون على الالتزام بدقة التعبيرات الا فقــط اذا اتضح أنها تزيد من أفق القدرة على الفهم وتزيد من مدى التفكير العقلى . والبعض الآخر يختصر الدراسة بشكل ضيق فى وسط صغير الحجــم فقط ، على أمل «وضع» مفاهيم لبناءات أكبر ، وهناك البعض الذين يتفحصون البناءات الاجتماعية التى يحاولون «تحديد موقع» الأوساط المحلية الأقل منها داخلها . ثم هنــاك البعض الآخر ، الذين باهمالهم للدراسات المقارنة جميعها ، يقومون فقط بدراسة مجتمع محلى صغير فى مجتمع واحد كبير فى كل مدة . وهناك البعض الذين يعملون مباشرة وبطريقــة المقــارنة الكاملة على دراسة البناءات الاجتماعية الوطنيــة فى العالم ككل ، والبعض الآخر يقصرون بحثهم الدقيــق على الأمور البشرية المتعاقبة على المدى القصير . كما يهتم البعض بالقضايا التى تبدو واضحة فقط فى المنظور التاريخى الطويل ، لكن البعض الآخــر يخصصون عملهم وفقا للتقسيمات الأكاديمية . والبعض يقيمون عملهم على أساس كافة التخصصات ، بينما البعض الآخر يخصصون عملهــم وفقا للموضــوع أو المشكلة بغض النظــر عن موقع ذلك من الناحية الأكاديمية . كما يهتم بعض علماء الاجتماع بمختلف أنواع التاريخ ، والبيوجرافيا ، والمجتمع ، ولكن البعض الآخر لا يفعل ذلك .

هذه التناقضات والتعارضات ، وهناك الكثير غيرها ، ليست هى بالضرورة بدائل حقيقية ، برغم أنها فى خضم الجدل الساخن بين أرباب السياسة أو فى التخصص الكسول تؤخذ على أنها هكذا . وبرغم أننى

أرجو أن تتضح هنا كافة اتجاهاتى واختياراتى ، لأننى أعتقد بأن الأحكام لابد أن تكون صريحة واضحة ، الا أننى أحاول أيضا ، بغض النظر عن أحكامى الخاصة ، أن أبين المعانى الثقافية والسياسية لعلم الاجتماع . وبطبيعة الحال ، فان اختياراتى واتجاهاتى لا تنقص ولا تزيد عن اختيارات واتجاهات من سأتعرض لهم ، ناهيك عن أولئك الذين لا يهتمون باختياراتى الخاصة ويستخدمون رفضهم لها لشرح وتوضيح واقرار ما يتعلق بهم بمثلما سوف أحاول بالنسبة لما يتعلق بى !! عندئذ ستكون المشاكل الأخلاقية الخاصة بالدراسة الاجتماعية — وهى مشكلة علم الاجتماع كقضية عامة — ستكون أمرا معترفا به ومن ثم تكون المناقشة ممكنة . وعندئذ أيضا سيكون هناك قدرا أكبر من الادراك الذاتى فى كل مكان ، وهو بالطبع الأمر الذى يشكل شرطا مسبقا للموضوعية فى مشروع علم الاجتماع ككل .

باختصار ، فاننى أعتقد أن ما قد يطلق عليه التحليل الاجتماعى الكلاسيكى هو بمثابة مجموعة من التقاليد المعروفة والمستخدمة ، وأن سمته الأساسية المميزة له هى الاهتمام بالبناءات الاجتماعية التاريخية ، وأن المشاكل الخاصة به هى مشاكل ذات صلة مباشرة بالقضايا العامة العاجلة والمتاعب الانسانية الملحة . كذلك ، فاننى أعتقد بأن هناك الآن عقبات ضخمة تقف أمام استمرار هذا التقرير — سواء فى مجال العلوم الاجتماعية أو فى أوضاعها الأكاديمية والسياسية — وان كانت مع ذلك صفات العقل التى تشكل هذا التقليد قد بدأت تصبح قاسما مشتركا فى حياتنا الثقافية العامة ، وأنه أيا كان الغموض والبلبلة التى تتغلف بها فان الشعور تجاهها هو أنها تشكل نوعا من الحاجة .

وهناك كثير من الممارسين لعلم الاجتماع ، خصوصا فى أمريكا ، يبدو لى أنهم يهربون بصورة غريبة من مواجهة التحدى الذى صار

الآن يواجههم . وأصبح ، فى الحقيقة ، كثيرون يتخلون عن القيام بالمهام الفكرية والسياسية الخاصة بالتحليل الاجتماعى ، وآخرون هم بلا شك ليسوا على مستوى الدور الذى يتقمصونه رغم عدم قدرتهم . وفى بعض الأحيان ، يبدو هؤلاء وبشكل متعمد تقريبا وقد أثاروا حججا وأعذارا قديمة وأظهروا أنواعا جديدة من الوجل والتهيب . ومع هذا ، ورغم حالة الهروب هذه ، فقد صار من الواضح تماما أن الاهتمام الفكرى وكذلك العام قد أصبح منصبا على المجالات الاجتماعية التى يدرسونها لدرجة أنه قد بات من الضرورى الاتفاق على أنهم يواجهون فرصة مزيدة . ففى هذه الفرصة ، يمكن أن يتكشف الوعد الفكرى الذى تبشر به العلوم الاجتماعية ، والاستخدامات الثقافية للخيال العلمى الاجتماعى ، والمعنى السياسى للدراسات الخاصة بالانسان والمجتمع .

(٦)

ومما يثير الانزعاج بدرجة كافية لباحث علم الاجتماع ، أن كل التيارات السائدة (باستثناء واحد منها) التى سوف أتناولها فى الفصول التالية تقع فى نطاق ما يعتقد بصفة عامة أنه «حقل علم الاجتماع» ، ذلك بالرغم مما تتضمنه جوانب ثقافية وسياسية لا شك أنها تقع فى اهتمام كثير من العمل اليومى للعلوم الاجتماعية الأخرى . وأيا كان صادقا وحقيقيا فى هذه العلوم كعلم السياسة ، وعلم الاقتصاد ، والتاريخ ، والأنثروبولوجيا ، فمن الواضح أن ما يعرف اليوم فى الولايات المتحدة بعلم الاجتماع قد أصبح هو محور التفكير والتأمل فى العلم الاجتماعى . كما أصبح علم الاجتماع أيضا هو محور التركيز الأساسى فى المناهج ، ويمكن للمرء أن يجد صورته المتطرفة فيما يسمى «بالنظرية المتضخمة» وهناك بالفعل عدد كبير متنوع من الأعمال الفكرية قد دخلت مجال تطوير تراث علم الاجتماع . ولتفسير هذا التنوع

«كتراث» هو فى حد ذاته عمل يتسم بالجرأة • ومع ذلك ، فربما قد يكون هناك اتفاق عام على أن ما هو معترف به الآن كعمل سوسيولوجى قد اتجه نحو التحرك فى واحد أو أكثر من ثلاثة اتجاهات عامة ، كل منها معرض للتحريف والتشويه خلال مساره •

الاتجاه الاول : نحو نظرية فى التاريخ ، حيث نجد علم الاجتماع عند أوجيست كونت ، كما هو عند كارل ماركس ، وهربرت سبنسر ، وماكس فيبر ، هو بمثابة مسعى معرفى موسوعى ، محور اهتمامه مجمل حياة الانسان الاجتماعية • وهو يتصف فى الوقت نفسه بالتاريخية ، والتاريخية ــ النسقية لأنه يتعامل ويستخدم البيانات المتعلقة بالماضى ، والأنساق الاجتماعية ، كما أنه يلجأ لتوضيح «المراحل» الخاصة بالمسار التاريخى والانتظاميات فى الحياة الاجتماعية •

ومن الممكن للنظرية الخاصة بتاريخ الانسان ، أن تصبح قابلة بدرجة كبيرة للتحريف بحيث تكون بمثابة سترة ضيقة للعبور التاريخى تفرض فيها البيانات الخاصة بالتاريخ البشرى وتخرج منها النظرات التنبؤية بالمستقبل (والتى عادة ما تكون كئيبة) • وفى هذا الصدد ، تعتبر أعمال أرنولد توينبى وأرزوالد شبنجلر من الأمثلة الشائعة •

الاتجاه الثانى : نحو نظرية حول طبيعة الانسان والمجتمع : ومن أمثلة ذلك ، علم الاجتماع لدى العلماء الصوريون ، وأبرزهم سيميل وفون فيزى ، والذين يتناولوا علم الاجتماع من خلال التصورات المطلوبة لتصنيف كافة العلاقات الاجتماعية وتعطى رؤية عامة حول ملامحها الثابتة • أى أنها باختصار ، تعنى برؤية سكونية ومحددة لمكونات البنية الاجتماعية بدرجة عالية من التعميم •

وربما يكون فى الامكان ، كرد فعل ازاء عملية التحريف فى الاتجاه الأول ، اهمال التاريخ ، ولكن النظرية النسقية عن الانسان والمجتمع تصبح بدرجة كبيرة قابلة لأن تكون نظرية شكلية وجدباء يصبح فيهـا تفتيت المفاهيم ثم اعادة ترتيبها اللانهائى هو الهدف المركزى • وفى مقدمة ما سأطلق عليه أصحاب «النظريات المتضخمة» نجد أن المفاهيم قد أصبحت فى الواقع مدركات • ويعتبر عمل تالكوت بارسونز فى هذا الشأن ، هو المثال الرئيسى المعاصر فى علم الاجتماع الأمريكى •

الاتجاه الثالث : نحو دراسـات خبروية(*) للوقائع والمشكلات الاجتماعية المعاصرة : بالرغم من أن كونت وسبنسر كانا هما الدعامتان الرئيسيتان لعلم الاجتماع الأمريكى حتى عام ١٩١٤ أو نحو ذلك ، وكان التأثير النظرى الألمانى له ثقله وقوته، الا أن عملية المسح الخبروى باتت من الأمور المركزية فى الولايات المتحدة فى زمن مبكر • ولقـد نجم ذلك عن التقليد الاكاديمى السابق لكل من علم الاقتصـاد وعلم السياسة • ومن هنا ، فانه بقدر ما يتحدد تعريف علم الاجتماع على أنه دراسة لبعض المجالات الخاصة فى المجتمع ، فانه يصبح مهنة غريبة مضحكة بين العلوم الاجتماعية ، فعلم الاجتماع فى هذه الحالة يحتوى على خليط متنوع من المخلفات الاكاديمية ، فهناك دراسات عن المدن وعن الأسر، وعن العلاقات السلالية والعرقية، وبالطبع عن الجماعات الصغيرة• وكما سوف نرى، فان الخليط الناجم عن ذلك، قد تحول واتخذ شكل أسلوب للفكر ، وهو الذى سـوف أتنـاوله بالبحث تحت عنـوان « الممارسة الليبرالية » •

والدراسات الخاصة بالحقيقة المعاصرة ، فى وسـعها أن تصبح

(*) انظر الفصل الثالث .

بسهولة أقرب لأن تكون مجموعة غير مترابطة وغير ذى أهمية من الحقائق المتعلقة بالوسط المحلى • والكثير مما قدمه علم الاجتماع الأمريكى عبر مساره يعطى صورة واضحة لهذا الأمر ، بل ربما تكون كتب المقدمات فى مجال التفكك الاجتماعى أكثر الأمثلة توضيحا لهذا الاتجاه • وعلى الجانب الآخر ، نجد أن علماء الاجتماع قد نحوا لأن يكونوا متخصصين فى الأساليب الفنية للبحث فى أى شىء تقريبا ، وهنا تحولت أساليب البحث الى منهجية • وكثير من أعمال جورج ليندبرج ، وصاموبل ستومز ، وستيوارت دود ، وبول لازار سفيلد ، يعد من الأمثلة المعاصرة على ذلك • وفى النهاية يمكن القول ، أن هذه الاتجاهات الثلاث — التى تشتت الانتباه وتغرس طرائق خاصة بها — هى بمثابة عناصر مرتبطة ببعضها ، على الرغم من أنها قد تبدو بالضرورة متباعدة •

ويمكن فهم السمات المميزة لعلم الاجتماع على أنهـا تحريفـات لواحد أو أكثر من الاتجاهات الكلاسيكية لعلم الاجتماع ، ومع ذلك ، يمكن فهم «وعودها» فى اطار هذه الاتجاهات الثلاث • ففى الولايات المتحدة اليوم ، حدث نوع من التجميع الهيلينى(*) الذى يجسد عدة عناصر وأهداف مختلفة مستمدة من علم الاجتماع الخاص بالمجتمعات الغربية • ولعل الخطر الناجم عن هذا ، هو أنه وسط هذه الوفرة من بحوث علم الاجتماع ، سوف يصـاب المشتغلون بالعلوم الاجتماعية الأخرى بالضجر الشديد ، كما سيكون علماء الاجتماع فى حالة من التعجل لانجاز المهام البحثية حتى أنهم سوف يعجزون عن تقديم شىء حقيقى وذو قيمة • ورغم هذا ، فمازالت الفرصة سانحة ، حيث أن التقليـد

(*) يقصد رايت ميلز بالتشبيه هنا ، تجميع متنوعات متناقضة لا يربطها أى صلة منطقية . «المترجم» •

السائد فى علم الاجتماع يحوى أفضل مما تقدمه العلوم الاجتماعية ككل من وعود ، ذلك لأن هناك بعض الانجازات الجزئية لبعض جوانب هذا الوعد • ورغم أن ظلال الخلاف والرأى التى يجسدها دارسو علم الاجتماع فى تراثهم ليست بالأمر الذى يمكن تلخيصه بايجاز ، الا أن عالم الاجتماع الذى يأخذ بهذه الظلال بين يديه سوف يشعر بالانجاز الذى يمكنه من تحويله أو تطويره لكى يصبح توجهات جديدة لعلم الاجتماع •

وبالنسبة للوعود الخاصة بالعلم الاجتماعى ، فاننى سوف أعود اليها (فى الفصلين السابع والعاشر) بعد أن نفحص التحريفات السائدة فى هذه الوعود (الفصول من الثانى حتى السادس) •

المراجــــع

(١) أنظر Times Literary Supplemeit ، ١٥ نوفمبر ١٩٥٧ .

(٢) اننى أشعر هنا بمدى حاجتى للقول باننى أفضل كثيرا عبارة «الدراسات الاجتماعية» عن «العلوم الاجتماعية» فليس لأننى لا أحب علماء الفيزياء (على العكس أحبهم كثيرا) بل لأن كلمة «علم» قد اكتسبت منزلة كبيرة وأيضا المعنى غير دقيق . وهنا، فاننى لا أشعر بأى حاجة لخطف هذه المنزلة ولا لأن أجعل المعنى أقل دقة باستخدامه كمجاز فلسفى . ومع ذلك ، فاننى أشك فى امكانية الكتابة عن «الدراسات الاجتماعية» ، حيث قد لا يخطر فى ذهن القراء سوى علوم التربية الوطنية التى تدرس بالمدارس العليا ، وهى الشىء الوحيد من بين كافة ميادين التعليم الانسانى التى أود بشدة تجنب ربط المعنى بها . ان «العلوم السلوكية» بالنسبة لى هى ببساطة أمر مستحيل ، ذلك لأن الفكرة السائدة عنها ، كما أعتقد ، هى أنها وسيلة دعائية للحصول على المال من أجل البحث الاجتماعى من المؤسسات وأعضاء الكونجرس الذين يخلطون ما بين «علم الاجتماع» و «الاشتراكية» . وربما يكون أفضل تعبير فى هذا الخصوص هو الذى يتضمن التاريخ (وعلم النفس حيث أنه يهتم بالكائنات البشرية) والذى يكون غير مثير للجدل بقدر الامكان ، ذلك لأننا نتجادل بـ «العبارات» ولا نتقاتل حولها» . وربما كانت «أنساق العلوم الانسانية» تؤدى هذا الغرض ولكن ليس العقل أبدا . وعلى أمل عدم اساءة فهمى بشكل كبير ، فاننى أخضع للاجماع واستخدام عبارة «العلوم الاجتماعية» . يتبقى نقطة

أخرى هى أننى آمل من زملائى أن يتقبلوا تعبير « الخيــال العلمى الاجتماعى » • ان علمــاء السياسة الذين أطلعوا على «المسودة الأصلية لهــذا الكتاب» يرون أن يكون التعبير هو « الخيــال السياسى » ؛ والأنثروبولوجيون يرونه « الخيــال الأنثروبولوجى» — وهكذا، لكن التعبير ليس هو المهم انما هى الفكرة، التى أرجو أن تصبح واضــحة خــلال هــذا الكتاب • وأنا باستخدامى لهــذا التعبــير لا أريــد بطبيعة الحال أن يكون ما أطرحه هــو مجــرد النظــام الأكاديمى « لعــلم الاجتماع » فالكثــير عما تحمــله العبــارة من معنى بالنسبة لى لم يعبر عنــه علمــاء الاجتمــاع على الاطــلاق • ففى انجلترا ، على سبيل المثال ، مازال علم الاجتماع كنظام أكاديمى علما هامشيا بقدر ما ، ومع ذلك يستخدم كثير من الصحفيين الانجليز والأدباء وقبلهما المؤرخين فى كتاباتهم الخيال العلمى الاجتماعى • ونفس الحالة نجدها فى فرنسا : لقد تأثر الكتاب بعد الحرب العالمية الثانية وظهر ذلك من خلال شعورهم بالملامح السوسيولوجية لقــدر الانسان فى عصرنا الحالى ، وظهر ذلك من خلال كتاب وأدباء أكثر منه عند علماء اجتماع مهنيون • ورغم ذلك ، أنا أستخدم «الخيال العلمى الاجتماعى» للأسباب التالية : (١) كل اسكافى يعتقد أن الجلد هو الشىء الوحيد ، وسواء أفضل أو أسوأ ، فأنا عالم اجتماع أساسا • (٢) أنا أعتقد ، تاريخيا ، أن نوعية العقل المستخدمة من جانب علماء الاجتماع الكلاسيكيين تكون أكثر صدقا وتنوعا من استخدام علماء العلوم الاجتماعية الأخرى • (٣) من هنا سوف أفحص نقديا عددا من المدارس المختلفة لعلم الاجتماع ، والتى تحتاج لمفهوم مضاد للفهم الذى قامت عليه •

الفصل الثاني

النظـرية المتضخمة

الفصـــل الثانى

النظرية المتضخمة

دعنا نبدأ حديثنا عن النظرية المتضخمة بعينة أخذناها من كتـــاب تالكوت بارسونز النسق الاجتماعى ، لأنه كتاب يعده كثيرون أهم عمل معبر عن أبرز ممثلى هذا الأسلوب من العمل العلمى الذى عبرنا عنـــه بالنظرية المتضخمة • « القيم الاجتماعية » أحد عناصر نســق الرموز المشترك ، وهى عنصر يستخدم كمقياس أو معيار للانتقاء من بين البدائل المتاحة فى الموقف الاجتماعى ••• ولكن من الضرورى تمييز توجيـــه القيمة عن التوجيه الدافعى من منظور دور أنساق الرموز ؛ بوصف هذين التوجهين من الأبعاد الكلية للفعل الاجتماعى • ولا يتعلق هذا الجـــانب الخاص بالتوجيه القيمى بدلالة الأمور الواقعية التى يتوقعها الفـــاعل بغية تحقيق التوازن بين حرمانه واشباعه وانما يتعلق بمضامين المعايير أو المستويات التى تستخدم فى الانتقاء من بين البدائل • ان مفهـــوم التوجيه القيمى فى ضوء معناه هذا يكون وسيلة منطقية رئيسية لصياغة الجانب المركزى الضرورى لتمفصل التقاليد الثقافية مع نسق الفعـــل الاجتماعى •

انه يترتب على اشتقاق التوجيه المعيارى ودور القيم فى الفعـــل الاجتماعى كما سبقت الاشارة ، أن كل القيم الاجتماعية تشتمل على ما نطلق عليه اطارا مرجعيا ••• ان الجوهرى فى أى نسق للفعل ، أن الفعل بجملة واحدة ، فعل موجه معياريا • ويرتبط بهذا ويترتب عليه

كما تبين مفهوم التوقعات وموقعه فى نظرية الفعل ، خاصة عندما تكون بصدد الجانب الايجابى الذى ينحو فيه الفاعل نحو انجاز أهدافه • اذن فالتوقعات فى ارتباطها بالاحتمال المزدوج لعملية التفاعل ، كما تسمى ، تخلق بشكل قاطع مسألة ملحة للنظام الاجتماعى • وثمة جانبان لمسألة النظام هذه يمكن التمييز بينهما ، يتعلق الأول بوجود النظام فى أنساق الرموز ، تلك الأنساق التى تجعل الاتصال بين الناس مواتيا، ويتعلق الثانى بجعل النظام الاجتماعى ممكنا فى حالة التبادل بين التوجيه الدافعى والجانب المعيارى من التوقعات وتلك هى مشكلة النظام بالمعنى الذى بينه توماس هوبز •

ان مشكلة النظام وأيضا طبيعة تكامل الأنساق الثابتة للتفاعل الاجتماعى ، هى مشكلة البناء الاجتماعى الذى يركز الاهتمام على تكامل دافعية الفاعلين الاجتماعيين مع المستويات الثقافية المعيارية التى تدمج نسق الفعل الاجتماعى ، مع سياق العلاقات بين الأشخاص • وهذه المستويات فى ضوء الاصطلاحات التى نستخدمها فى الفصل القادم بمثابة أنماط للتوجيه القيمى وهى تمثل جزءا هاما ونوعيا من التراث الثقافى للنسق الاجتماعى (١) •

ربما قد يشعر بعض القراء بالرغبة فى الانتقال الى الفصل التالى ، لكنى أرجو ألا يفعلوا هذا ، فالنظرية المتضخمة — وتكيك المفاهيم — نظرية تستحق التأمل والتقدير • حقيقة ليس لهذه النظرية ذلك التأثير الهام الذى يترتب على الاعاقة المنهجية التى سنتولاها بالبحث فى الفصل التالى ، لأن هذه النظرية المتضخمة بدأ انتشارها ينحسر • وفى الحقيقة فهى نظرية ليست يسيرة الفهم ، لأن ثمة شك وارد بأنها غير واضحة • بالتأكيد يعتبر هذا ميزة دفاعية تثير التوخى والتحرز ، والعيب فى هذا الأمر يأتى من دلالتها اللفظية وتركيبها بقصد أن نؤثر على العادات التى

درج عليها المشتغلون بالعلوم الاجتماعية • وهنا علينا أن نعترف ، ليس من قبيل الفكاهة ولكن من باب الاقرار بالحقيقة ، أن ما أسفرت عنه هذه النظرية قد استقبل من جانب علماء الاجتماع بشكل أو أكثر من الاشكال التالية :

— بالنسبة للبعض ممن يزعمون فهمها ، والذين يحبونها ، يعتبرونها انجازا عظيما فى تاريخ العلم الاجتماعى برمته •

— بالنسبة للكثيرين ممن يزعمون فهمها ، ولكنهم لا يحبونها ، يرون أنها شيئا ثقيل الظل وفى غير موضعه (وهؤلاء نادرون ، حتى ولو كان ذلك فقط لأن الشعور بالكراهية والضجر يمنع الكثيرون من محاولة حل ألغازها) •

— وبالنسبة للذين لا يزعمون فهمها ، ولكنهم يحبونهـا حبـا بالغا — وهناك كثيرون من هؤلاء — هى بمثابة أعجوبة مثيرة للحيرة ، وهؤلاء قد فتنوا بها بالتحديد بسبب افتقادها لعنصر الوضـوح والجـلاء •

— وبالنسبة لأولئك الذين لا يزعمون فهمها ولا يحبونها — فيما لو احتفظوا بشجاعة الاقرار بقناعاتهم — فانهـم ينظرون اليهـا باعتبارها امبراطورا مجرد من الثياب •

وبطبيعة الحال ، هناك الكثيرون أيضا ممن يكيفون وجهات نظرهم، وغيرهم أكثر يظلون محايدين ، صابرين ، منتظرين ظهور النتاج المهنى، هذا اذا كان هناك أى نتاج مهنى • بجانب هذا ، وبالرغم من أنه قد يكون تفكير مفزع ، الا أن هناك الكثير من العلماء الاجتماعيين لايعرفون حتى شيئا عنها ، سوى أنها مجرد لغو مزعج •

والآن ، فان هذا كله يثير نقطة لها حساسيتها — الوضوح والجلاء. وهذه النقطة ، بالطبع ، تتجاوز مسألة النظرية المتضخمة [٣] ، لكن كبار المنظرين قد انغمسوا فيها بدرجة بالغة حتى أصبحت أخشى أنه يجب أن نتساءل بالفعل : هل النظرية المتضخمة هي مجرد ثرثرة ولغو كلام مضطرب أم أن هناك ، رغم كل شيء ، شيء ما فيها ؟ ان الاجابة على هذا التساؤل ، كما أعتقد ، هي : هناك شيء ما فيها ، دفين فيها بعمق ، وان كان شيء لابد أن يقال • ومن ثم فان السؤال يصبح : بعد ازالة كافة الموانع والحواجز من النظرية المتضخمة التي تحول دون فهم معناها ، ويصبح ما فيها من وضوح أمرا متاحا ، ما هو اذن الشيء الذي قيل فيها ؟ •

(١)

ليس هناك سوى طريقة واحدة للاجابة على هذا السؤال ، هي : أنه يتوجب علينا القيام بترجمة نموذج أساسي يمثل هذا الأسلوب من الفكر ، ثم بعدها نقوم بالتمعن في هذه الترجمة ، وبالفعل فانني قد حددت قبل ذلك اختياري لهذا المثال • ولكنني الآن أود أن أوضح ، أنني لست هنا في مجال المحاولة للحكم على قيمة عمل بارسونز ككل ، فاذا ما عن لي أن أشير الى أعمال أخرى له ، فلن يكون هذا فقط الا لكي أوضح ، بطريقة مختصرة ، بعض النقاط الواردة في عمله المحدد هذا. وأنا عندما أترجم فحوى ما جاء في كتاب «النسق الاجتماعي» الى الانجليزية ، فانني لا أدعي بأن ترجمتي قد بلغت درجة الامتياز ، ولكن كل ما أقوله هو أن الترجمة لم تفقد شيئا من وضوح المعنى • بجانب هذا ، فانني سأحاول بصفة خاصة أن أستخرج وانتقي من تحديد الكلمات والعلاقات بين الكلمات بعض الأحكام الواضحة وكل من تحديد الكلمات والعلاقات بينها ضروري للمقابلة بينهما بغية الوصول الى الوضوح

المنشود • وحتى يتضح ذلك الشيء المطلوب ، سوف أبدأ أولا بترجمة عدد من الفقرات وبعدها أقوم بعرض ترجمتان موجزتان للكتاب ككل •

ولترجمة ذلك المثال الذى نقلناه فى بداية هـذا الفصل : الناس غالبا يشتركون مع بعضهم فى المعايير ويتوقع أحدهم من الآخر التمسك بها • وبقدر ما يفعلون ذلك ، فقد يكون مجتمعهم منظما • (نهاية الترجمة)•

لقد كتب بارسونز يقول :

«هناك لهذا «النسق» بناء له وجهان: الوجه الأول ، أنه يفضل التغلغل الداخلى للمعيار داخل النسق ، ينحو للقبول به والامتثال معه لأن يكون ذا أهمية شخصية ، تعبيرية و/أو أداتية بالنسبة للأنا • والوجه الثانى ، يعتبر تأسيس ردود فعل الآخر تجاه فعل الأنا كالجزاءات التى تقوم بوظيفة امتثاله مع المعيار • وبذلك ، فان عملية الامتثال باعتبارها أسلوب مباشر لتحقيق حاجات ــ نزعات الأنا تتجه نحو التطابق مع عمليـة الامتثـال كشرط لاظهـار ردود فعل الآخرين المواتيـة وتجنب غـير المواتية منها • وبقـدر ما يكون الامتثال ، فيمـا يتعـلق بالأفعـال الاجتماعية الناجمـة عن تعدد الفاعلين ، مـع معيار توجيـه القيمـة ملبيا « لكل » من المعيارين ، وهذا من وجهـة نظـر أى فاعل معـين فى النسق الاجتماعى ، بقدر ما يكون فى وقت واحـد أسلوب لتحقيـق حاجاته ــ نزعاته الخاصـة ، وتحقيـق « الحد الأقصى » مع ردود فعل الفاعلين الآخرين ، وهذا المعيار هو ما سوف يقال عنه أنه قـد «تأسس» واتخذ صفته النظامية •

ونمط القيمة بهذا المفهوم يكون دائما قد تأسس فى أحد السياقات الداخلية للفعل الاجتماعى • لذلك ، يكون دائما جانب مزدوج لنسـق التوقع الذى يتكامل فى علاقته مع نمط القيمة • فمن ناحية ، تكون هناك التوقعات المتعلقة بـ ، والتى تضع الى حد ما معايير السلوك الخاصة بالفاعل ، الأنا ، الذى يؤخذ كاطار مرجعى ؛ وهذه التوقعات هى بمثابة

«توقعات الدور» الخاصة به • ومن ناحية أخرى ، فمن وجهة نظر الفاعل الاجتماعى ، تكون هناك مجموعة من التوقعات التى تتناسب وردود الفعل المحتملة المرتبطة بالآخرين — وهذه سوف يطلق عليها «جزاءات» ، والتى بدورها قد تنقسم الى جزاءات موجبة وجزاءات سالبة تبعا لشعور الأنا بما اذا كانت مثيرة للاشباع أو مثيرة للحرمان • اذن ، فالعلاقة بين توقعات الدور والجزاءات تعتبر بشكل واضح علاقة تبادلية ، فما يعتبر جزاءات للأنا يعتبر توقعات للدور تجاه الآخر ، والعكس صحيح •

الدور ، اذن ، هو قطاع من نسق التوجه الشامل الخاص بفاعل فرد والذى ينتظم حول التوقعات فيما يتعلق بالسياق الخاص بتفاعل معين ، ذلك الذى يتكامل مع مجموعة معينة من معايير القيمة التى تحكم التفاعل مع واحد أو أكثر من «الآخرين» فى الأدوار التكاملية المناسبة • وهؤلاء «الآخرين» ليس من الضرورى أن يكونوا مجموعة محددة من الافراد ، بل من الممكن أن يكون أى «آخر» اذا ومتى دخل فى علاقة تفاعل تكاملية معينة مع الأنا والتى تشمل تبادل التوقعات استنادا الى معايير مشتركة لتوجيه القيمة •

ومن الواضح أن عملية الادماج النظامى التى تتأسس فيها مجموعة من توقعات الدور والجزاءات المقابلة لها هى مسألة اختلاف فى الدرجة• وهذه الدرجة هى بمثابة وظيفة لمجموعتين من المتغيرات ، الأولى ، هى تلك التى تؤثر على الاقتسام الفعلى لأنماط توجيه القيمة • والثانية ، هى تلك التى تحكم التوجيه الدافعى أو الالتزام نحو تحقيق التوقعات المطلوبة • وكما سوف نرى ، فان هناك مجموعة متعددة من العوامل يمكنها التأثير فى درجة عملية الادماج النظامى من خلال كل من هاتين القناتين • أما التناقض المحورى فى عملية الادماج النظامى فهى حالة

«الأنومى*» ، أى غياب التكامل البنائى لعملية التفاعل أو ، وهو ما يعتبر الشيء نفسه ، الانهيار التام للنظام المعيارى . ومع ذلك ، فهذا يعتبر مفهوم محدود لا يشكل أبدا توصيفا لنسق اجتماعى ملموس . فمثلما هناك درجة لعملية الادماج النظامى هناك أيضا درجات لحالة «الأنومى»، فأحدهما هو الوجه المقابل للآخر .

ويمكن القول أن أى «نظام» هو عبـــارة عن مركب من تكامليات الدور التى أخذت صفة التأسيس والتى تحظى بأهمية بنائية استراتيجية فى النسق الاجتماعى المقصود . فالنظام ينبغى اعتباره بمثابة وحـــدة نظام من البناء الاجتماعى تعلو على الدور ، ويتكون فى الواقع من تعددية أنماط الدور المستقلة أو يكون عناصر لهذه الأنماط » (٣) .

أى ، بكلمات أخرى (ترجمة ميلز لبارسونز) : يتصرف الناس مع وضد بعضهم البعض . كل منهم يضع فى حسبانه ما يتوقعه الآخرين . وعندما تكون هذه التوقعات المتبادلة محددة ودائمة بدرجة كافية فاننا نسميها معايير . كذلك ، فان كل انسان يتوقع من الآخرين أن يكون لهم رد فعلهم تجاه ما يفعله ، ونحن نسمى ردود الفعل المتوقعة هذه جزاءات. يبدو البعض منهم على درجة عالية من الرضاء ، ولايبدو البعض الآخر كذلك . وعندما يهتدى الناس بالمعايير والجزاءات ، فاننا عندئذ نقـــول أنهم يلعبون الأدوار معا انها استعارة مقنعة . وفى واقع الأمر ، فان ما نطلق عليه «نظام» قد يكون أفضل تعريف له هو أنه مجموعة من الأدوار الثابتة بدرجة أو بأخرى . وعندما لا تعود المعايير والجزاءات داخل أحد « النظم » ــ أو مجتمع كامل مؤلف من هذه النظم ــ متحكمة

(*) هذا المفهوم له ترجمات عدة منها « فقدان المعـــايير » ، و « الخواء الأخلاقى » وكذلك « فقـــدان السيطرة على المحيط الخارجى » . (المترجم) .

فى الناس ، فاننا عندئذ قد نتحدث بلغة دور كايم عن مسألة «الأنومى» • اذن ، ففى أحد الأطراف ، توجد هناك النظم ، مع المعايير والجزاءات جميعها مرتبة ومنظمة ، وعلى الطرف الآخر ، هناك «الأنومى» • وكما يقول «بيتس» المركز لا يكون قويا محكما ، أو ، كما أقول أنا ، لقد انهار النظام المعيارى • (نهاية الترجمة) •

وقبل أن نستطرد ، لابد هنا أن أعترف بأننى فى هذه الترجمة لم أكن حرفيا ، حيث أننى قد تصرفت قليلا لأنها تحوى أفكار جيدة • وفى الحقيقة ، فان الكثير من الأفكار التى عبر عنها أصحاب النظرية المتضخمة تكون ، عند ترجمتها ، بمثابة أفكار شائعة بدرجة أو بأخرى فى الكثير من كتب علم الاجتماع • أما فيما يتعلم بـ «النظم» فان التعريف المذكور ليس كافيا تماما • بخلاف هذا ، أنه بجانب ما تم ترجمته ، لابد أن نضيف بأن الأدوار التى تصنع أحد النظم لا تكون عادة مجرد كيان «تكاملى» من التوقعات المشتركة • ولنسأل هنا ، هل كنت ذات يوم فى الجيش ، أو فى المصنع ، أو عضو فى الأسرة ؟ حسن هذه هى النظم • وفى هذه النظم الاجتماعية ، تبدو توقعات بعض الناس أنها فقط أكثر الحاحا من توقعات بعض الناس الآخرين • ويرجع السبب فى هذا ، كما نقول ، أنها تتمتع بقوة أكبر ، أو بتعبير علم الاجتماع ، رغم أنها حتى الآن ليست كذلك ، فالنظام هو مجموعة من الأدوار المتدرجة فى ضوء سلطة كل منها •

وكتب بارسونز :

« ان التعلق بقيم مشتركة معناه ، من الناحية الدافعية ، أن الفاعلين لهم «مشاعر» مشتركة مدعمة بأنماط القيمة ، وهو الأمر الذى يمكن

تحديد معناه بأن الامتثال مع التوقعات المناسبة يعامل على أنه «شيء جيد» بصورة مستقلة نسبيا عن أى «ميزة» أدائية محددة يمكن تحصيلها من هذا الامتثال ، ومثال ذلك تجنب الجزاءات السالبة . الاكثر من هذا، أن هذا التعلق بالقيم المشتركة ، بينما هو قد يتفق والحاجات الاشباعية الفورية للفاعل ، فدائما يكون له أيضا جانبه «الأخلاقى» فى أن هـــذا الامتثال بدرجة ما يقوم بتحديد «مسئوليات» الفاعل فى أنساق الفعل الاجتماعى الأوسع التى يشارك فيها . ومن الواضح ، أن بؤرة الاهتمام المحـــدد للمسئولية هى «الجمعية» التى تتكون من التوجيـــه القيمى المشترك .

وأخيرا ، فانه من الواضح تماما أن «المشاعر» المدعمة لهذه القيم المشتركة لا تعتبر بصورة عادية تعبيرات داخل بنائها المحدد عن ميول أو نزعات فطرية معينة فى الكائن العضوى ، بل هى مشاعر مكتسبة أو تمتعلمها . بجانب هذا ، أن الدور الذى تلعبه فى توجيه الفعل لا يشبه ذلك الدور الذى تلعبه المسائل الثقافية التى يتم معرفتها و «التواؤم» معها ، بل الأمر هو أن الأنماط الثقافية قد أصبحت مستوعبة ، أى أنها باتت تشكل جزءا من بناء نسق شخصية الفاعل ذاته . وبذلك ، فان هذه المشاعر أو «الاتجاهات ــ القيم» كما قد يطلق عليهـــا تعتبر بمثـــابة إستعدادات أصيلة فى الشخصية تجـــاه الحاجة . اذن فبفضل هـــذا التأصيل الداخلى فقط للقيم المؤسسة يحدث التكامل الدافعى الأصيل للسلوك فى البناء الاجتماعى ، وأن الطبقات «الأعمق» من الدافعية تكون هى عدة الانجاز لتوقعات الدور . وعند حدوث هذا بدرجة عالية ، من الممكن القول أن النسق الاجتماعى قد بات على درجة عالية من التكامل ،

وعندما يمكن القول ، أن مصالح الكيان الجمعى والمصالح الخاصة لأعضائه قد اقتربت من حالة «التطابق»* •

ويعتبر هذا التكامل بين مجموعة من أنماط القيم المشتركة وبناء استعداد ـ الحاجة الداخلى للشخصيات المشكلة للنسق هو لب ظاهرة الديناميات الخاصة بالأنساق الاجتماعية • ويمكن القول أن ثبات واستقرار أى نسق اجتماعى فيما عدا عملية التفاعل الأكثر زوالا وفناء هو أمر يعتمد على ما تصل اليه درجة هذا التكامل ، هو الذى يشكل القضية الديناميكية الجوهرية فى علم الاجتماع ، فهو بمثابة الاطار المرجعى لجميع التحليلات التى قد تزعم أنها تشكل تحليلا ديناميا للعملية الاجتماعية »(٤) •

أو بكلمات أخرى : عندما يشترك الناس فى نفس القيم ، فانهم ينحون لأن يتصرفوا وفقا للطريقة التى يتوقعون أن يتصرف بها شخص آخر • الأكثر من هذا ، أنهم غالبا ما يتعاملون مع مثل هذا الامتثال باعتباره شيئا طبيا جدا ــ حتى لو بدا أنه ضد مصالحهم المباشرة • وأن تكون هذه القيم المشتركة نتيجة للتعلم أكثر من كونها موروثة فهو شىء لا يقلل بأى حال من أهميتها فى الدافع البشرى ، بل على العكس ؛ هى تصبح جزء من الشخصية ذاتها • وبهذا الشكل ، فهى تربط المجتمع معا ، لأن ما هو متوقع اجتماعيا يصبح أمرا مطلوبا من الناحية الفردية•

(*) ينبغى اعتبار حالة التطابق التام حالة حدية مثل الماكينة غير الاحتكاكية المشهورة . فبالرغم من أن مسألة التكامل التام لنسق اجتماعى خاص بالدافعية مع مجموعة ثابتة تماما من الأنماط الثقافية هى أمر غير معروف من الوجهة التجريبية الا أن المفهوم الخاص بمثل هذا النسق الاجتماعى المتكامل هو على درجة بالغة من الأهمية النظرية (هامش توضيحى لبارسونز) .

وهذا يشكل أمر بالغ الأهمية لاستقرار وثبات أى نسق اجتماعى لدرجة أننى سوف أستخدمه كنقطة انطلاق رئيسية لى فيمـا لو حدث وقمت بتحليل مجتمع ما . (نهاية الترجمة) .

وبالمثل ، فاننى أعتقد أن الباحث فى وسعه ترجمة ألــ (٥٥٥) صفحة التى يحتويها كتاب «النسق الاجتماعى» الى حوالى (١٥٠) صفحة من اللغة الانجليزية الواضحة المباشرة . ورغم أن النتيجة لن تكون بالغة التأثير ، الا أنها مع ذلك سوف تتضمن العبارات التى تحوى عرضـا واضحا للمشكلة الرئيسية للكتاب وللحل المطروح لهذه المشكلة . ومن الأشياء المعروفة ، بطبيعة الحال ، أن أى فكرة ، وأى كتاب ، من الممكن ايجازه فى جملة أو عرضه فى عشرين مجلدا ، لكن المسألة هى فى كيفية اكتمال البيان المطلوب لكى توضح الشىء وفى مدى الأهمية التى يبدو عليها هذا الشىء ، أى : كم هو عدد التجارب التى يعرضها هذا البيان بوضوح ، وكم هو حجم المشاكل التى يمكننا هذا البيان من حلها ، أو على الأقل طرحهـا .

واذا ما تناولنا كتاب بارسونز ، على سبيل المثال ، فى جملتين أو ثلاث : « فاننا نسأل : كيف يكون النظام الاجتماعى ممكنا ؟ وفيما يبدو أن الاجابة التى ستعطى لنا ستكون : أن تكون هنـاك قيـم مشتركة مقبولة » . ولكن هل هذا هو كل شىء ؟ بالطبع لا ، وانما هو يمثـل النقطة الأساسية . وهنا نتساءل مرة أخرى ، أليس هذا ظلما ، ؟ ألا يمكن معالجة أى كتاب بهذه الطريقة ؟ والرد ، طبعا ممكن ، وهذا هو أحد كتبى قد عولج بهذه الطريقة : « من هـو فى نهـاية الأمر الذى يدير أمركان » ؟ لا أحد يديرها كلها ، ولكن اذا كان أحد يقوم بذلك فهى صفوة السلطة » . ثم ها هو الكتاب الذى بين يديك : « ما الذى تهتم

به العلوم الاجتماعية ؟ انها ينبغى أن تتناول الانسان والمجتمع ، وهى أحيانا تفعل ذلك . فهى بمثابة محاولات لمساعدتنا على فهم مسيرة الانسان والتاريخ ، والصلات التى تربط بينهما فى اطارات متنوعة من البنى الاجتماعية » .

ثم بعد ذلك ، نقدم ترجمة لكتاب بارسونز فى أربع فقرات فقط :

لنتخيل شيئا يمكن أن نسميه «النسق الاجتماعى» ، حيث يتصرف الأفراد فيه بالرجوع الى بعضهم البعض . هذه الأفعال غالبا ما تكون أقرب الى الانتظام ، ذلك لأن الأفراد فى النسق الاجتماعى يشتركون فى معايير للقيم ويشتركون فى طرق ملائمة وعملية للسلوك . ويمكن أن نطلق على بعض مستويات القيم اسم المعايير ، وأولئك الذين يتصرفون وفقا لها ينحون للتصرف بالمثل فى مناسبات مشابهة . وبقدر ما يتم الامر بهذا الشكل ، تكون هناك «الترتيبات الاجتماعية» تلك التى قد نراعيها، والتى غالبا ما تكون لها صفة الدوام التام . ويمكن أن نطلق على هذه الترتيبات الاجتماعية المستقرة والدائمة اسم «ترتيبات بنائية» . ومن الممكن اعتبار كافة هذه الترتيبات المنتظمة داخل النسق الاجتماعى بمثابة تعادل متداخل ، وذلك هو التعبير المجازى الذى سوف أغفله وأنساه ، لأننى أريدك أن تأخذ بمفهومى الواقعى تماما وهو : التوازن الاجتماعى .

وهناك وسيلتان رئيسيتان يتم بهما تحقق التوازن الاجتماعى ، وبهما — اذا فشل أحدهما أو كلاهما — ينجم خلل فى التوازن الاجتماعى. الوسيلة الأولى هى «التنشئة الاجتماعية» ، وهى تشمل كافة الوسائل التى يتم بها تشكيل الفرد المولود حديثا ليكون شخصا اجتماعيا . ويتوقف جزء من هذا التشكيل الاجتماعى للأشخاص على اكتسابهم

الدوافع للأخذ بالأفعال الاجتماعية المطلوبة أو التى يتوقعها الآخرين • أما الوسيلة الثانية ، فهى «الضبط الاجتمــاعى» ، الذى أعنى به كافة الوسائل المستخدمة لجعل الناس يسيرون فى صف واحد ، والتى بهـا يبقون أنفسهم فى هذا الصف • واننى أقصد طبعا بهذا «الصف» أى نوع من الفعل المتوقع والمستقر عليه نمطيا فى النسق الاجتماعى •

وتكمن المشكلة الأولى لتحقيق التوازن الاجتماعى فى ترغيب الناس لفعل ما هو مطلوب ومتوقع منهم• وبالفشل فى هذا ، تكون المشـكلة الثانية هى فى تبنى وسائل أخرى لابقائهم فى نفس الصف • وفى هـذا الشأن ، فان أفضل التصنيفات والتحديدات لهذه الضوابط الاجتماعية ، هى تلك التى أعطاها لنا ماكس فيبر ، وهنا ليس لدى ما أضيفه لما قاله، وما قالته قلة أخرى من الكتاب بعده ، سوى القليل •

لكن هناك نقطة تحيرنى قليلا فى هذا الصدد : مع التسليم بهـذا التوازن الاجتماعى ، وبمسألتى التنشئة الاجتماعية والضبط الاجتماعى اللذان يدعمان هذا التوازن ، كيف اذن يكون من الممكن لأى انسان أن يخرج عن الخط المرسوم ؟ هذه هى المسألة التى ليس فى وسـعى تفسيرها جيدا ، فى حدود « النظرية النسقية والمتضخمة » عن النسق الاجتماعى • كذلك هناك نقطة أخرى غير واضحة تماما ، وهى : كيف أعلل حدوث التغير الاجتماعى — أى التاريخ ؟ وهنا ، فاننى بالنسبة لهاتين المشكلتين ، أوصى بأنه عندما تتعرض لهما ، فما عليك الا استخدام عمليات البحث التجريبى • (نهاية الترجمة) •

ربما قد يكون فى هذا ما يكفى ، رغم أنه فى استطاعتنا القيــام بترجمة أكثر اكتمالا من هذا ، وان كان «الأكثر اكتمالا» لا يعنى بالضرورة «الأكثر كفاية» ، وهنـا فاننى أدعو القــارىء للرجوع الى «النســق

الاجتماعى» لكى يجد المزيد . فى نفس الوقت سيكون لدينا ثلاث مهام: المهمة الأولى هى تحديد سمات الأسلوب المنطقى للتفكير الذى قدمتـه النظرية المتضخمة ، ثم المهمة الثانية ، وهى القيام بتوضيح قدر معين من الغموض والبلبلة النوعية فى هذا المثال بالذات ، وأخيرا : المهمـة الثالثة ، وهى تحديد كيف يقوم معظم العلماء الاجتماعيين الآن بوضع وحل مشكلة النظام العام عند بارسونز . وهدفى من كل هذا هو مساعدة أصحاب النظرية المتضخمة على النزوع من تعالمهم وعليائهم غير المثمر .

(٢)

ان الخلافات الحادة بين علمـاء الاجتماع ليست بـين الذين قد يلاحظون بدون تفكـير وبـين الذين قـد يفكرون دون ملاحظة ، لكن الخلافات أقرب لأن تكون فيما يتعلق بماهية أنواع التفكير ، وماهية أنواع الملاحظة ، وماهية أنواع الروابط ، اذا كانت هناك ، بين الاثنين. أى بين التفكير والملاحظة .

ان الغرض الأساسى من النظرية المتضخمة ، هو أن يكون هناك اختيار أولى لمستوى من التفكير هو غاية فى العمومية والتجريد بحيث لا يستطيع ممارسوه بصورة منطقية النزول الى مستوى الملاحظة . فهم ، كأصحاب نظرية متضخمة ، لا ينزلون أبدا من مستوى العموميات البالغة التجريد الى مستوى المشاكل فى سياقاتها التاريخية والبنائية . ويفسر هذا الافتقار للحس القوى بالمشاكل الحقيقية ، عدم الواقعيـة الملحوظة بدرجة كبيرة فى كتاباتهم . واحدى السمات الناجمة عن هذا ، هى ما يبدو من تعسف ومحاولات لا تنتهى لاتقان التمييزات التى لا هى تؤدى الى توسيع فهمنا وادراكنا ولا هى تجعل تجربتنا أكثر معقولية.

وهذا بدوره أيضا يتكشف كنوع منظم من التراجع عن بذل الجهود لوصف وتفسير السلوك البشرى والمجتمع بجلاء ووضوح •

ونحن عندما نتأمل فيما قد تعنيه كلمة ما ، فاننا بذلك نتناول الجوانب الخاصة بـ «مدلولاتها» اللغوية ، وعندما نتأملها فى علاقاتها بالكلمات الأخرى ، فاننا بذلك نتناول سمات «تركيبها» اللغوى(*) • وهدف من تقديم هذين المصطلحين المختزلين هو توفير وسيلة اقتصادية ودقيقة لتوضيح النقطة التالية وهى أن : النظرية المتضخمة مبينة للتركيب اللغوى ، ومغفلة عن المدلولات اللغوية • والواقع ، أن ممارسيها لايفهمون حقا أنه عندما نقوم بتعريف كلمة ما ، فاننا فقط ندعو الآخرين الى استخدامها بالطريقة التى نحب أن تستخدم بها ، وأن الغرض من التعريف هو الاكتفاء بتركيز الجدل على الحقيقة ، وأن النتيجة المناسبة للتعريف الجيد هى تحويل الجدل على التعبيرات الى خلافات على الحقيقة ، ومن ثم يتم فتح أبواب الجدل على مزيد من البحث والاستقصاء •

وأصحاب النظرية المتضخمة قد شغلوا أنفسهم بدرجة بالغة بمعانى التركيبات اللغوية ، ونضب خيالهم بدرجة شديدة بالنسبة للدلالات والبراهين ، كما أنهم حصروا أنفسهم بتزمت شديد بمستويات بالغة التجريد لدرجة أن شرح «الرموز الكلامية» التى يقدمونها تبدو فى أغلب الأحيان مجرد لعبة مجدية من التنميط بأكثر مما تمثل جهدا لتعريف المشاكل بطريقة نسقية — أى بطريقة واضحة ومرتبة — دليل نهتدى به فى حلها •

وأحد الدروس الكبرى التى يمكن أن نتعلمها من افتقاد النسقية فى عمل أصحاب النظرية المتضخمة ، هو أن كل مفكر صاحب وعى ذاتى

لابد له فى جميع الأوقات من أن يكون على وعى ، ومن ثم قادر على ضبط ، مستويات التجريد التى يعمل عليها • فالقـدرة على التحرك ذهابا وايابا بين مستويات التجريد ، بيسر ووضوح ، لهو دليل بارز على ما يتصف به المفكر النسقى صاحب الخيال الخصب •

وفيما يتعلق بمصطلحات مثل «الرأسمالية» أو «الطبقة المتوسطة» أو «البيروقراطية» أو «صـفوة القوة» أو «الديموقراطية الشمولية» ، غالبا ما تكون هناك الى حد ما مضامين واضـحة وأخرى مبهمة ، وفى استخدام هذه المصطلحات ، لابد من رقابة هذه المضامين وضبطها بعناية• كذلك ، فانه حول هذه المصطلحات ، غالبا ما تكون هنـاك مجمـوعات «مركبة» من الحقائق والعلاقات وأيضا مجرد تخمينات حول العوامل والمشاهدات • وهذه أيضا لابد من فرزها بعناية وجعلها تتصف بالوضوح فى تعريفنا واستخدامنا •

ولتحديد أبعاد التراكيب والمدلولات اللغوية لهذه المفاهيم ، ينبغى علينا أن نكون على وعى بالتنظيم الهرمى لعنصر الخصوصية التى يندرج تحت كل منهـا ، كمـا يجب أن نكون قادرين على التمعن فى جميـع مستويات هذا التنظيم الهرمى • وهنـا علينـا أن نسأل : هل نعنى بـ «الرأسمالية» ، كما سيكون استخدامنا لها ، مجرد الحقيقة بأن جميع وسائل الانتاج تخضع للملكية الخاصة ؟ أم أننا نريد أيضا أن ندرج تحت هذا اللفظ الفكرة الأخرى الخاصة بالسوق الحر باعتبار ذلك هو الميكانيزم الأساسى للأسعار ، والأجور ، والأرباح ؟ ثم الى أى حد نحن مخولون بأن نفترض بأن هذا اللفظ ، عن طريق التعريف ، يدل على توضيحات حـول النظـام السـياسى وكذلك حـول المؤسسات الاقتصادية ؟ •

ان مثل هذه العادات الذهنية فى التفكير ، كما أعتقد ، تعتبر مفاتيح الفكر النسقى وغيابها يشكل مفاتيح لتشيؤ وانحراف المفاهيم • وربما قد يكون أحد نتائج هذا الغياب أكثر وضوحا عندما نتأمل الآن بمزيد من التحديد أحد جوانب البلبلة والغموض الرئيسية فى كتاب بارسونز •

(٣)

ان صاحب النظرية المتضخمة ، بدعواه أنه يضع « نظرية سوسيولوجية عامة » ، هو فى الحقيقة يقدم دائرة من المفاهيم المستبعد منها الكثير من السمات البنائية للمجتمع البشرى ، وهى سمات معترف بجوهريتها فى فهم المجتمع • وفيما يبدو أن هذا الأمر متعمد ومقصود لجعل اهتمام علماء الاجتماع بمثابة مسعى تخصصى مميز عن مسعى علماء الاقتصاد والسياسة • وعلم الاجتماع وفقا لبارسونز ، عليه أن يتعامل مع :

« ذلك الجانب من نظرية الأنساق الاجتماعية الذى يعنى بظواهر تأسيس الأنماط الخاصة بتوجيه القيم فى النسق الاجتماعى : وبظروف الامتثال مع ، والانحراف عن ، مجموعة من هذه الأنماط ، وبالعمليات الدافعية بقدر تواجدها فى كل هذا »[٦] •

ويمكن ترجمة هذا الكلام وتعريفه من أى مظهر ، كما يجب أن يكون عليه أى تعريف ، وبالتالى تكون قراءته : ان علماء الاجتماع من فصيلتى قد يودون دراسة ما يرغبه الناس ويحافظون عليه • كذلك فقد نود اكتشاف لماذا يوجد هناك مجموعة متنوعة من مثل هذه القيم وما هو السبب فى تغيرها • ونحن عندما نعثر على وحدة متكاملة ، فى كثير أو قليل ، من القيم ، فاننا قد نود معرفة لماذا يمتثل البعض من الناس للقيم ولماذا لايمتثل البعض الآخر ؟ • (نهاية الترجمة) •

وكما لاحظ دافيد لوكوود[٧] ، فان مثل هذا القول يخلص علماء الاجتمـــاع من أى اهتمــــام «بالســــلطة» ، وبالمؤسسات السياسية والاقتصادية • بل اننى قد أذهب الى أبعـــد من هذا وأقول أن هـــذا البيان ، بل وفى الحقيقة كتاب بارسونز برمته ، يتناول ما يسمى تقليديا «بالتشريعات» أكثر بكثير مما يتناول المؤسسات من أى نوع • والنتيجة، كما أظن ، هو تحويل ، عن طريق التعريف ، كافة البناءات المؤسسية الى نوع من المجال الأخلاقى ــ أو بتعبير أكثر دقة ، الى ما أطلق عليه «مجال الرمز»[٨] • وحتى يمكن ايضاح هذه النقطة ، فاننى أود أولا أن أقول شيئا يفسر هذا المجال ، وثانيا : مناقشة استقلاليته المزعومة ، وثالثا : الاشارة الى كيف تجعل مفاهيم بارسونز من الصـــعب تماما اثارة العديد من المشاكل الأكثر أهمية والناجمة عن أى تحليل للبنـــاء الاجتماعى •

أن أولئك الذين يحتلون موقع السلطة يحاولون تبرير حكمهم على المؤسسات بربطها ، كمـــا لو أن ذلك نتيجة ضرورية ، بأمور يســـود الاعتقاد فيها بشكل واسع مثل الرموز الأخلاقية ، والرموز المقدسة ، والقاعدة القانونية • ومثل هذه المفاهيم المركزية قد تدل على اله أو آلهة ، أو على «صوت الغالبية» ، أو «ارادة الشعب» أو «أرستوقراطية الموهبة أو الثروة» ، أو على «حق الملوك الالهى» ، أو على الهبة غـــير العادية المزعومة للحاكم ذاته • وعلماء الاجتماع ، ممن تبعوا فيبر ، يسمون هذه المفاهيم «عناصر الشرعية» ، أو يطلقون عليهـــا أحيـــانا «رموز التبرير» •

والعديد من المفكرين قد استخدموا تعبيرات مختلفة للاشارة الى هذه المفاهيم : «فالصيغة السياسية» أو «الخرافات الكبرى» عند موسكا،

و «مبدأ السيادة» عند لوك ، و «الأسطورة الحاكمة» عند سوريل ، و «التراث الشعبي» عند ثورمان أرنولد ، و «عناصر الشرعية» عند فيبر ، و «التمثيل الجمعي» عند دور كايم ، و «الأفكار السائدة» عند ماركس ، و «الارادة العامة» عند روسو ، و «رموز السلطة» عند لازويل ، و «الأيديولوجية» عند كارل مانهايم ، و «المشاعر العامة» عند هربرت سبنسر ، كل هذه وكثير مثلها يشهد بالمكانة المركزية التى تحتلها الرموز الرئيسية السائدة فى التحليل الاجتماعى •

ونفس الشيء فى التحليل النفسى ، فان مثل هذه الرموز الرئيسية، تكون أسبابا بل وغالبا ما تكون هى الدوافع المؤدية بالأشخاص ليدخلوا فى الأدوار والجزاءات الخاصة بأدائهم • فمثلا ، اذا ما تم تبرير المؤسسات الاقتصادية شعبيا وفقا لهذه الرموز ، عندئذ فان الاستناد للمصلحة الذاتية قد يكون تبريرا مقبولا للسلوك الفردى • ولكن ، اذا كان الشعور الشعبى العام يقضى بضرورة تبرير هذه المؤسسات من منطلق «الثقة والخدمة العامة» ، عندئذ فقد تؤدى الدوافع والأسباب القديمة للمصلحة الذاتية الى الشعور بالذنب أو على الأقل الى الشعور بالقلق والانزعاج بين الرأسماليين • ومن هنا ، فان عناصر الشرعية التى تكون ذات فعالية فى النطاق الشعبى العام ، غالبا ما تصبح ، فى الوقت المناسب ، ذات فعالية كدوافع شخصية •

والآن ، فما يسميه بارسونز وغيره من أصحاب النظرية المتضخمة بـ «توجيهات القيم» و «البناء المعيارى» ، هو شيء يتصل أساسا بالرموز الرئيسية لعناصر الشرعية • وهذا الموضوع له أهميته وقائدته فى الواقع ، ذلك لأن علاقات هذه الرموز ببناء المؤسسات يعتبر من بين أهم المشاكل الموجودة فى علم الاجتماع • ومع هذا ، فان هذه الرموز،

لا تشكل واقعا مستقلا بذاته داخل المجتمع ، بل ان ارتباطها الاجتماعى يكمن فى استخدامها لتبرير أو معارضة ترتيبات القوة والمواقع القائمة داخل هذه الترتيبات الذى يقوم به صاحب القوة الفعلية • كما يكمن ارتباطها النفسى فى حقيقة أنها تصبح هى الأساس للتمسك ببناء القوة أو لمعارضته •

ونحن قد لا نكتفى بالافتراض أن بعض هذه المجموعة من القيم ، أو عناصر الشرعية ، «لابد» أن تسود خشية تمزق البناء الاجتماعى ، أو قد نفترض بوجوب تحقيق تماسك أو توحيد البناء الاجتماعى بواسطة أى من هذا «البناء المعيارى» • والشىء المؤكد ، هو أننا قد لا نكتفى بمجرد الافتراض بأن «البناء المعيارى» عندما يسود ، بأى معنى تحمله هذه الكلمة ، هو بناء مستقل ذاتيا • انما الحقيقة ، بالنسبة للمجتمعات الغربية الحديثة ـ والولايات المتحدة بصفة خاصة ـ أن هنـــاك قدر كبير من الدلائل على أن عكس هذه الافتراضات هو الأمر الأكثر دقة • فالأمر الغالب ـ على الرغم من عدم انطباق ذلك فى الولايات المتحدة منذ الحرب العالمية الثانية ـ هو أنه توجد هناك رموز منظمة للمعارضة ذات تنظيم جيد تماما ، تستخدم لتبرير حركات العصيان والتمرد ولقلب السلطات الحاكمة • وتعتبر استمرارية النسق السياسى الأمريكى ، هى حالة فريدة تماما فى هذا الشأن ، فهو لم يتعرض لأى تهـــديد بالعنف الداخلى سوى مرة واحدة فى تاريخه • وهى حقيقة قد تكون من بـــين الحقائق التى ضللت بارسونز فى تخيله للبناء المعيارى الخاص بتوجيه القيـــم •

ان الحكومات ليست بالضرورة ، كمـــا يرى امرسون ، « أصيلة بطبيعتها فى الهوية الأخلاقية للبشر » • أما الاعتقـــاد بأن الحكومات

أصيلة فى هذه الهوية الأخلاقية فمعناه الخلط بين عناصر شرعيتها وبين دواعى قيامها • والامر فى أغلب الاحوال ، أن مثـــل هـــذه الهـــويات الأخلاقية كبشر فى مجتمع ما قد تستند على حقيقة أن الحكام الشرعيين فى امكانهم بنجاح احتكار ، بل وفرض ، رموزهم السيادية •

ومنذ مئات من السنين نوقش هذا الأمر بشكل مثمر فى نطـــاق الافتراضات الخاصة بأولئك الذين يؤمنون بأن مجـــالات الرموز هى مجالات مجددة ذاتيا ، وأن هذه «القيم» قد تحكم التاريخ : فالرموز التى تبرر ســـلطة ما هى رموز منفصلة عن الأشـــخاص الفعليين أو الشرائح الطبقية التى تمارس السلطة • ومن ثم فالمعتقد أن «الأفكار» وليست الشرائح الطبقية أو الأشخاص الذين يستخدمون الأفكار هى التى تحكم • ولكى يتم اضفاء عنصر الاستمرارية على تعـــاقب هـــذه الرموز ، فهى تقدم كما لو أنها بشكل ما متصلة ببعضها ، وهكذا تكون النظرة الى الرموز على أنها «محددة ذاتيـــا» • ولجعل هـــذه الفكرة الغريبة أكثر معقولية ، يمكن القول أن الرموز غالبا ما تكون «ذات صفة شخصية» أو حافلة «بالوعى الذاتى» ، وعندئذ يمكن تصورها باعتبارها تصورات التاريخ أو على أنها بمثابة مخلفات من «الفلاسفة» أصحاب الفكر الذى يحدد فكرهم الديناميات المؤسسية • بل ، وقد نضيف الى هذا ، أن مفهوم «النظام المعيارى» ربما قد أصيب بالتشيؤ • وهنا ، فاننى لم أفعل سوى أننى قمت بتفسير ما قاله ماركس وانجلز عن هيجل (٩) •

ان «القيم» الخاصة بمجتمع ما ، فى تبريرها للمؤسسات وتحفيزها للاشخاص بلا جدوى لأداء الادوار المؤسسية ، ومهما تكن أهميتها فى مختلف الأوساط الخاصة ، تكون غير ملائمة وفى غير محلها من الناحيتين

التاريخية والسوسيولوجية • وهناك بالطبع نوع من تبادل الفعل ورد الفعل بـين الرموز التبريرية ، والسلطات النظاميـة ، والأشـخاص الخاضعين • وبالرغم من أنه ينبغى علينا فى بعض الأحيان أن لا نتردد فى اضفاء قدر من الثقل السببى على الرموز السائدة ــ الا أنه مع ذلك قد يكون علينا أن لا نسىء توظيف الفكرة كتلك الخاصة بنظـرية النظام الاجتماعى أو كفكرة وحدة المجتمع • فهناك سبل أفضل لاقامة «الوحدة» وهى سبل أكثر فائدة فى صياغة المشاكل الهامة للبناء الاجتماعى وأقرب الى المشاهدات الواقعية •

.. انه بقدر ما تثـير «القيم المشتركة» اهتمامنا ، يكون من الافضل بناء تصورنا ومفهومنا لها بفحص عناصر الشرعية الخاصة بكل نظـام مؤسسى فى أى بناء اجتماعى معين ، عن «البدء» بمحاولة فهمها ثم فى ضوئها نقوم بـ «تفسير» تكوين ووحدة المجتمع[١٠] • فنحن قد نتحدث عن «القيم المشتركة» عندما تكون شريحة كبيرة من أعضاء أى نظـام مؤسسى قد أخذت بعناصر الشرعية الخاصة بهذا النظام ، وعندما تكون عناصر الشرعية هذه هى الحدود التى تحققت فيها الطاعة بنجاح ، أو على الأقل تم تأمين شعور بالرضاء عنها • عنـدئذ ، فان هذه الرموز تستخدم لـ «تحديد المواقف» التى يتم مواجهتها فى مختلف الأدوار ، وكركائز لتقييم القادة والاتباع والبنى الاجتماعيـة التى تكشف عن مثل هذه الرموز العامة والمركزية هى بطبيعة الحال أنماط مثالية و «نقية» •

وعلى الجانب الآخر ، هناك مجتمعات تقوم فيها مجموعة التعليمات السائدة بضبط المجتمع برمته وبفرض قيمها بالعنف والتهديد بالعنف • وهذا الأمر ليس فى حاجة لأن يتضمن انهيار البنـاء الاجتماعى ، ذلك لأن الناس ربما قد يكونوا محكومين بالنظام الرسمى بشكل مؤثر وفعال ،

وأحيانا قد لا تكون لديهم الفرصة ، ما لم يقبلوا بالمطالب الشرعيـــة للنظام ، لكسب عيشهم .

ان المؤلف البارع الذى يعمل فى صحيفة رجعية ، مثلا ، ربما من أجل أن يكسب عيشه والاحتفاظ بعمله ، يكون عليه أن يتوافق مـــع مطالب النظام الخاص بصاحب العمل ، أما فى سريرة نفسه وخارج موقع العمل ، فانه قد يكون محرضا راديكاليا . ونحن نرى أن الكثير من علماء الاجتماع الألمان كانوا قد سمحوا لأنفسهم يكونوا جنودا ملتزمين بالنظام تماما تحت علم قيصر — ذلك بالرغم من حقيقة أن قيمهم الذاتية كانت قيم ماركسية ثورية . اذن فالطريق طويل ما بين رموز السلوك والعودة مرة أخرى ، وليس كل نـــوع من التكامل قائم على أســـاس الرموز [11] .

والتأكيد على هذا الصراع بين القيم ليس معناه انـــكار « قوة الكيانات الرشيدة » . فالتباين والتناقض ما بين القول والفعل ، هو غالبا ما يكون صفة مميزة ، ولكن هكذا أيضا الكفاح من أجل الثبـــات والتماسك . فما هو سائد وغالب فى أى مجتمع معين لا يمكن أن يتقرر على أنه أمر له «أولوية» مسبقة على أساس القول بـــ «الطبيعة البشرية» أو على أساس «مبادىء علم الاجتماع» أو وفقا لحكم النظرية المتضخمة. وهنا ، من الممكن لنا أن نتخيل أيضا وجود «نمط نقى» من المجتمعات ، وبناء اجتماعى منتظم تمـــاما ، حيث البشر السائدون فيه ، ولمختلف الأسباب ، لا يمكنهم التخلى عن أدوارهم المقررة لهم ، ومع ذلك فهم لا يشاركون فى أى من قيم صاحب الحكم والسيادة ، ومن ثم فهـــم لا يؤمنون اطلاقا بشرعية النظام . والأمر فى ذلك ، مثله مثل السفينة المليئة بالعبيد الأرقاء ، والتى يتحول فيها هؤلاء العبيد بحركتهم المنتظمة

فى التجديف الى مجرد تروس فى آلة ، ونادرا ما تكون هنـاك حاجة بصاحب السوط الى استخدام قسوته لتحريكهم • بل ان العبيد أنفسهم لا يكونون فى حاجة الى معرفة وجهة السفينة ، على الرغم من أن أى تحول فى مقدمة السفينة يثير حنق وغضب السيد ، وهو الرجل الوحيد على ظهر السفينة الذى يكون فى وسعه رؤية ما أمامه • لكنى هنا ربما أكون قد لجأت للوصف بأكثر مما استعنت بالتخيل العلمى الاجتماعى •

ما بين هذان النمطان — نسق القيم المشتركة والنظام المفروض — توجد هناك أشكال عديدة من «التكامل الاجتماعى» • فمعظم المجتمعات الانتقالية الغربية قد أدمجت فيها الكثير من «توجيهات القيم» المتشعبة والمتباينة ، وتشمل عناصر الوحـدة فيهـا خليـط من الشرعية والقهر والالتزام • وهذا ، بطبيعة الحال ، قد يصدق على نظام عام مؤسس ، وليس فقط على النظامين السياسى والاقتصادى • فالأب قد يفـرض الأوامر على أسرته عن طريق التهديد بالحرمان من الميراث ، أو باستخدام العنف بقدر ما يسمح له النظام السياسى بذلك • وحتى فى الجماعات الصغيرة المقدسة كالأسرة ، قد لا يكون وحدة «القيم المشتركة» أمرا ضروريا على الاطلاق : فانعدام الثقة والكراهية قد يكونا هما الشىء المطلوب لربط أواصر الأسرة المحبة معا • والمجتمع كذلك ، قد يزدهر بشكل كاف تماما دون تواجد «البناء المعيارى» الذى يؤمن أصـحاب النظرية المتضخمة بشيوعه وعموميته •

وأنا هنا لا أبغى طرح أى نوع من الحلول لمشكلة النظام العام ، انما كل ما أصبوا اليه هو أن أثير التساؤلات ، ذلك أنه اذا لم يكن هذا فى وسعنا ، فلابد ، كما يتطلبه حكـم التعريف المتعسف ، أن «نأخذ» بالبنـاء المعيارى الذى يتصـور بارسـونز أنه يشـكل لب « النسق الاجتماعى » •

(٤)

أن القوة كما يشيع معناها فى العلم الاجتماعى ، هى شـــىء له علاقة بنوعية القرارات أيا كانت ، والتى يتخذها الناس بشأن الترتيبات الاجتماعية التى يعيشون فى ظلها ، وبشأن الأحداث التى تصنع تاريخ عصرهم • ومع ذلك ، فالأحداث التى تتجاوز القرار البشرى تقـــع ، وتتغير الترتيبات الاجتماعية دون الاستفادة من القرار الصريح • لكن، بقدر ما يتم صنع هذه القرارات (وبقدر ما يمكن أن تكون عليه هـــذه القرارات ولكنها لاتكون كذلك) فان مشكلة من يشترك فى صنعها أو (عدم صنعها) هى المشكلة الأساسية للقوة •

ونحن لا نستطيع أن نفترض اليوم أن البشر لابد أن يكونوا فى نهاية المطاف محكومون طواعية • فمن بين وسائل القوة السائدة الآن هى القدرة على ادارة ومعالجة رضاء الناس • أما كوننا لا نعرف حدود هذه القدرة ـــ ونأمل فى أن يكون لها حدود ـــ لا يلغى الحقيقة بأن قدرا كبيرا من القوة بات يستخدم اليوم بنجاح دون مجازاة عقل أو وعى الخاضع الممتثل •

وبالتأكيد ، فاننا فى عصرنا هذا لا نحتاج الى مجادلة ذلك ، فالقهر والالزام ، فى نهاية الأمر ، هو الشكل «النهائى» للقوة ، ولكننا مع ذلك لا نكون قد ثبتنا تماما عند نهاية الأمر • فالسلطة (وهى القوة التى تسوغها عقائد الممتثل باختياره) وممارسة السلطة (وهى القوة التى أحسن استخدامها دون معرفة ردود فعل المجردين من القوة) لابد أيضا من أن تكون موضع التأمل والاعتبار، جنبا الى جنب مع القهر والالزام• وفى الحقيقة ، فاننا عندما نفكر فى طبيعة السلطة ، ينبغى دائما التفرقة والتمييز بين الأنماط الثلاثة •

وفى العالم الحديث ، أعتقد أنه ينبغى علينا أن نوقر فى ذهننا أن السلطة غالبا ما لا تكون بذلك القدر من التسلط كما كانت تبدو عليه فى العصور الوسطى ، حيث الحكام ليسوا فى حاجة الى تبرير لممارستهم السلطة . بل ان الكثير من القرارات الكبرى فى عصرنا ــ خصوصا تلك التى تأخذ الطابع الدولى ــ لم تكن فى حاجة الى عنصر «الاقناع» الجماهيرى باعتباره «ضرورة» حتمية . الأكثر من هذا ، أن الأيديولوجيا بقدر ما هى متوافرة لدى الأقوى، فانهم لا يأخذون بها ولا يستخدمونها. فالأيديولوجيات عادة ما تنشأ كاستجابة لشعور فعال بقلب السلطة ، وفى الولايات المتحدة ، لم يكن مثل هذا الشكل من المعارضة بذلك القدر من التأثير والفعالية بما يكفى لخلق حاجة محسوسة لايجاد أيديولوجيات جديدة للحكم .

واليوم ، هناك الكثير من الناس ، بطبيعة الحال ، متحللين من مشاعر الولاء والاخلاص السائدة ، وفى نفس الوقت لم يكتسبوا ولاءات جديدة ، وهؤلاء لا هم راديكاليون ولا هم رجعيون ، بل هم جامدون لا فاعلون . ونحن اذا ما قبلنا بالتعريف الاغريقى «للأبله» على أنه انسان له شخصية خاصة ، فلابد عندئذ من أن نخلص الى أن الكثير من المواطنين فى كثير من المجتمعات هم بالفعل أشخاص يتصفون بالبلاهة . وهذه ــ وأنا هنا أستخدم الكلمة بحرص وعناية ــ الحالة الروحية هى ، فيما يبدو لى ، المفتاح للكثير من الأمراض والعلل الحديثة المتفشية بين المفكرون السياسيون ، كما أنها هى المفتاح لقدر كبير من الحيرة السياسية فى المجتمع الحديث . و «الاقتناع» الفكرى و «الاعتقاد» الأخلاقى ، ليست بالمسائل الضرورية ، سواء للحكام أو المحكومين ، لكى يثبت بناء السلطة أو حتى لكى يزدهر . وبقدر ما يتعلق الأمر بالدور الذى تلعبه الأيديولوجيات ، فان الغياب المتكرر

للشرعية الملزمة وتفشى البلادة وجمـود الحس الجماهيرى ؛ يعتبران بالتأكيد أثنين من الحقائق السياسية المركزية حول المجتمعات الغربية اليوم •

وفى مسار أى بحث مقترح القيام به ، ستكون هناك الكثير من المشاكل التى تواجه أولئك الذين يعتقدون فى القوة ذلك الرأى الذى طرحته • ومع ذلك ، فان الفروض الشاردة لبارسونز لا تساعدنا على الاطلاق ، وهو الذى يفترض فقط بأن هناك ، ربما فى كل مجتمع ، ذلك «التنظيم الهرمى للقيم» كما يتصوره • الأكثر من هذا ، أن متضمنات هذا التنظيم تعوق بطريقة منهجية وضع صياغة واضحة للمشـاكل ذات الأهمية :

ونحن لكى نقبل بمخطط بارسونز ، مطلوب منا أن نقرأ ونستخرج من الصورة الحقائق الخاصة بالقوة ؛ بل وفى الواقع البنى المؤسسية وخاصة الاقتصادية ، والسياسية ، والعسكرية • وسوف نجد فى هذه «النظرية العامة» أن بنى الهيمنة والسيطرة ليس لها أى موقع ينظر •

وفى اطار الحدود المتاحة ، ليس فى وسعنا بصورة ملائمة أن نطرح السؤال التجريبى الخاص بالى أى حد ؛ وبأى طريقة ، يتم اضـفاء الشرعية على النظم الاجتماعية ؟ وفكـرة النظام المعيارى والطريقـة التى تناولها بها أصحاب النظرية المتضخمة ، تؤدى بنا الى الافتراض بأن كافة أنواع القوة قد اكتسبت الشرعية فعلا • ولكن فى « النسـق الاجتماعى » ، تعتبر فى الحقيقة :

« المحافظة على مشمولية توقعات الدور ، بمجرد ارسائها ، ليست اشكالية ••• فليس من المطلوب أن تكون هناك ميكانيزمات خاصة لتفسير عملية المحافظة على تكاملية التفاعل ــ التوجيه »[١٣] •

فى هذه الحدود ، لا يمكن صياغة فكرة الصراع بصورة تتسم بالفعالية ، فالعداءات البنائية ، عمليات التمرد الواسعة النطاق ، والثورات ، هى من الأمور التى لا يمكن تصورها . ففى حقيقة الأمر ، من المفروض أن «النسق الاجتماعى» بمجرد قيامه وترسخه ، لا يكون مستقرا وثابتا فقط ، بل يكون أيضا متناغما بصورة ذاتية ، ولابد من «ادخال القلاقل والاضرابات فى النسق» حسب ما يقول بارسونز[١٣] . لذلك ، فان فكرة النظام المعيارى تؤدى بنا الى الافتراض بوجود نوع من التناغم والاعتماد المتبادل بين المصالح باعتبار ذلك هو السمة الطبيعية لأى مجتمع . ولكن كما تبدو هنا ، فان هذه الفكرة هى بمثابة نقطة ميتافيزيقية كما كانت عليه الفكرة الشبيهة تماما عند فلاسفة النظام الطبيعى فى القرن الثامن عشر[١٤] .

والقضاء على الصراع بطريقة سحرية ، وتحقيق التناغم بأعجوبة ، هو أمر يسلب من هذه النظرية «النسقية» و «العامة» امكانات التعامل مع التغير الاجتماعى ، أى مع التاريخ . فالسلوك الجمعى للجماهير الخاضعة للارهاب ، والغوغاء ، والحشود ، والحركات المستثارة ــ التى يمتلىء بها عصرنا ــ هو سلوك ليس له مكان فى البنى الاجتماعية التى خلقها بصورة معيارية أصحاب النظرية المتضخمة . ليس هذا فقط ، بل ان أى أفكار منهجية عن كيفية حدوث التاريخ نفسه ، وعن آلياته وعملياته ، هى أيضا من الأمور غير المتوافرة فى النظرية المتضخمة ، ومن ثم ، يؤمن بارسونز بعدم توافرها فى علم الاجتماع : « عندما تتوافر مثل هذه النظرية ، سيكون قد مر على علم الاجتماع ألف سنة ، وهو أمر لن يحدث فى عصرنا ، بل ربما فى أغلب الأحوال لن يحدث أبدا»[١٥] . وبالقطع ، فان هذا التأكيد يتسم بالغموض غير العادى .

ففي واقع الأمر ، ان أي مشكلة تتعلق بالمضمون في نطاق النظرية المتضخمة ، هي مشكلة لا يمكن صياغتها بوضوح • الأسوأ من هذا ، أن طرحها غالبا ما يكون محملا بعناصر التقييم ومليء بالكلمات المطاطة التي تضفي عليها الغموض • فعلي سبيل المثال ، انه لمن الأمور الصعبة تصور وجود مسعى أكثر عمقا من تحليل المجتمع الأمريكي من منطلق «نمط القيم» الخاص بـ «الانجاز في مقابل العمومية» دون ذكر الجانب المتغير في طبيعة ، ومعنى ، وأشكال النجاح الذي تتميز به الرأسمالية الحديثة ، أو دون ذكر البناء المتغير للرأسمالية ذاتها ، أو دون تحليل للتدريج الطبقي في الولايات المتحدة من حيث «نسق القيم السائد» ودون الأخذ في الاعتبار الاحصائيات المعروفة عن فرص الحياة القائمة على مستويات الملكية والدخل [١٦] •

ولا أعتقد أن المرء يتجاوز كثيرا اذا قال أنه بقدر قيام أصحاب النظرية المتضخمة بمعالجة المشاكل بصورة واقعية ، فانها تعالج من خلال مصطلحات مجردة ليس لها مكان في النظرية المتضخمة ، بل وغالبا ما تكون مناقضة لها • وفي هذا يقول آلفين جولدنر : « ان المدى الذي وصلت اليه جهود بارسونز في التحليل النظرى والتجريبي للتغيير ، قد أدى به فجأة الى ادراج قائمة بالمفاهيم والفروض الماركسية ، وهو الأمر المثير للحيرة ••• حيث يبدو تقريبا كما لو كانت هناك مجموعتان من الكتب ، احداهما لتحليل عملية التوازن ، والأخرى لبحث التغير » [١٧] •

ويستطرد جولدنر في ملاحظته ويذكر كيف أن بارسونز ، في حالة ألمانيا المتدهورة ، يوصي بمهاجمة «اليونكرز» في عقر دارهم باعتبارهم «حالة مستأثرة بالميزات الطبقية» ثم يقوم بتحليل الخدمة المدنية من حيث «الأساس الطبقي للتجنيد» • باختصار ، نجد أن البناء الاقتصادى

والمهنى برمته — يتصوره فى الاطار الماركسى تماما ، وليس فى اطار البناء المعيارى كما صورته النظرية المتضخمة — يظهر فجأة أمام أنظارنا . وهذا يجعل الانسان يستمتع بالأمل فى أن أصحاب النظرية المتضخمة لم يفقدوا تماما الحس بالواقع التاريخى .

(٥)

أعود الآن الى مشكلة النظام ، التى تبدو فى صورتها عند هوبز ، بمثابة المشكلة الرئيسية فى كتاب بارسونز . ومن الممكن هنا اللجوء الى الايجاز بشأن هذه المشكلة لأنها ، فى مسار التطور فى علم الاجتماع ، قد أعيد تعريفها من جديد ، كما أنها فى أكثر صورها فائدة قد باتت توصف الآن بمشكلة التكامل الاجتماعى ، وان كانت بطبيعة الحال تحتاج الى مفهوم عملى للبناء الاجتماعى وللتغير التاريخى . وكما أعتقد ، فان معظم علماء الاجتماع ، بعكس أصحاب النظرية المتضخمة ، ستكون ردودهم أشبه بالتالى :

قبل كل شىء ، ليس هناك اجابة «واحدة» على التساؤل الخاص ، بما هو الشىء الذى يحقق تماسك البناء الاجتماعى ؟ والقول بعدم وجود اجابة واحدة يرجع الى أن لأن البناءات الاجتماعية تختلف بشكل عميق فى درجات وأنواع وحدتها . والحقيقة هى أن أنماط البناء الاجتماعى يأتى تصورها من حيث الأنماط المختلفة للتكامل . ونحن عندما نهبط من مستوى النظرية المتضخمة الى الحقائق التاريخية الواقعية ، فاننا نلاحظ على الفور مدى عدم تناسب مفاهيمها التى تستند الى زاوية واحدة . وبهذه المفاهيم لا يكون فى وسعنا التفكير فى التنوع البشرى ، فى ألمانيا النازية عام ١٩٣٦ ، وفى مدينة سبرطة فى القرن السابع قبل الميلاد ، وفى الولايات المتحدة عام ١٨٣٦ ، وفى يابان عام

١٨٨٦ ، وبريطانيا العظمى عـام ١٩٥٠ ، وفى روما فى عصر الأديرة • ومجرد ذكر هذا التنوع معناه بالتأكيد أنه أيا كانت العناصر المشتركة بين هذه المجتمعات ، فهو لابد من اكتشافه عن طريق البحث التجريبى • واسناد أى شيء ومحاولة التنبؤ به بما يتجاوز الشكليات الفارغة حول المجال التاريخى للبناء الاجتماعى ، معنـاه التغافل عن قدرة الانسان الخاصة فى الحديث عن كل ما هـو مقصـود بالعمل الخاص بالبحث الاجتماعى •

وربما قد يتصور الانسان أنماط البناء الاجتماعى فى اطار نظـم مؤسسية كالنظم السياسية ، والنظم الاقتصادية ، والنظم العسكرية ، ونظم القرابة ، والنظم الدينية • وبتحديد هذه النظم بشكل يجعـل الانسان قادر على اظهار حدودها العامة فى نطاق مجتمع تاريخى معين ، هو شيء يترك الانسان للتساؤل ، كيف ينتسب كل منها للأخرى ، أى باختصار ، كيف تآلفت هذه النظم فى بناء اجتماعى واحد ؟ الردود على هذا التساؤل ، قد وضعت بشكل ملائم فى مجموعة من «نماذج العمل» التى تستخدم فى جعلنا أكثر وعيا ، ونحن نتفحص مجتمعات محددة فى أزمنة محددة ، بالروابط التى «تقيدها معا» •

قد يكون تصور أحد هذه «النماذج» فى نطاق النموذج العامل فى كل نظام مؤسس لوضع مبدأ بنائى مشابه ، وليكن هذا النموذج هـو أمريـكا «توكفيل» • فى أمريـكا «توكفيل» ، ذلك المجتمع الليبرالى الكلاسيكى ، يعتبر كل نظام من المؤسسات له استقلاليته الذاتيـة ، وتتحقق حريته من خلال أى تنسيق تقوم المؤسسات الأخرى • ففى الناحية الاقتصادية ، هناك مبدأ «عـدم تدخل الدولة» ، وفى مجـال العقيدة الدينية ، هناك العديد من الطوائف والكنائس التى تتنافس علانية

وبشكل مفتوح فى سوق الخلاص والانقاذ الروحى ، وهناك أنظمة القرابة القائمة على سوق للزواج يختار الأفراد فيه أحدهم الآخر . فى هذا المجتمع ، الانسان الذى صنع نفسه ، وليس الانسان صنيع الأسرة ، هو الذى يصعد وترتفع منزلته فى دائرة المراكز الاجتماعية . وفى النظام السياسى ، هناك التنافس الحزبى من أجل صوت الفرد ، حتى فى المحيط العسكرى ، هناك قدر كبير من الحرية فى تجنيد جنود الدولة ، فى اطار مفهوم واسع ــ بالغ الأهمية ــ وهو رجل واحد معناه بندقية واحدة . كذلك مبدأ الوحدة والتكامل ــ الذى يضفى الشرعية الأساسية على هذا المجتمع ــ معناه الصعود والارتفاع داخل كل نوع من المؤسسات انطلاقا من المبادرة الحرة للأفراد المستقلين فى التنافس أحدهم مع الآخر . من هذا ، وفى نطاق حقيقة هذا «التطابق» ، يمكن لنا أن نفهم الطريقة التى يتحد بها مجتمع ليبرالى كلاسيكى .

ولكن مثل هذا «التطابق» لا يمثل سوى نمط واحد فقط ، ومجرد اجابة واحدة على «مشكلة النظام العام» . فبخلاف هذا ، توجد أنماط أخرى للوحدة . ألمانيا النازية ، على سبيل المثال ، حققت وحدتها وتكاملها بطريق «التنسيق» . ويمكن توضيح النموذج العام لها كالتالى: فى نطاق النظام الاقتصادى ، كانت المؤسسات على درجة بالغة من المركزية ، حيث نجد قلة قليلة فقط من الوحدات الاقتصادية الكبرى هى المسيطرة على جميع العمليات ، كثيرا أم قليلا . أما فى نطاق النظام السياسى ، فهناك قدر أكبر من الانقسام : حيث تتنافس الكثير من الأحزاب السياسية للتأثير على الدولة ، لكن لا أحد منها يتمتع بالقوة الكافية التى تمكنه من ضبط نتائج المركزية الاقتصادية ، وأحد هذه النتائج ــ بجانب عوامل أخرى ، هو التدهور والكساد . ولقد استطاعت

الحركة النازية بنجاح ، استغلال حالة اليأس الشعبى الجماعى ، خصوصا لدى الطبقات المتوسطة الدنيا ، من التدهور الاقتصادى ، وحققت توافقا وثيقا بين النظم السياسية ، والاقتصادية ، والعسكرية . وقام حزب واحد باحتكار واعادة صنع النظام السياسى ، ثم قام بابادة أو تجميع جميع الأحزاب الأخرى التى قد تتصارع من أجل السلطة . ولكى يتم هذا ، فقد تطلب الأمر من الحزب النازى أن يجد نقاطا تحقق توافق المصلحة بجوانب الاحتكار فى النظام الاقتصادى وأيضا مـــع صفوة معينة فى النظام العسكرى . وفى هذه النظم الرئيسية ، يوجد هنـــاك ، أولا : تركيز مقابل للقوة ، ثم يعد ذلك كل من هذه النظم يتوافق ويتعاون فى حيازة القوة . كما نجد أن جيش الرئيس هندنبرج ليس له أى اهتمام بالدفاع عن جمهورية وايمر ، أو بسحق الألوية السيارة من حزب الحرب الشعبى . فى نفس الوقت هناك دوائر الأعمال الكبيرة تتوافر لديهـــا الرغبة فى المساعدة على تمويل الحزب النازى ، الذى يعد ، من بـــين أشياء أخرى ، بسحق الحركة العمالية . لذلك ، فان الأنماط الثلاثة من الصفوة ينضمون معا فى ائتلاف صعب لابقاء القوة فى نظمهم الخاصة والعمل على تنسيق بقية المجتمـــع . أما الاحزاب السياسية المنافسة فلا هى مقهورة ولا هى محظورة ، أو أنها تقوم بحل نفسها طواعية . كذلك أنظمة القرابة والأنظمة الدينية ، مثلها مثـــل جميـــع التنظيمات الواقعة داخل وبين كافة النظم ، تمت تنقيتها والتنسيق بينها ، أو على الأقل تم تحييدها .

وحزب الدولة الشمولية هو الوسيلة التى تستخدمها الأجهزة العليا بكل من النظم الثلاث السائدة لتنسيق نظمها الخاصة والنظم المؤسسية الأخرى . وبذلك فهو يصبح «الاطار التنظيمى» الشامل الذى يفرض الأهداف على جميع النظم المؤسسية بدلا من الاكتفاء بضمان « الحكم

بواسطة القانون » • ويقوم الحزب بتوسيع نفسه ، زاحفا الى كل مكان عن طريق «الضم» و «الادماج» • وهو اما يلجأ الى التحطيم أو التغلغل • وفى كلا الحالتين يصير ضابطا لكافة أنماط التنظيمات ، بما فى ذلك الأسرة •

كذلك الدوائر الرمزية لكافة المؤسسات ، تخضع لضبط الحزب • وبخلاف الاستثناء الجزئى للمؤسسة الدينية ، غير مسموح بأى مزاعم مناهضة للحصول على الاستقلال الذاتى الشرعى • ونجد أيضا الاحتكار الحزبى لوسائل الاتصال والنشر ، بما فى ذلك المؤسسات التعليمية • فى نفس الوقت يعاد تشكيل كافة الرموز لتكوين الشرعيـــة الأساسية للمجتمع المنسق • أما مبدأ الزعامة السحرية المطلقة (الحكم الكاريزمى) فى نطاق هيكل تنظيمى صارم ، فيتم نشره على نطاق واسع ، وذلك فى بناء اجتماعى محكم ، والى حد كبير يتصل ببعضه بشبكة من القيود الصارمة [١٨] •

بالتأكيد هذا يكفى لتوضيح ما أعتقد أنه واضح : أنه ليس هناك «نظرية متضخمة» ، وليس هناك مخطط شامل يمكننا فى اطاره فهـــم وحدة البنـــاء الاجتماعى ، ولا توجد اجابة واحـــدة على تلك المشكلة القديمة المنهكة الخاصة بالنظام الاجتماعى • لكن العمل المثمر بشأن هذه المشاكل فسوف ينطلق فى اطار مختلف نماذج العمل التى ذكرتها هنا ، وهذه النماذج سوف تستخدم فى نطاق صلة وثيقة وتجريبية بطائفة من البناءات الاجتماعية التاريخية والمعاصرة •

انه لمن المهم أن نفهم أن «نماذج التكامل» هذه ربما يمكن تصورها أيضا على أنها بمثابة نماذج عاملة للتغير التاريخى • فنحن ، مثـــلا ، اذا لاحظنا المجتمع الأمريكى فى عهد توكفيل ثم مرة أخرى فى منتصف القرن العشرين ، فاننا سنرى على الفور أن الطريقة التى «تساند وتدعم»

بناء القرن التاسع عشر تختلف تماماً عن نماذج التكامل الحالية له ٠ وهنا نتساءل : كيف تغير كل نظام من النظم المؤسسة ؟ وكيف تغيرت علاقاته مع كل من النظم الأخرى ؟ وكيف كانت الايقاعات والمعدلات المختلفة التى وقعت بها هذه التغيرات البنائية ؟ ثم ، فى كل حالة من هذه الحالات ، ما هى الأسباب الضرورية والكافية التى دعت الى هذه التغيرات ؟ بطبيعة الحال ، البحث عن السبب الملائم عادة ما يتطلب على الأقل القيام ببعض العمل بطريقة المقارنة وكذلك بأسلوب تاريخى ٠ ولكن بشكل اجمالى ، فى امكاننا ايجاز هذا التحليل للتغير الاجتماعى ، ومن ثم صياغة طائفة من المشاكل الأوسع ، بالقول أن التغيرات قد أفضت الى حدوث انتقال من «نموذج للتكامل» الى نموذج آخر ٠ مثال ذلك ، أن القرن الأخير من التاريخ الأمريكى يظهر حدوث انتقال من بناء اجتماعى متكامل بدرجة كبيرة من خلال عملية التناظر الى بناء أطر أكثر خضوعا لعملية التنسيق ٠

والمشكلة العامة الخاصة بايجاد نظرية للتغيير الاجتماعى ـــ أى التاريخ ـــ لا يمكن فصلها عن المشكلة العامة المتعلقة بايجاد نظرية عامة للبناء الاجتماعى ٠ وأعتقد أن الأمر واضح فى أن علماء الاجتماع فى دراستهم الفعلية لا يتعرضون لأى متاعب نظرية كبيرة فى فهم الحالتين بشكل موحد ، وربما يكون هذا هو السبب فى أن «فرس البحر» واحد يساوى ، فى العلوم الاجتماعية ، عشرون «نسقا اجتماعيا» ٠

وأنا هنا ، بالطبع ، لا أعرض هذه النقاط فى أى محاولة من جانبى لتحديد مشاكل النظام والتغير ـــ أى مشاكل البناء الاجتماعى والتاريخ ٠ بل أفعل ذلك فقط كمجرد طرح للخطوط العامة لهذه المشاكل ولتبيان شىء عن نوع العمل الذى تم بشأنهما ٠ وربما قد تكون هذه الملاحظات مقيدة أيضا فى جعل جانب واحد من «الوعد» الذى يحمله علم الاجتماع

أكثر تحقيقا • وبالطبع ، فانني قد طرحت هذه الملاحظات هنا لكي أشير الى أصحاب النظرية المتضخمة وكيف عالجوا احدى المشاكل الرئيسية لعلم الاجتماع بطريقة غير كافية وبشكل غير ملائم • ففي « النسق الاجتماعي » لم يتمكن بارسونز من الهبوط الى مستوى العمل الخاص بعلم الاجتماع لأنه قد خضع لسيطرة أن النموذج الواحد للنظام الاجتماعي الذي وضعه هو نموذج عام وشامل بشكل ما • ثم جعل هذه الفكرة تتملكه ، ذلك لأنه في حقيقة الأمر قد أضفى شكل من التشيؤ على مفاهيمه • أما الشيء «المنهجي» في هذه النظرية المتضخمة ، فهو الطريقة التي تسبق بها أي مشكلة تجريبية محددة • فهذه النظرة لم تعتاد على طرح وتفسير أي مشكلة ذات أهمية ملحوظة بشكل أكثر دقة وبدرجة كافية • كذلك فانها لم تنشأ نتيجة لأي حاجة للتحليق عاليا لبرهة قصيرة والقاء نظرة استطلاعية على شيء ما في العالم الاجتماعي بوضوح أكبر، ولحل مشكلة ما يمكن تفسيرها في اطار الواقع التاريخي الذي يجد الناس والنظم الاجتماعية فيه كيانهم المادي الملموس • لذلك ، فان مشكلتها ، ومسارها ، وحلولها ، تتسم بالطابع النظري المتضخم •

ان عملية الانسحاب الى العمل المنهجي من وضع المفاهيم ينبغي أن تكون فقط مجرد لحظة شكلية في نطاق علم الاجتماع • وقد يكون من المفيد هنا أن نتذكر أن محصلة هذا العمل الشكلي في ألمانيا سرعان ما تحول الى التوظيف الموسوعي والتاريخي ، وهذا التوظيف الذي هيمنت عليه روح ماكس فيبر ، كان هو ذروة التراث الألماني الكلاسيكي• ولقد أصبح هذا التراث ممكنا من خلال كيان من العمل السوسيولوجي الذي ارتبطت فيه المفاهيم العامة عن المجتمع بشكل وثيق بعملية الكشف التاريخي • ولقد كانت الماركسية الكلاسيكية مسألة مركزية لتطور علم

الاجتماع المعاصر ، حيث قام ماكس فيبر ، مثله مثل الكثير من غيره من علماء الاجتماع ، بعرض جزء كبير من عمله على شكل حوار مــع كارل ماركس . ولكن لابد دائما من الاعتراف بفقدان الذاكرة عند العــالم الأمريكى ؛ ففى النظرية المتضخمة أصبحنا الآن نواجه انسحابا شكليا آخر ، ومرة أخرى ، بات الشىء الملائم فقط ، هو وقفة يبدو أنها قد أصبحت دائمة . وعلى حد قولهم فى أسبانيا «كثيرون هم الذين يبرعون فى خلط أوراق اللعب ، لأنهم لا يبرعون فى اللعب »(١٩) .

المراجـــــع

(١) تالكوت بارسونز ، «النسق الاجتمـاعى» ، جلينكو ، الينوى The Free Press ، ١٩٥١ ، ص ١٢ ، ٣٦ ، ٣٧ .

(٢) انظر الملحق ، الجزء الخامس .

(٣) تالكوت بارسونز «النسق الاجتماعى» ، مرجع سابق ، ص ٨٨ — ٨٩ .

(٤) نفس المرجع ، ص ٤١ — ٤٢ .

(٥) فى امكاننا أيضا أن نتأملهـا فى علاقتها بمستخدميها — وهو الجانب البراجماتى الذى ليس هناك ما يدعونا للقـلق بشأنه هنا . وهذه هى «أبعاد المعنى» الثلاثة التى استخدمها «تشارز موريس» بدقة منهجية فى كتابه «أسس نظـرية الدلالات» ، دائرة المعارف الدولية ، المجلد الأول ، العدد ٢ ، جامعة شيكاغو ، ١٩٣٨ .

(٦) تالكوت بارسونز ، النسق الاجتماعى ، مرجع سابق ، ص٥٥٢ .

(٧) قارن مـع كتـاب الممتاز « بعـض الملاحظات على النسـق الاجتماعى » ، النشرة البريطانية لعلم الاجتماع ، المجلد ٧ ، ٢ يونيو ١٩٥٦ .

(٨) جيرث ، رايت ميـلز ، «بنـاء الشخصية والبناء الاجتماعى» ، نيويورك ، ١٩٥٣ ص ٢٧٤ — ٢٧٧ ، وهو العمل الذى أعتمد عليه بحرية فى كتابتى لهذا الجزء ، والجزء الخامس .

(٩) قارن كارل ماركس وفريدريك انجلز ، «الأيديولوجية الألمانية» نيويورك ، ١٩٣٩ ، ص ٤٢ وما بعدها .

(١٠) من أجل بيان تجريبي مستفيض عن «القيم» التى يعمل رجال الأعمال الأمريكيون ، مثلا ، على نشرها • أنظر ساتون ، هاريس ، كايزين وتوبين «عقيدة العمل الأمريكية» ، كامبريدج ، ماساتشوستش ، جامعة هارفارد ، ١٩٥٦ •

(١١) جيرث ، رايت ميلز ، بناء الشخصية و البناء الاجتماعى ، مرجع سابق ، ص ٣٠٠ •

(١٢) تالكوت بارسونز ، النسق الاجتماعى ، مرجع سابق ، ص ٢٠٥ •

(١٣) نفس المرجع ، ص ٢٦٢ •

(١٤) قارن ، كارل بيكر ، «المدينة السماوية» ، ولويس كوزر «الصراع» ، جلينكو ، اليتوى ، ١٩٥٦ •

(١٥) بارسونز ، عن ألفين جولدنر ، «بعض الملاحظات على النظرية النسقية» ١٩٤٥ — ١٩٥٥ ، «علم الاجتماع فى الولايات المتحدة الأمريكية» ، اعداد هانز زيتنبرج ، باريس ، اليونسكو ، ١٩٥٦ ، ص ٤٠ •

(١٦) قارن لوكوود ، «بعض الملاحظات على النسق الاجتماعى» ، مرجع سابق ، ص ١٣٨ •

(١٧) جولدنر ، الفقرة المذكورة ، ص ٤١ •

(١٨) فرانز نيومان ، «فرس البحر» نيويورك ، أكسفورد ، ١٩٤٢ • وهو حقا نموذج رائع لما يجب أن يكون عليه التحليل البنائى لمجتمع تاريخى • وعن العرض المذكور أعلاه ، أنظر جيرث ، ورايت ميلز ، «الشخصية و البناء الاجتماعى» ، مرجع سابق ، ص ٣٦٣ وما بعدها •

(١٩) من الواضح أن النظرة المعينـــة للمجتمع التى يمكن التنقيب عنها فى نصوص بارسونز ، هى نظـــرة أقرب لأن تكون ذات استخدام أيديولوجي مباشر ، حيث أن النظرة ، من الناحيـــة التقليدية ، قد ارتبطت بطبيعة الحال بأساليب التفكير المحافظة. فأصحاب النظرية المتضخمة لم يحدث وأن نزلوا كثـــيرا الى الحليـــة السياسية ، وبالتأكيـــد فانهـــم لم يأخذوا مشاكلهم ليضعوها داخل السياقات السياسية للمجتمع العصرى . ولكن هذا بطبيعة الحال لا يعفى عملهم من المعنى الأيديولوجى . وأنا هنا لا أعتزم تحليل بارسونز فى هـــذا الخصوص ، ذلك لأن المعنى السياسى لـــ «النسق الاجتماعى» يقع بشكل هامشى، عندما يترجم بشكل ملائم ، حتى أننى أشعر بعدم الحاجة لجعله أكثر وضوحا . ان النظرية المتضخمة لم تعد تلعب الآن أى دور بيروقراطى مباشر ، وكما ذكرت من قبل ، فان افتقارها لعنصر الوضوح يحد من أى استفادة عامة قد تحملها فى طياتهـــا . وبالطبع ، فان هذا قد يكون هو رأسمالهـــا : فالغموض الذى يشوبها يمنحها بالفعل امكانات أيديولوجية كبرى .

ان المعنى الأيديولوجى للنظرية المتضخمة ينحو بشـــدة لاضفاء الشرعية على الأشكال الثابتة من الهيمنة والسيطرة ، ومع ذلك ، فلو حدث وتطلبت الحاجة الأكبر أن تكون هنـــاك عناصر شرعية كاملة عند الجماعات المحافظة ، هنا فقط قـــد يكون أمام النظرية المتضخمة الفرصـــة لكى تكون مناسبة من الناحية السياسية . وفى بداية هذا الفصل : فاننى كنت قد طرحت سؤالا : هل النظرية المتضخمة كما عرضت فى «النسق

الاجتماعى» هى مجرد لغو كلام أم هى أيضا عميقة المعنى ؟ واجابتى على هذا السؤال ، هى : انها فقط حوالى ٥٠٪ مجرد لغو كلام ، و ٤٠٪ مما هو معروف جيـدا وشـائع فى علم الاجتماع ، أما الـ ١٠٪ الباقية كما قد يقول بارسونز ، فاننى أود تركها مفتوحة لأبحاثكم التجريبية الخاصة . أما أبحاثى أنا فتقول بأن هذه الـ ١٠٪ الباقية هى ذات فائدة أيديولوجية ممكنة ، بالرغم من أنها أقرب الى الغموض .

الفصل الثالث

الخبروية المجتزأة

الفصل الثالث

الخبروية المجتزأة *

تشغل الخبروية المجتزأة ، مثلها مثل النظرية المتضخمة ، نقطة مفصلية أساسية فى مسار العمل العلمى ، وسمحت بسيطرتها على العقل العلمى . وأضحى كل من الخبروية المجتزأة والنظرية المتضخمة يشكل هروبا من أداء المهام الرئيسية المطروحة على العلوم الاجتماعية . حقيقة ان اعتبارات المنهج والنظرية جوهريان لانجاز مهام علومنا ولكنهما أصبحا لدى كل من النظرية المتضخمة والخبروية المجتزأة أداتى إعاقة علمية . ففى الأولى يقوم بدور الاعاقة تشيىء المفاهيم النظرية ، وفى الثانية يقوم بهذا الدور الكف والقصور المنهجيين .

(*) كلمة خبروية هى ترجمة للمصطلح الانجليزى Empiricism ، ولها عدة ترجمات أخرى مثل الإمبيريقية وهى صياغة عربية لنفس المصطلح ؛ والخبروية تمييزا عن مصطلح Experience الذى يعنى الخبرة . كما يترجمها المعجم الفلسفى بكلمة «تجريبى» ويعنى بها ما يأتى من الخارج . ويترجمها قاموس مصطلحات فلسفية بكلمة «تجريبى» أيضا ويعنى به ما يأتى عن طريق التجربة الحسية بطريق مباشر أو غير مباشر . أما كلمة «المجتزأة» فهى ترجمة لمصطلح Abstracted والذى يترجم بمعنى «المجرد» وهو خطأ شائع فى كثير من المؤلفات العربية ؛ لأن رايت ميلز يميز بين النظرية المتضخمة التى تهتم بالتجريد وتضخيم المصطلحات وتستبدل الواقع المعقد بمفاهيم أكثر منه تعقيدا تقريبيا ؛ وبين التجزيئية التى تهتم بالظواهر الجزئية ، وتعزلها عن سياقها البنائى الاشمل ، وعن خلفيتها التاريخية ، وبين تمسخ رؤية علم الاجتماع ، ويصير العلم خبالا للوعى الزائف بالواقع كما يبين برتباوم «المترجم» .

(١)

واذا كنت لن أحاول هنا تلخيص النتائج التى تضمنتها كافة أعمال الباحثين المولعين بالخبروية المجتزأة ، فانى سأحاول فقط توضيح السمة العامة لأسلوبهم فى العمل بجانب مناقشة بعض الفرضيات التى تضمنتها أعمالهم . ان الدراسات التى اعتمدت على هذا الاسلوب نحت بصورة منتظمة منحى معياريا بدرجة أو بأخرى ، فهم عادة ، وفى الممـارسة العملية يعتمدون فى جمع الوقائع على اجراء مقابلات مع مجموعة من الافراد الذين يتم اختيارهم وفقـا لاجراءات المعاينـة ، ثم يقومون بتصنيف الاجابات التى أدلى بها أفراد العينة ومن ثم تفريقهـا على بطاقات لمعالجتها احصائيا قصد تحديد العلاقات بين المتغيرات . ولاشك عندى فى أن ما يتمتع به هذا الأسلوب من جاذبية يرجع الى سهولة تعلمه من قبل أى شخص لديه الذكاء الملائم . أما عن النتائج التى يتم التوصل اليها فهى عادة ما تصاغ من خلال تأكيدات احصائية تكـون عند المستوى البسيط نسبا مئوية وتتم عند المستوى الأكثر تعقيدا من خلال تصنيفات وتقاطعات وجداول مركبة غالبا ما تكون دقيقة ، والتى بعدئذ تنهار ، بطرق عديدة ، لكى تشكل عدد من المقاييس المركزية . بخلاف هذا ، هناك عدة طرق معقدة لمعالجة هذه البيانات والمعطيات ، وان كانت هذه الطرق لا تعنينا هنا لأنهـا ، وبغض النظـر عن درجة التعقيد ، مازالت مجرد معالجات من نوع المادة المشار اليها .

وبالنسبة لبحوث الاعلان ووسائل الاعلام ، فان الرأى العـام يشكل محور اهتمام معظم أعمال هذا الأسلوب البحثى ، وبالرغم من عدم ربط البحوث بأى فكرة تساعد فى اعادة طرح قضايا الرأى العـام والاتصال الجماهيرى كحقل للدراسة العلمية ، فان الاطار العام لهذه

الدراسات يكاد يركز جهده فى الاجابة على أسئلة من يقوم ماذا ، ولمن وعبر أى وسيلة اعلان ، وما هى النتائج المترتبة على هــذا ؟ وأما عن التعريفات الشائعة للمصطلحات الأكثر استخداما فمنها الآتى :

« يقصد بـ «العام» الدلالة على ذلك المقدار الضـــخم ــ من المشاعر والاستجابات غير الخاصة وغير الفردية التى تصدر عن أعداد كبيرة من الناس • وهذه السمة المميزة للرأى العام تستلزم استخدام أسلوب المسح بالعينة • وأما «الرأى» فلا أقصد به المعنى الشـــائع والعادى للرأى حول القضايا الرئيسية مدار البحث ، والآراء الوقتية سريعة الزوال ، وانما أيضا الآراء ذات النمــط السياسى ، بجــانب المواقف ، والمشاعر ، والقيم ، والمعلومات ، والأفعال المرتبطة بذلك • والتى لا تستوجب معرفتها والوصول اليها توظيف الاستبيانات والمقابلات فقط ، بل أيضا استخدام الحيل الاسقاطية وحيل القياس [١] •

هذا ويوجد فى مثل هذه المعالجات اتجاه معــلن يخلط ما بــين ما يجب دراسته وبين الطرق المقترحة للدراسة • ان كلمة عام ، كمــا سوف أستخدمها ، تشير الى تجمع كبير من الناس يمكن التعامل معه بأسلوب العينات الاحصائية • أما بالنسبة للآراء التى يعتنقها النـــاس فلكى تعرفها ، عليك بمحادثة الناس والذين لن يكون بمقدورهم أحيانا اخبارك عما يدور فى أذهانهم ، ومن ثم عليك استخدام حيــل أخرى للدفاع والقياس •

لقد تم انجاز معظم دراســات الرأى العــام ، فى اطار البنــاء الاجتماعى للولايات المتحدة ، وهى زمنيا منصبة على العقد الأخير أو نحو ذلك • وربما كان السبب فى عدم اهتمام هذه الدراسات ببلورة

«الرأى العام» ، أو اعادة صياغة المشاكل الرئيسية فى هذا المجال ، بطريقة مناسبة أو حتى بطريقة أولية ، هو أن هذه الدراسات انحصرت فقط داخل نطاق الاطار التاريخى والبنائى .

لقد نشأت مشكلة «العام» فى المجتمعات الغربية نتيجة لتحول عملية الاجماع التقليدى والمحافظ التى اتصف بها مجتمع العصور الوسطى ، الى فكرة المجتمع الاستهلاكية التى وصلت ذروتها فى أيامنا هذه . فما كان يسمى «عامة الناس» فى القرنين الثامن والتاسع عشر أضحى يطلق عليه تعبير «الجماهير» . والأهم فى هذا هو تدهور الصلة البنائية بين عامة الناس حيث أصبحوا جموعا كل منهم محاصر فى فخ بنائى محلى محدود . ان هذا وما على شاكله كان يجب أن يسهم فى تحديد الإطار الضرورى لتصميم الدراسات المعينة بعامة الناس وبوسائل الاتصال الجماهيرى . كما أنه من الضرورى أيضا توضيح ودراسة كافة المراحل التاريخية التى مرت بها المجتمعات الديمقراطية ، وبصفة خاصة ، بما كان يطلق عليه «الشمولية الديموقراطية» ، أو «الديموقراطية الشمولية» . وباختصار ، فانه لا يمكن طرح قضايا ومشكلات هذا المجال من مجالات دراسة علم الاجتماع من خلال حصرها فى نطاق رؤية الخبروية المجتزأة وحدودها وكما تمارس الآن .

وثمة مشكلات وموضوعات كثيرة من نوع تلك التى يهتم بها المشغلون بدراسة الرأى العام كدراسة الآثار الناجمة عن وسائل الاعلام مثلا ، يصعب تناولها بدون قاعدة بنائية محددة . فهل يمكن مثلا فهم الآثار المترتبة على هذه الوسائل ـ ناهيك عما تحمله من معنى لتطور المجتمع الجماهيرى ـ بالاكتفاء بدراسة شعب ما باستطلاع آراء عينة منه فقط ، مهما تكن دقة الدراسة ، لأنه نظرا لتشبع الانسان بهذه

الوسائل على مدى جيل كامل !! فان الباحث يكون بحاجة الى انتقاء وفرز الأفراد «الأقل تعرضا» لوسيلة اعلامية أو أخرى من أولئك الذين تعرضوا لهما أكثر ، لأن ذلك أمر له أهميته الكبرى فى فهم المصالح والاهتمامات الاعلامية ، وغير ذلك لن تساعد هذه الدراسات فى تشكيل أساس كاف لوضع نظرية عن المعنى الاجتماعى لوسائل الاعلام .

هذا ويشكل «السلوك الانتخابى» محورا رئيسيا فى اهتمامات هذه الدراسة ، فاختياره ، فيما أعتقد ، يبدو ملائما للمعالجات الاحصائية . أو يحاولون تعويض محدودية نتائج هذه البحوث بالمبالغة فى دقة الأساليب المستخدمة فى جمع البيانات . ومن المثير لعلماء السياسة فى مثل هذه الدراسات هو خلو دراسات السلوك الانتخابى من أى اشارة الى دور التنظيم الحزبى وآلياته فى التصويت أو حتى الاشارة الى أى نوع من المؤسسات السياسية . ومع ذلك ، فهذا هو الذى ساد فى دراسة «اختيار الناس» الذى أجرى عام ١٩٤٠ ، وهى دراسة شهيرة أجريت فى مقاطعة «ايدى» بولاية أوهايو . لقد بينت نتائج الدراسة أن الأثرياء ، والريفيين ، والبروتستانت صوتوا لصالح مرشحى الحزب الجمهورى ، أما الأشخاص الذين لهم خصائص غير تلك فقد صوتوا لصالح الحزب الديموقراطى . ولم تفيدنا الدراسة بأى شىء يتعلق بديناميات السياسة الأمريكية .

وتعد فكرة الشرعية أحد المفاهيم المركزية فى علم السياسة ، خصوصا وأن مشاكل وقضايا هذا العلم ترتكز على مسائل تتعلق بالرأى العام والأيديولوجيا . ان بحوث «الرأى السياسى» تثير الانتباه والفضول ، لأنها تثير شكا فى أن سياسات الاقتراع التى تتم فى أمريكا تبدو نوعا من السياسات الخالية من الرأى — خاصة عندما يأخذ —

الانسان كلمة «الرأى» بجدية ، ويدقق فى هذا النوع من التصويت الذى يخلو تماما من أى معنى سياسى له أى عمق نفسى ــ اذا أخذ المرء عبارة «المعنى السياسى» بالجدية المطلوبة ؛ ولكن ثمة مسائل وقضايا يصعب اثارتها حول البحوث السياسية ــ وأنا قصدت باعتبارها مسائل يمكن التساؤل منها ما الذى يمكن أن تكون عليه ؟ ان انجازها يتطلب نوعا من المعرفة التاريخية ، وأسلوب من التعبير النفسى اللذان لم يستوفيا حقهما تماما على يد الخبرويون التجزيئيون ، أو حتى تم اتاحتها هذا الأسلوب البحثى .

ومن المعروف أن الحرب العالمية الثانية ، ربما تكون هى الحدث الرئيسى فى العقدين الأخيرين ، ذلك الحدث الذى قمنا على مدى العقد الأخير بدراسة جزء كبير من الاطار التاريخى والنفسى للعواقب التى ترتبت عليه . ومن الأمور الغريبة ، كما أعتقد ، هو أننا حتى الآن لم يحدث أن توافر لدينا عمل يحدد أسباب هذه الحرب ، وان كنا مع ذلك مازلنا نحاول ، وبقدر من النجاح ، تصنيف هذه الحرب على أنها من الناحية التاريخية تعتبر بمثابة شكل محدد من أشكال القتال ، كما نحاول أن نحدد موقعها على أنها حدث محورى فى عصرنا . وفيما عدا عمليات التأريخ الرسمى للحرب ، ربما قد تكون أكمل مجموعة من البحث هو ذلك الاستقصاء الذى استغرق عدة سنوات لحساب الجيش الأمريكى تحت قيادة «صامويل ستوفر» . وفيما يبدو لى ، فان هذه الدراسات تثبت أنه من الممكن بالنسبة للبحث الاجتماعى أن يكون ذا فائدة ادارية دون أن يعنى بمشاكل علم الاجتماع . وبالتأكيد ، فان النتائج لابد أن تكون مخيبة للآمال لأى شخص لديه الرغبة فى أن يفهم شىء ما عن الجندى الأمريكى الذى اشترك فى الحرب ــ وبصفة خاصة لأولئك الذين

يتساءلون : كيف أمكن تحقيق الانتصار فى كثير من المعارك برجال لهم مثل هذه «الروح المعنوية المنخفضة» ؟ لكن محاولة الاجابة على مثل هذه التساؤلات تأخذ بالانسان بعيدا وتخرج به عن نطاق الأسلوب المعتمد وتدخل به فى تلك الدائرة الواهية لعملية «التأمل» .

وفى هذا الشأن ، يمكن القول أن ذلك المجلد الواحد الذى وضعه «ألفريد فاجنس» تحت اسم «تاريخ العسكرية» وكذلك الأساليب التقريرية التكنيكية الرائعة للاقتراب من البشر فى أتون المعركة ، تلك التى استخدمها «مارشال» فى كتابه «رجال تحت النار» يتمتعان بقيمة موضوعية كبرى تفوق تلك المجلدات الأربعة التى وضعها «ستوفر» .

وبالرغم من الدراسات التى أجريت عن التدريج الاجتماعى بالأسلوب الجديد ، الا أنه لم تبرز منها حتى الآن أى مفاهيم جديدة . والحقيقة ، أن المفاهيم الرئيسية التى توافرت من أساليب العمل الأخرى ، لم يتم «ترجمتها» ، ولكن تم التركيز على «المؤشرات» المطاطة عن «المكانة الاقتصادية الاجتماعية» . كذلك ، فان المشاكل البالغة الصعوبة الخاصة بمسائل «الوعى الطبقى» و «الوعى الزائف» ، وبمفاهيم المكانة مقابل الطبقة ، وبفكرة فيبر عن «الطبقة الاجتماعية» التى حسمها احصائيا فقط ، لم يحدث بشأنها أى تقدم على يدى العاملين بأسلوب الخبروية المجتزأة . الاكثر من هذا ، أن اختيار المدن الصغرى باعتبارها «مجال العينة» للدراسات يشكل الحاحا شديدا ، على الرغم من الحقيقة الواضحة تماما بأن المرء ليس فى وسعه أن يضيف مجمل هذه الدراسات أيا كان لأى نظرة لها قيمتها المناسبة عن البناء الوطنى للطبقة ، والمكانة ، والقوة .

وفى مناقشة التغيرات الواقعة فى مجال الدراسات الخاصة بالرأى

العام ، قدم لنا «برنارد بيرلسون» تفسيرا ينطبق ، كما أعتقد ، على معظم الدراسات التى تتم بأسلوب الخبروية المجترأة • فيقول برنارد :

« ان هذه الفوارق (منذ ٣٥ عاما مضت مقابل اليوم) بوضعها معا ، تظهر تغيرا ثوريا فى حقل الدراسات الخاصة بالرأى العام : فحقل هذه الدراسات قد صار يتسم بالصيغة التقنية والكمية ، بلا نظرية ، بالانقسامية ، بالخصـــوصية ، بالتخصصية والنظاميـــة ، بالتحديثية ، وبالجمعية ـــ أى باختصار ، لقد صار كعلم سلوكى مميز ، متأمركا • ومنذ خمس وعشرون عاما مضت بل وقبل ذلك ، قام كتاب بارزون ، كجزء من اهتمامهم العام بطبيعة ووظيفة المجتمع ، بدراســـة الرأى العام عن علم ومعرفة ، ليس من أجل الدراسة « فى حد ذاتها » ، بل فى أطار تاريخى ، ونظرى ، وفلسفى واســـع ، ووضعوا عنه الكتب والمؤلفات • أما اليوم ، فهناك فرق من التقنيون يقومون باجراء البحث فى مشروعات متعلقة بموضوعات محددة ثم يسجلون النتائج • منذ خمس وعشرون عاما مضت ، كانت دراسة الرأى العام بمثابة جزء من العلم والمعرفة ، أما اليوم فهى جزء من العلم فقط »[٣] •

وفى هذه المحاولة الموجزة لتصنيف الدراسات التى تمت بأسلوب الخبروية المجترأة ، فاننى لم احاول الاكتفاء فقط بمجرد القول أن : « هؤلاء الناس لم يقوموا بدراسة المشاكل الاساسية الموضوعية التى أهتم بها » أو مجرد القول : « بأنهم لم يقوموا بدراسة ما يعتبره معظم علماء الاجتماع المشاكل الرئيسية » • انما ما كنت أقوله هو : « أنهم قاموا بدراسة مشاكل الخبروية المجترأة ، فقط من خلال طرح تساؤلاتهم واجاباتهم فى نطاق الحدود التى فرضوها على أنفسهم انطـلاقا من فلسفتهم المعرفية التعسفية » • فى الوقت نفسه ، فاننى لم أستخدم

ـ حسب ما أعتقد ـ أى عبارات دون عناية كافية ، كقولى بأن : أن القصور المنهجى قد تملكهم • وكل ما قلته معناه ، من حيث النتائج ، أن التفاصيل فى هذه الدراسات قد تم حشدها معا دون عناية كافيـــة بالشكل ؛ وهذه التفاصيل ، ولا يهم كم هى عديدة ، لا تقنعنا بأى شىء يستحق الاقتناع به وبالطبع ، ليس هناك من الشكل باستثناء ما قدمه الناسخون والطباعون •

(٢)

ان الخبروية المجتزأة ، باعتبارها أسلوب من أساليب علم الاجتماع ، لا تتصف بأنها صاحبة أى كيان من الفروض والنظريات ، كما أنهـا لا تستند الى أى مفاهيم جديدة عن طبيعة المجتمع أو الانسان أو الى أى حقائق معينة عنهما • وقد يكون صحيحا أنها ذاخرة بأنواع المشاكل التى يختارها ممارسوها للدراسة بشكل تقليدى ، وبالطريقة النمطية التى يقومون بدراسة هذه المشاكل بهـا ، الا أنه من المؤكد أن هـذه الدراسات ليست مدعاة أبدا لتلك الشهرة التى يتمتع بها هذا الاسلوب من البحث الاجتماعى •

على كل ، فان طبيعة النتائج الخاصة بهذه المدرسة ، فى حد ذاتها ، لا تشكل أساسا كافيا يمكن الحكم عليها بناء عليه • فهى كمدرسة ، تعتبر جديدة ، وكمنهج لابد أن تأخذ وقتا ، وكأسلوب للعمل ، فهى الآن فقط تنتشر الى مجال أوسع من «مجالات المشاكل» •

ان أوضح سمات هذه المدرسة ، وليس بالضرورة أهمها ، هو أن ما تتصف به له علاقة بالجهاز الادارى الذى عن لهـا أن تستخدمه ، وبأنماط رجال الفكر الذين قامت بتجنيدهم وتدريبهم • فهذا الجهاز

قد أصبح الآن واسع النطاق ، وهناك الكثير من الدلالات بما يفيد أنه فى طريقه لأن يكون أكثر اتساعا وأكثر تأثيرا • كذلك فقد بات الادارى المفكر والتقنى الباحث — وكلاهما نمط جديد من رجال المهنة المحترفين — ينافسان الآن الانواع المعتادة بصورة أكبر من الاساتذة والعلماء •

ومع ذلك ، فان كل هذه التطورات ، برغم أهميتها الهائلة لشخصية الجامعة فى المستقبل ، ولتراث الفنون الليبرالية ، ولخواص العقل ، التى قد يتصاعد نجمها فى الحياة الاكاديمية الامريكية ، لا تشكل أساسا كافيا يمكن بناء عليه الحكم على هذا الاسلوب من البحث الاجتماعى • بل أن هذه التطورات تذهب بعيدا بأكثر مما قد يعترف به الكثيرون من معتنقى الخبروية المجتزأة نحو تفسير تلك الجاذبيـة وذلك البروز لأسلوبهم • وحتى لو لم يكن هناك شىء آخر ، فان هـذه التطورات قد وفرت العمل للتقنيين شبه المهرة على نطاق وبطريقة لم يكونا معروفين من قبل • فهى قد وفرت لهؤلاء الحياة العلمية التى تتمتع بالامان الذى كانت تحظى به الحيـاة الاكاديمية القديمـة وفى ذات الوقت ، لا تتطلب ذلك النوع القديم من الانجاز الفردى • أى أن هذا الاسلوب من البحث ، باختصار ، هو صاحبه اتصاف الدافع الادارى الذى يتناسب ومستقبل الدراسة الاجتماعية وامكانية اكتسابها للصفة البيروقراطية •

ولكن السمات الفكرية التى تتصف بها الخبروية المجتزأة والاكثر اهمية فى وجوب استيعابها ، هى فلسفة العلم التى يؤمن بها ممارسوها وكيف يؤمنون بها ، وكيف يستخدمونها • فهذه الفلسفة هى التى يندرج تحتها كل من نمط البحث الجارى تنفيذه ، وكذلك الجهاز الادارى وجهاز الافراد الخاص بها • فضآلة حجم الدراسات الفعلية والحاجة الملموسة

نوجود هذا الجهاز الادارى يجدان التبرير الفكرى لهما فى هذه الفلسفة العلمية المحددة .

ومن المهم أيضاح هذه النقطة تماما ، ذلك لما قد يفترضه الانسان بان العقائد الفلسفية لن تكون بالامر المركزى فى تشكيل مشروع له صفة التاكيد البالغ فى دعواه بأنه يمثابة علم . وتتضح أهمية هذا الامر أيضا فى أن ممارسى الخبروية المجتزأة لا يبدون عادة على وعى بأنهم يستندون الى فلسفة معينة . بل ربما قد لايهتم أحد ممن هم على معرفة بممارسى هذا الاسلوب بانكار أن الكثيرين من هؤلاء يغلب عليهم الاهتمام بمكانتهم العلمية الخاصة ؛ حيث أن أهم الصور الذاتية المهنية المحفوظة عنهم هى صورة عالم الطبيعة . وفى مجال جدلهم وحججهم عن القضايا الفلسفية المختلفة فى علم الاجتماع ، هناك احدى النقاط غير المتغيرة عندهم وهى أنهم «علماء طبيعيون» ، أو على الاقل يمثلون «وجهة نظر علم الطبيعة» . أما فى مجال الحوار الاكثر تطورا، فى حضور أحد علماء الطبيعة المشهورين ، فان هذه الصورة الذاتية تكون أقرب للاختزال وتقتصر فقط على صورة «العالم»(٣) .

ومن حيث الممارسة والتطبيق العملى ، غالبا ما يبدو أصحاب الخبروية المجتزأة أكثر اهتماما بفلسفة العلم من اهتمامهم بالدراسة الاجتماعية ذاتها . وكل ما فعلوه هو أنهم قد احتضنوا فلسفة واحدة للعلم يفترضون الآن أنها تشكل المنهج العلمى . وهذا النموذج للبحث هو الى حد كبير أحد أبنية الفلسفة المعرفية ، وكانت أهم نتائجه ، فى نطاق العلوم الاجتماعية ، هى أن أنواع المشاكل المتبناه والطريقة التى تصاغ بها لهى جد محدودة بشدة ومقيدة بالمنهج العلمى . اذن باختصار ، تبدو المنهجية وكأنها هى التى تحكم المشاكل ، وهذا هو

الامر المتوقع لأن المنهج العلمى المطروح هنا لم ينبع من ، كما أنه ليس تعميما لـــ ، ما يعتبر بصفة عامة وصحيحة الخطوط الكلاسيكية لعمل علم الاجتماع ، وانما هو قد نبع بدرجة كبيرة ، مع تعديلات مناسبة ، من فلسفة واحدة لعلم الطبيعة .

والفلسفات الخاصة بالعلوم الاجتماعية ، يبدو أنها تشتمل بشكل واسع على نوعين من الجهد . الاول ، ويتمثل فى سعى الفلاسفة محاولة فحص ما يجرى بالفعل فى عملية الدراســـة الاجتماعية ، ثم يقومون بتعميم وترسيخ اجراءات البحث التى تبدو أكثرها صلاحية . وهـــذا يشكل نوع صعب من العمل ويمكن أن يسفر بسهولة عن كلام فارغ . ولكنه مع ذلك يكون أقل صـــعوبة اذا ما قام به كل باحث من علمـــاء الاجتماع ، واذا كان هناك احساس يحتم على كل منهم أن يقوم به . وحتى الان ، لم يتحقق سوى القليل من هذا العمل ، كما أنه لم يطبق الا على أنواع معينة فقط من المناهج . أما الثانى ، فهو ذلك الاسلوب من البحث الاجتماعى والذى أسميته الضبروية المجتزأة والذى كثـــيرا ما يبدو شاملا لجهود تسعى لاعادة تفسير وتبنى «فلسفات» العـــلم «الطبيعى» بطريقة تتيح وضع برنامج ودستور للعمل فى مجال العلم الاجتمـــاعى .

والمناهج هى الاجراءات التى يستخدمها الشخص الذى يحـــاول فهم أو تفسير شىء ما . والمنهجية هى الدراسة للمناهج ، وهى تعطى النظريات عما يفعله الناس عندما يكونون منكبون بالعمل على دراساتهم . ونظرا لما قد يتوافر من مناهج كثيرة ، لذلك فان المنهجية تنحو بالضرورة لأن تكون أقرب الى العمومية فى طبيعتها ، ومن ثم ، فانها عادة تتيح لمن يعكفون على الدراسة اجراءات محددة . أما فلسفة المعرفة ، فهى

أكثر عموميـة من المنهجية ، ذلك لأن ممارسوها مشغولون بالاسـس والحدود ، أى بطبيعة «المعرفة» • والمعاصرون من أصحاب الفلسـفة المعرفية قد نحوا لأن يأخذوا العلامات والاشارات الخاصة بهم مما يعتقدون أنه يشكل مناهج العلوم الطبيعية الحـديثة • وبمنحاهم فى التساؤل والاجابة على المسائل العامة حول المعرفة ، من منطلق فهمهم لهذا العلم ، فانهم قد أصبحوا فى واقع الامر فلاسـفة فى العـلوم الطبيعية • وهناك البعض من علماء الطبيعة يبدو أنهم مهتمون بهـذا العمل الفلسفى ، وهناك البعض الآخر يبدو أنهم يشعرون فقط بالمتعة والتسلية ، كذلك هناك البعض الذى يتفق مع النموذج الحالى الذى يقبل به معظم الفلاسفة ، والبعض لا يتفقون — ومن هنا قد يكون مما يثير الشك أن الكثيرين جدا من العلماء الباحثين لا يدركون هذا تماما •

ولقد قيل لنا ، أن العلوم الطبيعية قد وصلت الى حال يمكن فيها استخلاص المشاكل ذات الطابع التجريبى الصارم والدقيق من نظرية صارمة ورياضية • ولكنها لم تصل الى هذا الحال لأن أصحاب الفلسفة المعرفية قد طرحوا مثل هذا التفاعل فى اطار نموذج من البحث قاموا هم بوضعه • وفيما يبدو أن سياق التتابع قد جعل الامر معكوسا حيث : الفلسفة المعرفية للعلم تظهر متطفلة على المناهج التى يستخدمها علماء الطبيعة ، نظريون كانوا أم تجريبيون •

وفى هذا الصدد ، فان عالم الطبيعة «بولى كارب كوخ» الحاصل على جائزة نوبل ، كان قد أعلن أنه لايوجد ما يسمى بـ «المنهج العلمى»، وأن ما يطلق عليه هذا الاسم يمكن تحديد اطاره من أجل المشـاكل البسيطة فقط • بل ويذهب «بيرس بريدجمان» وهو عالم طبيعة آخر حاصل على جائزة نوبل أيضا ، الى أبعـد من ذلك بالقول : « ليس

هناك شيء اسمه المنهج العلمى كهذا ، لكن السمة الحيوية للاجراء الذى يقوم به العالم هو فقط مجرد قيامه ببذل أقصى جهده باستخدام عقله (دون أى قيود) » . ويقول «وليام بيك» أن « آليات الاكتشاف ليست معروفة ... وأعتقد أن العملية الخلاقة مقيدة بشكل وثيق بالبناء العاطفى للفرد ... أى ... أن الأمر ليس سوى شيء لايستحق التعميم »[٤] .

(٣)

والمتخصصون فى المنهج ينحون أيضا لأن يكونوا متخصصين فى صنفه أو أكثر من صنوف الفلسفة الاجتماعية . والمهم بشأنهم ، فى علم الاجتماع اليوم ، ليس فى أنهم متخصصون ، بل فى أن احدى النتائج الناجمة عن تخصصهم هى دفع عمليه التخصص فى اطار العلوم الاجتماعية ككل . أكثر من هذا ، أنهم يدفعون هذه العملية وفقا للقصور المنهجى ومن منطلق مؤسسة البحث التى قد يتجسد فيها هذا التخصص. وتخصصهم هذا ، ليس هو بمجرد مشروع لطرح أى مخطط يتعلق بالتخصص فى مجال بحث معين وفقا لميادين الدراسة أو مجرد مفهوم لمشاكل البناء الاجتماعى ، بل هو تخصص مطروح قائم فقط على أساس استخدام المنهج ، بغض النظر عن المضمون ، أو المشكلة ، أو مجال الدراسة .

ولعل أفضل التفسيرات وضوحا للخيروية المجترأة كأسلوب للعمل، ومن حيث فلسفته واجراءاته المنهجية فى علم الاجتماع ، هو ذلك الذى قال به «بول لازار شفيلد» ، الذى يعد واحد من أبرز ممثلى هذا الاتجاه فى علم الاجتماع[٥] .

أن لأزار شفيلد يعرف «علم الاجتماع» على أنه نوع من التخصص، ليس من حيث أي مناهج خاصة « بـه » بل من منطلق كونه هو التخصص المنهجي • وفى هذا الرأى ، يصبح الباحث السوسيولوجى هو صاحب المنهج لجميع العلوم الاجتماعية •

« هذه اذن ، هى أول وظيفة للباحث السوسيولوجى ، التى يمكن توضيحها بدرجة كافية • فالباحث السوسيولوجى بهذه الوظيفة يكون هو بمثابة «كشاف الطريق» للواء المقدمة من جيش علماء الاجتماع ، عندما يكون قطاع جديد من شئون البشر على وشك أن يكون موضوع لعمليات البحث الاجتماعى الخبروى • فالباحث السوسيولوجى هنا هو الذى يأخذ الخطوات الاولى ، أنه يكون بمثابة الجسر الذى يصل ما بين الفيلسوف الاجتماعى ، والملاحظ الفرد ، والمعلق من ناحية ، وفريق العمل المنظم من الباحثين والمحللين التجريبيين من ناحية أخرى ••• وبالحديث من الناحية التاريخية ، يكون علينا عندئذ تمييز ثلاث وسائل رئيسية للنظر الى محور الاهتمام الاجتماعى : التحليل الاجتماعى كما يمارسه الملاحظ الفرد ، العلوم الاجتماعية التجريبية كاملة النضج، ثم الطور الانتقالى الذى نطلق عليه سوسيولوجيا أى مجال خاص من مجالات السلوك الاجتماعى •••• وقد يكون من المفيد عند هذه النقطة استخدام بعض التعليقات على ما يجرى وقت حدوث الانتقال كذلك الذى يتم من الفلسفة الاجتماعية الى مرحلة البحث الاجتماعى الخبروى »[٦] •

وهنا ، أرجو أن تلاحظ ، أن «الملاحظ الفرد» يتساوى بشكل غريب مع «الفيلسوف الاجتماعى» • ولاحظ أيضا أن هذا يعد تفسيرا ، ليس فقط لبرنامج فكرى بل أيضا لخطة ادارية : « هناك مجالات معينة من

السلوك البشرى قد أصبحت موضوع للعلوم الاجتماعية المنظمة التى تحمل أسماء نظم ، مؤسسات ، ميزانيات ، بيانات ، أفراد ، وهلم جرا • كذلك هناك مجالات أخرى قد تركت دون تطوير فى هذا الخصوص » • وأى مجال يمكن تطويره أو اضفاء الصبغة الاجتماعية عليه ، فمثـلا :

« كحقيقة واقعة ، نحن لا نملك حتى اسما لعلم اجتماعى قد يكون مثار اهتمامه سعادة السكان ، ومع ذلك فليس هناك ما يجعل وجود مثل هذا العلم أمرا مستحيلا • كما أن الامر لن يكون أكثر صعوبة بل ولن يكون أكثر تكلفة فى حساب معدلات السعادة من جمع البيانات الخاصة بالدخل ، والمدخرات ، والاسعار » •

اذن ، فعلم الاجتماع ، باعتباره « كشاف الطريق » يترتب عليه سلسلة من « العلوم الاجتماعية » المتخصصة ، يقع فى مكان وسط بين أى مجال للبحث لم يصبح بعد موضوع للمنهج و « العلوم الاجتماعية الكاملة النضج » • بجانب هذا أيضا ، فان ما يمكن اعتباره « العلوم الاجتماعية الكاملة النضج » ليس واضحا ، وان كانت هذه العـلوم يمكن أن تنطبق ضمنا على علم السكان وعلم الاقتصاد : « ولن يشك أحد أبدا بعد ذلك فى امكانية وضرورة تناول شئون البشر بطريقة علمية• فعلى مدى مائة عام أو أكثر قد توافرت لدينا علوم كاملة النضج مثل علم الاقتصاد وعلم السكان ، اللذان يتناولان قطاعات عديدة مختلفة من السلوك البشرى » ، غير هذا ، فاننى لم أعثر فى هذه المقالة التى تصل الى عشرين صفحة على أى تصنيفات أخرى « للعلوم الاجتماعية الكاملة النضج » •

وعندما يتولى علم الاجتماع مهمة تحويل الفلسفة الاجتماعية الى علم ، فمن المفترض أو المفهوم ضمنا أن عبقرية المنهج لا تتطلب وجود

معرفة دراسية تقليدية بالمجال الذى سيتم تحويله ، وانما هذه المعرفة تتطلب بالقطع بعض الوقت الذى يزيد قليلا عما هو وارد فى هذا البيان.

وربما يمكن ايضاح هذا بالملاحظة العابرة عن علم السياسة : «... لقد كان لدى الاغريق علم سياسى ، ويتحدث الالمان عن الشئون السياسية، وكذلك تحدث الانجليز والفرنسيين عن علم السياسة . ومع ذلك ، فلم يقم أحد حتى الآن بتحليل للمضمون بحيث يمكن للمرء أن يعرف حقا ما هو الشيء الذى تتناوله الكتب فى هذا الميدان...»(٧) .

اذن ، فهنا توجد فرق منظمة كاملة النضج من علماء الاجتماع الخبرويين ، وهناك أيضا الافراد غير المنظمين من الفلاسفة الاجتماعيين. والباحث الاجتماعى : مثله مثل «المنهجى» يقوم بقلب الفلاسفة الى علماء اجتماع ، أى أنه باختصار يعتبر صانع العلم ، مرة بصفة فكرية، أو علمية ، وادارية .

ويقول بول لازار شفيلد ، عن عملية الانتقال من مرحلة «الفلسفة الاجتماعية» و « الملاحظ الفرد » الى مرحلة علم الاجتماع الخبروى، ان موضوعات الدراسة فى البحوث التجريبية تتسم بالسمات الاربع التالية :

١ — « هناك أولا انتقال من عملية التركيز على دراســـة تاريخ النظم والافكار الى دراسة السلوك الملموس للناس » ، وليس هذا بالامر البسيط ، فالخبروية المجتزأة ، كما سنرى فى الفصل السادس، ليست هى الخبروية اليومية ، كما أن « السلوك الواقعى للافراد » ليس هو بوحدات الخبروية الخاضعة للدراسة . وفى الوقت الراهن ، فاننى سوف أبين أنه فى مجال الممارسة العملية غالبا ما تكشف عملية الاختيار المتضمنة عن وجود نزعة مميزة نحو ما يطلق عليه «النزعة السيكولوجية»،

وأكثر من هـذا ، عن نوع من الاصرار على تجنب مشـاكل البنـاء الاجتماعى مستبدلا اياها الوسط البيئى المحلى •

٢ ــ هناك ثانيا ، كما يقول لازار شفيلد : « تلك النزعة بعـدم الاقتصار على دراسة قطاع واحد فقط من قطاعات الحياة الانسانية ، بل لابد من ربط كل قطاع بغيره من القطاعات » • ولا أعتقد أن هـذا القول صحيح ، وحتى نرى ذلك ، لن يحتاج الامر من الانسان سوى مقارنة انتاج ماركس أو سبنسر أو فيبر باى من أصحاب الخبروية المجزأة • ومع ذلك ، فربما كان ما يقصده لازار شفيلد يرتكز على معنى خاص لكلمة « ربط » أو « صلة » حيث أنها متحصرة فى المعنى الاحصائى •

٣ ــ هناك ثالثا ، « من الافضل الاهتمـام بدراسـة المواقف والمشكلات الاجتماعية المتكررة بدلا من التركيز على دراسة المواقف والمشكلات التى لها طابع فردى متميز » • ربما قد يكون الاعتقـاد بان هذا هو بمثابة محاولة للاتجاه نحو الاعتبارات البنائية • ذلك أن عمليات « التكرار » أو « الانتظام » فى الحياة الاجتماعية ، هى عمليات بطبيعة الحال معلقة بالبناءات الاجتماعية المستقرة • وهذا هو السبب فى حاجة المرء لكى يفهم ، مثلا ، الحملات السياسية الامريكية ، الى فهم البناء الخاص بالاحزاب ، ودورها فى الاقتصاد ••• الخ • ولكن ليس هذا هو ما كان يقصده لازار شفيلد ، انما ما يعنيه هو أن عمليات الانتخاب تحتاج للكثير من الناس لكى يشتركوا فى فعل مماثل ، وأن عمليـات الانتخابات تتكرر ، ومن ثم يمكن دراسة السلوك الانتخابى للافراد من الناحية الاحصائية ، ويمكن اعادة دراستها مرة أخرى •

٤ ــ وأخيرا « هناك قدر أكبر من التركيز على الظواهر الاجتماعية

المعاصرة بدلا من التركيز على دراسة للوقائع التاريخية ... » ويرجع هذا الاتجاه اللاتاريخى الى نوع من التفضيل المعرفى : « حيث أن الباحث السوسيولوجى يميل للحصول على البيانات التى يريدها عن الظواهر الاجتماعية المعاصرة بسهولة ويسر ... » . وهذا الميل للجانب المعرفى يقف على النقيض من صياغة المشاكل الحقيقية الجوهرية باعتبار ذلك يمثل نقطة التوجيه للعمل فى علم الاجتماع[٨] .

وقبل الاستغراق فى مزيد من التأمل فى هذه النقاط الاربعة ، لابد لى من استكمال تقريرى عن هذا التفسير لعلم الاجتماع ، الذى أتصور أن له مهمتان أخريتان :

« يتطلب البحث السوسيولوجى — فى مرحلة التحول من الفلسفة الاجتماعية الى مرحلة البحث الاجتماعى التجريبى — أن يقوم الباحث بتطبيق الاجراءات العلمية فى مجالات عديدة لم تسبق دراستها من قبل ، (وهذه هى مشاهدات لازار تسفيلد) ويستلزم هذا أن يقوم الباحث بجمع البيانات التى يريدها بنفسه ، ومن ثم تظهر الوظيفة الرئيسية الثانية للباحث السوسيولوجى ، وهى دوره باعتباره «صانع أدوات البحث» سواء بالنسبة له أو بالنسبة لغيره من المتخصصين فى العلوم الاجتماعية الاخرى . وغالبا ما يلجأ الباحث الى الناس أنفسهم ليسألهم عما فعلوا أو رأوا أو أرادوا . والناس فى كثير من الاحيان لا يتذكرون بسهولة ، وقد يمانعون فى اعطاء البيانات المطلوبة ، وقد لا يفهمون تماما ما يريده الباحث ، ونتيجة لذلك ظهر فن اجراء «المقابلة»، بكل ما يتضمنه من أهمية ، وبكل ما يواجه استخدامه من صعاب ...

... ولكن « الباحث السوسيولوجى » مازالت له من الناحية التاريخية وظيفة ثالثة هى وظيفة «المفسر» ... وهنا من المفيد ، التمييز

ما بين عملية الوصف وعملية التفسير للعلاقات الاجتماعية . فالتفسير لا يتحقق بمجرد وصف أنماط العلاقات القائمة ، أو تقرير خصائصها ، أو تحديد الظروف المحيطة بها ، وانما يتعدى ذلك الى محاولة الاجابة على أسئلة بالكلمة الاستفهامية : لماذا ؟ وذلك بغرض البحث عن الاسباب أو العوامل التى قد تكون لها علاقة بحدوث الظاهرة . لماذا الناس لا يرغبون فى كثرة الانجاب ؟ لماذا يميلون الى الهجرة من القرية الى المدينة ؟ لماذا يتم الفوز أو الخسارة فى الانتخابات ؟ ...

والاساليب التقنية الاساسية لايجاد تفسيرات لمثل هذه التساؤلات هى أساليب احصائية . وذلك عن طريق عقد مقارنة بين مجموعتين من العائلات : احداهما كبيرة الحجم تضم عددا كبيرا من الابناء ، والاخرى صغيرة الحجم تضم أطفالا قليلين . ولتفسير أسباب تغيب العمال ؛ يمكن المقارنة بين مجموعتين من العمال : احداهما تنتظم فى عملها والاخرى يتغيب أفرادها عن العمل بكثرة . ولكن ، ما هو « الشىء » الذى يجب أن يجرى عليه المقارنة بينهم ؟ »[٩] .

فى هذه اللحظة ، يبدو الباحث السوسيولوجى فجأة وقد تقمص شخصية الباحث الموسوعى : فبالرغم من أن كل قسم من أقسام علم الاجتماع يحوى تفسيرات ونظريات ، الا أنه يقال لنا هنا أن « التفسير » و « النظرية » هما المملكة التى يتبوأ عرشها الباحث السوسيولوجى . وما نعنيه سوف يتضح عندما ندرك أن هذه التفسيرات الاخرى ، لم تصبح بعد تفسيرات علمية . فأنواع «التفسيرات» التى يعمل بها الباحث السوسيولوجى ، عند تحويله الفلسفة الاجتماعية الى علم تجريبى ، هى بمثابة «متغيرات تفسيرية» تفيد فى عملية البحث الاحصائى . بجانب هذا ، لاحظ تلك النزعة لاختزال الحقائق السوسيولوجية الى متغيرات سيكولوجية ، كما تفيد به الفقرة التالية :

« علينا الافتراض بأن هناك شيء ما فى شخصية ، وتجربة وموقف الناس يجعلهم يفعلون بصورة مختلفة فيما يبدو من الخارج أنه أوضاع متشابهة . والشيء المطلوب هو أن تكون هناك أفكار ومفاهيم تفسيرية يمكن اختبارها عن طريق البحث التجريبى ... » .

ومن هنا تصبح «النظرية الاجتماعية» ككل بمثابة مجموعة نسقية من هذه المفاهيم ، أى ، من المتغيرات التى تفيد فى تفسير النتائج الاحصائية :

« اننا نطلق على هذه المفاهيم صفة السوسيولوجية « لأنها » تنطبق على الكثير من مختلف أنواع السلوك الاجتماعى ... ونحن نقوم بتكليف الباحث السوسيولوجى بمهمة جمع وتحليل هذه المفاهيم ، التى تفيد فى تفسير النتائج التجريبية التى تسفر عنها مجالات محددة مثل تحليل الاحصائيات الخاصة بالاسعار أو الجريمة أو الانتحار أو الانتخاب . وفى بعض الاحيان يستخدم تعبير النظرية الاجتماعية من أجل تقديم عرض نسقى لهذه المفاهيم ولتفسيراتها »[١٠] .

وهنا يجب أن أذكر بصورة عابرة ، بأنه ليس من الواضح كذلك ما اذا كان هذا البيان ككل يشكل نظرية للدور التاريخى الذى لعبه الباحثون السوسيولوجيون بالفعل — وهو فى هذه الحالة ليس بالدور الكافى ، أو ما اذا كان هو مجرد اقتراح بأنه ينبغى على الباحثين السوسيولوجيين أن يتقنوا فن اجراء المقابلة وفن تفسير كل شيء — وفى هذه الحالة بالطبع ، يكون أى باحث سوسيولوجى حر فى رفض هذه الدعوة لصالح مشاكله الجوهرية الخاصة .

وربما يكون هذا دعاية من أجل احدى فلسفات البحث التقنى وتعبير الاعجاب بالطاقة الادارية ، المتخفية كجزء من التاريخ الطبيعى

للعلم . وهذا المفهوم لعالم الاجتماع، سوف نجده فى دراسة المؤسسات، كصانع للعلم ، كصانع لادوات البحث ، وكحافظ للتفسيرات ــ وأيا كان النمط الخاص بالعمل والذى يمثل جملة واضحة أعرفها جيدا ــ تتضمن عدة مشاكل سوف أعرضها الآن بطريقة منهجية .

(٤)

هناك تبريران شائعان للخبروية المجتزأة ، لو قيل بهما ، فهما يعنيان أن ضآلة حجم النتائج لا ترجع الى أى قصور فى المنهج ، وانما ترجع الى أسباب ذات « طبيعة عارضة » مثل المال والوقت . فقد يقال أولا : أن هذه الدراسات غالبا ما تكون عالية التكاليف ، وأنها يجب أن تصاغ باهتمام يناسب مصالح أولئك الذين يمولون البحوث ، وأن مجمل هذه المشكلات تركز على موضوعات وقضايا جزئية ومتناثرة . وبالتالى فليس لدى الباحثين القدرة على انتقاء المشاكل البحثية بطريقة تسمح بتراكم النتائج . لقد بذل هؤلاء الباحثين أقصى ما يستطيعونه ، ولم يكن فى وسعهم الاهتمام بمجموعة من المشاكل الحقيقية الجوهرية التى تعطى نتائجها المثمرة ، لذا فقد كان عليهم أن يتخصصوا فى بلورة وتطوير مناهج يمكن استخدامها فى العمل بغض النظر عن القضايا الجوهرية .

باختصار ، يبدو أن اقتصاديات الحقيقة ــ تكاليف البحث ــ تقف فى صراع مع سياسات الحقيقة ــ وهى استخدام البحث لاجلاء القضايا الهامة وللتقريب بين المحاجاة السياسية والحقائق . والخلاصة هى أنه اذا حدث وكانت مؤسسات البحث الاجتماعى تستحوذ وحدها على ٢٥٪ من الميزانية الكلية للبحث العلمى فى الدولة وكانت لها حرية استخدام هذا المال فيما تشاء ، لكانت الامور أفضل كثيرا مما هى

عليه الآن • وهنا ، لابد لى من الاعتراف بأننى لا أعلم ، ولا أحد آخر يعلم ، ما اذا كان ذلك توقفا منطقيا ، بالرغم من أنه يجب علينا تصور ما يقوم به المفكرون الاداريون الذين يؤثرون تأثيرا صريحا فى نشاطات البحث بالعلم الاجتماعى • ولكن اعتبار هذا هو « القضية » معناه أنه لا محل لوجود أى انتقاد فكرى • بعد ذلك يبقى شىء واحد ، وضوحه مؤكد ، وهو أنه : بسبب ارتفاع تكلفة المنهج ، فقد صار ممارسوه منغمسون غالبا فى التوظيفات التجارية والبيروقراطية لعملهم ، وقد أثر هذا بالتأكيد على أسلوبهم •

ثانيا : قد يسود الظن أن النقاد هم فقط عناصر غير صبورة ، كما أننى على وعى بالحوار المتسم بالتحكم والجزم بأن « متطلبات العلم » تأخذ نظام القرون وليس نظام الحقب التاريخية • وقد يقال ، أن هذه الدراسات فى الوقت المناسب ، سوف تتراكم بشكل يسمح بخروج نتائج هامة يمكن تعميمها عن المجتمع • ويبدو لى أن هذا اللون من التبرير مغلف بنظرة تعتبر تطور علم الاجتماع بوصفه مبنى غريبا يبنى جزءا جزءا • فهذا اللون يفترض أن دراسات كهذه هى بطبيعتها قادرة على أن تكون بمثابة « وحدات » يمكن فى لحظة ما فى المستقبل «ضمها أو «تنسيقها» معا لبناء صورة ثابتة وصادقة حول الكل الذى يتألف من هذه الاجزاء ، لكن ليس هذا مجرد افتراض فقط ، بل هو سياسة صريحة • ويؤكد لازار شفيلد أن «العلم الخبروى» :

« عليه أن يتناول مشكلات بعينها ، وعلى بناء معرفة أكثر اتساعا من خلال ضم النتائج التى تسفر عنها الابحاث الكثيرة الدقيقة التى تستغرق وقتا طويلا • وبالتأكيد ، فانه لمن المرغوب فيه أن يتحول عدد أكبر من الدارسين للعلوم الاجتماعية ، ولكن ليس لأن هذا سوف ينقذ العالم بين يوم وليلة ، وانما لأن هذا بالأحرى سوف يؤدى بقدر

ما الى الاسراع بتلك المهمة الصعبة التى تؤدى فى نهـاية الامر الى ظهور علم اجتماع متكامل ، يمكن أن يساعدنا على فهم وضبط الشئون الاجتماعية »[١١] .

ولو تجاهلنا فى الوقت الحالى جوانب الغموض السياسى المحيط بالاتجاه الخبروى ؛ فان البرنامج المقترح سوف يضيق من نطاق العمل ليكون مجرد أبحاث « متناهية الصغر » على أســاس الافتراض بأن النتائج التى ستسفر عنها يمكن « جمعها معا » ، وأن هذه بدورها سوف تشكل « علم اجتماع متكامل » . ولتفسير هذه النظرة القاصرة ، لابد لى من الذهاب فيما وراء الاســباب الخارجية الكامنة وراء النتــائج الهزيلة التى يحققها هؤلاء الباحثون ، ثم أتجه الى الاسباب المتلازمة مع أسلوبهم وبرنامجهم .

النقطة الاولى التى أتناولها تختص بالعلاقة بين النظرية والبحث، وبالسياسة التى ينبغى أن يتبناها علماء الاجتماع فيما يتعلق بأولوية المفاهيم الاكبر والمجالات التى تتطلب شرحا مفصلا .

فى كافة مدارس علم الاجتماع ، سوف نجد بطبيعة الحال تعليقات غزيرة ومستفيضة على عدم تبصر المعطيات الخبروية التى لا معنى لها بسبب عدم استنادها على رؤية نظرية ، وعلى خواء النظرية التى تفتقر الى المعطيات الواقعية . ولكن من الافضل لنا هنا أن نلقى نظرة متفحصة على التطبيق العملى ونتائجه بدلا من استخدام الزخرفة الفلسفية . لذلك ، فسوف نجد أن الافكار العاملة الخاصة بـ «النظرية» والخاصة بـ «المعطيات الخبروية» واضحة تماما ، كمــا تقــول به التفسيرات والاحكام ، كما هو الحال عند لازار سفيلد . «فالنظرية» تصبح هى المتغيرات المفيدة فى تفسير النتائج الاحصائية ، أما «المعطيات الخبروية»،

فهى مقيدة بالحقائق والعلاقات المضبوطة احصائيا باعتبارها متعددة ، ومتكررة ، ويمكن قياسها • ومع تقيد كل من النظرية والمعطيات الخبروية بهذا الشكل ، فان قيمة التعليق على مسألة التفاعل بينهما تتضاءل الى حد بعيد ، بل قد لا تكون له قيمة على الاطلاق • فلا توجد أصول فلسفية وبالتأكيد أى أصول على الاطلاق فى مثل هذا العمل فى علم الاجتماع كما حاول أن أحدد معانى هذه الاصطلاحات •

ولكى يقوم الانسان بفحص واعادة تشكيل أحد المفاهيم الواسعة الافق ، فلابد له من توافر شروح مفصلة بين يديه ، لكن هذه الشروح المفصلة قد لا يكون من الممكن بالضرورة الجمع بينها لكى تشكل مفهوما واسعا • اذن ، ماذا يختار الباحث من أجل عملية الشرح المفصل ؟ وما هى معايير الاختيار ؟ ثم ما هو المقصود بكلمة «الجمع بينها» ؟ ان الرد على هذا ليس بالمهمة السهلة التى تتم بصورة تلقائية كما توحى به العبارة ، فنحن نتحدث عن مسألة التفاعل ذو المفهوم الاوسع والمعلومات المستفيضة (النظرية والبحث) ، ومع ذلك ، فلابد لنا من التحدث أيضا عن المشكلات • ومشكلات علم الاجتماع هى مسألة مطروحة من منطلق المفاهيم المتصلة عادة بالبنى الاجتماعية ـ التاريخية• ونحن لو أخذنا هذه المشكلات باعتبارها مشكلات حقيقية ، فقد يبدو من الحماقة عندئذ القيام بأى دراسات تفصيلية لمجالات أضيق نطاقا قبل أن يتوافر لنا سبب معقول لكى نؤمن بأنها ، أيا كانت النتائج ، سوف تتيح لنا استخلاص النتائج والاستدلالات التى تفيد فى حل أو اجلاء المشكلات ذات الاهمية البنائية • ونحن لا نقوم بـ « ترجمة » مثل هذه المشكلات عندما نكتفى فقط بالاخذ بمنظور تبدو فيه جميع المشكلات كمجموعة متناثرة من الجهود للحصول على مجموعة متناثرة من المعلومات ، احصائية كانت أو غيرها ، عن مجموعة متناثرة من الافراد والاوساط الاجتماعية المتناثرة التى يعيشون فيها •

وبقدر ما يتعلق الامر بالافكار ، فأنت نادرا ما تحصل من أى بحث مليء بالتفاصيل على أكثر مما وضعت فيه • وما تحصل عليه من بحث خبروى كهذا هو المعلومات ، وما يمكنك أن تفعله بهذه المعلومات يتوقف بدرجة كبيرة على ما اذا كنت خلال مسار عملك قد اخترت ، أو لم تختر ، دراساتك الخبروية المحددة باعتبارها نقاط للبحث عن تكوينات أكبر • وبينما يقوم صانع العلم بتحويل الفلسفات الاجتماعية الى علوم خبروية ، واقامة أنظمة بحثية تأوى هذه العلوم ، يظهر عدد ضخم من الدراسات • وفى الحقيقة ، فانه لا يوجد أى مبدأ أو نظرية يمكن أن يستخدم كدليل لاختيار ما سيكون هو موضوع هذه الدراسات • « فالسعادة » قد تكون أحد هذه الموضوعات ، والسلوك التسويقى ، قد يكون موضوع آخر • والشىء المفترض ، هو أنه اذا تم استخدام المنهج — ستكون دراسات متناثرة من المسيرا مرورا بزغرب وحتى شنغهاى — ، فان الناتج من هذه الدراسات سوف يكون فى النهاية « علم منظم كامل النضج » عن الانسان والمجتمع • أما الممارسة العملية فى ذات الوقت ، فهى أن تتقن وتتهض بدراستك التالية •

واذا كان هناك نزاع فى أن هذه الدراسات لا يمكن أن تضيف لنا أى نتائج ذات أهمية ، فاننى أضع فى اعتبارى النظرية الخاصة بالمجتمع التى تنحو لها فى الخبروية المجتزأة • وأى أسلوب للخبروية يتضمن اختيار ميتافيزيقيا — وهو اختيار لأكثر الاشياء واقعية — لذلك، علينا الآن أن نلقى نظرة على ذلك الاختيار الذى يتطلبه هذا الإسلوب المحدد • وقد تكون احدى الحالات الأقرب الى الاقناع فى هذا الشأن ، كما أعتقد ، هى فى مجال النزاع بأن هذه الدراسات هى فى أغلب الاحيان أمثلة لما هو معروف بالمذهب السيكولوجى[١٢] • والحجة هنا قد يكون أساسها هو الحقيقة بأن المصدر الاساسى للمعلومات عند

أصحاب هذا المذهب هو عينة من الافراد • لذلك ، فان التساؤلات المثارة فى هذه الدراسات تصاغ من خلال ردود الفعل السيكولوجية للافراد• وبناء على ذلك ، فان الغرض يتطلب فهم البناء التأسيسى للمجتمع ، بقدر ما تتم دراسته بهذه الطريقة ، عن طريق المعطيات المتاحة عن الافراد •

والوعى بمشكلات البناء الاجتماعى وبمغزاها التفسيرى حتى بالنسبة لسلوك الفرد ، يتطلب أسلوب للخبروية أرحب بكثير • فمثلا ، فى نطاق البناء الاجتماعى ، حتى فى البناء الخاص بالمجتمع الامريكى — وبصفة خاصة البناء الخاص باحدى المدن الامريكية فى زمن معين ، والتى تشكل عادة « مجال العينة » — يكون هناك العديد من الروابط المشتركة ، اجتماعية وسيكولوجية ، بحيث يصبح تنوع السلوك البشرى الذى يجب أن يضعه علماء الاجتماع فى اعتبارهم ، لا يمكن الالمام به ببساطة • وهذا التنوع ، ومن ثم عملية الصياغة نفسها للمشكلات ، لا يكون متاحا الا فقط عندما تتسع رؤيتنا لكى تشمل البنى الاجتماعية المقارنة والتاريخية • ومع ذلك ، وبسبب الجمود للفلسفة المعرفيـة ، فان أصحاب الخبروية المجتزأة يصيرون بصـورة منهجية بعيدون عن التاريخ وعن المقارنة ، ويكتفون بتناول مجالات محددة النطاق ويتعلقون بالمذهب السيكولوجى • كما أنهم فى تعريفهم للمشكلات وفى تفسيرهم للنتائج الضئيلة التى يتوصلون اليها لا يستفيدون حقيقة بأى شـكل من المعطيات الاساسية للبناء الاجتماعى التاريخى •

وحتى دراسـات الخبروية المجتزأة حول الوسـط البيئى المحلى لا تقدم تصورا محددا واضحا أو له معنى حول هذا الوسط • فمن حيث التعريف ، وأيضا على أساس دراساتنا ، فاننا نعرف أن الاسباب الكامنة

وراء الكثير من التغيرات التى تقع فى الوسط البيئى المحلى ، هى أسباب غير معروفة غالبا للناس (المستبدين) الذين يعيشون فى وسط محدد ، وان هذه التغيرات لا يمكن فهمها الا فقط من منطلق التحولات البنائية. وبالطبع ، فان هذه النظرة العـــامة تشـــكل القطب المضـــاد للمذهب السيكولوجى . ومدلولات هذه الرؤية بالنسبة لمناهجنا تبدو واضحة وبسيطة : عملية الاختيار للوسط البيئى المحلى لاجراء الدراسة التفصيلية عليه ينبغى أن تتم وفقا للمشكلات ذات الاهمية البنائية . كما أن أنواع « المتغيرات » التى ينبغى عزلها وملاحظتها داخل الوسطى البيئى المحلى لابد أن تكون هى المتغيرات التى تبينت أهميتها من خلال فحصنا للبناء الاجتماعى . وبطبيعة الحال ، لابد أن يكون هناك تفاعل فى اتجاهين بين الدراسات الخاصة بالوسط البيئى المحلى والدراســـات الخاصـــة بالبناء الاجتماعى . أما تطور علم الاجتماع ، فهو شىء لا يمكن التفكير فيه على أنه شىء ناتج عن قيام مجموعة متناثرة من النســاء ، كل منهن تصنع جزءا من مضربة كبيرة : الاجزاء الصغيرة فيها ، مهما تكن دقيقة ومحددة ، لا يمكن ربطها بشكل آلى وخارجى .

ومع ذلك ، فالامر ليس بالغريب على الاطلاق ، ففى الممارسة التطبيقية للخبروية المجـــتزأة ، لكى يتـــم «الحصول على المعطيات» و «معالجتها» عن طريق التحليل الاحصائى المقنن بدرجة أو بأخرى ، فان ذلك يتحقق على يدى باحثين ومحللين شبه مهرة . بعد ذلك يتـــم تكليف الباحث الاجتماعى ، أو حتى مجموعة منهم ، لكى يتولوا عملية «التحليل الفعلية» ، وهو الامر الذى يصل بى الى النقطة التالية .

ومؤخرا ، ظهر اتجاه لدى أصحاب الخبروية المجتزأة ينحو الى تصدير الدراسات الخبروية بفصل أو اثنين يلخصـــون فيهما « المادة

تعتمية للمشكلات » (الدراسات السابقة) • وأعتقد ان هذه علامة صية دون شك ، كما انها فى جانب منها بمثابة رد على الانتقادات الموجهة من العلوم الاجتماعية القائمة • ولكن من حيث الممارسة الفعلية ، فانها عملية لا تتم فى اغلب الاحيان الا بعد جمع المعلومات و «كتابتها» • بل اكثر من هذا ، ان مثل هذا العمل ، حيث انه ينصب قدر كبير من الوقت والبحث والتنقيب فى مؤسسات البحث ، فهو غالبا ما يحول الى الباحث المساعد للقيام به • بعد ذلك ، تؤخذ المذكرة التى يعدها ثم يعاد صياغتها فى محاولة لتغليفها «بالنظرية» و «لاضفاء معنى عليها»، او — كما يقال كثيرا — « للحصول منها على مغزى افضل » • وحتى هذا ، ورغم انه قد يكون افضل من لا شيء ، الا انه غالبا يضلل الشخص الخارجى الذى قد يفترض على عجل بأن هذه الدراسة الخبروية المعينة قد تم اختيارها وتصميمها وتنفيذها بطريقة يمكن بها خبرويا اختبار المفاهيم أو الفروض الاوسع •

وأنا لا أعتقد أن هذا هو أسلوب الممارسة المعتاد • صحيح أنه قد يكون معتادا فقط عند الذين يأخذون «أدبيات علم الاجتماع» بجدية ووفقا لحدودها الخاصة ، ويعملون عليها طويلا بما يكفى لاستيعاب المفاهيم والنظريات والمشكلات التى تتضمنها • عندئذ فقط ، قد يمكن تصور أن المعانى التى توصلوا اليها ، بدون اغفال للمشكلات والمفاهيم ، يمكن ترجمتها الى مشكلات أكثر تحديدا وأضيق نطاقا وسهلة التطويع للمنهج على الفور • وهذه الترجمة ، هى بالطبع ما يقوم به كافة علماء الاجتماع العاملين ، رغم أنهم لا يحصرون كلمة «خبروى» بالمعلومات الاحصائية المجردة عن مجموعة من الافراد المعاصرين ، أو « النظرية » بمجموعة من «المتغيرات التفسيرية» •

ومثل هذه المناقشة ، تستخدم فيها خدع مثيرة . فالدراسات من النمط الذى أستعرضه ، عندما يتم تحليلها من وجهة النظر المنطقية ، تكشف عن أن « المفاهيم المثيرة للاهتمام » والمستخدمة فى تفسير وشرح «المعطيات» تشير دائما تقريبا الى :

١ — وجود «عوامل» بنائية وتاريخية فوق المستوى الذى أتاحته المقابلة .

٢ — وجود «عوامل» سيكولوجية تحت مستوى العمق المفتوح أمام من يعقد المقابلة .

ومع ذلك ، فالنقطة المهمة هنا ، هى أن المفاهيم التى لا هى ذات بناء ولا هى ذات عمق سيكولوجى تكون دائما من بين المصطلحات التى تم بها صياغة البحث و «المعطيات» التى تم جمعها . هذه المصطلحات قد تتجه بطريقة مضخمة فى واحد أو آخر من هذه الاتجاهات ، ولكنها لا تكون من بين تلك المتغيرات المحددة و «الواضحة» التى يعتمد عليها هذا الاسلوب من العمل .

والسبب الرئيسى فى هذا يبدو واضحا : فى حالة الممارسة العملية ، عادة ما تتطلب المقابلة — المصدر الاساسى للمعلومات — نوع غريب من السلوكية الاجتماعية . ومع ما هو مقرر من حقائق مالية وادارية خاصة بالبحث ، وهو أمر لا يمكن تجنبه تقريبا ، حيث من الواضح أن من يجرون عملية المقابلة شبه المهرة لا يستطيعون الحصول فى أفضل الاحوال — ولا أحد فى الحقيقة يستطيع الحصول بغض النظر عن مسألة الكفاءة والمهارة — فى عشرين دقيقة أو حتى فى مقابلة تستغرق يوما كاملا ، على ذلك النوع من المادة العميقة التى نعرفها من تلك المقابلات

المطولة الاكثر مهارة.، فهل هناك ما يمكن الحصول عليه؟[١٣] • وليس من الممكن أيضا الحصول عن طريق أسلوب المسح بالعينة على نوعية المعلومات الخاصة بالبناء الاجتماعى والتى نعرف توافرها من الدراسات الموجهة نحو التاريخ •

ومع هذا ، فالمفاهيم الخاصة بالبناء الاجتماعى وبالسيكولوجية المعمقة قد ادخلت فى الدراسات التى تستخدم أسلوب الخبروية المجتزآة، كما أن تفسير الملاحظات الخاصة يتم باضفاء « غرض خاص » على المفاهيم العامة • وتستخدم المفاهيم العامة لصياغة المشكلات البنائية أو السيكولوجية الخاصة « بالواجهة الختامية » لنص الدراسة •

وفى بعض مجالات البحث ، يستخدم احيانا لفظ « مشرق » عندما تفسر الحقائق أو العلاقات التفصيلية بفروض أوسع • وعندما تستخدم المتغيرات الصغيرة ، التى يتم مط معانيها ، لتفسير المسائل العريضة ، ربما يمكن وصف نتيجة هذا بأنه « براعة وذكاء » • وأنا أذكر هذا لكى أبين أنه قد بدأت تظهر « لغة سوقية » لتغليف الاجراءات التى أناقشها •

وكل ما سيصل اليه هذا ، هو استخدام الاحصائيات لتوضيح النقاط العامة واستخدام النقاط العامة لتوضيح الاحصائيات ، وبذلك تكون النقاط العامة لا هى قد اختبرت ولا حددت بدقة ، انما قد تم مواءمتها مع الارقام ، بمثل ما تم مواءمة ترتيب الارقام معها • كذلك، فان النقاط والتفسيرات العامة يمكن استخدامها مع أرقام أخرى أيضا، كما يمكن استخدام الارقام مع نقاط عامة أخرى • ومن هنا ، فان هذه الخدع المنطقية تستخدم لاضفاء معان بنائية وتاريخية وسيكولوجية

واضحة على الدراسات التى بأسلوبها التجزيئى ذاته قد محت هــذه المعانى • لذلك ، ففى الطرق المشار اليها ، وفى غيرها كذلك ، صار من الممكن التعلق بالمنهج وبالتالى محاولة اخفاء التفاهة الكامنة فى نتائجها •

والامثلة على مثل هذه الاجراءات نجدها متوافرة كثيرا فى فقرات المقدمة من فصول معينة ، وفى « المقدمات العامة » ، بل وأحيانا فى آحد الفصول أو الاجزاء «التفسيرية» التى يتم «حشرها» من أجل الحبكة المنهجية • وبطبيعة الحال ، فان هدفى هنا ليس هو القيام بفحص مفصل لدراسات معينة ، انما كل ما أبغيه هو تنبيه القارىء الى أنه سـسوف يشحذ من دقة تفحصه للدراسات •

وما أقصده ببساطة هو أن : البحث الاجتماعى من أى نوع يتقـــدم بالافكار ، وأنه ينتظم ويتدرب بالحقيقة فقط • وهذا يصدق تماما على عمليات المسح الخاص بالخبروية المجتزأة ، مثل التى تبحث عن « لماذا يقوم الناس بالتصويت مثلما يفعلون » بقدر ما يصدق على تقـــرير المؤرخ الذى يبين فيه موقع ورؤية الطبقة المثقفة فى روسيا القـــرن التاسع عشر • وعلى الرغم من أن الاجراءات الخاصة بالبحث الاول تكون أكثر دقة وبرهانا ، الا أنه لا يوجد اختلاف بينهما من حيث المكانة المنطقية •

وأخيرا ، يمكن القول بأن هناك تفسير واحد لتلك النتيجة الهزيلة الناجمة عن استخدام الخبروية المجتزأة والذى يمكن وضعه فى صيغة سؤال : هل هناك ما يستوجب ضرورة وجود أى قدر من التوتر بين ما هو صادق وحقيقى ولكنه غير مهم ، وما هو مهم ولكنه ليس بالضرورة صادق وحقيقى ؟ وقد تكون الطريقة الافضل لتوجيه السؤال هى : من

أجل أى مستوى من التحقق واليقين ينبغى على العاملين فى مجال علم الاجتماع أن تكون لديهم الرغبة فى الوصول اليه والاستقرار عنده ؟؟ وبالطبع ، سوف تصبح توقعاتنا الخاصة بالمتطلبات بالضرورة لا شىء ، سوى توقعات تفصيلية جدا ، وسوف نحصل أيضا على مفاهيم عالية التجريد .

ان الذين وقعوا فى أسر القصور المنهجى غالبا ما يرفضون قول أى شىء عن المجتمع المعاصر ما لم يكن ذلك من خلال «الطقوس الاحصائية» . ولقد أصبح من المعتاد القول أن ما يحققونه هو شىء صادق وحقيقى حتى ولو لم يكن هاما ، ولكننى أختلف مع هذا القول ، بل اننى أتعجب أكثر وأكثر ازاء مدى صحته . فأنا أتعجب الى أى حد قد اختلطت هنا مسألة الدقة ، أو حتى الدقة الزائفة بـ « الحقيقة » ، والى أى حد أخذت الخبروية المجتزأة باعتبارها هى الطريقة «الخبروية» الوحيدة للبحث الاجتماعى . انه لو حدث وقمت فى أى وقت بدراسة جادة ، لمدة عام أو عامين ، لبعض المقابلات التى استغرقت ألف ساعة ، والتى تم تصنيفها وفرزها بعناية ، لكنت عندئذ قد بدأت تدرك كم هى دائرة «الحقيقة» قابلة للتطويع الشديد . أكثر من هـذا ، وبالنسبة لمسألة «الاهمية» ، فبالتأكيد سيكون الامر له أهميته عندما يقوم البعض من أكثر العقول حيوية فينا بتكريس أنفسهم فى دراسة التفاصيل لأن المنهج الذى يتعصبون له لا يسمح بدراسة أى شىء آخر . ولقد صرت الآن مقتنعا بأن قدرا كبيرا من هذا العمل قد أصبح مجرد اتباع مجموعة من الطقوس — والتى تحدث للحصـول على المكاسب التجارية والقيـم المؤسسية — أكثر من كونه ، وفقـا لتعبيـر المتحدثين باسمه «التزام بمتطلبات العلم الصعبة» .

والدقة ليست هى بالمعيار الوحيد لاختيار المنهج ، وهنا لا ينبغى

بالتأكيد الخلط كما يحدث فى أغلب الاحيان بين ما هو «دقيــق» أو «خبروى» أو «حقيقى» ، اذ لابد أن نكون بالغى الدقة بمثل قدرتنا على أن نكون كذلك فى عملنا على دراسة المشكلات التى تهمنا ، وان كان لا ينبغى على أى منهج ، مثل هذا ، أن يستخدم لطمس المشكلات التى نتناولها ، حتى لو لم يكن هناك أى سبب آخر ســوى أن أكثر المسائل أهمية وصعوبة فيما يتعلق بـــ «المنهج» تبدأ عادة حيث لاتطبق الاساليب التقنية المقررة •

انه اذا توافر لدينا نوع من الحس بالمشكلات الحقيقية ، كما تتبع من التاريخ ، فان مسألة الصدق والمعنى ترد على نفسها : يجب علينا أن نتناول هذه المشكلات بقدر ما نستطيع من العناية والدقة • ان العمل الهام فى علم الاجتماع كان عادة ، وهو عادة يكون ، بمثابة ضرورة نظرية متكاملة الدقة ، وموثقة فى نقاط أساسية بالمزيد من المعــلومات التفصيلية • وليس هناك ، فى الحقيقة ، أى وسيلة أخرى ، على الاقل حتى الآن ، لمواجهة المشكلات والموضوعات الكبرى التى تحظى باقرار واسع بأهميتها •

ولكن قد نتساءل هنا : ما هو المقصود من ذلك المطلب بأن تعنى الدراسات التى نقوم بها بالمشكلات الهامة ؟ وذات مغزى لأى شىء ؟ وعند هذه النقطة ، يجب القول بأننى لا أقصد فقط أن تكون هـــذه المشكلات ذات مغزى سياسى أو أخلاقى — بأى معنى من تلك المعانى التى تضفى على هذه الالفاظ • ان ما ينبغى أن نعنيه فى المقام الاول هو أن تكون هذه المشكلات ذات صلة حقيقيــة بمفهومنا عن البنــاء الاجتماعى وبما يجرى داخله • وأعنى بـــ «الصلة الحقيقية» أن تكون الدراسات التى نقوم بها ذات صلة منطقية بهذه المفاهيــم • وأعنى بـــ «الصلة المنطقية» أن تكون هناك حركة مفتوحة وواضحة جيئــة

وذهابا ما بين عمليات الكشف الاكثر اتساعا والمعلومات الاكثر تفصيلا، داخل طور المشكلة ، وداخل طور التفسير في عملنا • ولقد أدركت أخيرا المعنى السياسي لـ «دلالة» البحث الاجتماعي • وفي نفس الوقت ، من الواضح تماما أن نوعا من الخبروية جريص ومتشدد مثل الخبروية المجتزأة ، يزيل المشكلات الاجتماعية والقضايا الانسانية الكبرى في عصرنا من مجال البحث • لذلك ، فان الذين يتفهمون هذه المشكلات ويمسكون بمفاتيح هذه القضايا ، سوف يلجأون للاستثارة ويتحولون الى سبل أخرى لصياغة العقائد •

(٥)

ان المناهج المحددة — كشيء مميز عن الفلسفة — الخاصة بالخبروية، تعتبر مناسبة وملائمة بشكل واضح لتناول كثير من المشكلات ، وأنا لا أرى كيف يمكن لأي شخص أن يعترض بشكل منطقي على استخدامها، حيث في امكاننا بالطبع ، عن طريق التجريد المناسب ، توخي الدقة في أي شيء ، حيث لايوجد شيء لا يمكن قياسه •

واذا كانت المشكلات التي يعكف الانسان على تناولها قابلة تماما لتوظيف الاجراءات الاحصائية ، عندئذ لابد دائما من محاولة استخدامها • فمثلا ، عند العمل في دراسة عن نظرية الصفوة ، فاننا لو احتجنا الى معرفة الاصول الاجتماعية لجماعة من عامة الناس ، فاننا بطبيعة الحال نحاول ايجاد نسب العناصر المنحدرة من مختلف الشرائح الاجتماعية • واذا كنا في حاجة لمعرفة المدى الذي وصل اليه الدخل الحقيقي لأصحاب الياقة البيضاء ارتفاعا أو هبوطا منذ عام ١٩٠٠ ، فاننا حينئذ عن طريق السلاسل الزمنية للدخل وفقا للمهنة محكوم باطار معين لأحد مؤشرات الاسعار • ومع ذلك ، فلن يكون أحد في حاجة لقبول مثل هذه الاجراءات ، عند تعميمها ، باعتبارها الاجراءات

الوحيدة المتاحة • وبالتأكيد ، لن يكون أحد فى حاجة كذلك لقبول هذا النموذج باعتباره دستورا شاملا ، فهـــو ليس بالوسيـــلة الخبروية الوحيـــدة •

ان ما ينبغى علينا أن نفعله ، هو القيام باختيار ملامح دقيقـــة معينـــة لاخضاعها للدراسة الدقيقة والمكثفة وفقا لنظرتنا الاقل دقة للكل ، ولكى يتم حل المشكلات التى لها صلة بالكليات البنائية • اذن ، فالاختيار يتم وفقا للمتطلبات الخاصـــة بمشاكلنا ، وليس باعتبـــاره «ضرورة» نابعة من جمود للفلسفة المعرفية •

وأنا هنا لا أفترض أن أى شخص له الحق فى الاعتراض على اجراء دراسات مفصلة للمشكلات الجزئية • فالبؤرة الضيقة للدراسات التى يطلبونها قد تكون جزء من بحث يثير الاعجاب ويبغى الدقة والتأكد، كما قد تكون أيضا جزء من تقسيم للعمل الفكرى ، ومن تخصص لاينبغى لأحد الاعتراض عليه • ومع ذلك ، فنحن بالتأكيد أصحاب حق فى أن نسأل : اذا ما تم الزعم بأن هـــذه الدراسات ما هى الا أجزاء من تقسيم ما للعمل يشكل ككل مسعى علم الاجتماع ، فأين هى ، اذن ، الاقسام الاخرى التى تعتبر هذه الدراسات أجزاء منها ؟ وأين هـــو «التقسيم» الذى توضع فى اطاره دراسات مثل هذه فى صورة ما أكثر اتساعا ؟ •

وينبغى أن نذكر ، أن الممارسين لكافة أساليب العمل تقريبا يميلون الى استخدام شعارات مماثلة ، فنجد أن كل شخص (أنها هذه فكاهة ولكنها ليست الفكاهة الوحيدة) قد أصبح يدرك بدرجة كبيرة مدلولات المفاهيم الخاصة به ، كما أن كل شخص يدقق فى التمييزات بين هذه المفاهيم (والكثيرون يفعلون ذلك فقط) ويدرك أيضا «النموذج المثالى

للتحقق الخبروى» • ومن المعترف به بشكل شائع ، أن أى محاولة منهجية للفهم تتضمن نوع من التناوب ما بين المدخل «الخبروى» والتمثل «بالنظرية» ، وان البحث عن الحقائق ينبغى أن يسترشد بالمفاهيم والافكار ، وأن البحوث التفصيلية تستخدم للتأكد من الافكار واعادة صياغتها •

وما حدث فى عملية القصور المنهجى ، هو أن الناس لم يعودوا ملتصقين كثيراً بالمدخل الخبروى بمثل التصاقهم بما يعد أساساً من مشكلات الفلسفة المعرفية للمنهج • وحيث أن الكثيرين من هؤلاء الناس، خصوصاً الشباب منهم ، لا يعرفون الكثير عن فلسفة المعرفة ، فانهم يميلون للتعصب التام لمجموعة القوانين والنواميس التى تسيطر على عقولهــم •

وما حدث فى حالة تشيؤ المفهوم ، هو أن الناس قــد أصبحوا جامدون عند مستوى بالغ الارتفاع من التعميم ، الذى عادة ما يكون ذا طبيعة تهتم بتراكيب الكلمات ، ولا يستطيعون الهبوط الى واقــع الحقيقــة • وكلا الاتجاهين أو المدرستين موجود ويزدهر فى نطــاق ما ينبغى أن يكون وقفات خلال المسار العملى لعلم الاجتماع • ولكن كليهما بتوقفه هذا يكون بداية طريق العقم العلمى •

ومن الناحية الفكرية ، فان هاتين المدرستين يمثلان ابتعاداً وتنحيا عن التراث الكلاسيكى لعلم الاجتماع ، ووسيلتهم فى هذا الابتعاد هى التعالم على عملية تدقيق «المنهج» و «النظرية» • والسبب الرئيسى وراء هذا هو افتقارهم الى الاتصال القوى بالمشــكلات الجوهرية • ولو لم تكن حالة الصعود والهبوط فى المذاهب والمناهج بسبب التنافس الفكرى البحت بينهم (الاكثر ملاءمة وخصوبة هو الذى يفوز والاقل

ملاءمة وخصوبة هو الذى يسقط فى الطـريق) ، لما أمكن للنظـرية المتضخمة والخبروية المجتزأة أن ينالا مثل هذا الصعود والشهرة الذى وصلا اليه • والنظرية المتضخمة قد تكون منحى صغير بين الفلاسفة ـــ وربما قد تكون شيئا يدخل صغار الاكاديميين فى خضمه ـــ كما أن الخبروية قد تكون احدى النظريات عند فلاسفة العلم ، وكذلك منهج اضافى مفيد من بين المناهج العديدة للبحث الاجتماعى •

ولو لم يكن هناك شىء آخر غير النظـرية المتضخمة والخبروية المجتزأة وهما يقفان شامخان بجوار بعضهما ، لكانت حالتنا كباحثين اجتماعيين تثير الاسى بالفعل • ففى مجال الممارسة ، قد يفهمان على أنهما يؤكدان أننا لا نعرف الكثـير عن الانســان والمجتمع ـــ الاولى بغموضها الشكلى المظلم ، والثانية ببراعتها الشكلية الخاوية •

المراجـــــع

(١) برنادر بيرلســـون ، دراســـة الرأى العـــام ، حالة العـــلوم الاجتماعية ، اعداد ليونارد وايت ، شيكاغو ، الينوى ، جامعة شيكاغو ، ١٩٥٦ ، ص ٢٩٩ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٣٠٤ ــ ٣٠٥ .

(٣) المثال التالى جاهز لايضـــاح الامر : فعند مناقشة القضـــايا الفلسفية المختلفة ، خصوصا بالنسبة لطبيعة الظواهر «الذهنية» واعتماد آراؤه عنها على المشاكل الخاصة بفلسفة المعـــرفة ، يقول جورج ليندبرج : «انه بسبب عدم التأكد من تعـــريف «المدرسة» بل وبصفة خاصة بسبب الكثير من التداعيات الغريبة التى تثيرها تعبير «الوضعية» فى الاذهان ، فاننى كنت أفضل دائما تحديد وجهة نظرى بأنها تتصف بصفة «علم الطبيعة» بأكثر مما هى محاولة لمطابقتها بأى مدرسة من المدارس المألوفة فى الفلسفة التقليدية ، كما أننى ، بشكل عام ، أعتقد مع جميع علماء الطبيعة الآخرين ، بأننى بالفعل أسير قدما بنـــاء على التسليم جدلا بأن معطيات العلم التجريبى يشتمل على ردود فعل أخذت طابـــع الرمزية عن طـــريق الوســـائط الخاصـــة بالاحاسيس البشرية (مثل كافة استجاباتنا ، بما فى ذلك تلك الخاصة «بالاعضاء الحسية»)» . ثم «اننا بالتأكيد ، بالاشتراك مع كافة علماء الطبيعة ، نرفض ذلك المفهوم ...» تيار العلم الطبيعى فى علم الاجتماع ، المجلة الامريكية لعلم الاجتماع ، المجلد ٦١ ، العدد ٣ ، نوفمبر ١٩٥٥ ، ص ١٩١ : ١٩٢ .

(٤) وليام بيك : العلم الحديث وطبيعة الحياة ، ماكميلان ، ١٩٥٨ (مجموعة كتب بنجوين ١٩٦١) .

(٥) ما هو علم الاجتماع ؟ مقالة منسوخة على الآلة الكاتبة ، أوسلو ، سبتمبر ١٩٤٨ . لقد كتب هذا البحث وألقى على مجموعة من الناس كانوا يسعون للحصول على بعض التوجيه العام لانشاء معهد للبحث الاجتماعى . لذلك فهو يعتبر أنسب الابحاث لأغراضى حاليا ، حيث أنه يتصف بالايجاز ، والوضوح، والبرهان فى مجاله . وبطبيعة الحال ، هناك غيره تفسيرات أخرى أكثر دقة ورشاقة ، منها مثلا ، «لغة البحث الاجتماعى»، اعداد لازار سفيلد وروزنبرج ، الينوى ١٩٥٥ .

(٦) أوسلو ، ١٩٣٨ ، ص ٤ : ٥ .

(٧) المصدر السابق ، ص ٥٠ «ان تحليل المضمون لمجموعة من المواد الخام يشتمل على تصنيف الوحدات الصغيرة من المستندات (كلمات ، جمل ، موضوعات أساسية) وذلك طبقا للقاعدة المنهجية المعروفة» بيتر روس ، «مناهج البحث الاجتماعى» ، ١٩٤٥ — ١٩٥٥ ، علم الاجتماع فى الولايات المتحدة الامريكية ، اعداد هانز زينزبرج ، باريس ، اليونسكو، ١٩٥٦ ، ص ٣٣ .

(٨) جميع الفقرات السابقة مأخوذة من لازار سفيلد ، «ما هو علم الاجتماع ؟» ، ص ٥٠ — ٥٦ .

(٩) المصدر السابق ، ص ٧ ، ٨ ، ١٢ ، ١٣ .

(١٠) نفس المرجع ، ص ١٧ .

(١١) نفس المرجع ، ص ٢٠ •

(١٢) يشير «المذهب السيكولوجى» الى محاولة تفسير الظواهر الاجتماعية من منطلق الحقائق والنظريات المتعلقة بتكوين الافراد • وهذا المذهب ، من الناحية التاريخية ، يرتكز على الانكار الميتافيزيقى الصريح لواقع البناء الاجتماعى • وفى أحيان أخرى ، فان أصحاب هذا المذهب قد يضعون مفهوما للبناء الاجتماعى يختزل الى مجرد مجموعة من الاوساط البيئية المحلية • كذلك ، فان المذهب السيكولوجى بشكل أعم ، ومن حيث تعلقه بصورة مباشرة باهتمامنا بالسياسات الحالية للبحث فى علم الاجتماع ، يرتكز على فكرة أنه اذا نحن قمنا بدراسة مجموعة من الافراد والاوساط الخاصة بهم ، فان النتائج التى سنخرج بها من دراساتنا يمكن بشكل ما اضافتها الى المعرفة الخاصة بالبناء الاجتماعى •

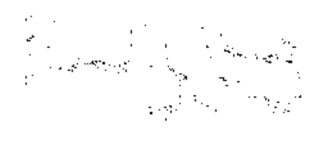
(١٣) لابد أن أذكر أن أحد أسباب الشكل الهزيل أو حتى الخواء الذى تتسم به هذه الدراسات ذات الحقائق المشوشة ، هو أنها تحتوى على القليل جدا أو لا يوجد على الاطلاق أى نوع من الملاحظة المباشرة من جانب من يقومون عليها • «فالحقائق الخبروية» هى حقائق قام بجمعها مجموعة من الافراد شبه المهرة عادة الذين يتلقون التوجيه بصورة بيروقراطية • ولقد أغفل عن هذا ، أن الملاحظة الاجتماعية تتطلب نوعا من الحس الذى يتصف بدرجة عالية من الحدة والذكاء والمهارة ، وأن عملية الاكتشاف غالبا ما تحدث بالتحديد عندما يغوص العقل صاحب الخيال العلمى فى خضم الحقائق الاجتماعية •

[illegible]

[illegible]

الفصل الرابع

انماط الممارسة العملية



الفصل الرابع

أنماط الممارسة العملية

ان حالة الخلط والبلبلة فى مجال العلوم الاجتماعية ، هى حالة أخلاقية بمثل ما هى «علمية» ، وسياسية بقدر ما هى فكرية . وأى محاولة لتجاهل هذه الحقيقة هى من بين الاسباب الداعية الى استمرار حالة الخلط والبلبلة . وحتى يمكن اصدار الحكم على المشاكل والمناهج الخاصة بالمدارس المتعددة للعلوم الاجتماعية ، لابد أن يستقر رأينا على الكثير من القيم السياسية والقضايا الفكرية ، ذلك لأننا لا نستطيع أن تقرر طبيعة أى مشكلة ما لم نعرف أولا مشكلة «من» هى . فمـا يمثل مشكلة لشخص ما لا يكون مشكلة على الاطلاق بالنسبة لشخص آخر ، والمسألة تعتمد على مثار اهتمام أى منهما ، وعلى كيفية ادراكه للاهتمامات الخاصة به . الاكثر من هذا ، أن احدى القضايا الاخلاقية تبرز أمامنا لسوء الحظ : الناس لا يهتمون دائما بما هو فى صالحهم . فكل انسان ليس على تلك الدرجة من العقلانية التى غالبا ما يعتقـد علماء الاجتماع أنهم قد وصلوا اليها . وكل هـذا معناه أن جميـع الدارسين للانسان والمجتمع ، وبما يقدمون من أعمال يأخذون على عاتقهم عبء القرارات الاخلاقية والسياسية ، والايحاء بها .

(١)

ان العمل فى مجال العلم الاجتماعى كانت دائما تصحبه المشاكل الخاصة بعملية التقويم . والتقاليد الخاصة بهذه العلوم تحتوى عى

سلسلة طويلة من القرارات التى غالبا ما تكون جازمة فى الرأى ، وعلى كثير من المحاولات لتجاوز العقبات ، وأيضا على عدد من الآراء المعقولة والمدروسة جيدا • وكثيرا ما لا تكون المشكلة قد ووجهت بشكل مباشر على الاطلاق ، بل كل ما يحدث أن يتم تقديم — أو الاخذ بـ — اجابات متناثرة ، كما هو الامر فى علم الاجتماع التطبيقى حيث يقوم الباحث الفنى بطرح اجابات جاهزة للايجار • ومثل هذا الباحث الممارس، بما لأساليبه التقنية من حيادية مفترضة ، لا يمكنه الهرب من هـذه المشكلة — ذلك لأنه ، فى واقع الامر ، يسمح لأنماط أخرى من الناس بحلها له • ومع هذا ، فمن المؤكد أن محترف الفكر سـوف يحـاول الاضطلاع بأداء عمله وهو مدرك لمتطلبات هـذا العمل ومضموناته ، وليس أقلها مغزاه الاخلاقى والسياسى بالنسبة للمجتمع الذى يمارس عمله فيه وبالنسبة لدوره داخل هذا المجتمع •

ولقد أصبح هناك اتفاق واسع الآن يكفى لشيوع فكرة أن المرء لايمكنه الاستدلال على أحكام القيمة من بيانات الحقيقة أو من التعريفات الخاصة بالمفاهيم • ولكن هذا ليس معناه أن هذه البيانات والتعريفات هى عناصر غير ملائمة لاستصدار الحكم • فليس من العسير أن نرى أن معظـم القضايا الاجتماعية تنطوى على خليط متشـابك من الحقائق المغلوطة والمفاهيم غير الواضحة ، بالاضافة الى تحيز فى التقييم • وليس من الممكن معرفة ما اذا كانت هذه القضايا تنطوى بالفعل على صراع للقيم أم لا ، الا فقط بعد فك هذا الاشتباك بأسلوب منطقى •

وحتى يمكن الجزم بما اذا كان مثل هذا الصراع موجود أم لا ، وكذلك استخلاص الحقيقة من القيمة ، اذا ما وجد هذا الصراع ، لهو أمر يعتبر بطبيعة الحال أحد المهام الاساسية التى يضطلع بها غالبـا العلماء الاجتماعيون • ويؤدى العمل على فض مثل هذا التشابك ، فى

بعض الاحيان ، الى اعادة طرح القضية بطريقة تجعلها قابلة للحل ، ذلك أنها قد تكشف عن وجود تناقض فى القيم الخاصة بنفس المصلحة: فلا يمكن الاعتراف بقيمة تكون قد برزت حديثا ما لم يتـم التضحية بالأقدم منها ، وهكذا ، وحتى يمكن القيام بالفعل ، لابد للمصلحة أن تعرف بشكل مباشر وواضح ما هو الشيء الذى يحظى لديها بأعلى قدر من القيمة .

ولكن ، عندما تكون هناك قيم تعتنقها ، بغاية الحزم والثبات ، مصالح حقيقية متصارعة ، لدرجة أن هذا الصراع لا يمكن اذابته عن طريق التحليل المنطقى والبحث عن الحقيقة ، عندئذ يمكن القول أن دور العقل فى هذا الامر البشرى قد انتهى . وعلى الرغم من أنه فى استطاعتنا اجلاء مغزى القيم وما ينجم عنها من نتائج ، وفى استطاعتنا أن نحقق لها التماسك والتواصل بعضها مع البعض وأن نؤكد أولويتها الفعلية ، كما فى امكاننا أيضا احاطتها بالحقيقة — الا أننا فى النهاية قد نصل فقط الى مجرد التأكيد والتأكيد المضاد ، وعندئذ فاننا لن نستطيع أن نفعل شيئا سوى أن نتوسم الرجاء أو اللجوء الى الاقناع . ثم فى نهاية الامر ، اذا ما أمكننا الوصول للنهاية ، سنجد أن المشاكل الاخلاقية قد أصبحت مشاكل خاصة بالسلطة ، وأخيرا عند الملجأ الاخير ، اذا ما أمكننا الوصول الى هذا الملجأ الاخير ، سنجد أن الشكل النهائى للسلطة هو القهر والالزام .

ونحن لا نستطيع أن نستدل — «وهيوم» قد مجد سبل الاستدلال — كيف ينبغى أن يكون فعلنا انطلاقا مما نؤمن به ، كذلك ليس فى قدرتنا أن نستدل كيف ينبغى أن يكون فعل أى شخص آخر انطلاقا من اعتقادنا بما ينبغى علينا أن نفعله . وهكذا ، فى النهاية ،

اذا جاءت هذه النهاية ، فان كل ما سنفعله هو فقط أن نضرب أولئك الذين يختلفون معنا على رؤوسهم ؛ لذا فلنأمل أن لا تأتى هذه النهاية الا نادرا . وفى ذات الوقت ، ولكوننا على هـــذا القدر من التعقل ، فينبغى علينا جميعا أن نلجأ الى الحوار والجدل .

فى مجموعة المشاكل التى نقوم بدراستها ، هناك قيم تنطوى عليها، كذلك فان بعض المفاهيم الرئيسية المعينة التى نستخدمها فى صياغتنا لهذه المشاكل هناك أيضا قيم تنطوى عليها ، وتؤثر القيم على مســـار الحل لهذه المشاكل . وبقدر ما تعنينا هذه المفاهيم ، فان الهدف ينبغى أن يكون العمل على استخدام أكبر قدر من الصياغات «حيادية القيمة» وأن نصبح مدركين ، ونعمل على ايضاح دلالات القيمة المتبقية . وبقدر ما تعنينا المشاكل أيضا ، فان الهدف ينبغى أن يكون ، مرة أخرى ، هو الوضوح فيما يتعلق بالقيم من حيث الصياغات التى يتم اختيـــار هذه القيم منها ، ثم عندئذ تجنب التحيز فى التقييم عنـــد حل هـــذه المشاكل ، أيا كان المدى الذى سيصل اليه هذا الحل وأيا كانت دلالاته الاخلاقية والسياسية .

وفى هذا المجال ، هناك أنماط معينة من النقاد يصدرون حكمهم على العمل فى مجال العلوم الاجتماعية وفقا للنتائج المستخلصة منه أهى قاتمة أم براقة ، سلبية أم بناءة . هؤلاء الاخلاقيون الذين يبحثـــون عن البريق يريدون أنشودة بازغة ، على الاقل فى نهاية الامر : فمـــا يسعدهم أن يشعروا بحالة من التفاؤل الذى ننطلق منه قدما ونحن نشعر بالانتعاش والاشراق . ومع هذا ، فان العالم الذى نبذل جهدنا لفهمه لا يجعلنا جميعا دائما ونحن نشعر بالتفاؤل السياسى أو الرضاء الاخلاقى ، وهو ما يعنى ، أن علماء الاجتماع أحيانا يجدون من الصعوبة

عليهم أن يلعبوا دور الابله المبتهج • وأنا شخصيا قد أعتدت أن أكون من النمط الذى يشعر بالتفاؤل الشديد ، ومع هــذا فيجب أن أعترف بأننى لم أكن أستطيع أبدا أن أعقد العزم أو يســتقر رأيى على شىء مؤكد من حيث اذا كان هذا الشىء يؤدى أو لا يؤدى الى الشـــعور بالابتهاج • ففى البداية ، يحاول الانسان أن يجعل الامور واضحة وصريحة — اذا كانت قاتمة ، أو بالغة السوء ، أما اذا كانت تؤدى الى اثارة الامــل ، فنعما بهـــا • فى ذات الوقت ، الصراخ من أجل «البرنامج البناء» و «الرأى المثير للامل» ، لا يخرج عن كونه غالبـــا بمثابة دلالة على عدم القدرة على مواجهة الحقائق كما هى حتى ولو كان المؤكد أنها حقائق غير مرضية ، وليست لها صلة بالصدق أو الزيف وبالحكم على العمل المناسب فى مجال العلم الاجتماعى •

ان عالم الاجتماع الذى يبذل قواه الفكرية فى بحث تفاصيل وسط بيئى صغير الحجم ليس معناه أنه يضع عمله بعيـــدا عن الصراعات والقوى السياسية السائدة فى زمنه ، بل هو ، فى واقع الامر وبشكل غير مباشر ، يكون بذلك ، «متقبلا» للاطار الذى يدور فيه مجتمعه • ومع هذا ، فلا يوجد شخص ويكون راضيا بالقيام بالمهام الكاملة لعلم الاجتماع يستطيع أن يكتفى بهذا البناء فقط ، ذلك أن عمله فى الواقع، هو كشف وايضاح هذا البناء ودراسته ككل • وقبول القيام بهذا العمل «هو» فى حد ذاته أساس حكمه • ولأن هناك قدر كبـــير من عناصر التزييف فى المجتمع الامريكى ، فان مجرد وصف هذا التزييف بشـــكل محايد غالبا ما يعتبر «الاتجاه الطبيعى الفج» • وبطبيعة الحال ، فانه ليس من العسير تماما اخفاء مثل هذه القيم كما قد يفترض أو يقبل أو يوحى عالم الاجتماع • فكما نعرف جميعا ، فان هناك وسيلة ثقيلة

لهذا الاخفاء : فقدر كبير من اللغــة الاصطلاحية الخاصــة بالعــلم الاجتماعى ، خصوصا لغة علم الاجتماع ، تنشأ عن عاطفة حب البحث والاستقصاء فى الاسلوب المعين الذى تسير به الامور الحــرة غــير المقيــدة .

وسواء كان الانسان يرغب فى هذا أم لا ، أو سواء كان يدركه أو لايدركه، فان أى شخص يقضى حياته فى دراسة المجتمع ونشر نتائج دراسته «فانه» بذلك يتصرف بطريقة أخلاقية وعادة ما تكون سياسية أيضا . لكن السؤال هو ما اذا كان هذا الشخص يعقد العزم على مواجهــة هذا الظرف ، أم هو يلجأ الى اخفاؤه عن نفسه وعن الآخرين وينساق للتصرف بطريقة أخلاقية . وهناك الكثيرون ، بل يجب أن أقول معظم ، علماء الاجتماع فى أمريكا اليوم يعتنقون الفكر الليبرالى سواء كان ذلك بسهولة أو بمشقة . وهؤلاء العلماء يمتثلون لمشاعر الخوف السائدة من النقيد بأى التزام عاطفى . و «هذا» وليس «الموضوعية العلمية» هو فى الحقيقة الشيء الذى يرغبه مثل هؤلاء الناس عندما يشكون من «اصدار أحكام القيمة» .

وعلى ذكر هذا ، فاننى لا أعتبر التعليم مثله مثل الكتابة . فعندما يقوم الانسان بنشر كتاب ، فهو عندئذ يصبح ملكية عامة ، وكل مسئولية الكاتب تجاه جمهور قرائه ، اذا كانت هناك أى مسئولية ، هو بــذل كل ما فى امكانه لكى يخرج الكتاب جيدا ، وفى هذا الشأن يكون هو الحكم النهائى . لكن المدرس ، على الجانب الآخر ، يتحمل مسئوليات أخرى أكثر من هذا . فالطلبة بالنسبة للمدرس ، هم الى حد ما ، جمهور أسرى ، كما أنهم بدرجة أخرى يعتمدون على مدرسهم ، الذى هو بالنسبة لهم بمثابة نموذج يقتادون به . والعمل الاساسى للمدرس هو

أن يكشف لهم بأجلى وأكمل صورة ممكنة كيف يعمل الذهن بطريقة مرتبة كما هو مفترض • وفن التدريس فى جانب كبير منه هو فن التفكير بصوت عال وبصورة واضحة مفهومة • أما بالنسبة للكاتب ، فهو غالبا ما يحاول فى كتابه أن يقنع الآخرين بنتائج تفكيره هو ، لكن فى حجرة الدراسة ، المدرس يتوجب عليه أن يحاول أن يبين للآخرين كيف يفكر الانسان — وفى ذات الوقت يكشف عن الشعور بالارتياح الذى يحس به عندما يؤدى هذه المهمة جيدا • وحينئذ ، فان المدرس ينبغى عليه ، كما يبدو لى ، أن يوضح بجلاء شديد كل ما هناك من فروض ، وحقائق ، ومناهج ، وأحكام • وهو لا ينبغى عليه أن يحجب أى شىء، ولكن يجب عليه أن يأخذ الامور ببطء شديد وأن يوضح فى كل وقت وبصورة متكررة المجال الكامل للبدائل الاخلاقية قبل أن يدلى هو باختياره الخاص • أما وضع كتاب بهذا الاسلوب فسوف يكون أمرا مملا وكئيبا بدرجة هائلة • وهذا هو أحد الاسباب فى أن المحاضرات التى تكون بالغة النجاح عند القائها ، لا تكون ناجحة عادة عند طبعها •

وهنا ، ليس من اليسير أن يكون الانسان متفائلا كما يشعر «كينيث بولدنج Kenneth Boulding » الذى كتب يقول : « رغما عن جميع المحاولات التى يبذلها علماؤنا الوضعيون لتجريد العلوم الخاصة بالانسان من صفتها الانسانية ، الا أنه يبقى هناك علم الاخلاق» • وحتى مع هذا ، فقد يكون الاكثر صعوبة هو عدم الاتفاق مع «ليونيل روبنز Lionel Robbins » ، الذى يقول : «ليس من المبالغة فى شىء أن تقول أن احدى المخاطر الرئيسية الناجمة عن الحضارة تنشأ عن عدم قدرة الاذهان التى تمرست على العلوم الطبيعية أن تستوعب الاختلاف بين ما هو اقتصادى وما هو فنى»[٢] •

(٢)

كل هذا فى حد ذاته ليس فيه شىء مما يزعج الانسان ، فهو أمر مسلم به بدرجة كبيرة ، حتى ولو لم تكن قد تمت مواجهته . وفى أيامنا هذه ، فان البحث الاجتماعى غالبا ما يؤدى خدمة وفائدة مباشرة لقادة الجيش ، وللباحثين الاجتماعيين ، ولمديرى الشركات ، ولحراس السجون . وهذا «الاستخدام البيروقراطى» للبحث الاجتماعى بات يتزايد ، بل ودون شك سوف يستمر فى التزايد . كذلك ، فان الدراسات تستخدم أيضا — من جانب علماء الاجتماع وغيرهم من الناس — فى «نواع أيديولوجية» . وفى الحقيقة ، فان ارتباط الصفة الايديولوجية بعلم الاجتماع هو أمر متلازم فى صميم وجوده كحقيقة اجتماعية ، فكل مجتمع ترتبط به صور خاصة بطبيعته هو — خصوصا الصور والشعارات التى تبرر وجود نسق السلطة الخاص به وتسوغ الوسائل التى يستخدمها القوى وذو نفوذ كبير . أما الصور والافكار التى يستخرجها علماء الاجتماع فقد تتفق أو لا تتفق مع هذه الصور السائدة، ولكنها دائما تحمل مدلولات خاصة تعينهم هم . وبقدر ما تصبح هذه المدلولات شيئا معروفا ، بقدر ما تصبح عادة شىء يستثير النقاش والجدل حوله — كما تستخدم :

(١) عند تبرير الاجراءات الخاصة بالقوة وتصاعد صاحب القدرة فان الصور والافكار تقوم بتحويل القوة الى سلطة . (٢) وعند انتقاد أو استثارة التدابير السائدة والحكام ، فانها تجردهم من السلطة . (٣) وعند تشتيت الانتباه عن القضايا الخاصة بالقوة والسلطة ، فانها تحول الانتباه عن الحقائق البنائية للمجتمع نفسه .

ومثل هذه الاستخدامات ليس من الضرورى أن تكون من الامور التى تدخل فى نطاق النوايا عند علماء الاجتماع • أى أن الامر أيا كان، فمن المعتاد تماما عند علماء الاجتماع أن يكـــونوا مدركين للمقاصـــد السياسية للعمل الذى يقومون به • فاذا كان أحدهم لا يدرك ذلك ، فى عصر الايديولوجيات هذا ، فهناك شخص آخر سيكون على هـــذا الادراك •

وهذا المطلب الخاص بوضوح المبررات الايديولوجية قد اتســـع حجمه بدرجة كبيرة ، حتى ولو كان ذلك فقط بسبب نشوء المؤسسات والانظمة الجديدة ذات القوة الهائلة التى لم تكتسب صفتها الشرعية ، ولأن أصحاب القوة السابقين قد تجاوزوا حدودهم القديمة • فمثلا ، القوة التى تتمتع بها الشركة الحديثة لا يبررها بصورة آلية تلك المذاهب والافكار الليبرالية الموروثة عن القرن الثامن عشر التى تعتبر هى أساس السلطة الشرعية فى الولايات المتحدة • ونحن نجـــد أن كل مصـــلحة وعنصر قوة ، وكل شعور بالعاطفة والمحاباة ، وكل احساس بالكراهية والامل يجنح الى اكتساب وسيلة أيديولوجية يمكن بها مجابهة الشعارات والرموز ، والمذاهب والدعاوى الخاصة بالمصالح الاخرى • ومع اتساع وسائل الاتصال العامة واكتسابها لعنصر السرعة ، فان فعاليتها قـــد اهترأت وضعفت نتيجة لعامل التكرار ، وهكذا أصبح هناك مطلب مستمر من أجل شعارات ومعتقدات وأيديولوجيات جديدة • وفى هذا الوضع الخاص بوسائل الاعلام والعلاقات العامة المكثفة ، قد يكون من الغريب بالفعل أن تكون الدراسات الاجتماعية ممنوعة من التسلح بالذخـــيرة الايديولوجية ، بل وقد يكون من الاغرب أن يخفق الباحثون الاجتماعيون فى توفير هذه الذخيرة •

ولكن سواء كان عالم الاجتماع يدرك هذا أم لا ، فان مجرد قيامه بالعمل كعالم اجتماع يجعله الى حد ما يقوم بأداء دور بيروقراطى أو أيديولوجى • الاكثر من هذا ، أن أيا من الدورين يؤدى فى الحال الى الآخر • فان استخدام أكثر وسائل البحث التقنية رسمية فى الاغراض البيروقراطية يفضى بسهولة الى ايجاد تبريرات للقرارات التى يفترض أنها قامت على أساس هذا البحث • كذلك استخدام النتائج التى يتوصل اليها علم الاجتماع فى أغراض أيديولوجية ، سرعان ما يصبح بدوره هو الآخر جزء من العمليات البيروقراطية : فالمحاولات التى تبذل فى أيامنا هذه لاسباغ الشرعية على عامل القوة ، ولجعل سياسات محددة أمرا مقبولا ومستساغا ، هى غالبا والى حد كبير بمثابة جزء من «ادارة الافراد» و «العلاقات العامة» •

ومن الناحية التاريخية ، فاننا نجد أن علم الاجتماع كان يستخدم فى الاغراض الايديولوجية بأكثر مما كان يستخدم فى النواحى البيروقراطية ، بل وربما قد يكون الامر كذلك حتى الآن ، وعلى الرغم مما يبدو أن الميزان يتحول كثيرا فى جانب ما ؛ الا أن استخدام علم الاجتماع فى الاغراض الايديولوجية كان راجع الى حقيقة أن جانبا كبيرا من علم الاجتماع الحديث كان بمثابة حوار وجدل غير معترف به كثيرا مع عمل ماركس ، وكذلك بمثابة انعكاس للتحدى من جانب الحركات الاشتراكية والاحزاب الشيوعية •

ولقد كانت النظم الاقتصادية الكلاسيكية هى الايديولوجية الرئيسية التى تعتنقها الرأسمالية كنسق للقوة • وفى هذا ، فانها كثيرا قد «أسىء فهمها بشكل مثمر» — حتى بمثل ما يستخدم الدعائيون السوفييت عمل ماركس اليوم • وكون أن رجال الاقتصاد قد تعلقوا بشدة بالنواحى الميتافيزيقية للقانون الطبيعى وبالفلسفة الاخلاقية للمذهب النفعى فهو

أمر قدريات واضح من خلال الانتقادات التى وردت فى المذهب الكلاسيكى والكلاسيكى الجديد الذى وضعته المدارس الاقتصادية التاريخية والنظامية . ومع هذا ، فان هذه المدارس ذاتها لا يمكن فهمها الا فقط بالاسترشاد والرجوع الى «الفلسفات الاجتماعية» المحافظة ، أو الليبرالية ، أو الراديكالية . ومنذ الثلاثينات بصفة خاصة ، فان رجال الاقتصاد — وقد أصبحوا مستشارين للحكومات وللشركات — قاموا بطرح الاساليب الادارية القائمة بشكل واضح على السياسة ، والاساليب الروتينية الراسخة الخاصة بالتقارير الاقتصادية ذات التفاصيل المستفيضة . وينطوى كل هذا ، بفعالية كبيرة ، وان لم يكن دائما بشكل صريح ، على استخدام أيديولوجى وكذلك بيروقراطى .

ويمكن القول ، أن حالة التشويش والاضطراب المتفشية فى مجال الاقتصاديات فى الوقت الحاضر هى حالة تنطوى على مسائل خاصة بالسياسة وكذلك بالمناهج والافكار المتباينة . حتى رجال الاقتصاد البارزين ، فهم بالمثل يعلنون عن آراء ووجهات نظر متناقضة تماما . فنحن نرى «جاردنر مينز Gardier Means » مثلا ، يهاجم رفاقه لتعلقهم بخيالات «القرن التاسع عشر» عن المشروعات الذرية الحجم ، ويدعو الى نمط جديد للاقتصاد ذلك الذى تتولى فيه الشركات الضخمة وضع وضبط الاسعار . لكن «وازيلى ليونتيف Wassily Leontief » ، على الجانب الآخر ، يهاجم ذلك الانقسام الذى حدث بين رفاقه ما بين مجرد أصحاب نظريات بحتة وآخرين ينبشون عن الحقائق ، ويدعو الى تضافر للخطط والمشروعات الخاصة بالمدخلات والمخرجات . أما «كولين كلارك Cotin klark » فيعتقد بأن مثل هذه المخططات والمشروعات هى «تحليلات تفصيلية بلا جدوى ومضيعة للوقت» ، ويدعو رجال الاقتصاد

الى تركيز فكرهم فى كيفية تحسين «الرخاء المادى للبشرية» ـ ويطالب بالعمل على خفــض الضرائب • ومـع هــذا ، فان « جون جالبريث John Galbraith » يؤكد على أن رجال الاقتصاد ينبغى أن يتوقفوا عن ابداء قلقهم واهتمامهم الشديد بزيادة الرفاهية المادية ؛ ذلك لأن أمريكا بالفعل هى دولة بالغة الثراء ، وأن العمل على زيادة الانتاج لهو شىء غبى وأحمق • ويدعو «جالبريث» رفاقه الى المطالبة بزيادة الخدمات العامة وزيادة الضرائب (ضرائب المبيعات)[٢] •

وحتى علم الديموجرافيا ـ السكان ـ ، وهو تخصص احصائى تماما ، قد انغمس بعمق فى الصراعات الخاصة بالسياسة والمجــادلات الباحثة عن الحقائق وكان أول من أثارها «روبرت مالتوس» • ولقد صار الكثير من هذه القضايا يركز الآن على المناطق التى كانت مستعمرة سابقا والتى نجد فيها ، بصور متعددة ، أن الانثروبولوجيا الثقافية كانت تهتم بشكل عميق بالحقائق وبسيكولوجية الاســتعمار • ومن وجهــة النظر الليبرالية أو الراديكالية ، فان المشاكل الاقتصــادية والسياسية الخاصة بهذه الدول قد تحددت بصفة عامة على أنها مشاكل تتعــلق بالحاجة الى تحقيق التقدم الاقتصادى السريع ـ وبصفة خاصة الحاجة الى التصنيع مع كل ما يعنيه هذا الامر • ولقد انضم الانثروبولوجيون الى دائرة النقاش والحوار بذلك الحرص والتبصر الذى يبدو ، مثلما كان الامر عند القوى الاستعمارية القديمــة ، وكأنه يتجنب صــور الانقلاب والتوتر التى أصبحت فى أيامنا هذه من الامور الحتمية تقريبا التى تصاحب أى تغيير يحدث فى المناطق المتخلفة • وبطبيعة الحال ، فان مضمون وتاريخ الانثروبولوجيا الثقافية ليست بالامور التى يتــم «تفسيرها» بأى حقائق خاصة بالاستعمار ، على الرغم من أن هــذه

الحقائق ليست ببعيدة الصلة بها • ومن ناحية أخرى ، فان الانثروبولوجيا الثقافية قد خدمت أيضا الاغراض الليبرالية والراديكالية ، خصوصا باصرارها على تكامل وسلامة شعوب المجتمعات البسيطة ، وعلى النسبية الاجتماعية لشخصية الانسان ، وبدعايتها وسط الغربيين ضد الانحصار •

أما المؤرخون ، فيبدو أن البعض منهم تنتابه اللهفة لاعادة كتابة الماضى بما لا يخدم فى شىء سوى الاغراض الايديولوجية للحاضر • ومن الامثلة الحالية لهذا ، هو ما تقوم به أمريكا من «التمجيد» لحقبة التضامن وانتشار دوائر الاعمال فى الحياة التى أعقبت الحرب الاهلية• وبتفحص جزء كبير من التاريخ الامريكى فى العقود القليلة الماضية بعناية ، سوف نلاحظ أنه مهما كان هذا التاريخ أو مهما كان يجب أن يكون عليه ، فانه يصبح أيضا اعادة صياغة سخيفة للاساطير الوطنية والطبقية • ومع ظهور استخدامات بيروقراطية جديدة لعلم الاجتماع ، كانت هناك ، خصوصا منذ الحرب العالمية الثانية ، محاولة للاحتفال بـ «المغزى التاريخى لأمريكا» ، وفى خضم هذا الاحتفال قام بعض المؤرخين بجعل التاريخ يتماشى مع المزاج المحافظ ومع المستفيدين منه من الناحية الروحية والمادية •

وعلى صعيد آخر ، علماء السياسة ، خصوصا فى تناولهم للعلاقات الدولية منذ الحرب العالمية الثانية ، من المؤكد أنه لا يمكن اتهامهم بتمحيص سياسة الولايات المتحدة بأى نوع من مشاعر المعارضة • وفى هذا الشأن ، ربما يذهب البروفسير «نيل هوتون Neal Houghton» بعيدا عندما يؤكد أن «قدرا كبيرا مما صدر فى دراسة علم السياسة لم يتجاوز الا القليل فى كونه ترشيد وترويج هامشى لهذه السياسات»[٣] ، ولكن القضية التى يطرحها لا يمكن تنحيتها جانبا دون التعمق بالبحث فيها •

كذلك التساؤل الذى يوجهه البروفسير «أرنولد روجو Arnold Rogow»:
«ماذا حدث للقضايا الكبرى ؟»[٤] الذى لا يمكن الاجابة عليه دون أن نلاحظ أن الكثير من علم السياسة كان مؤخرا لا يتناسب وفهم الحقائق الهامة ، وانما يتناسب مع الاشـــادة بالسياسات والاخطاء الرســمية بصورة علمية •

وما ذكرت هذه الاستخدامات والدلالات القليلة بهـدف النقد أو المحاولة لاثبات وجود محاباة أو تحيز ، وانما فعلت ذلك فقط لمجـرد تذكير القارىء بأن علم الاجتماع هو علم يتصل بصورة حتمية بالمسائل البيروقراطية والقضايا الايديولوجية ، وأن هذه الصـلة موجودة فى مظاهر التنوع والتشوش التى أصبحت عليها العلوم الاجتماعية اليوم ، وأنه قد يكون من الافضل اظهار مقاصدها السياسية بدلا من اخفائها •

(٣)

فى النصف الاخير من القرن التاسع عشر ، كان العلم الاجتماعى فى الولايات المتحدة يرتبط بصورة مباشرة بحركات الاصلاح والتحسين• وما يعرف بـ «حركة العلم الاجتماعى» ــ التى أخذت شكلها التنظيمى عام ١٨٦٥ تحت اسم «الرابطة الامريكية للعلوم الاجتماعية» ــ لم يكن سوى محاولة انتشرت فى نهاية القرن التاسع عشر «لتطبيق العلم» على المشاكل الاجتماعية دون اللجوء الى الاساليب السياسية الصريحة • وباختصار ، فان أعضاء هذه الرابطة قد سعوا الى تحـويل المتـاعب التى يعانى منها أفراد الطبقة الدنيا الى قضايا بالنسبة لجماهير الطبقة المتوسطة • وبمجىء العقود الاولى للقرن العشرين كانت هذه الحركة قد سارت فى طريقها المرسوم • ولم تظل هى الحاملة لأى نوع من أيديولوجيات الاصلاح الراديكالية الخاصة بالطبقة المتوسطة ، بل تحول

دافعها الاكبر لتحقيق صالح الناس الى اهتمامات محدودة بالعمل الاجتماعي ، وبالمؤسسات الخيرية ، ورعاية الاطفال ، واصلاح السجون • ومع هذا ، فمن ثنايا «الرابطة الامريكية للعلوم الاجتماعية» نشأت أيضا الروابط المهنية المتعددة ، ثم في الوقت المناسب ، الانظمة الاكاديمية العديدة في مجال العلوم الاجتماعية •

وهكذا ، فان ما حدث لتلك الحركة الاولى لاصلاح علم الاجتماع الخاصة بالطبقة الوسطى هو الانقسام ، الى تخصصات أكاديمية من ناحية ، والى أنشطة أكثر تحديدا ونظامية لتحقيق المصالح ، من ناحية أخرى • ومع هذا ، فان هذا الانقسام لم يكن معناه أن التخصصات الاكاديمية قد باتت محايدة من الناحية الاخلاقية وعنصر تطهير من الناحية العلمية •

وفي الولايات المتحدة ، كانت الليبرالية هي القاسم المشترك الاعظم في جميع الدراسات الاجتماعية بجانب كونها مصدر للبلاغة والايديولوجية الشعبية • وكان هذا أمر ملحوظ بدرجة واسعة حيث يرجع سببه الى الظروف التاريخية المعروفة جيدا ، وربما قبل ذلك الى عدم وجود نظام اقطاعي ومن ثم أساس أرستوقراطي للصفوة والمفكرين المناهضين للرأسمالية • ومن جانب آخر ، كانت ليبرالية الاقتصاديات الكلاسيكية ، والتي مازالت تشكل النظرة الخاصة بقطاعات هامة من صفوة دوائر الاعمال ، هي موضع استخدام سياسي مستمر ، حتى بين أكثر الصور الاقتصادية تطورا ، وكان هناك تعلق شديد بفكرة الاتزان أو التوازن •

ويمكن القول بشكل أكثر استفاضة الى حد ما ، أن الليبرالية قد غزت علم الاجتماع وعلم السياسة أيضا بالمعلومات • وعلى النقيض

من رفاقهم الاوربيين ، نزع الباحثون الاجتماعيون الامريكيون بشدد الى الاخذ بجزئيه جبرويه" واحده ، اى بمشدله واحده من الوسط البيئى ، فى كل مره • وباختصار ، فان هؤلاء الباحثون قد نحوا الى بعثرة انتباههم • ووفقا لـ «نظريه المعرفه الديموقراطيه» فانهم قد اعتبروا ان كافه الحقائق قد خلقت بشكل متساو • الاكثر من هذا ، انهم قد تشبثوا بفكرة أنه لابد وان يكون هناك عدد كبير من الاسباب الدقيقه جدا لأى ظاهرة اجتماعيه • ومثل هذه «السببية التعددية» كما تسمى ، تخدم تماما السياسات الليبرالية الخاصة بعملية الاصلاح «الجزئى» • وفى الواقع ، فان فكرة أن أسباب الاحداث الاجتماعيه لابد بالضرورة من أن تكون متعددة ، ومتناثرة ، ودقيقة ، هى فكرة تتفق على الفور والمنظور الخاص بما يمكن تسميته بمنظور الممارسة الليبرالية[٥] •

ولو كان هناك أى نوع من التوجه التاريخى فى علم الاجتماع الامريكى ، فمن المؤكد أن هذا التوجه هو الميل نحو الدراسات المتناثرة، ونحو عمليات المسح المبنية على الحقائق وما يصاحب ذلك من فكرة ذلك الخليط المتعدد الاسباب • وهذه هى السمات الجوهرية للعملية الليبرالية كأسلوب للدراسة الاجتماعية • لذا ، فاذا ما كان كل شىء يرجع سببه الى «عوامل» عديدة لا حصر لها ، اذن فلسوف يكون علينا أن نكون فى غاية الحرص فى أى أفعال لها صفة عملية تقوم بها • ففى هذه الحالة سوف يتوجب علينا أن نتعامل مع كثير من التفاصيل ، لذلك فمن الافضل أن نبدأ باصلاح هذه الجزئية الصغيرة ، مثلا ، ونرى ماذا يحدث ، قبل أن نخطو لاصلاح تلك الجزئية الاخرى أيضا • وبالتأكيد فانه لمن الافضل

---

(٥) انظر الفصل الثالث •

ان لا نكون متعصبين فى الراى وننطلق فى وضع خطة عمـل أكيد من اللازم : اذ يجب علينا ان ندخل ذلك الخضم المتفاعل من العمل ونحن ندرك بشكل ينصف بالصبر وطول الاناة اننا قد لا نكون على علم بعد ، أو اننا لن نعرف أبدا ، بكافة الاسباب المتعددة التى تقـوم بعملها . ونحن كعلماء اجماع نهتم بالوسط البيئى ، ينبغى علينا ان نكون على وعى وادراك بالاسباب الكثيرة الصغيرة ، واننا لكى نعمل بذكاء ، كرجال عمليين ، ينبغى علينا ان نقوم باصلاح الجزئيات الصغيرة التى يزخر بها الوسط البيئى ، واحدة هنا ، وواحدة هناك .

ولابد ان يكون شخص ما قال ذات مرة : سر بحرص ، فالاشياء ليست بهذه البساطة . فنحن لو قمنا بتحطيم المجتمع الى «عوامل» بالغة الصغر ، فمن الطبيعى أننـا لن تكون فى حاجة الا الى القـدر الضئيل جدا منها لكى نعلل شيئا ما ، كما أننا لن نكون على ثقة أبدا من اننا قد احتويناها كلها . ومجرد التأكيـد الشـكلى على «الكل العضوى» ، بالاضافة الى الفشل فى تقدير الاسباب الملائمة ـــ التى عادة ما تكون بنائية ـــ بالاضافة الى الاضطرار الى تفحص حالة واحدة فى كل مرة ـــ كل هذه الافكار تجعل من الصعب فهـم البناء الخاص بالوضع الراهن . ومن أجل تحقيق عنصر التوازن ربما ينبغى علينا أن نذكر أنفسنا بآراء أخرى :

فى البداية ، أليس من الواضح أن «مبدأ التعددية» قد يكون مبدأ يقينى بمثل ما هو «مبدأ الواحدية» ؟ ثانيا ، أليس من الممكن دراسة الاسباب دون أن نفرق فى فيضانها ؟ وأليس هذا ، فى الحقيقة ، هو بالضبط ما يجب على علماء الاجتماع أن يفعلوه عندما يقومون بفحص البناء الاجتماعى ؟ انه لمن المؤكد أننا بمثل هذه الدراسات نحاول أن

نستكشف الاسباب التابعة لحدوث شيء ما ، ثم بلكتشافها ، فاننا نقوم بعرض الرأي فيما يتعلق بتلك العوامل الاستراتيجية التي بكونها أغراض للفعل السياسي والاداري تتيح للناس فرصة للتعقل في تشكيل الامور البشرية .

ومع هذا ، ففي الجوانب الميتافيزيقية «العضوية» للممارسة الليبرالية ، مهما يكون الشيء الذي يتجه الى تحقيق التوازن المتجانس ، لهو أمر جدير بالتركيز عليه . ونحن في رؤيتنا لجميع الاشياء باعتبارها «عملية مستمرة» ، فاننا تفقد الرؤية للتغيرات المفاجئة التي هي سمة كبيرة لزمننا هذا ، وحتى اذا لم نفقد هذه الرؤية ، فانها تؤخذ فقط على أنها دلالات على الشيء «الباثولوجي» أو «سوء التكيف» . كذلك ، فان المظهر الشكلي والوحدة المفترضة اللذان توحي بهما عبارات بريئة مثل «الاعراف» أو «المجتمع» ، يقللان من امكانية رؤية ما قد يكون عليه البناء الاجتماعي الحديث .

والتساؤل الآن ، ما هي الاسباب التي تكمن وراء الصفة الانقسامية التي تتسم بها الممارسة الليبرالية ؟ ولماذا علم اجتماع خاص بالوسط البيئي المتناثر ؟ قد تكون الاجابة على هذا ، أن التقسيم الغريب في الدوائر الاكاديمية ربما هو الذي ساعد علماء الاجتماع في تفتيت قضاياهم . كما أن الباحثين الاجتماعيين بصفة خاصة كثيرا ما يبدو وكأنهم يشعرون بأن ممثلي العلوم الاجتماعية القديمة ليسوا على استعداد للاعتراف بأن هناك مكان يسع لوجود علم الاجتماع . وربما كان الامر أن علماء الاجتماع — مثل أوجست كونت — وكذلك المنظر الكبير تالكوت بارسونز — قد رغبوا في أن يكون هناك شيء خاص يقتصر عليهم فقط ، ويتميز تماما عن العلوم الاقتصادية والعلوم

السياسية . ومع هذا ، فاننى لا أعتقد بأن قيود الاختصاصات فى مجال الصراع الاكاديمى — أو أن الافتقار العام للقدرة — يعتبر هو التفسير المناسب لما تعانى منه الممارسة الليبرالية من انخفاض مستوى الرؤية التجريدية وما يصاحب ذلك من فشل أصحاب هذا الاسلوب فى تقدير مشاكل البناء الاجتماعى .

ولننظر الى تلك الجماهير التى كتب من أجلها ذلك الكم الكبير من كتب علم الاجتماع : ان معظم العمل «النسقى» أو «النظرى» الذى تضمنه هذا النظام قد قام عليه مدرسون ، وضعوه فى نصوص من الكتب تخدم الاغراض الخاصة بحجرة الدراسة . كما أن الحقيقة بأن علم الاجتماع كثيرا ما كسب حقه الاكاديمى فى الوجود فى مجابهة دوائر التخصص الاخرى ، هى حقيقة ربما قد زادت من ضرورة الحاجة الى نصوص كتب أخرى . والآن فان هذه النصوص من الكتب تقوم بتنظيم وترتيب الحقائق من أجل جعلها متاحة للصغار ، وليس من أجل تناول نقاط البحث والاكتشاف المتنامية . وبناء على ذلك ، فان هذه النصوص سرعان ما تصبح مجرد عملية تجميع وحشد آلى للحقائق من أجل توضيح المفاهيم المستقر عليها . أما المسائل مثل امكانيات البحث فى الافكار الجديدة ، وتفاعل الافكار والحقائق ، فهى عادة لا تكون موضع أهمية كبيرة من حيث وضع التفاصيل المتراكمة وترتيبها فى شكل ما من أشكال الكتب . ومن ناحية أخرى ، فان الافكار القديمة والحقائق الجديدة كثيرا ما تكون أكثر أهمية من الافكار الجديدة — التى غالبا ما يكون الشعور تجاهها هو أنها تمثل خطورة فى تقييد عدد ما «يؤخذ» من أحد النصوص للاستخدام فى حجرة الدراسة . فعند الاخذ أو عدم الاخذ بأحد النصوص ، يكون الاساتذة قد حكموا عليه ومن ثم يقومون

ما يعتبر مصدر نجاحه • وفى النهاية ، فاننا لابد أن نتذكر ، أن الامر يستغرق وقتا حتى يمكن اخراج محاضرة جديدة •

والسؤال الآن ، من هم الطلبة الذين توضع هذه الكتب من أجلهم؟ والاجابة هى ، أنهم أساسا من صغار الطلبة من الطبقة المتوسطة ، حيث الكثيرون منهم — وخصوصا فى مدارس الوسط الغربى — ترجع أصولهم الى الوسط الزراعى أو مجال العمل الصغير ، كما أنهم قد صاروا فى طريقهم لكى يكونوا من أصحاب المهن وصغار التنفيذيين • والكتابة لهؤلاء هو بمثابة عمل يتم من أجل أناس هم أقرب لأن يكونوا نوعا محددا من الطبقة المتوسطة الصاعدة • والمؤلف ، والجمهور ، والمدرس ، والطلبة ، هم أصحاب خبرة اجتماعية مماثلة ، فهم يشتركون فى الاصل الذى جاءوا منه ، وفيما هم ذاهبون اليه ، وفيما يمكن أن يقف فى سبيلهم •

وفى الممارسة القديمة لعلم الاجتماع الخاصة بالوسط البيئى ، نادرا ما تؤخذ المشاكل المتعلقة بالامور السياسية مأخذ التقدير بطريقة جذرية • كما تنحو الممارسة الليبرالية بعيدا عن السياسة أو تصبو لأن يكون نوعا من الانتهازية الديموقراطية • وعندما يتلمس أصحاب هذه الممارسة أو يتناولون شيئا له صفة سياسية فان سماته «الباثولوجية» عادة ما تتم صياغتها فى عبارات مثل «المضاد اجتماعيا» أو «الفساد» • وفى سياقات أخرى ، فان الشىء «السياسى» يبدو وكأنه متطابق مع التوظيف الملائم للوضع السياسى الراهن ، كما يتفق من فوره مع القانون أو الادارة • لكن النظام السياسى نفسه فنادرا ما يكون موضع بحث ، حيث يفترض أنه مجرد اطار عمل ثابت تماما وبعيدا عن الاخذ بــه •

والممارسة الليبرالية هى أسلوب ينسجم مع أولئك الذين بفضل مواقعهم الاجتماعية يقــومون بمعالجة ، وعادة بقــدر من السلطة ، سلسلة من القضايا الفــردية • فمثلا القضـــاة ، والعاملون فى الحقل الاجتماعى ، وفى الصحة العقلية ، والمدرسون ، والمصلحون فى الموانع المحلية ، كلهم ينزعون للتفكير من منطلق «المواقف» • فهؤلاء تتجــه نظرتهم لأن تكون محدودة بالمعايير القائمة ، كما أن عملهم المهنى ينزع الى تدريبهم على العجز الوظيفى حتى يمكنهم الارتفاع فوق سلسلة «القضايا» كذلك ، فان خبرتهم ووجهات نظرهم التى ينظر من خلالها كل منهم الى المجتمع شديدة التشابه ، وشديدة التجانس ، بما يسمح بتصارع الافكار والمحاورة فى الرأى وهى العناصر التى قد تؤدى الى ايجاد محاولة لبناء الكل • اذن ، فالممارسة الليبرالية هى علم اجتماع يضفى الصفة الاخلاقية على الوسط البيئى •

ومن ناحية أخرى ، فان مفهوم «الهوة الثقافية» يشكل جانبــا كبيرا من هذا النمط الفكرى التقدمى و «اليوتوبى» • وتوحى هــذه الفكرة بالحاجة الى تغيير شىء ما حتى يمكن «وضعه فى نفس الخط» الذى يتفق مع التكنولوجيا المتقدمة وذلك الشىء الذى يعتقد بأنه فى حالة تقاعس و «تخلف» هو شىء موجود فى الحاضر ، لكن أسباب وجوده ترجع الى الماضى • وهكذا تكون الاحكام وقد تخفت فى عبــارات عن التسلسل الزمنى • وكنوع من التأكيد فى مجال التقييم لحالة «التقدم» غير المتكافئة ، تعتبر الهوة الثقافية ذو فائدة كبرى للناس بصيغة تتسم بالتحــرر وبحالة من التمنى : فهى تخــبرهم بأن ما يتغــير هو شىء «مطلوب» ، وأن ما يتغير كان «ينبغى» أن يحدث ، ولكنه لم يحدث • وهى تخبرهم أين أمكنهم تحقيق التقدم وأين لم ينجحوا فى تحقيق

ذلك . وعملية الكشف عن حالة «تخلف» باثولوجى ، هى بالطبع ، حالة تصاب بالتعقيد الى حد ما نتيجة للشكل التاريخى الذى تظهر به ، ونتيجة للبرامج الصغيرة التى دفع بها بطريقة فجة شديدة الركاكة لتأتى فى تعبيرات موضوعية كاذبة مثل تعبير «مطلوب» .

وطرح المشاكل فى اطار الهوة الثقافية هو شىء يعنى خفاء عمليات التقييم ، لكن المسألة الاكثر أهمية هى : أى نوع من انواع التقييم هى التى استخدمها صاحب الممارسة الليبرالية ؟؟ ان فكرة أن «المؤسسات» واقعة فى حالة تخلف عام عن «التكنولوجيا والعلم» هى فكرة شائعة تماما . وتتضمن هذه الفكرة تقييما ايجابيا للعلم والتغيير المضطرد المنظم ، أى باختصار ، هى فكرة تعنى استمرارا ليبراليا لعصر التنوير بعقلانيته الكاملة ، وبمسيحيته ثم الآن بالاعجاب السياسى الساذج بعلم الفيزيقا كنمط للتفكير «و» الفعل ، وبمفهوم التقدم الذى أصبح مفهوما للعصر . وهذا المفهوم عن التقدم قد دخل الجامعات الأمريكية عن طريق الفلسفة الاخلاقية الاسكوتلاندية التى كانت تحظى بالانتشار الواسع فى يوم من الايام . فمنذ الحرب الاهلية وحتى جيل واحد مضى أو نحو ذلك ، كانت الطبقة المتوسطة الحضرية فى أمريكا مؤلفة ، فى جزء منها ، من أناس ذوى نشاط واسع فى مجال الأعمال ويتحكمون فى أدوات الانتاج «و» يكتسبون القوة السياسية بجانب المنزلة الاجتماعية . ونجد أن الكثير من الأكاديميين من جيل علماء الاجتماع القدامى كانوا اما من هذه الطبقة الناهضة واما من طبقة اندمجت معهم بطريقة فعالة . ولقد كان طلبة هؤلاء ـ الجمهور المتلقى لفكرهم ـ هم من نتاج هذه الطبقة . ولقد كان كثيرا ما يلاحظ ، أن المفاهيم مثل مفهوم التقدم ، عادة ما تكون موافقة لمن هم فى حالة نهوض من حيث تزايد حجم الدخل والمركز .

والذين يستخدمون مفهـــوم «الهـــوة الثقافية» لا يقومون عادة بتفحص المراكز الخاصة بجماعات المصالح والنفوذ وصناع القرار والتى قد تكون هى خلف «معدلات التغيير» فى مجالات المجتمع المختلفـــة • وقد يعن لأحد أن يقول أنه من منطلق معدلات المتغيير التى « يمكن » عندها تحرك القطاعات الثقافيـــة ، فان التكنولوجيا غالبـــا تكون هى «المتأخرة» والمتقاعسة • وبالتأكيد ، كانت هذه هى الحالة السائدة خلال الثلاثينات ، بل ومازالت الحالة قائمة الى حد كبير فى مجال التكنولوجيا المنزلية والنقل الشخصى •

وعلى النقيض من الكثير من علماء الاجتماع فى استخدامهم لكلمة «التأخر» ، نجد أن عبارة «التأخر ، والتسرب ، والاحتكاك» التى قال بها «ثورشتاين فيبلن Thorstein Veblen» قد أدت به الى القيام بتحليل بنائى لـــ «الصناعة مقابل العمل» • وقد تساءل ثورشتاين : أين يفرض «التأخر» حصاره ؟ ولقد حاول أن يكشف عن كيف أن قصور التدريب لرجال الاعمال الذى يفعل وفقا للنواميس الاستثمارية قد أفضى الى حالة من التعطيل والتخريب لكفاءة الانتاج والانتاجية • كذلك ، كان ثورشتاين الى حد ما على وعى بالدور الذى يؤديه تحقيق الربح داخل نسق الملكية الخاصة ، ولكن النقطة ذات الاهمية الكبرى هى أنه قـــد كشف عن الميكانيزمات البنائية لـــ «التأخر» • ومع هذا ، فان الكثيرين من علماء الاجتماع يستخدمون مفهوم «الهوة الثقافية» المغلف بالصبغة السياسية ، ذلك المفهوم الذى قد فقد أى سند بنائى محدد : فهم قد أطلقوا تعميم الفكرة حتى يمكن مطابقتها على كل شىء ، ودائما بطريقة يشوبها الانقسام والتفتت •

(٤)

ان القيام بالكشف عن المشاكل العملية معناه اصدار تقييمات • وغالبا فان ما يأخذه الباحث الممارس الليبرالى على «مشكلة» يكون : (١) شيئا قد أصابه الانحراف وابتعد عن الطبقـــة المتوسطة ، وعن أساليب الحياة فى المدينة الصغيرة • (٢) لا يسير فى نفس الخط وفقـــا للمبادىء الريفية الخاصة بالاستقرار والنظام • (٣) ليس فى تآلف يتفق والشعارات التقدمية المتفائلة عن «الهوة الثقافية» • (٤) لا يتطـــابق مع «التقدم الاجتماعى» الملائم • (٥) تتكشف عقدة الممارسة الليبرالية من مفهوم «التكيف» ونقيضه «سوء التكيف» •

ان هذا المفهوم غالبا ما يترك وهو خاو من أى مضمون محدد ، ومع ذلك ، فان مضمونه ، غالبا أيضا ، ما يكون دعوة صريحة للتوافق مع تلك المعايير والسمات المرتبطة بشكل مثالى بالطبقة المتوســطة فى المدينة الصغيرة • ورغم هذا ، فان هذه العناصر الاجتماعية والاخلاقية تكون متخفاه تحت ستار البيولوجيا ، وهو الستار المجازى الذى يعنيه لفظ «التكيف» • وفى الحقيقة ، فان هذا اللفظ يكون دائما محاطا بتلك التعبيرات ذات السمة الاجتماعية الصريحة مثل «الوجود» و «البقاء» • ومفهوم «التكيف» ، وفقا للتشبه المجازى بالبيولوجيا ، قد صار مفهوما رسميا وعاما • ومع هذا ، فان الاستخدام الفعلى للفظ غالبا ما يفصح عن القبول بالغايات والوسائل الموجودة فى المجتمع المحلى الصغير • وهنا ، نجد أن الكثير من الكتاب يقترحون أساليب يعتقد بأنهـــا أقل تمزيقا من غيرها لتحقيق الاهداف الموضوعة ، حيث أنهم لا يضعون فى تقديرهم عادة ما اذا كانت جماعات معينـــة أو أفراد معينون ، ممـــن

انحصروا فى مواضع الحرمان ، سيكون فى امكانهم تحقيق هذه الاهداف، أم لا ، دون تعديل لاطار العمل النظامى ككل •

وتبدو فكرة التكيف أكثر قابلية للتطبيق بصورة مباشرة على المسرح الاجتماعى الذى يتوافر فيه «المجتمع» من ناحية ، و «الفرد المهاجر» من ناحية أخرى • فالمهاجر يكون عليه عندئذ أن «يتكيف» مع المجتمع • وتعتبر مشكلة «المهاجر» من المشاكل الاولى التى تحظى بمركز اهتمام الباحث فى علم الاجتماع ، وربما كانت المفاهيم التى استخدمت لتوضيح هذه المشكلة هى أيضا قد صارت جزء من النمط العام المستخدم فى صياغة جميع «المشاكل» •

ومن البحث المستفيض لعدة صور محددة من حالات سوء التكيف، سوف يكون من السهل الاستدلال على نمط الشخص الذى نحكم عليه بأنه قد «تكيف» بصورة مثالية :

ان الانسان المثالى عند الجيل الاسبق من الباحثين فى علم الاجتماع، ومن أصحاب الممارســة الليبرالية بصــفة عامة ، هو انسان قد تمت «تنشئته» اجتماعيا • وغالبا ما يكون هذا معناه أن هذا الانسان هــو النقيض الاخلاقى للانسان «الانانى» • فهــو ، وقــد تمت تنشئته اجتماعيا ، يفكر فى الآخرين ويتعامل برفق ازاءهم ، كما أنه لا يكتئب ولا ينحصر على نفسه ، بل على العكس ، يكون منبسطا الى حد ما ، ويتلهف على «المشاركة» فى الانشطة الروتينية فى مجتمعه ، مساعدا هذا المجتمع على «التقــدم» بمعدل يمكن تحريكه بدقة • كذلك فانه يشترك فى ، ويعتبر جزء من ، ويعمل من أجل ، عدد قليل من التنظيمات الموجودة فى المجتمع • حتى اذا لم يكن «منضما» بشكل مبــاشر فى هذه التنظيمات ، فمن المؤكد أنه يلتف حولها كثيرا • كذلك ، فانه بكل

السعادة يتوافق مع الاخلاقيـات والدوافع التقليدية ، وبكل سـعادة يشارك فى تحقيق التقدم التدريجى للانظمة التى تتمتع بالاحترام • ومن ناحية أخرى ، نجد أن والدته ووالده لم يحدث بينهما أبدا أى انفصال ، كما أن منزله لم يصب بنكبة تحطمه بقسوة • انه يكون شخص «ناجح» ، على الاقل بصورة معتدلة ، حيث أن طموحه معتدل ، ومع هذا ، فانه لا ينكب على الامور بأبعد من اللازم بما يتعدى وسائله التى يملكها ، خشية أن يصبح «مفكر فى مجال الوهم» • وهو كانسان ضئيل متواضع ، لا يتدافع وراء المال الكثير ، كما أن بعض الفضائل التى يتمتع بها هى من الفضـائل الشائعة ، لذا فلا نسـتطيع أن نقول ما هو مقصـدها ومعناها • ولكن فى نفس الوقت ، بعض هـذه الفضائل لهـا خاصية شديدة ، ومن ثم يمكننا عندئذ أن تعرف أن الفضائل التى يتمتع بهـا هذا الانسان المتكيف مع المجتمع المحلى تتوافق مع المعايير المتوقعـة الخاصة بالطبقة المتوسطة المستقلة الاصغر حجما التى تعيش شفهيـا بعيدا عن المثل البروتستانتية السائدة فى المدن الصغيرة بأمريكا •

وهذا العالم الصغير الممتع الخاص بالممارسة الليبرالية ــ وأنا على استعداد للاقرار بهذا ــ لابد وأنه موجود فى مكان ما ، والا فلابد بالتأكيد من ابتكاره وخلقه • وحتى يتم خلقه ، فلا يبدو أن هنـاك مجموعة من الناس أقدر على القيام بهذا العمل بصورة مثالية أنسب من صف الجيل الاخير من علماء الاجتماع الامريكيين ، كما لا توجد ادراكات وتصورات أكثر قدرة على خدمة هذه المهمة من تلك الخاصة بالممارسة الليبرالية •

(٥)

خلال العقود الاخيرة ، بجانب الممارسة الليبرالية القديمة ، نشأ نوع آخر جديد — بل فى الحقيقة كانت هى عدة أنواع جديدة . فلقد أصبحت الليبرالية كحركة للاصلاح أقل قدرة فى هذا الصدد على ادارة الخدمات الاجتماعية فى دولة الرفاهية ، وفقد علم الاجتماع دفعته الاصلاحية ، كما أن اتجاهاته نحو المشاكل الصغيرة والتعليلات المتناثرة قد تحرك بصورة محافظة الى استخدام الشركة ، والجيش ، والدولة . وبهذا صارت الاتجاهات البيروقراطية أكثر هيمنة فى مجال الانظمة الاقتصادية ، والسياسية ، والعسكرية ، وتغير معنى الصيغة «العملية»: حيث ما كان يسود الاعتقاد بأنه يخدم أغراض هذه المؤسسات الكبرى، صار يعتقد بأنه هو الشىء «العملى»[٦] .

وفى هذا الصدد ، ربما تعطينا مدرسة «العلاقات الانسانية فى مجال الصناعة» مثلا موجزا عن تلك الممارسة الليبرالية الجديدة [٧] . ونحن عندما نتفحص جميع المصطلحات المستخدمة فى هذا الاسلوب والمتعلقة بالمديرين والعمال ، سنجد أن الحديث عن المديرين يدور فى معظم الاحيان وفقا لخطوط تصفهم بأنهم «أذكياء — غير أذكياء» ، «رشيدين — غير رشيدين» ، «بالمعرفة — بالجهل» ، بينما الحديث عن العمال يتم فى معظم الاحيان وفقا لخطوط تشير بأنهم «سعداء — غير سعداء» ، «أكفاء — غير أكفاء» ، «روحهم المعنوية عالية — روحهم المعنوية منخفضة» .

والجانب الكبير من نصائح هؤلاء العلماء الدارسين — سواء كانت صريحة أو ضمنية — يمكن ايجازها بدقة فى هذه المعادلة البسيطة : لكى يمكن جعل العامل سعيدا ، وكفؤا ، ومتعاونا ، فلا نحتاج الا الى

جعل المديرين أذكياء ، رشيدين ، وغلى معرفة . لكن السؤال هو ، هل هذه هى الصيغة السياسية للعلاقات الانسانية فى مجال الصناعة ؟ فاذا لم تكن كذلك ، فما هو الشىء الآخر الذى تتضمنه ؟ واذا كانت كذلك ، أليست هذه المعادلة ، ولنتحدث بصورة عملية ، تشكل نوعا من «اضفاء الصبغة السيكولوجية» على المشكلات الخاصة بالعلاقات الصناعية ؟ أليست هى تعتمد على الصيغة الكلاسيكية الخاصة بالتوافق الطبيعى للمصالح ، والتى تداخلت فيها للاسف العلاقات الانسانية بضعفها ، كما ظهرت على يدى المديرين غير الاذكياء والعمال البائسين غير الراشدين ؟؟ والى أى مدى تذهب هذه النصيحة ، عندما يتم ايجازها من هذه الدراسات ، أهى نصيحة للافراد من المديرين بالتخفيف من طريقتهم المتسلطة وبسط قبضتهم من على العاملين ويكون أسلوبهم فى التعامل هو تفهمهم بصورة أفضل ومواجهة تضامنهم غير الرسمى ضد الادارة لكى يضمنوا كفاءة ادارية أكثر سلاسة وأقل ازعاجا ؟ كل هذه الامور قد صارت فى بؤرة الاهتمام الشديد نتيجة للمفهوم الخاص بالروح المعنوية .

والعمل فى مجال الصناعة الحديثة ، هو عمل يتم داخل هيكل هرمى تنظيمى : فهناك يوجد خط للسلطة ومن ثم ، فى الجانب الاسفل من الهرم ، يوجد خط للامتثال والطاعة . وفى هذا الاطار التنظيمى يوجد قدر كبير من العمل يتم بشكل شبه روتينى ـ وهو ما يعنى أن العمليات التى يقوم بها كل عامل تكون مشرعة ومرتبة عند المخرج الاعلى . فاذا ما مزجنا بين هاتين الحقيقتين ـ طبيعة الهيكل التنظيمى للبناء الصناعى والصفة شبه الروتينية التى يتم بها جانب كبير من العمل ـ سيصبح من الواضح أن العمل فى المصنع الحديث ينطوى على نظام : الطاعة

السريعة ذات الطابع النمطى المرتب للسلطة ، وبذلك يكون عامل القوة، وهو الذى تناوله خبراء العلاقات الانسانية على استحياء ، عاملا مركزيا فى مجال الفهم الكافى للمشاكل الخاصة بالروح المعنوية •

وحيث أن المصانع ، هى فى نهاية الامر ، مواقع يتم فيها انجاز العمل ، كما تتشكل فيها أيضا العلاقات الاجتماعية ، لذلك ، فانه لكى يتم تعريف الروح المعنوية ، لابد أن نضع فى تقديرنا كل من المعايير الموضوعية والذاتية • فمن الناحية «الذاتية» ، قد يبدو أن الروح المعنوية معناها الرغبة فى أداء العمل فى الحال ، وانجازه بطيب خاطر بل وحتى بالشعور بالاستمتاع فى أدائه • ومن الناحية «الموضوعية» قد يبدو معنى الروح المعنوية أن العمل يتم انجازه بكفاءة ، وأن أكبر قدر من العمل ينتهى فى أقل وقت وبأقل قدر من المتاعب وبأقل تكلفة مالية• اذن ، بناء على ذلك ، تكون الروح المعنوية فى أحد المصانع الامريكية الحديثة ، لها علاقة بطاعة العامل وامتثاله بطيب خاطر ، مما يؤدى الى انجاز العمل المطلوب بكفاءة ، وفقا لحكم الادارة •

بالاضافة لهذا ، فان ايجاد مفهوم واضح لـ «الروح المعنوية» ، هو أمر يتطلب توضيح القيم المستخدمة كمعايير • وفى هذا الشأن هناك قيمتان هما الانبساط أو الرضاء عند العامل ، ومدى قدرته على تقدير مسار حياته العملية • ونحن لو قمنا بتوسيع تقديرنا قليلا ، فسوف نتذكر أن هناك نوع واحد من «الروح المعنوية» يتميز بها الحرفيون أصحاب الادارة الذاتية الذين يشاركون فى صنع القرارات المتعلقة بعملهم ويشعرون بالسعادة فى القيام بهذا • وهنا سنجد أمامنا انسان آدم سميث ـ جيفرسون غير المغترب ، أو كما يسميه ويتمان « انسان فى الهواء الطلق » • كذلك سوف نتذكر أن جميع الشروض المطلوبة

لتخيل مثل هذا الانسان قد ظهرت ـخافتها نتيجة لادخال نسق التنظيم الهرمى للعمل على نطاق واسع • وفى جانب من الحقيقة، فان الاشتراكية الكلاسيكية يمكن استنباطها ، باستخدام المنطق الشديد ، من الليبرالية الكلاسيكية ، بادخال هذا العنصر الواحد • وبهذا ، يمكن ايجاد نمط ثانى من «الروح المعنوية» فى المفاهيم الكلاسيكية الخاصة بـ « ضبط العمال » • وهو ما يمثل الشكل المتصور للانسان غير المغترب فى ظل الظروف الموضوعية للعمل الجماعى الكبير الحجم •

وعلى النقيض من هذين النمطين ، نجد أن « الروح المعنوية » لخبير العلاقات الانسانية هى نفسها الروح المعنوية للعامل الذى لا حول له ولا قوة ومع ذلك فهو قرير النفس • وبطبيعة الحال ، هناك قدر كبير من الناس وعلى اختلافهم يدخلون فى نطاق هذا التصنيف ، ولكن النقطة هى أنه بدون عمل تغيير فى بناء القوة ، فلن يكون من الممكن أن تكون هناك صناعة حرفية جماعية أو توجيه ذاتى جماعى • فالروح المعنوية كما صورها خبراء « العلاقات الانسانية » هى الروح المعنوية الخاصة بأناس رغم اغترابهم الا أنهم قد تواءموا مع توقعات تقليدية « الروح المعنوية » • ومع افتراض أن اطار العمل الصناعى القائم هو اطار غير قابل للتبديل أو للتغيير وأن الاهداف التى يسعى لها المديرون هى نفس الاهداف التى يصبو لها كل فرد ، فان خبراء « العلاقات الانسانية » لا يقومون بفحص بناء السلطة الخاص بالصناعة الحديثة ودور العامل فيه ، انما هم يقومون بتعريف مشكلة الروح المعنوية بعبارات محدودة جدا ؛ ثم يسعون بأساليبهم الى الكشف لعملائهم من المديرين عن كيف يمكنهم تحسين الروح المعنوية للعامل فى حدود اطار القوة القائم • اذن ممسعاهم هنا هو مسعى عملى ،

فهم قد يسمحون للعامل « باخراج البخار المكبوت » دون تغيير البناء الذى عليه أن يعيش فيه خارج حياته العمليـة . والشىء الذى « اكتشفوه » هو :

١ ــ أنه فى حدود بناء السلطة الخاص بالصناعة الحديثة (التنظيم الرسمى) توجد هناك تشكيلات للمكانة (التنظيمات غير الرسمية) .

٢ ــ أن هذه التنظيمات غالبا ما تقاوم السلطات وتعمل على حماية العمال من ممارسة السلطة .

٣ ــ أنه ، بالتالى ، من أجل تحقيق الكفاءة والتخلص من الاتجاهات « غير التضامنية » (التضـامن النقابى والعمالى) ، فلا ينبغى على المديرين محاولة تحطيم هذه التشكيلات ، بل ينبغى عليهم العمل على استغلالها لتحقيق الاهداف الخاصة بهـم (فى الاغراض الجماعيـة الخاصة بالتنظيم ككل) .

٤ ــ أن هذا العمل قد يتم بالاعتراف بهذه التشكيلات ودراستها ، لكى يمكن استخدام العمال المشتركون فيها بدلا من مجرد استخدام السلطة فى اصدار الاوامر لهم .

أى باختصار ، قام خبراء العلاقات الانسانية بتوسـيع نطـاق الاتجاه العام للمجتمع الحديث بما يمكن ترشيده بطريقة ذكية وليكون فى خدمة الصفوة الادارية[٨] .

(٦)

ولقد أسفرت الممارسـة الليبرالية الجديدة عن وجود صور جديدة لعلم الاجتماع ــ ولعلماء الاجتماع . فلقد ظهـرت مؤسسات جديدة تأخذ بهذه الممارسة الليبرالية الجديدة ، فقد أصبحت هناك : مراكز

للعلاقات الصناعية ، وقسم للابحاث فى الجامعــات ، وفروع جديدة للابحاث فى الشركات ، وفى القوات الجوية ، وفى الحكومة • ومع هذا ، فان هذه المراكز والاقســام والفروع لم تهتم بضعاف البشر الذين يعيشون فى قاع المجتمع — الولد المنحرف ، المرأة العــاهرة ، العامل المهاجر ، المهاجر غير الامريكى ، بل على العكس ، لقد انصب اهتمامها فى الواقع وفى الخيال ، على مستويات القمة فى المجتمع ، خصوصا ، على الدوائر المستنيرة للمسئولين التنفيذيين فى وسط رجال الاعمال ، وعلى الجنرالات أصحاب الميزانيات الكبــيرة • ولاول مرة فى تاريخ أنظمتهم ، صار علماء الاجتماع على علاقات مهنية مع مصادر القــوة الخاصة والعامة على مستوى المحليات ومؤسسات الرفاهية •

اذن فلقد تغيرت أوضاعهم — من الوضع الاكاديمى الى الوضع البيروقراطى ، وتغير جمهورهم — من حركات الاصلاحيين الى دوائر صناع القرار ، وكذلك تغيرت مشاكلهم — من تلك التى من اختيــارهم الخاص الى تلك الخاصة بزبائنهم الجدد • حتى الدارسون أنفسهم قد أصبحوا يميلون لأن يكونوا أقل ثورة من الناحية الفكرية وأكثر ممارسة عملية من الناحية الادارية • وهم وقد صاروا يتقبلون بصفة عامة الوضع الراهن ، فقد أصبحوا ينزعون الى صياغة المشاكل فى نطاق المتاعب والقضايا التى يعتقد الاداريون أنهم يواجهونها • فهم كما رأينــا ، يقومون بدراسة العمال الذين يشعرون بالقلق وافتقاد الروح المعنوية ، ويدرسون المديرين الذين « لايفهمون» فن ادارة العلاقات الانسانية• بجانب هذا ، فانهم أيضا يخدمون بطريقة نشطة ومثابرة تلك الغايات التجارية المشتركة الخاصة بصناعة الاتصالات والاعلان •

اذن فالممارسة الليبرالية الجديدة ما هى الا اســتجابة أكاديمية

لمطلب تزايد حجمه بدرجة كبيرة من أجل الفنيين الاداريين الذين سيتعاملون مع « العلاقات الانسانيه » ، ومن أجل تبريرات جديدة لدائره شركات الاعمال باعتبارها نسق للقوة . ومثل هذه المطالب الجديده ، للافراد وللايديولوجيه ، تنجم عن التغيرات التى حدثت فى المجتمع الامريكى مثل ظهور النقابات كمراكز متنافسة فى مجال الولاء ، وانتشار مشاعر العداء العام تجاه دوائر العمل أثناء فترة الكساد ، وكذلك عن ذلك الحجم والتمركز الهائل للسلطة بين يدى الشركات الحديثة ، وعن التوسع فى دولة الرفاهية ، والقبول العام بها ، وتدخلها المتزايد فى الشئون الاقتصادية . تطورات كثيرة مثل هذه قد انطوى عليها التحول الذى وقع داخل دائرة الاعمال العليا مما يمكن أن نسميه بالاسلوب العملى اقتصاديا الى الاسلوب المحافظ السفسطائى سياسيا .

وفى الحقيقة ، فان المحافظون العمليون ، بصورتهم التى تتسم بعدم التقيد بالراسماليه اليوتوبية ، لم يتقبلوا أبدا النقابات العماليه كسمات لازمة أو مفيدة للاقتصاد السياسى . لذلك ، فكلما كانت تتاح لهم الفرصه ، كانوا يحثون على حل النقابات أو تقييد نشاطها على الاقل . ولقد كان الهدف العام الذى يضعه المحافظون العمليون نصب أعينهم هو حرية المكاسب الخاصة ، هنا وهناك . ومازالت هذه النظرة الصريحة هى السائدة فى كثير من دوائر الاعمال الصغيرة — خصوصا بين تجار التجزئة — بل وفى دوائر الاعمال الكبيرة أيضا . وعلى رأس أكبر هذه الشركات جميعا شركتى « جنرال موتورز ، ويو . اس . ستيل » ، اللتان تبدوان أوضح ما يكون للعيان من بين دوائر الاعمال الضخمة فى اتجاهم « العملى » نحو تأكيد صفتهم المحافظة . وكان الاتجاه المحافظ العملى ، من الناحية التاريخية ، يرتكز على حقيقة أن رجال

الأعمال ثم يكونوا يشعرون بالحاجة التى خلق أيديولوجية جديدة أو أكثر تطورا : فقد كانت فحوى أيديولوجيتهم تتوافق بشكل وثيق مع فحوى الافكار العامة المنتشرة التى لاتجد عقبات أمامها .

انه عندما تنشأ مراكز القوى الجديدة ، ولم تكتسب شرعيتها بعد، وتكون غير قادرة على التستر برموز السلطة القائمة ، هنا فقط تكون هنـاك حاجـة لأيديولوجيـات جديـدة تبرر وجودها . والمحافظون السفسطائيون — الذين يتميزون باستخدامهم للرموز الليبرالية لتحقيق أغراضهم المحافظة — هؤلاء يمكن تتبـع أثرهم بالعـودة الي مطلع هذا القرن ، عندما كانت أوساط رجال الاعمال تواجه بهجوم المحققين والصحفيين المجاهدين الذين ينبشون عن القذارات المتفشية فى هـذه الاوساط . وفى خضم المناخ الذى ساد فى فترة الكساد العظيم ، ومع صدور قانون « واجنر » ، بدأوا يظهرون مرة أخرى ، ثم من خلال وبعد الحرب العالمية الثانية ، أصبحوا فى حالة صعود .

وعلى النقيض من صف اليمين ذو الاتجاه العملى ، نجد أن المحافظين العمليين على تيقظ ووعى تام بالظروف السياسية الملائمة لتحقيق الربح فى اقتصاد تقوم فيه النقابات العمالية القوية بمواجهة التكتلات القوية لأوسـاط رجال الاعمـال فى نطـاق الاطار الادارى للدولة الليبرالية المتضخمة . كذلك ، فانهم على وعى بالحاجة الى رموز جديدة لتبرير قوتهم فى زمن أصبحت فيه النقابات والحكومة يتصارعان لكسب ولاء العمال والمواطنين .

ان مبعث اهتمام ومصالح رجال الاعمال بالصيغة العملية الجديدة عادة ما يبدو أمرا واضحا . ولكن ماذا عن الاساتذة؟ وما هى اهتماماتهم؟

ان هؤلاء على النقيض من رجال الاعمال ، لا يهتمون بالمقاصد المالية ، أو الادارية ، أو السياسية لهذه الصيغة العملية ، بصفة أساسية ، انما هذه المقاصد بالنسبة لهم تعتبر أساسا مجرد وسائل تؤدى الى غايات أخرى ، وهى التى تتركز ، كما أعتقد ، فى « حياتهم العملية » الخاصة . ذلك ، أنه من الصحيح أن الاساتذة يرحبون بالتأكيد بتلك الزيادات البسيطة فى دخلهم والتى قد تأتى لهم من قيامهم بالأبحاث الجديدة وتقديم الاستشارات . ومع هذا ، فهم قد يشعرون أو لا يشعرون بالرضاء فى قيامهم بمساعدة المديرين على ادارة مصانعهم بطريقة تحقق ربحا أكبر وبمتاعب أقل ، كما أنهم قد ينهضون أو لا ينهضون بقوة على بناء أيديولوجيات جديدة وأكثر قبولا لدوائر رجال الاعمال القوية القائمة . ولكن بقدر ما هم يبقون من أصحاب الدراسات الاكاديمية ، فليس من الضرورى أن تتركز أهدافهم الفكرية على مثل هذه الرغبات .

ومن ناحية أخرى ، فان مشاركة هؤلاء الاساتذة ، ما هى فى جزء منها الا رد على فرص العمل الجديدة التى تعد جزءا من الزيادة العامة فى حجم الصفة البيروقراطية للعمل والحكومة ، وعلى العلاقات النظامية الجديدة بين الشركة ، والحكومة ، والنقابة . وهذه التطورات معناها تزايد الطلب على الخبراء ومن ثم فتح الفرص داخل وخارج الجامعات . وردا على هذه المطالب الخارجية ، تتجه مراكز التعليم العالى بصفة متزايدة الى تخريج فنيين شبه بعيدين عن السياسة .

أما بالنسبة للذين يبقون محتفظين بصفتهم الاكاديمية ، فقد أصبح متاح أمامهم نوع جديد من الحياة ، يختلف عن ذلك الخاص بالاساتذة من الطراز القديم ، وهذا النوع قد نطلق عليه « مقاول الابحاث الجديد » . وهذا النمط الطموح من المستشارين يكون لديه

القدرة على دفع حياته العملية « داخل » الجامعة بتأمين منزلته ، بل وقدراته المحدودة النطاق خارجها • وفوق كل هذا ، فان يكون قادر على أن يقيم داخل الحرم الجامعى معهد للابحاث والتعليم ذو قدر معقول من التمويل ، مما يدخل الوسط الاكاديمى فى عملية اتصال حية مع أصحاب الشأن • ومثل هذا « المقاول الجديد » للمشروعات قد يصبح غالبا وسط أقرب زملائه هو القائد لشئون الجامعة •

وهنا ينبغى أن ندرك ، كما أعتقد ، أن المهنة الاكاديمية فى أمريكا كثيرا ما اخفقت فى صنع أناس طموحين يقنعون فقط بحياتهم الاكاديمية، ذلك لأن المنزلة التى تتمتع بها المهنة لم تكن تتناسب مع ما يصاحبها من تضحية اقتصادية • فالعائد منها ، ومن ثم أسلوب الحياة كثيرا ما يتسم بالبؤس والشقاء ، لذلك فان التذمر الذى يشعر به الكثير منهم تزداد حدته لادراكهم بأنهم أكثر بريقا وذكاء من الذين أمكنهم الحصول على مواطن القدرة والمنزلة المتاحة فى مجالات أخرى • ولمثل هؤلاء الاساتذة التعساء ، فان التطورات الجديدة التى وقعت فى مجال استخدام علم الاجتماع فى الناحية الادارية ، تتيح لهم فرص مرضية فى أن يكونوا مسئولين تنفيذيين دون أن يكون عليهم أن يصبحوا عمداء كليات •

ومع هذا ، فمازال هناك من العوامل ، هنا وهناك ، بل وحتى بين الشباب المتعجل ، بما يدل على أن سبل الحياة الجديدة هذه ، بينما هى قد تخرج الاساتذة من ذلك الاخدود الاكاديمى ، فانها قد تسقطهم فى شىء آخر قد لا يرضيهم على الاقل • ومهما كان الامر ، هناك قلق وازعاج حول كل ذلك ، كما أن مقاول البحوث الاكاديمى الجديد ، غالبا ما يكون غير واعى تماما بكيفية تحقيق الاهداف الجديدة • وفى الغالب ، لا يستطيع هؤلاء الاساتذة تحديد أى مجالات النجاح التى

يمكن انجازها وتحديد هذه الاهداف المبهمة من خلالها • ألا يعتبر ذلك مصدر يعكس رغباتهم للاهتمامات المتحركة ؟ •

ان الوسط الاكاديمى فى أمريكا ككل هو وسط متفتح أخلاقيا عسى الصيغة العملية الجديدة التى أصبح منغمس فيها • ففى داخل وخارج الجامعة ، صار من هم فى مركز العملية التعليمية خبراء داخل الجهـاز الادارى • وبدون شك ، فقد أدى هذا الى تضييق نطاق اهتمامهـم ومجال التفكير السياسى الذى قد يفكرون به • ان علمـاء الاجتمـاع الامريكيين ، كجماعة ، نادرا ما عملوا فى المجال السياسى بأى شـكل يعتد به ، فقد أدى التيار المتجه نحو ايجاد الدور الفنى الى تعـزيز نظرتهم البعيدة عن السياسة ، وقلل (حيثمـا كان ذلك ممكن) من انغماسهم السياسى ، ومن قدرتهم حتى على فهم المشاكل السياسية • وهذا هو أحد الاسباب فى أن الانسان كثيرا ما يواجه صحفيون أكثر وعيا من الناحية السياسية ويلقون الاعتراف والتقدير بأكثر مما يلاقيه علماء الاجتماع ، وعلماء الاقتصاد ، وخصوصا ، وآسف لهذا القول ، علماء السياسة • فالنسق الجامعى الامريكى نادرا ما يتيـح تعليمـا سياسيا ، نادرا ما يعلم الانسان كيف يقيس ما يجرى حوله فى ذلك الصراع العام من أجل القوة فى المجتمع الحديث • كما أن معظم علماء الاجتماع ليس لهم ، ان كان لهم على الاطلاق ، سـوى القليـل من الاتصالات الوثيقة مع قطاعات من المجتمع كتلك القطاعات الثائرة ، فليست هناك صحافة يسارية يمكن للممارسين الاكاديمين أن يكـونوا على علاقات تعليمية متبادلة معها • وليست هناك أيضـا ، أى حركة يمكن أن تمنح الدعم أو توفر المنزلة ، ناهيـك عن العمل ، للمفكرين

السياسيين ، هذا بالاضافة لما يفتقده المجتمع الاكاديمى من امتداد أى جذور له داخل الدوائر العمالية .

وهذا كله معناه أن الوضع الموجود فيه العالم الامريكى يسمح له بأن يأخذ الصيغة العملية الجديدة دون أى تغيير فى الايديولوجية ودون أى احساس بالذنب السياسى . ومن ثم ، فسوف يكون من السذاجة ، كما هو من غير الملائم ، القول عن أى شخص أنه كان يقوم بـ « البيع » ، لأن هذا التعبير الجاف ، من المؤكد أنه كان من الممكن أن يكون استخدامه صحيحا فقط لو كان هناك شىء يباع .

المراجـــع

(١) لقد استشهدت بهـذين القولين أخـذا عن « جاك بارزون Jacques Barzun ، وهنرى جراف Henry Graff »، في كتاب : « الباحث المعاصر » ، نيويورك ، ١٩٥٧ ، ص ٢١٧ .

(٢) قارن ما كتب عن رجال الاقتصاد فى « مجلة رجال الاعمـال الاسبوعية » ، ٢ أغسطس ١٩٥٨ ، ص ٤٨ .

(٣) من خطاب أمام الاتحاد الغربى للعلوم السياسية ، ٢ ابريل ١٩٥٨ .

(٤) انظر : America Political Science Review سبتمبر ١٩٥٧ .

(٥) قارن ، ميـلز Mills ، « الايديولوجية المهنيـة للباثولوجيين الاجتماعيين » ، المجلة الامريكية لعلم الاجتماع ، سبتمبر ، ١٩٤٣ .

(٦) حتى بالنسبة لتخصص « المشاكل الاجتماعية » — وهو كرسى أكاديمى رئيسى فى مادة العملية الليبرالية — قد عكس التحول الذى حدث من العملية القديمة الى العملية الجديدة . فالمنهج الدراسى القديم فى « سوء التنظيم الاجتماعى » لم يبقى كما كان عليه . ومع عام ١٩٥٨ ، صار هناك ادراك أكثر تطورا من جانب ممارس هذا المنهج بالنسبة للقيم التى يعالجونها . كما أن هـذا الحقل قد أصبح من الناحية السياسية ، الى حد ما ، جزء من الايديولوجية العامة وأحد جماعات الضـغط والاضـافات الادارية التى تمثل حرجا خطيرا لدولة الرفاهية .

(٧) حول تقرير مفصل من « مدرسة مايو » ، انظر : رايت ميلز ، « اسهامات علم الاجتماع فى الدراسات الخاصة بالعلاقات الصناعية » ، فى « برنامج أعمال الاجتماع السنوى الاول لرابطة أبحاث العلاقات الصناعية» ، كليفلاند، أوهايو، ١٩٤٨ .

(٨) لا ينبغى الافتراض هنا بالطبع أن علماء الاجتماع لم يحققوا فى هذا المجال من البحث أفضل من تلك المدرسة الخاصة بالعلاقات الانسانية فى مجال الصناعة ، بل على العكس ، لقد تم فى هذا الشأن قدر كبير من العمل المتميز وهناك المزيد حاليا يجرى العمل عليه . فهناك مثلا ، العمل الذى قام به «تشارلز لند بلوم» ، و «جون دانلات» ، و «ويليام نورم» ، «ولبرت ميللر» ، و «ويلبرت مور» ، و «آلان» ، و «ليبست» ، و «روس ستاجنر» ، و «آرثر كورنهاوزر» ، و «ويليام فوت فوايت» ، و «روبرت دوبن» ، و «آرثر روس» ، وهذا جزء قليل من أعمال كثيرة .

ومن أكبر المسائل التى تناولها علم الاجتماع فى القرن التاسع عشر ، هى أن الناس فى تطور الرأسمالية الحديثة يتحركون عن طريق التغيرات البنائية ويدخلون فى حالة من العجز ، كما أنهم فى نفس الوقت يصيرون متمردين وأصحاب مطالب تظهر فى وسائل سيكولوجية . وبناء على هذا يظهر الخط المركزى للتطور التاريخى : فمع انتشار الوعى الرشيد والمعرفة الرشيدة ، سينطلق العامل ، بتركيبة جماعية جديدة ، من حالة الاغتراب ليدخل فى الروح المعنوية للبروليتاريا المنتصرة . ولقد كان كارل ماركس على حق تماما فى الكثير من

الموضوعات خاصة التغير البنائى ، ولكنه كان مخطىء وغـير سليم فيما يترتب على ذلك من نتائج سيكولوجية •

والمشكلة النظرية الخاصة بعلم الاجتماع الصناعى ، عندما يصل فى تصور الروح المعنوية الى مناخ فكرى وسياسى ، تكون مشكلة خاصة باستكشاف الانماط المتعـددة للاغتراب والروح المعنوية التى نتوصل اليها عندما ندرس بطريقة نسقية بنـاء القوة وما يعنيه بالنسبة لحياة الافراد من العمال • ويتطلب منـا الامر أن نبحث المدى الذى وصـلت اليـه التحولات السيكولوجية بجانب التحولات البنائية ، ولماذا حدث هذا فى كل حالة • وفى مثل هذه الاتجاهات يكمن الامل الذى يعد به علم اجتماع خاص بالحياة العملية للانسان الحديث •

الفصل الخامس

الطابع المعيارى للبيروقراطية



الفصل الخامس

الطابع المعيارى للبيروقراطية

خلال الخمس والعشرون سنة الاخيرة ، حدث تحـــول حاسم فى الاستخدامات الادارية والمعانى السياسية لعلم الاجتماع • ورغم أن الاسلوب التطبيقى الليبرالى القديم لــ «المشكلات الاجتماعية» مازال مستمر كما هو ، الا أنه قــد احتجب تحت ظل استخدامات جــديدة محافظة ذا طبيعة ادارية وميكانيكية • وهذا الاسلوب التطبيقى المحافظ الجديد مع أنه يتخذ عدة أشكال ، فقد صار تيار عام يؤثر على النظم الانسانية ككل • وربما يعن لى أن أقدم مناقشتى للطابع المعيارى لهذا الاسلوب الجديد بمثال من أمثلة الترشيد الرئيسية له : «لابد من توجيه كلمة تحــذير أخــيرة الى الطالب الذى يخطط لكى يصبح من علمــاء الاجتماع » ، فكتب « بول لازار سفيلد » فى هو الشأن :

« انه لحرى بأن يقلق حول ما وصل اليه حال العالم • فأخطار الحرب الجــديدة ، والصراع الذى يجرى بين الانساق الاجتماعية ، والتغيرات الاجتماعية السريعة التى ربما يكون قد لاحظها تحــدث فى بلده ، ربما قد جعلته يشعر بأن دراسة الامور الاجتماعية أمر له ضرورة ملحة • والخطر هنا هو أنه قد يتوقع أن يكون قادر على حل جميــع المشكلات الجارية بمجرد أن يقوم بدراسة علم الاجتماع لعدة سنوات قليلة • ولكن الامر ، لسوء الحظ ، ليس بمثل هذا الشكل • فهو سوف

يتعلم كيف يفهم ما يدور حوله بطريقة أفضل ، كما أنه من حين لآخر سوف يجد توجيهات فى سبيل الفعل الاجتماعى الناجح • ولكن علم الاجتماع لم يصل بعد الى المرحلة التى يستطيع فيها أن يوفر «أساس آمن للهندسة الاجتماعية » ••• فقد استغرق الامر حوالى مائتين وخمسون عاما فيما بين جاليليو وبداية الثورة الصناعية قبل أن تحقق العلوم الطبيعية تأثيرا رئيسيا على تاريخ العالم • والبحث الاجتماعى الخبروى ليس له سوى تاريخ لا يتعدى الثلاثون أو الاربعون عاما • فاذا ما كنا نتوقع منه أن يقدم لنا حلولا سريعة للمشكلات الكبرى التى يعانى منها العالم ، واذا لم نطلب منه شيئا سوى النتائج العملية الفورية ، فاننا بذلك سوف نعمل على افساد مساره الطبيعى »(١) •

وما بات يطلق عليه فى السنوات الاخيرة «علم الاجتماع الجديد» يدل ، ليس فقط ، على خبروية مجتزأة ، بل يشير أيضا الى الممارسة الليبرالية الجديدة • والعبارة تشير الى كل من المنهج والتوظيف ، وهذا صحيح تماما : لأن كل من أسلوب الخبروية المجتزأة وتوظيفه البيروقراطى قد أصبحا الآن متصلان ببعضهما بصفة منتظمة • وقناعتى هى أنهما ، ماداما متصلان هكذا ، فانهما يفضيان الى ظهور علم اجتماع للبيروقراطية •

وتمثل الخبروية المجتزأة ، فى كل سمة من سمات وجودها وتأثيرها ، كما تمارس حاليا ، تطورا «بيروقراطيا» ، فهى :

١ ـ أنه فى سبيل المحاولة لوضع معيار وترشيد لكل طور من أطوار البحث الاجتماعى ، فان العمليات الفكرية ذاتها الخاصة بالاسلوب الخبروى المجتزأ تصبح «بيروقراطية» •

٢ ـ هذه العمليات هى وكأنها تقوم بجعل الدراسات عن الانسان عادة ذات صيغة جماعية ونسقية : ففى ذلك النوع من البحث للمؤسسات والهيئات ، والمكاتب ، الذى تأخذ فيه الخبروية المجتزأة وضعها الملائم، يكون هناك نوع من التطور ، من اجل تحقيق الكفايه ان لم يكن فى سبيل غرض آخر ، للعمليات الروتينيه وقد تحقق لها الترشيد ، وذلك مثلها مثل ما يحدث لقسم الحسابات فى أى شركة •

٣ ـ هذان التطوران ، بدورهما ، لهما علاقة كبيرة بعملية الاختيار والتشكيل للمؤهلات العقلية الجديدة بين افراد المدرسة ، وهى مؤهلات فكرية وسياسية •

٤ ـ ان « علم الاجتماع الجديد » ، كما يمارس فى مجال رجال الاعمال ـ خاصة فى مجالات الاتصال الخاصة بالاعلان ـ وفى القوات المسلحة ، وفى الجامعات كذلك ، قد أصبح يخدم عملاءه البيروقراطيين أيا كانت غاياتهم • وأولئك الذين يقومون بترويج وممارسة هذا الاسلوب من البحث يتبنون فـورا المنظـور السياسى لعملائهـم ورؤسائهـم البيروقراطيين • وتبنى المنظور غالبا ما يصبح قبول له •

٥ ـ بقدر ما يكون لمثل هذه الجهود البحثية فعاليتها فى تحقيق أهدافها العملية المعلنة ، بقدر ما تخدم فى زيادة كفاءة وسمعة ـ وعند هذا الحد ، انتشار ـ الاشكال البيروقراطية السائدة فى المجتمع الحديث• ولكن عما اذا كانت تتمتع بالفعالية أم لا فى هذه الاهداف الصريحـة (السؤال مفتوح) ، فانها بالفعل تخدم فى نشر معايير وروح البيروقراطية فى مجالات الحياة الفكرية ، والاخلاقية ، والثقافية •

(١)

قد يبدو أنه شيء مثير للسخرية أن أكثر الناس الحاحا فى اهتمامهم باظهار ونشر أساليب التطهير الاخلاقية ، هم بالتحديد على رأس الذين أكثر تعمقا فى انشغالهم بـ « علم الاجتماع التطبيقى » و « الهندسة البشرية » • ومنذ أن بات العمل بالاسلوب الخبروى المجترأ شيئا مكلفا وغالبا ، فلا يوجد سوى المؤسسات الكبيرة فقط هى القادرة على تحمل أعباءه • وفى مقدمة هذه المؤسسات ، الشركة ، والجيش ، والدولة ، وملحقاتهم أيضا ، خاصة مؤسسات الاعلان ، والترويج ، والعلاقات العامة • وغير هؤلاء ، هناك أيضا المؤسسات الكبيرة ، وان كان الافراد الذين يعملون بها غالبا ما ينحون الى الفعل تحت ظل القواعد واللوائح الجديدة ذات الصبغة العملية التطبيقية ، وهو ما يغشى ارتباطها بالبيروقراطية • ونتيجة لهذا ، أصبح الاسلوب مجسما فى مراكز نظامية محددة : فى وكالات الاعلان والتسويق منذ العشرينات ، وفى الشركات واتحادات أجهزة الاقتراع منذ الثلاثينات ، وفى الحياة الاكاديمية ، وفى مكاتب البحث العديدة منذ الاربعينات ، ثم خلال الحرب العالمية الثانية ، فى فروع الابحاث التابعة للحكومة الفيدرالية • إذن فالنموذج النظامى بدأ ينتشر الآن ، ولكن هذه الاجهزة تظل هى قبضاته القوية •

والطابع الشكلى الذى تتخذه هذه الاساليب الفنية المكلفة يجعلها قادرة على الخدمة بصفة خاصة فى توفير ذلك النوع ذاته من المعلومات التى يحتاجها أولئك القادرين والراغبين فى أن يدفعوا مقابل الحصول عليها • ولقد باتت بؤرة التطبيق الجديدة مركزة بشكل نمطى على مشاكل محددة ، استهدافا لاستجلاء بدائل الفعل العملى ، أى النقدى والادارى •

وليس من الصحيح على الاطلاق بأن علم الاجتماع ، بعد أن تم اكتشاف « المبادىء العامة » فقط ، فى امكانه أن يوفر « دليل عملى معقول » ، فرجل الادارة غالبا ما يكون فى حاجة الى معرفة التفاصيل الخاصة بحقائق وعلاقات معينة . وأن هذا هو كل ما يحتاجه أو يريد معرفته . ومادام الممارسون للخبروية المجتزأة غالبا لا يهتمون كثيرا بوضع مقومات مشاكلهم الخاصة ، فانهم جميعا يكونون أكثر استعدادا لأن يتركوا أمر اختيار مشاكلهم المحددة للآخرين .

ولا يتجه عالم الاجتماع فى مجال البحث الاجتماعى التطبيقى ، عادة ، الى مخاطبة « العامة » ، بل ان له عملاء محددين ذوى اهتمامات وتخيرات معينة . وهذا التحول من عامة الناس الى عميل معين يتدنى ويقوض بشكل واضح فكرة الموضوعية عن بعد ، وهى فكرة ربما تكون قد ارتكزت على الاستجابة للضغوط الغامضة المشوشة — وبالتالى ترتكز أكثر على الاهتمامات الفردية للباحث ، الذى بشكل ما يمكن أن ينقسم ومن ثم لا يمكن السيطرة عليه .

وجميع « مدارس الفكر » لديها تفسير لما تعنيه حياة الشخص الاكاديمى . « فالعمل الجيد » فى تعريفه جاء فى عبارات مقبولة لدى مدارس معينة ، وبذلك يكون النجاح الاكاديمى معتمد على القبول الايجابى للافكار والمذاهب التى تأتى بها المدرسة السائدة . وطالما أن هناك الكثير ، أو على الاقل ، عدة «مدارس» مختلفة ، وخاصة فى مجال أحد الاسواق المهنية الواسعة ، فان هذا المطلب لن يشكل عبئا على أحد .

والممارس الفرد المتهن لعلم الاجتماع ، ليس هناك الشىء الكثير سوى امكانياته الفردية المحدودة لكى يقف حائلا بينه وبين أرقى مراتب

العمل . ولكن ، مثل هؤلاء الرجال غير المتعلقين بعملهم لا يمكنهم أن يتبعوا سبيل البحث الخبروى المجتزأة على نطاق مناسب ، لأن مثل هذا العمل لا يمكن أن يبدأ ما لم يتم تطوير احدى هيئات البحث بدرجة كافية تستطيع معها أن توفر ذلك النوع من المادة الملائمة ، أو ربما يجب على أن أقول ، تدفق العمل . حيث يتطلب ممارسة الخبروية المجتزأة وجود مؤسسة للبحث ، بالاضافة الى ، لو تحدثنا من الناحية الاكاديمية ، ميزانية ضخمة . فكلما تزايدت تكاليف البحث ، كلما تخلق وتشكل فريق البحث ، وكلما أصبح أسلوب البحث ذاته مكلفا ، ويصبح هناك نوع من الضبط المشترك على تقسيم العمل . والفكرة القائمة بوجود جامعة تكون مركزا للاتداد من المهنة الواحدة ، كل منهم ذو خبرات ، وكل منهم يمارس مهنة معينة ، قد أصبحت تميل لأن تستبدل بفكرة أخرى لجامعة تكون بمثابة قاعدة لمجموعة من بيروقراطيات البحث كل منها يحتوى على تقسيم دقيق للعمل ، ومن ثم على مجموعة من الفنيين المثقفين . ولكى يتم استخدام هؤلاء الفنيين بكفاءة ، اذا لم يكن لسبب آخر ، فسوف تزداد الحاجة الى تقنين الاجراءات بحيث يمكن تعلمها فورا .

وتعتبر المؤسسة البحثية أيضا والى حد كبير مركز للتدريب . فمثلها مثل المؤسسات الاخرى ، تقوم باختيار أنماط معينة من العقول ، ثم بفضل المكافآت التى تمنحها فانها تشجع وتساعد على تطور صفات وسجايا عقلية معينة . وفى هذا النوع من المؤسسات برز نمطان من الاشخاص ، جديدان تقريبا على المسرح الاكاديمى ، بجانب الدارسين والباحثين من الطراز القديم .

النمط الاول ، يمثل جماعة الاداريين المثقفين ومشجعوا البحث

وقد يستطيعوا ان يحصلوا على شهرة منقطعة النظير ، غير انهم لم يضيفوا موقفا واحدا فى العلم له قيمته ، ولم يقدموا اضافات تذكر فى المجال المعرفى لعلم الاجتماع . وهذا النمط من الناس يركز سمعتهم العلمية على سلطتهم الاكاديمية : فهم يشكلون اعضاء المجلس ، وهم ممثلين فى مجلس الادارة ، كما انهم هم الذين يملكون سلطة اعطاء العمل ومنحة البحث . انهم نوع جديد وغريب من البيروقراطيين ، فهم بمثابة الهيئة التنفيذية للجانب الذهنى ، وهم رجال العلاقات العامة المتخصصون فى مجال المؤسسات . بالنسبة لهم ، كما هو الامر بالنسبة للتنفيذيين فى كل مكان ، يحل تقرير البحث محل الكتاب . وهؤلاء فى قدرتهم اقامة اى مشروع اخر او مؤسسة اخرى للبحث باكفأ الوسائل ، ولكنى اكون فى غاية الدهشة والعجب لو أنهم تمكنوا بعد عشرين عاما من البحث والتدريس والملاحظة والتفكير من تاليف كتاب واحد يخبرونك فيه عما يعتقدون انه يدور فى العالم ، أو يعالجون فيه المشكلات الأساسية للناس الذين يعيشون فى زمانهم . وفى الوقت الذى نجدهم فيه يقدرون العمل الذى يقومون به على أساس بلايين الساعات من الجهد البشرى ، فانهم لا يستطيعون أن يقدموا معرفة لها قيمتها العلمية ، فهم لا يهتمون الا بالمناهج والبحث . وكثير من مديرى المؤسسات يحبون أن يقدموا منحا مالية لمشروعات البحث التى يعتقدون أنها بعيدة عن القضايا والمسائل الايديولوجية . وهذه المشروعات تكون من النوع الذى يمكن أن يحمل حرف (ع) وهو — فى نظر العلماء — الحرف الاول من كلمة « علمى » ، غير أنه لا يرمز فى الواقع الا لكلمة « آمن » وهذا الامان لا يحدث الا لمشروع تافه فى ذاته ، ولا يتعلق بمشكلات ذات أهمية سياسية . وبناء عليه ، تتجه المؤسسات الكبيرة الى تشجيع البحث البيروقراطى ، الكبير ، الذى يدرس مشكلات صغيرة ،

عن طريق من يعرفون باسم « العلماء » ، وهؤلاء فى ممارستهم لعملهم يجعلون العلوم الاجتماعية مجرد منهج للبحث ، وهذا المنهج لا يفيد فى النهاية فى التعرف على حقيقة الانسان والمجتمع .

أما النمط الثاني ، فهو يمثل الجماعة الاصغر ، والوصف الافضل لهم انهم باحثين فنيين وليسوا علماء اجتماع . ولكى يستطيع الانسان أن يفهم المعنى الاجتماعى لطراز من التفكير ، علينا دائما أن نميز بين القادة والتابعين ، بين المبتكرين وأصحاب الأعمال الروتينية ، بين « الجيل الاول » الذى يقيم أسس العمل ، وبين الجيلين الثانى والثالث اللذان يقومان بالتنفيذ . وجميع المدارس ، اذا كانت ناجحة ، تضم كلا النمطين من الرجال ، وهذا هو فى الواقع ما يشكل أحد معايير المدرسة « الناجحة » . كذلك فانه يمثل مدخل رئيسى هام الى النتائج الفكرية للنجاح .

وغالبا ما يكون هناك اختلاف بين صفات السمات الذهنية للتابعين المنفذين والمبتكرين وواضعوا الاسس الاولى . وحول هذه النقطة ، تختلف المدارس الفكرية بدرجة عميقة . وتعتمد هذه الاختلافات ، الى حد كبير ، على نمط التنظيم الاجتماعى الذى يسمح به أو يشجعه أسلوب العمل الخاص بكل مدرسة . وأسلوب العمل الذى نقوم بدراسته يوجد به على الاقل عدد من المخترعين والاداريين ذوى عقول على درجة عالية من الصقل . لقد استطاع هؤلاء ، فى شبابهم ، وقبل أن يزدهر هذا الاسلوب ، أن يستوعبوا أنماط الفكر الرائدة فى المجتمع الغربى ، فمثل هؤلاء الرجال استطاعوا أن يكتسبوا سنوات من الخبرة الثقافية والفكرية . اذن فهم فى الحقيقة رجال متعلمون : على ادراك بدقة حسهم وقدرتهم على صقل أنفسهم بصفة مستمرة .

وأنا نادرا ما رأيت أحدا من هؤلاء الرجال الشبان ، وهو في حالة من الحيرة الفكرية الحقيقية . كما أنني لم أرى أبدا أى مظهر يعبر عن الفضول العاطفى حول مسألة كبيرة ، ذلك النوع من الفضول الذى يجبر العقل على أن يهيم فى أى مكان وبأى وسيلة ، لكى يصنع نفسه من جديد لو تطلب الامر ، لكى يستطيع أن «يكتشف» . ان هؤلاء الشباب أقل قلقا من كونهم أشخاص يحبون النظام والترتيب ، أقل خيالا من أنهم صبورين ، كما أنهم ، فوق كل شىء ، متعسفون يقينيون ، بكل ما يحمله هذا التعبير من معان تاريخية ولا هوتيه . وبعض هذا هو بالطبع مجرد جانب من الحالة الفكرية المؤسفة السائدة عند كثير من طلبة الكليات والجامعات الامريكية الآن ، ولكننى أعتقد أنه أكثر وضوحا بين الباحثون الفنيون فى مجال الخبروية المجتزأة .

هؤلاء الناس احترفوا علم الاجتماع كحياة لهم ، فتخصصهم المطلق فيه تم فى وقت مبكر ، واكتسبوا نوع من اللامبالاة أو الازدراء بـ « الفلسفة الاجتماعية » — وهى التى تعنى بالنسبة لهم « تدوين الكتب من كتب أخرى » أو أنها « مجرد عملية للتأمل » . وعندما يقوم الانسان بالاستماع الى أحاديثهم ، محاولا أن يقيس نوعية الفضول الموجود لديهم ، فسوف يجد أن الحدود الذهنية لديهم جامدة ، حتى أن المجالات الاجتماعية التى يجهل الكثير من الدارسين عنها شيئا ، لا تحيرهم ولا تستثير أفكارهم .

وقدر كبير من قوة الدعاية التى يتمتع بها علم الاجتماع البيروقراطى يرجع الى مطالبه الفلسفية بالنسبة للمنهج العلمى ، كما أن قدر كبير من قوته فى اختيار العاملين فيه يرجع الى تلك السهولة النسبية التى يتم بها تدريب الافراد ودفعهم للعمل فى مجال حياة لها مستقبل . وفى

كلتا الحالتين ، فان المناهج الواضحة المقننة ، والمتاحة بين يدى الفنيين، تعتبر المفاتيح الرئيسية للنجاح • وفى عقول بعض المؤسسين ، تكون الوسائل الفنية الخبروية بمثابة عامل يثير خيالا ، يكون وهذا صحيح ، قد انطمس بشكل غريب ، وان كان الانسان يشعر دائما بأنه مازال موجود • فأنت عندما تتحدث مع أحد هؤلاء المؤسسين ، فانك تتعامل دائما مع عقل ، ولكن بمجرد أن يكون الشاب قد مضى ثلاث أو أربع سنوات فى مثل هذا الوضع ، فانك بعد ذلك لن تستطيع أن نتحدث معه فعلا عن المشاكل المتعلقة بدراسة المجتمع الحديث • فمركزه وحياته العملية ، طموحاته واعتباره الذاتى نفسه ، قد أصبحت من الاشياء التى تعتمد الى حد كبير على هذا المنظور الواحد ، وهذه اللغة الواحدة ، وهذه القاعدة الواحدة من الاساليب الفنية • أى أنه ، فى الحقيقة ، قد أصبح لا يعرف أى شيء آخر •

وفى البعض من هؤلاء الشباب الدارسين ، يكون الذكاء العقلى نفسه ، قد انفصل غالبا عن الشخصية ، ويرونه من جانبهم على اعتبار أنه نوع من الوسيلة ذات المهارة التى يأملون فى تسويقها بنجاح • اذن فهم يعتبروا من بين الذين أصابهم الجدب الانسانى ، يعيشون تبعا لقيم تحجب أى احترام للعقل البشرى • كما أنهم من بين الفنيين ذوى النشاط والطموحات الذين جعلهم نظام التعليم الروتينى القاصر والحاجة المفسدة اليهم غير قادرين على اكتساب الخيال العلمى الاجتماعى • ونحن نأمل فقط عندما يصل عدد كاف من هؤلاء الشباب الى مستوى استاذ مساعد فى حياتهم المهنية ، أن يقوموا بتغيير فكرهم نحو ادراك الحقيقة بأن لا يمكن الاعتماد كثيرا على أباطرة بدون قواعد أساسية •

ونحن لو نظرنا الى أمور مثل الضرورية المجتزأة ، والقيود المنهجية التى تواجهها ، وبؤرة المجال التطبيقى لها ، ونوعية العقول التى تعمل أنظمته على اختيارها وتدريبها ، لوجدنا أنها تجعل من التساؤلات التى تدور حول السياسات الاجتماعية للعلوم الاجتماعية كلهـا من الامور الملحة . وهذا الاسلوب البيروقراطى وشكله النظامى يسيران على نفس الخط مع التيارات السائدة للبناء الاجتماعى الحديث وأنماطه المميزة فى مجال الفكر . ولا أعتقد أن هذا من الامور التى يمكن تفسيرها ، أو حتى فهمها ، دون أن نلاحظ ما يأتى ، أن هذه التيارات الاجتماعيـة ذاتها ، تمس فى الواقع ، ليس فقط العلوم الاجتماعيـة ، بل انهـا تؤثر على الحياة الفكرية بأكملها فى الولايات المتحدة ، بل وذات الدور الذى يقوم به العقل فى شئون البشر اليوم .

اذن فجوهر القضية يبدو واضحا : لو لم يكن علم الاجتماع شىء قائم بذاته ، فلا يمكن اعتباره مشروع مسئول على المستوى العلم . فكلما اتسعت وسائل البحث وأصبحت أكثر تكلفة ، كلما اتجهت لأن تكون « منزوعة الملكية » ، وبناء على ذلك ، فعندما يقوم علماء الاجتماع، وبشكل ما من الاشكال الجماعية ، بممارسة الضبط الكامل على وسائل البحث هذه ، عندئذ فقط يمكن لعلم الاجتماع أن يكون وبهذا الاسلوب مستقل بذاته حقا . كما أن عالم الاجتماع الفرد بقدر ما يكون معتمد فى عمله على البيروقراطيات ، كلما اتجه لأن يفقد اسـتقلاله الفردى الذاتى ، وبقدر ما يشتمل علم الاجتماع على عمل بيروقراطى ، كلما اتجه لأن يفقد استقلاله الاجتماعى والسياسى . وأنا لا أريد أن أقوم بالتركيز على كلمة « كلما » ، لأنه من الواضح أننى كنت بصدد مناقشة اتجاه واحد فقط ، على الرغم من أنه اتجاه رئيسى ، وليس مناقشة أمورنا كاملة .

انه لو كان علينا أن نفهم ماذا يحدث فى أى مجال من مجالات العمل الثقافى والفكرى ، فانه يجب علينا أن نفهم أولا ما يحمله سياقه الاجتماعى المباشر • لذلك ، فانه يجب على الآن أن أقوم بجولة موجزة مستعرضا الزمر الاكاديمية • وبالطبع ، من الامور الصحيحة أنه بقدر ما تكون احدى الافكار لها صفة الدوام ولها أهميتها ومغزاها ، فان أى شخصية أو زمرة معينة لا تكون سوى رمزها المؤقت • ومع ذلك ، فان كل ما يتعلق بمسألة « الزمرة » و « الشخصيات » و « المدارس » ، لهو أمر أكثر تعقيدا من ذلك ، فان ما لهذه الاشياء من أهميته فى تشكيل تطور علم الاجتماع ليستحق أن نعطيه مزيد من الادراك من جانبنا • لذلك يجب علينا أن نواجهها ، ان لم يكن لسبب آخر ، سوى ان أى نشاط ثقافى يكون دائما فى حاجة الى دعم مالى من نوع ما وأيضا الى جمهور من نوع ما حتى يكون قادر على النقد• ولكن ، لا المال ولا النقد يمنحان فقط على أساس قيمة الاحكام الموضوعية ، هذا بجانب ما يدور عادة من مناقشة حول موضوعية الاحكام ذاتها وكذلك حول ما تستحقه هذه الاحكام •

والوظيفة التى تقوم بها الزمرة الاكاديمية لا تقتصر فقط على تنظيم المنافسة ، بل تنسحب الى وضع شروط هذا التنافس ومنح المكافآت فى مقابل العمل الذى يتم وفقا لهذه الشروط فى أى وقت معين • اذن ، فالقواعد العامة التى يحكم بها على الاشخاص ويخضع لها العمل للنقد هى التى تشكل السمة الفكرية الاكثر أهمية التى تتصف بها الزمرة • وبالنسبة للنقطة السابقة التى تكلمت عنها عن « أخلاقيات الفنيين » الذين يعملون فى مجال علم الاجتماع البيروقراطى — أى الصفات العقلية وتأثيرها على صنع السمعة ومن ثم تأثيرها على الانماط السائدة

فى علم الاجتماع وعلى القواعد العامة المنتشرة للحكم النقدى ــ فاننى هنا لست فى حاجة لأن أضيف الى ذلك أن الوسائل التى يتم بها تحقيق المهام الداخلية للزمرة تشمل : منح النصيحة الودية للشـباب ، اتاحة فرصة العمل وابداء التوصيات حول تحقيق التناسب ، التخلى عن مهمة مراجعة الكتب للاشخاص الذين يحظون بالاعجاب ، الاستعداد لقبول المقالات والكتب للنشر ، توزيع المخصصات المالية الخاصـة بالبحث ، القيام باتخاذ الوسائل الكافية لتوفير المراكز الشرفية داخل الهيئـات المهنية وفى مجالس تحرير الصحف المهنية • وبقدر ما تعتبر هذه الوسائل نوع من التنازل عن المنزلة ، والتى بدورها ، تعتبر الى حد كبير من محددات الحياة الاكاديمية ، فانهـا تؤثر على التوقعـات الاقتصادية للدارس الفرد بقدر ما تؤثر على سمعته المهنية •

فى وقت من الاوقات كانت السمعة العلمية تؤسس بصفة عامة ، على انتاج الكتب ، والدراسات والمقالات الطويلة ، أى أنها تقوم على انتاج الافكار والدراسات ، وعلى ما يصدره الزملاء الاكاديميين وغيرهم من ذوى الفكر من أحكام على هذه الاعمال • ومن الاسباب التى جعلت الوضع يكون بهذا الشكل فى مجال علم الاجتماع والعلوم الانسانية هو أن كفاءة أو عدم كفاءة شخص ما كانت تخضع للمراقبـة والفحص ، طالما أن العالم الاكاديمى القديم لم يكن يتوافر به مناصب مميزة ذات اقتدار واختصاص • ولذلك ، فانه لمن الصعب معرفة ما اذا كانت المقدرة المزعومة لأحد رؤساء الشركات ، مثلا ، ترجع الى قدراته الشخصية الذاتية أم الى السلطات والتيسيرات المتوافرة له بفضل منصبه • ولكن مثل هذا التشكك لا مكان له فيما يتعلق بالعمل الدراسى العلمى ، فالعمل الذى يقوم به الاساتذة من الطراز القديم ، هو مثل عمل الحرفيين ،

على أية حال ، فان رجل الادارة العالم الجديد ، يعتبر بالمنزلة التى يتمتع بها ، مثل صاحب السلطة التنفيذية فى مجال رجال الاعمال ومثل صاحب الرئاسة العسكرية ، قد اكتسب وسائل القدرة والكفاية وهى التى يجب أن تميز عن ما يتمتع به من مقدرة شخصية ، وان كانت فيما يتعلق بسمعته لا يحــدث بينهما تمييز . فوجود سكرتير دائم ، وموظف يذهب الى المكتبة ، وآلة كاتبة كهربائيـــة ، ومعـــدات مكتبية مختلفة ، وربما بالاضافة الى مبلغ ثلاثة أو أربعة آلاف دولار سنويا كميزانية لشراء الكتب والدوريات ، بل وحتى أصغر المعدات المكتبية ، كل ذلك يزيد بقدر هائل من مظهر القدرة والكفاءة بالنسبة لأى دارس علمى . ورغم أن أى مسئول تنفيذى فى مجال الأعمال الادارية قــد يضحك من تفاهة مثل هذه الاشياء ، الا أن أساتذة الجامعات لن يقوموا بذلك . فالقلة من الاساتذة ، حتى المنتجين منهم ، هم الذين يملكون مثل هذه الخدمات وفقا لأسس راسخة . ومع ذلك ، فان هـــذه المعـــدات « تعتبر » وسيلة لتحقيق المقدرة والسير فى الحياة العملية ، وهى التى تعطى الضمان لعضوية الزمرة شيئا أقرب احتمالا ممـــا تفعله المعرفة العلمية غير المتعلقة بشىء . فالمنزلة التى تتمتع بها الزمرة تزيد من فرصة الحصول على هذه المعدات ، وتوافر هذه المعدات يزيد بدوره من فرصة تحقيق السمعة العلمية .

هذا ، اذن ، هو نوع واحد من الحالات التى تساعد فى تفســير كيفية حصول الاشخاص على قدر كبير من السمعة والشهرة العلميـــة دون أن يكونوا ، فى الحقيقة ، قد حققوا الشىء الكثير . ومن هنـــا كان تعليق أحد الزملاء على واحد من هؤلاء بقوله : « طالما هو على قيد الحياة ، فسوف يبقى أبرز الرجال فى حقـــله ، ولكن بعـــد وفاته

بأسبوعين لن يتذكره أحد » • كون هذه العبارة بمثل هـذه الخشونة والقسوة ، ربما يكون دليل يشهد على مدى الآلام الناجمة عن حالات القلق التى كثيرا ما تتملك رجال الادارة فى دنيـاهم الخاصـة بالزمر الاكاديمية •

ولو حدث وكان هناك تنافس بين عدة زمرات فى ميدان الدراسـة، فان المراكز النسبية التى يحتلهـا هؤلاء المتنافسون تنحو الى تقـرير الاستراتيجيات الخاصة بالزمرة • كما أن الزمرات التى تعتبر صغيرة الحجم وليس لها أهمية يكون من المتوقع لهـا من الزمرات الرائدة ، وعلى مدار الوقت ، أن تخرج من مجال العمل • فأعضاؤها لن ينالوا سوى الاهمال أو الرفض ، وفى النهاية سوف يختفون دون أن يكونوا قد تمكنوا من تدريب الجيل التالى • ولذلك ، لابد أن يكون فى الذهن دائما أن احدى الوظائف الهامة للزمرات هى قيامها بتشكيل الجيـل الاكاديمى الذى سوف يخلفها • والقول بأن احدى الزمرات لا أهمية لها ، هو القول بأنها لن يكون لها صوت فى عملية التشكيل هذه • ومع ذلك ، فلو كانت هناك ، على سبيل المثال ، مدرستان رائدتان ، كل منهما تحظى بقادة يتمتعون تماما بالسلطة وقدر كبير من المنزلة ، فان العلاقات بينهما عندئذ سوف تتجه لكى تصبح أمر يتعلق بعملية ضم واستيعاب، ومسائل تتعلق بعملية بناء تكتل أكبر • وبطبيعة الحال ، فان احـدى المدارس لو تعرضت لهجوم خارجى فعال عليها ، أو من زمرات أخرى ، فسوف يكون من أولى استراتيجيات الدفاع هـو الانكار بأن هنـاك ثمة زمرة أو حتى مدرسة بالفعل ، وهذه هى المناسبات التى يتأتى لرجال الادارة أن يكونوا فيها مستقلين •

وغالبا ما تختلط المهام التى تمثل أهمية بالنسبة للزمرة بالمهـام

التى تمثل أهمية للعمل الفعلى الخاص باحدى المدارس • ويؤثر هذا الامر على فرص الحياة العملية عند الشباب ، أما عند كبار السن فيكون هناك تشجيع وتمهيد للترقى الادارى ، وتشجيع للمهارات السياسية وقدرات الصداقة • والسمعة ، خاصة بين كبار السن هؤلاء ، قد تصبح بذلك قائمة على أساس يشوبه الغموض • ولذلك قد يتساءل من هم خارج الزمرة ، هل السمعة العالية التى يتمتع بها هذا الشخص راجعة الى القيمة الفكرية التى يحققها العمل فعلا أم هى راجعة الى مركزه فى الزمرة ؟؟ •

ونحن عندما نضع فى اعتبارنا العلاقات المتبادلة بين الزمر ، فاننا نواجه فى الحال بمن لا يتحدثون باسم زمرة واحدة فقط ، بل بمن يتحدثون باسم « حقل العمل » كله • فهم ليسوا فقط مجرد مسئولين تنفيذيين فى منشأة واحدة ، بل هم أيضا متحدثين باسم الصناعة • والشخص الذى يتطلع لأن يلعب دور رجل الادارة بالنسبة لحقل عمل كامل لابد له عادة من أن ينكر فى الواقع أن هناك اختلافات فكرية حقيقية ، بين ، مثلا ، زمرتان رائدتان فى حقل العمل • وفى الواقع ، فانه ، باعتباره المتحدث المشترك باسمهما ، فان من أولى مهامه الفكرية هى أن يظهر « أنهما فى الحقيقية يعملان تجاه هدف واحد » • وهنا ، يصبح هو الرمز للمنزلة التى تزعم كل زمرة بأنها من صميم اختصاصها ، وكذلك يكون رمزا لوحدتهما « الفعلية » أو على الاقل لوحدتهما التى ستتحقق فى النهاية • وهو باكتسابه المنزلة من كل من الزمرتين ، فانه يضفيها على كل منهما ، أى أنه بمثابة نوع من السماسرة الوسطاء ، يقوم بتوزيع وتخصيص المنزلة لكل من الفريقين •

والآن لنفترض على سبيل المثال ، أن هناك مدرستان رائدتان فى

أحد ميادين الدراسة ، احداهما تسمى « النظرية » والثانية تســمى « مناهج البحث » ، والعالم « الادارى » الناجح هو الذى يحقــق حركة من العمل الكثيف بينهما ، فهو يرى كما لو كان يعمل فى كلاهما ومع ذلك فهو يقف بينهما فى نفس الوقت . وهو بمنزلته التى يتمتع بها ، يبدو وكأنه يعد بأن كلا من النظرية ومناهج البحث ليس فقــط متوافقان بل هما أيضا جزء من نموذج متكامل للعمل فى علم الاجتماع ككل . اذن فهو بمثابة رمز لهذا الوعد . ولكن هذا الوعد لا يرتكز على أى كتب أو دراسات حقيقية يكون قد أنجزها . أما الذى يحدث فهو : أنه فى أى عمل يتعلق ببحث يعتد به وسيكون له قدره ، فان العالم « الادارى » يبحث عن النظرية — وبطريقة مليئة بالتمنى ؛ وهو دائما يجدها هناك . وأيضا ، فى أى عمل يعتد به كما يجب كنظرية ، يقوم العالم « الادارى » بالسعى الى مناهج البحث — ومرة أخرى ، بتلك الطريقة المليئة بالتمنى ، فانه يعثر عليه . اذن ؛ فالدراسة المستكملة ، التى تظهر فيها « النظرية » « ومناهج البحث » فعلا ، كشىء واحد ، تعتبر كما ذكرت ، بمثابة وعد ورمز . فى نفس الوقت ، فان المنزلة التى يتمتع بها العالم « الادارى » لا تعتمد على أى من مثل هذه الدراسة ، بل هى فى الحقيقة لا تعتمد على أى دراسة على الاطلاق .

وعلى حسب ما أعتقد ، هناك حقيقية مفجعة تلتصق بكل الادوار التى تكتسب هيئة العالم « الادارى » . هذه الحقيقة هى أن كثيرا من الذين يلعبون هذه الادوار يملكون عقولا من الدرجة الاولى ، لأن أصحاب العقول من الدرجة الثانية لا يستطيعون فى الواقع القيام بمثل هذه الادوار ، رغم أن الكثيرين بالطبع يقومون بتقليدها بالكلام فقط . والدور الذى يكون على العالم « الادارى » أن يلعبه يبقيه بعيدا عن

واقع العمل • كما أن المنزلة التى استطاع أن يكتسبها لا تتناسب أبدا مع العمل الذى يكون قد أنجزه بالفعل ، والوعد الذى يكون قد أطلقه عبئه كبير للغاية ، حتى أنه غالبا يكون معوق تماما عن الوصول الى « الدراسة »، ولكنه عندما يشترك بجانب رئيسى فى احدى الدراسات أو أحد الكتب ، فانه يمتنع عن انهاؤه أو نشره ، حتى عندما يظن الآخرين أن العمل قد انتهى • وهو عندئذ يشكو من اللجان ومن الاعباء الادارية الاخرى التى يحمل عبئها ، وان كان فى ذات الوقت يقبل ، بل انه فى الواقع يسعى ، الى المزيد من هذه الاعبـــاء • اذن فدوره هو نفسه كعالم « ادارى » هو فى وقت واحد السبب والمبرر فى عدم النزول الى مجال العمل • فهو محاصر ، على حد قوله من حين لآخر ، ولكنه أيضا عليه فى الحقيقة أن يستمر فى محاصرة نفسه ، والا فان الآخرين بل وهو نفسه سوف يقرون بأن دوره كعالم « ادارى » ما هو الا مجرد حجة لتبرير تصرفه •

ولكن عالم الزمرات ليس كله موجود فى دنيا الامور الاكاديمية • بل هناك أيضا من هو غير متعلق بشىء ، الذى يدخل نفسه فى كثير من الامور المتنوعة ، وعمله أيضا متنوع • والشخص غير المتعلق بشىء ، من وجهة نظر الزمرة الرائدة ، قد ينظر اليه على أنه شخص يحمـــل مشاعر ودية أو على الاقل محايدة تجاه المدرسة التى تؤمن بها الزمرة، وهو قد يكون « اختيارى » فى عمله أو أنه فقط يفتقر الى « الميـــول الاجتماعية » • مثل هذا الشخص وأشباهه بقدر ما يجـــذب عملهـــم اهتماما مواتيا أو يكون الحكم عليهم بأنهم أناس يستحقون ، أو ذوى فائدة ، فان أعضاء الزمرة قد يسعون الى اجتذابهم ، واهدائهم الى الطريق ، ثم فى النهاية يضمونهم اليهم • فالسمعة والشهرة غالبا ما تكون شهرة متبادلة ـــ لكنها بالنسبة لأعضاء الزمرة ـــ غير كافية •

ولكن من بين غير المتعلقين بشيء ، قد يكون هنـاك أيضـا من لا يدخلون أنفسهم فى اللعبة ، ولا يشتركون فى مطالب المنزلة • ومن بين هؤلاء هنـاك البعض الذين يشـعرون فقـط بعـدم الاكتراث ومستغرقين فى عملهـم الخاص ، والبعض الذين يشـعرون بالعداوة الصريحة المطلقة ، عملهم هو انتقاد أعمال المدرسة • ولو كان الأمر فى امكان الزمرة ، فانها سوف تتجـاهل كل منهما وأعمالهما • ولكن فى حالة ما اذا كانت الزمرة تتمتع بمنزلة كبيرة حقيقية فهل تكون مثـل هذه الاستراتيجية البسيطة مناسبة ومأمونة • انها من الممكن أن تتحقق بطريقة متكبرة ؛ وفقط اذا ما توافقت الزمرة فعلا مع حقل الدراسة ككل وتحكمت فيه أيضا • ولكن هذا بالطبع لا يحدث ، فعادة ما يكون هناك أناس محايدين وعاملين يختارون عملهم ، وكذلك زمرات أخرى ، فى نفس ميدان العمل • بل هناك أيضا ميادين أخرى من الدراسة تكون لها صلة ، بل وأكثر من ذلك ، العديد من غير الاكاديميين الذى يؤدى اهتمامهم أو مظاهر الاستحسان التى يبدونهـا الى زعزعة ما تحرزه الزمرات من منزلة وسمعة وخبرة •

وبناء على ذلك ، اذا لم يكن فى الامكان تجاهل النقاد ، فلابد من تبنى استراتيجيات أخرى • وبالطبع فان جميـع الوسـائل التى تستخدم فى الادارة الداخليـة لأعضاء المدرسة سوف تستخدم أيضا للتعامل مع المعادين خارج المدرسة • وهنـا سأكتفى بمناقشة موجزة لواحدة فقط من هذه الوسائل ، وهى عرض الكتب ، الذى يعتبر أكثر الوسائط شيوعا لتخصيص المنزلة • فلنفترض أن أحد الدارسين غير المتعلقين باحدى المدارس قد أخرج كتابا لقى ما يكفى من الاهتمام بما يجعل تجاهله أمر غير مقبول • اللعبة الفجة ، هى اعطاء الكتاب الى

أحد كبار أعضاء الزمرة ، خاصة الى من هو معــروف بأنه فى حالة منافسة أو عداوة مباشرة لآراء المؤلف ، أو على الاقل يعتنق آراء مضادة له . بل ان الامر سيكون أكثر دهاء لو تم تكليف هذه المهمة الى عضو فى الزمرة يكون ثانويا ولكنه فى طريقه الى الصــعود ، ولم ينشر له الكثير من قبل وبالتالى آراؤه ليست معروفة على نطاق واسع . وهذا الاسلوب له مزايا عديدة ، فهو بالنسبة للشاب يعتبر مكافأة له مقابل ولائه وكذلك فرصة لكى ينال اعتراف به نتيجة لانتقاده شخصا أكبر منه وأكثر شهرة . والامر بهذا الشكل يضع الكتاب بطريقة ضمنية فى وضع أقل أهمية مما لو كان المكلف بالمهمة أحد الدارسين البارزين . كذلك فهو دور مأمون يقوم به الشاب . فالشخص المشهور ، وبعيدا عن مجال التعاظم ، قد لا يرغب فى « الرد » على العرض الذى تم لكتابه، اذ ليس من المعتاد بالنسبة لأحد مؤلفى الكتب أن يقوم بالرد على الانتقادات الموجهة لكتابه من محترفى عرض الكتب ، لأن السياسة التى تتبعها بعض الصحف الثقافية هو عدم تشجيع أو عدم السماح بمثل هذا الرد . ولكن حتى فى حالة الرد ، فذلك ليس له فى الواقع أهمية كبيرة . فكل شخص من الذين تعرض لهم الكتب يعرف أن من أسهل المهام الفكرية هو « حشر » الكتاب — أى كتاب — فى عمــود أو عمــودين ، وأنه سيكون من المستحيل بالفعل الرد على مثــل هذا العرض فى نفس المساحة . قد يكون الامر ممكنا لو كان الكتاب نفسه قد حظى من جميع القراء بقراءة متأنية ، ولأن هذا الاحتمال لا يمكن افتراضه فانه يعطى لمستعرض الكتاب ميزة هائلة .

ومع ذلك ، لو أن هذا الكتاب موضع المناقشة يحوز على قدر كبير من الاهتمام داخل أو خارج الميدان أو فى كلاهما ، فعندئذ يكون الشيء

الوحيد الذى يمكن فعله هو تكليف أحد أعضاء الزمرة البارزين بالمهمة، ويفضل أن يكون من رجال المتعاملين الاداريين حيث يتولى تقريظ الكتاب كما يجب دون اهتمام كبير بمضمونه ، وكذلك يقوم باظهار كيف يسهم الكتاب فى التيارات السائدة والواعدة فى الميدان ككل . أما الشىء الوحيد الذى يجب على أى زمرة جدية ومخلصة أن تتجنبه هو اعطاء الكتاب لأحد الدارسين غير المتعلقين بزمرة معينة ، فهو أولا سوف يعرض بدقة ووضوح لما يحتويه الكتاب ، وثانيا ، سوف ينتقده بشكل مستقل عن المدارس والزمر والاساليب المختلفة .

(٣)

من بين الشعارات التى يستخدمها العديد من مدارس علم الاجتماع ، لا يوجد شعار يتكرر كثيرا بمثل الشعار الذى يقول ، « ان غرض علم الاجتماع هو التنبؤ بالسلوك البشرى وضبطه » . وفى هذه الايام ، يتردد فى بعض الدوائر أيضا الكثير عن « الهندسية البشرية » — وهى عبارة غير محددة غالبا ما يشاء استخدامها لغرض جلى وواضح . ومن المعتقد أن السبب فى وضوح الغرض وجلاؤه هو أنه يرتكز على تشابه لاشك فيه بين « سيادة الطبيعة » و « سيادة المجتمع » . والذين يستخدمون مثل هذه العبارات عادة هم أقرب لأن يكونوا من بين أكثر الناس اهتماما من الناحية العاطفية بـ « جعل الدراسات الاجتماعية ضمن العلوم الحقيقية » ، ويتصورون عملهم بأنه محايد من الناحية السياسية وغير ملائم من الناحية الاخلاقية . وفى كل مرة عادة ، تطرح الفكرة الاساسية باعتبار أنها تمثل «تقاعس» لعلم الاجتماع وراء علم الفيزيقا والحاجة بالتالى الى اغلاق الفجوة بينهما . وما هذه الشعارات التكنوقراطية سوى بديل لفلسفة سياسية

تنتشر بين الكثيرين من العلماء الذين كتبت عنهم توا • وهؤلاء على ما أعتقد ، يريدون أن يفعلوا بالمجتمع ما يفترضون بأن علماء الفيزيقا قد فعلوا بالطبيعة • وفلسفة هؤلاء السياسية يتضمنها ذلك الرأى البسيط بأنه اذا ما استخدمت مناهج العلم فقط ، تلك التى استطاع الانسان بها أن يتحكم الآن فى الذرة ، فى « ضبط السلوك البشرى » ، فسرعان ما تحل مشاكل البشرية ويعم السلام الجميع •

وتكمن خلف هذه العبارات مفاهيم غريبة عن القوة ، وعن العقل، وعن التاريخ — وجميعها مفاهيم غير واضحة وفى حالة يرثى لها من الحيرة والاضطراب • فاستخدام مثل هذه العبارات يكشف عن نوع من التفاؤل الرشيد الفارغ الذى يستند الى جهل بالادوار العديدة الممكنة التى يمكن أن يقوم بها العقل فى أمور البشر ، وبطبيعة القوة وعلاقاتها بالمعرفة ، وبمعنى الفعل الاخلاقى وموضع المعرفة داخله ، وبطبيعة التاريخ وحقيقة أن البشر ليسوا فقط مجرد مخلوقات للتاريخ بل هم عند اللزوم يشكلون عناصر خلق داخله بل وحتى له أيضا • ولكننى قبل أن أتناول هذه القضايا ، أريد باختصار أن ألقى نظرة فاحصة على الشعار الرئيسى الذى يردده الفلاسفة التكنوقراطيون — ذلك الذى يدور حول التنبؤ والضبط •

ان الحديث بطلاقة ويسر كما يفعل الكثيرون حول مسألتى التنبؤ والضبط هو أن نأخذ بمنظور البيروقراطى الذى يعتبر العالم بالنسبة له شىء يمكن معالجته ، كما قال ماركس ذات مرة • ولكى تبدو هذه النقطة واضحة ، لنأخذ مثالا : لو كان هناك انسان يملك جهاز للضبط، له قدرة الدهاء والقوة ، على ادارة عسكرية واقعة على جزيرة منعزلة لا يوجد بها أعداء ، فان هذا الشخص ، كما ولابد أن تتفق معى ، يكون

فى وضع يتيح له فرص حالة الضبط . فاذا ما قام هذا الشخص باستخدام كامل قواه ووضع خطط محددة ، فهو عندئذ يستطيع أن يتنبأ ، فى اطار حدود هامشية ضيقة تماما ، بما سيقوم به كل انسان فى ساعة معينة من يوم معين فى سنة معينة . بل هو فى امكانه تماما أن يتنبأ حتى بالمشاعر التى تعتمل فى نفوس العديد من هؤلاء الرجال، لأنه يقوم بمعاملتهم واستخدامهم كما لو كان يحرك الاشياء الجامدة ، فهو يملك القوة التى تجعله يتغلب على الكثير من الخطط التى قد يضعونها ، بل وأحيانا قد يعتبر نفسه حقا عاتية جبار . اذن ، فهو اذا استطاع الضبط ، استطاع أن يتنبأ ، فهو فى مركز السيطرة على « القوانين المضطردة » .

ولكننا ، كعلماء اجتماع ، قد لا نفترض أننا نتعامل مع أشياء جامدة يمكن معالجتها بسهولة ويسر . كما أننا قد لا نفترض اننا من بين الناس عتاة مستبدين . وحتى يتحقق كلا الافتراضين ، يعتبر على الاقل أننا نتخذ موقف سياسى وهو ما قد يبدو للاساتذة شىء غريب . فلا يوجد مجتمع تاريخى ينشأ داخل اطار بمثل هذه الصرامة والجمود كذلك الذى يضم تلك الادارة العسكرية المفترضة ، كذلك علماء الاجتماع - ولنحمد الله - ليسوا جنرالات للتاريخ . ومع ذلك فحتى نستطيع أن نتكلم عن « التنبؤ والضبط » فى وقت واحد ، كما يفعل الكثيرون ، هو أنه علينا عادة أن نفترض وجود نوع ما من الضبط من جانب واحد كذلك الذى يملكه ذلك الجنرال الخيالى ، الذى بالغت فيما يملكه من قوة الى حد ما حتى أوضح النقطة التى أبغيها .

وهدفى من توضيح هذه النقطة هو أن اكشف عن المغزى السياسى للطابع المعيارى للبيروقراطية . وكان استخدامى لها أساسا مركز فى

ومن أجل مجالات غير ديموقراطية فى المجتمع ـ مؤسسة عسكرية ، شركة ، وكالة اعلان ، قطاع ادارى بالحكومة . انه فى ومن أجل مثل هذه التنظيمات البيروقراطية أن الكثيرين من علماء الاجتماع كانوا مدعوون للعمل ، كما أن المشاكل التى يشغلون بها أنفسهم هناك هى من نوع المشاكل التى تشغل اهتمام أكثر الناس كفاءة فى مثل هذه الاجهزة البيروقراطية .

وهنا لا أستطيع أن أعرف كيف لأي انسان ذو عقل أن يختلف مع « روبرت ليند » فى تعليقه على « الجندي الامريكى » : « ان هذه الكتب تصور العلم على أنه يستخدم بمهارة شديدة فى تصنيف وضبط البشر لأغراض ليست من ارادتهم الخاصة . وانه ليعتبر مقياس له مغزاه عن عقم الديموقراطية الليبرالية انها يجب أن تستخدم بشكل متزايد العلوم الاجتماعية فى المشاكل الخاصة بالديموقراطية ، ليس بطريقة مباشرة ، بل بشكل سطحي وغير مباشر ، اذ عليها أن تلتقط الفتات من أبحاث العمل الخاص فيما يتعلق بمشاكل مثل كيف يمكن قياس رد فعل الجمهور حتى يمكن وضع برامج اذاعية وسينمائية مركبة ، أو ، كما هو الامر فى حالتنا الراهنة ، التقاط الفتات من الابحاث العسكرية عن كيف يمكن تحويل الشراذم الخائفة من الجنود الى جنود صلبين يقاتلون فى حرب لا يفهمون أهدافها . وبمثل هذه الاغراض الدخيلة على مجال علم الاجتماع وتتحكم فى استخدام علم الاجتماع ، فان كل تقدم يحدث فى استخدامها ينحو الى جعلها وسيلة لضبط جماهير الناس ، وبالتالى يشكل تهديدا للديموقراطية » (٢) .

ومن هنا فان الشعارات الخاصة بالمهندسين البشريين تخدم فى السير بالطابع المعيارى للبيروقراطية بما يتعدى الاستخدام الفعلى لهذا

الاسلوب من التفكير ومنهج البحث • واستخدام هذه الشعارات كاقرار « بما يبحث عنه الانسان » هو بمثابة قبول بالدور البيروقراطي حتى ولو لم يشرعه الانسان • فهذا الدور ، باختصار ، غالبا ما ينتحل على أساس « كما لو » • فالاخذ بالنظرة التكنوقراطية ، وكما يحاول علماء الاجتماع أن يعملوا على أساسه ، هو الفعل « كما لو » كان الانسان بالفعل مهندس بشرى • وأنه فى اطار مثل هذا المنظور البيروقراطى صار التصور الآن للدور العام الذى يقوم به عالم الاجتماع • فتصرف الشخص فى اطار هذه الطريقة — كما لو أننى مهندس بشرى — قد يكون مجرد شىء يثير التسلية فى مجتمع يكون قد تم تولية العقل البشرى فيه بشكل واسع وبشكل ديموقراطى ، ولكن الولايات المتحدة ليست هذا المجتمع • وأيان كان وضعها ، فالواضح المؤكد : أنها مجتمع يتزايد فيه استخدام البيروقراطيات الرشيدة وظيفيا فى الامور البشرية وفى القرارات المتعلقة بصنع التاريخ • وليست جميع العهود متشابهة فى درجة استقلال التغيرات التاريخية التى تحدث فيها عن ارادة الضبط المتعمد • والعهد الذى نحن فيه يبدو عهدا ، تشكل القرارات الرئيسية أو عدمها فيه على يدى الصفوة القائمة بيروقراطيا مصدرا متزايدا للتغيير التاريخى • الاكثر من ذلك ، أنه عهد ومجتمع لتوسع والتمركز لوسائل الضبط ، ولوسائل القوة فيه ، قد أصبح يتضمن الآن استخداما واسعا تماما لعلم الاجتماع لأى غايات قد يرى من فى يدهم وسائل الضبط هذه استخدامه فيها • لذلك ، فان التحدث عن « التنبؤ والضبط » دون مواجهة المشاكل التى تثيرها مثل هذه التطورات ، لهو تخل عن الاستقلال الذاتى الاخلاقى والسياسى كذلك التى يمكن أن يكون لدى الانسان •

ولكن ، هل يمكن التحدث عن « الضبط » بأى منظور آخر غير المنظور البيروقراطى ؟ الرد على ذلك ، أن ذلك ممكن بالطبع . وهناك تصور لأنواع عديدة من « الضبط الذاتى الجماعى » وأى كلام مناسب عن أى فكرة من هذه الافكار يشمل فى طياته كافة القضايا المتعلقة بالحرية وبالعقلانية — كأفكار وكقيم . كما أنه يشمل أيضا فكرة « الديموقراطية » — كنمط من البناء الديموقراطى وكمجموعة من التوقعات السياسية . فالديموقراطية تعنى قوة وحرية الخاضعين لضبط القانون على تغيير القانون ، وفقا لقواعد متفق عليها ، بل وحتى على تغيير هذه القواعد ، ولكنها أكثر من ذلك ، تعنى نوع من الضبط الذاتى الجماعى على الميكانيزمات البنائية للتاريخ ذاته . وهى فكرة معقدة وصعبة ، وسوف أناقشها فيما بعد ببعض التفاصيل . ولكننى أريد هنا فقط ان أقترح أنه اذا ما أراد علماء الاجتماع ، فى مجتمع يتضمن تطلعات ديموقراطية ، أن يناقشوا بجدية القضايا المتعلقة بـ « التنبؤ والضبط » فان عليهم أن يقدروا هذه المشاكل بعناية .

وقد تتساءل أيضا ، هل من الممكن التحدث عن « التنبؤ » بأى منظور خلاف المنظور البيروقراطى ؟ الرد أيضا ، نعم من الممكن ذلك . فالتنبؤات قد تعتمد على « أمور منتظمة » غير مقصودة « أكثر مما تعتمد على ضوابط مقررة سلفا مضى عليها وقت طويل . فبدون أن يكون هناك ضبط ، فاننا نستطيع التنبؤ بشكل أفضل بتلك المجالات فى الحياة الاجتماعية التى لا يملك أى أحد آخر كثير من الضبط عليها ، تلك التى تكون فيها الانشطة « التطوعية » وغير الروتينية فى أدنى حد لها . فالاستخدامات المتعددة للغة ، على سبيل المثال ، تتغير وتثبت « خلف ظهر الانسان » . ومثل هذه الامور المنتظمة قد تحدث أيضا مرتبطة بالميكانيزمات البنائية للتاريخ . ونحن اذا ما استطعنا أن نستوعب ما أسماه « جون ستيوارت ميل » بـ « الوسائط الرئيسية » للمجتمع،

واذا ما استطعنا أن نستوعب تفرعاتها الرئيسية ، وباختصار ، اننا اذا ما استطعنا أن نفهم التحول ابنائى لحقبتنا التاريخية ، عندئذ ، ربما تكون قد حصلنا على « أساس للتنبؤ » .

ومع ذلك ، فاننا لابد أن نتذكر أن البشر فى خلال حقبة محددة غالبا ما يستطيعون التحكم فى كيفية فعلهم ، فان المدى الذى يستطيعون فيه القيام بذلك هو من بين الاشياء التى تدخل فى نطاق دراستنا . وما يجب أن نتذكره أن هناك جنرالات حقيقيون ، كما أن هناك مثلهم نظريون ، كذلك هناك أيضا تنفيذيون ذوى مسئولية مشتركة وهناك أيضا رؤساء دول . الاكثر من ذلك ، أن الحقيقة بأن البشر ليسوا بأشياء جامدة تعنى أنهم قد يكونوا مدركين للتنبؤات التى تمت بالنسبة للنشاطات التى قاموا بها ، وأنهم وفقا لذلك يستطيعون بل وغالبا ما يقومون باعادة توجيه أنفسهم ، أى أنهم قد يكذبون أو يحققون التنبؤات . أما ما سوف يقومون بفعله فهو لا يخضع حتى الآن ، لعملية جيدة من التنبؤ . وأنه بقدر ما يتوافر للبشر قدر ما من الحرية ، فان ما قد يفعلونه لن يكون قابل للتنبؤ به فى الحال .

ولكن النقطة هى : القول بأن « الهدف الحقيقى والنهائى للهندسة البشرية » أو « لعلم الاجتماع » هو « القيام بالتنبؤ » ما هو الا استبدال للشعار التكنوقراطى لما يجب أن يكون اختيار أخلاقى متعقل . وهذا أيضا يشكل استخدام للمنظور البيروقراطى الذى ليس فيه — بمجرد أن يتم استخدامه بالكامل — خيار أخلاقى كبير .

وان اضفاء الصبغة البيروقراطية على الدراسة الاجتماعية قد بات عن المتيلزات العامة تماما ، وربما فى الوقت المناسب ، قد يتحقق فى أى مجتمع تكون النظم الروتينية البيروقراطية فيه قد بدأت تتضخم بحجم

كبير • وبطبيعة الحال ، فان هذا يكون مصحوبا بنظرية متضخمة لها قوة دفع ، والتى لا تستطيع أن تتفاعل مع البحث الادارى • فالابحاث ذات الصبغة المعينة ، وهى الابحاث الاحصائية عموما والمقيدة بالاستخدامات الادارية ، لا تؤثر على الدقة المكتملة للمفاهيم ، وهذه الدقة المكتملة بدورها لا يكون لها علاقة بالنتائج التى تسفر عنها تلك الابحاث ذات الصبغة المعينة ، بل هى أقرب لأن تكون لها علاقة بشرعية النظام وبسماته المتغيرة • فبالنسبة للشخص البيروقراطى ، العالم هو عالم من الحقائق التى يجب معاملتها وفقا لقواعد راسخة • وبالنسبة لصاحب النظريات ، العالم هو عالم تصورات ومفاهيم يجب معالجتها ، غالبا دون قواعد مدركة أو محسوسة • فالنظرية تخدم باعتبارها تبرير أيديولوجى للسلطة • كما أن البحث فى سبيل غايات بيروقراطية يخدم فى جعل السلطة أكثر فعالية وأكثر كفاءة ، وذلك عن طريق توفير المعلومات المفيدة لرجال التخطيط المسئولين •

وعلى الرغم من أن الخبروية المجتزأة لهما معانيها الايديولوجية الواضحة ، الا أنها تستخدم بطريقة بيروقراطية • وكما أشرت من قبل، فان النظرية المتضخمة ليس لها نفع بيروقراطى مباشر ، فمعناها السياسى أيديولوجى ، والاستفادة منها بهذا الشكل يكمن فى هذا • واذا ما كان ينبغى أن كلا من أسلوبى العمل ــ الخبروية المجتزأة والنظرية المتضخمة ــ سوف يتمتعان «بالكثرة الثنائية» فى استخدامهما الفكرى ، أو حتى سوف يصبحا أسلوبى العمل السائدين ، فانهما سوف يشكلان تهديدا مؤلما لما يعد به علم الاجتماع فكريا ، وكذلك للوعد السياسى لدور العقل الذى يلعبه فى أمور البشر ، طبقا للتصور الكلاسيكى لهذا الدور الذى ساد فى حضارة المجتمعات الغربية •

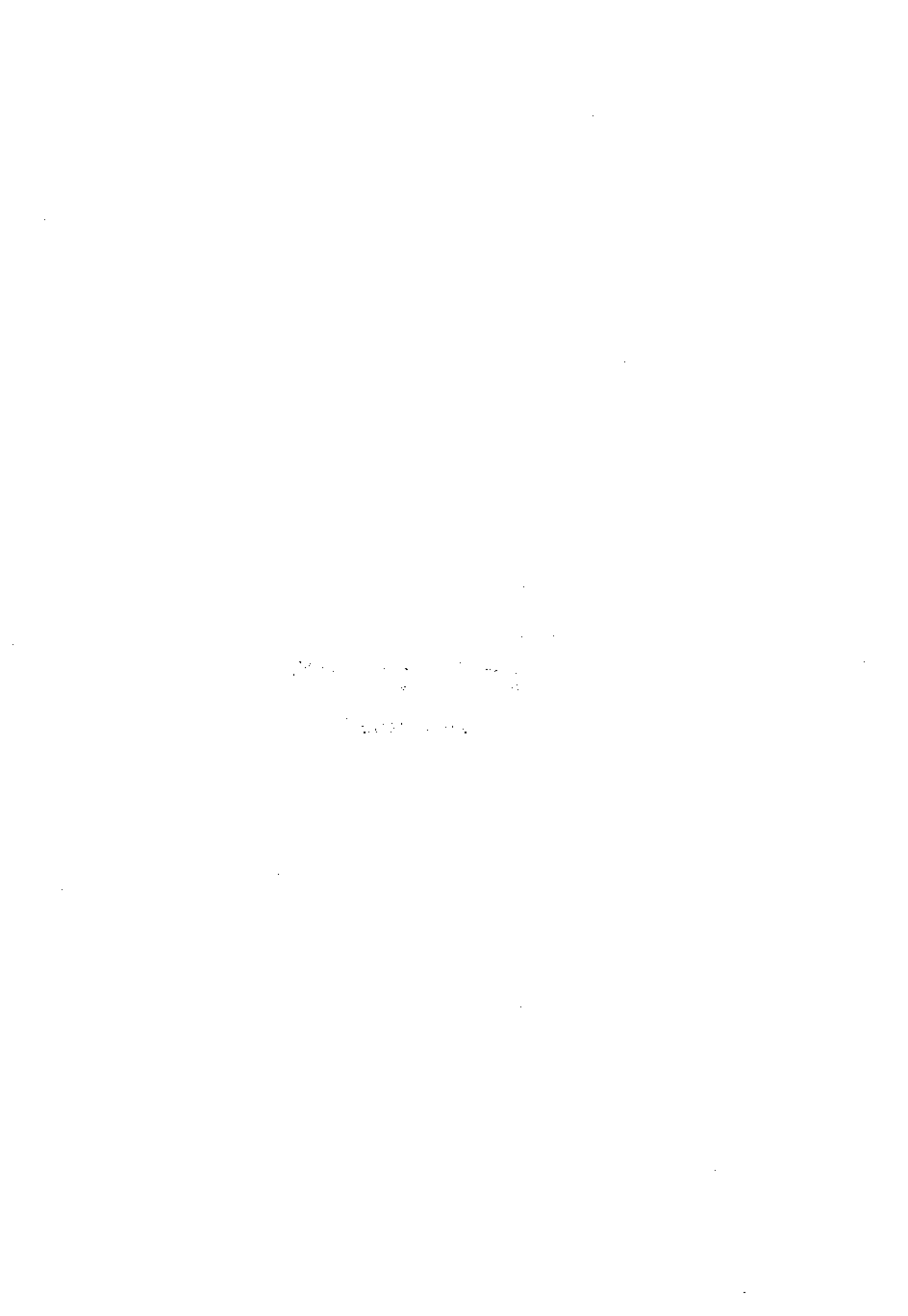
المراجـــــــع

(١) انظر : «بول لازار سفيلد Paul Lazar Sfeld » ، «ما هو علم الاجتماع» ؟ .
والعبارة بين الاقواس من عند «رايت ميلز» .

(٢) انظر : «علم العلاقات غير البشرية» ، الجمهورية الجديدة ، ٢٧ أغسطس ١٩٤٩ .

الفصل السادس

فلسفات العلم



الفصل السادس

فلسفات العلم

ان حالة البلبلة والاضطراب الموجودة فى العلوم الاجتماعية — وينبغى أن يكون هذا أمر واضح الآن — قد غلفها جدل طويل ومستمر حول طبيعة العلم . ومن المؤكد أن معظم الدارسون للمجتمع سوف يوافقون على أن قبولهم بـ «العلم» هو قبول رسمى يغلفه الغموض والابهام . فنحن نجد أن « الخبروية العلمية » تعنى أشياء كثيرة ، وليست هناك صورة واحدة منها هى المقبولة فقط ، وأقل من هذا كثيرا التوظيف النسيقى لأى شكل من أشكالها . كذلك فان التوقعات المهنية يسودها التشويش والاضطراب تماما ، كما أن مفهوم الحرفية قد يتحقق من منطلق نماذج للبحث مختلفة تماما . وبسبب هذا الوضع، الى حد ما ، فان نماذج فلسفة المعرفة والمنطق عند فلاسفة علم الطبيعة لها تلك الجاذبية التى تتمتع بها [١] .

ومع الاعتراف بوجود أساليب عديدة للعمل فى مجال العلوم الاجتماعية ، فان الكثير من الدارسين يتفقون بحماس على « أننا يجب أن نجمع هذه الاساليب معا » . وهذا البرنامج فى بعض الاحيان يطرح بشكل أقرب الى الاقناع هو : ان المهمة المطلوب القيام بها خلال العقود التالية ، كما يقال ، هى العمل على توحيد المشاكل الاكبر وكذلك العمل النظرى للقرن التاسع عشر ، خصوصا تلك التى ظهرت

على يدى الالمان ، مع أساليب البحث السائدة فى القــرن العشرين ، خصوصا تلك التى استخدمها الامريكيون • وفى اطار هــذه القضـية الجدلية الكبيرة ، يسود الشعور بأنه سوف يكون من الممكن تحقــيق تقــدم بارز مستمر فى مجال التصور المسيطر والاجراءات الصــارمة الدقيقـــة •

ونحن لو نظرنا الى الامر باعتباره مشكلة فى مجال الفلسفة ، فلن يكون من الصعب تماما « جمع هذه الاساليب معا »[٣] • لكن السؤال المتعلق بالموضوع هو : لنفترض فعلا أننا قمنا بــ « جمعها معا » فى نمط وآخر من أنماط البحث ، فأى فائدة سيحققها مثـــل هذا النمـــط بالنسبة للعمل الذى يتم فى علم الاجتماع ، وبالنسبة لمعالجة المهـــام الرئيسية فيه •

ان مثل هذا العمل الفلسفى ، كما أعتقد ، «ستكون» له بعـــض الفائدة لعلماء الاجتماع • وادراكنا لهذا سيمكننا من أن نصبح أكثر وعيا بتصوراتنا واجراءاتنا التى نقوم بها ، كما سيمكننا من توضيح هذه التصورات والاجراءات • ويعطينا هذا العمل الفلسفى لغة يمكننا بها اتمام هذه الاشياء ، ولكن استخدام هذه اللغة يجب أن يكون ذو طبيعة عامة ، فلا يوجد أحد من علماء الاجتماع العاملين فى حاجة الى أخذ مثل هذا النمط بجدية شـــديدة • بل الاكثر من هذا ، أنه ينبغى علينا أخذ هذا النمط باعتباره عنصر لتحرير خيالنا ومصدر للايحـــاء بالرأى الخاص بالاجراءات التى نقوم بها ، أكثر من كونه نمطا يمثل قيدا على مشاكلنا • ففرض القيود ، تحت اسم «العلوم الطبيعية» ، على المشاكل التى سوف نعكف على دراستها ، هو شىء يبدو لى نوع من الوجل والتهيب • وبطبيعة الحال ، اذا ما رغب الباحثون شبه المهرة

فى قصر أنفسهم على هذه المشاكل ، فربما يكون هذا قيداً ذاتيا حكيما يفرضونه على أنفسهم . أما خلاف هذا ، فان مثل هذا القيد لا يكون له مغزى فى الاساس .

(١)

لو نظرنا الى الباحث الاجتماعى الكلاسيكى سنجده قد تجنب استخدام أى نوع من قواعد الاجراءات ذات الصبغة الجامدة ، فستجده قد سعى الى تطوير واستخدام الخيال العلمى الاجتماعى فى عمله . ونتيجة لشعوره بالنفور من اللجوء الى المفاهيم سواء بتداعيها أو بتفككها ، فانه كان يستخدم تعبيرات أكثر دقة وفقط عندما كان يتوافر لديه سبب جيد يجعله يعتقد بأنه باستخدامها سيمكنه توسيع مجال أحاسيسه ، ودقة مراجعه ، وعمق تقديره العقلى . فهو لم يترك المنهج والأسلوب عائقا يقف فى سبيله ، اذن فقد كان أسلوب البحث الكلاسيكى هو أسلوب صاحب الصبغة الفكرية .

وعندما يكون العمل يسير فى طريقه حثيثا أو يكون على وشك الظهور ، فعادة ما تثار المناقشات المقيدة عن المنهج وعن النظرية كذلك باعتبارها ملاحظات تتم على هامش العمل . وهنا نجد أن « المنهج » ، أولا وقبل كل شىء ، هو شىء يتعلق بكيفية توجيه والرد على التساؤلات مع قدر من التأكيد بأن هذه الردود سيكتب لها صفة الدوام كثيرا أو قليلا . أما «النظرية» فهى شىء يتعلق ، فوق كل شىء ، باعطاء العناية والاهتمام الشديدين للكلمات التى يستخدمها المرء ، خصوصا فيما يتعلق بدرجة عموميتها والعلاقات المنطقية بينها . وبذلك يكون الغرض الاساسى من كل من المنهج والنظرية هو وضوح المفاهيم والاقتصاد فى الاجراءات ، والاكثر أهمية الآن ، هو اطلاق الخيال العلمى الاجتماعى بدلا من تقييده .

وأن يكون الانسان متمكنا من «المنهج» و «النظرية» ، معناه أنه يصبح مفكرا مدركا لذاته ، انسان يعمل وهو على وعى بفروض ودلالات ما هو مقدم عليه . أما أن يكون الانسان وقد تمكن منه كل من «المنهج» و «النظرية» فمعناه ببساطة أنه يبقى بعيدا عن العمل ، أى بعيدا عن محاولة التنقيب والكشف عن شىء ما يجرى فى العالم . وبدون الرؤية المتبصرة للطريقة التى ينفذ بها العمل ، تكون نتائج الدراسة غير حاسمة وغير مؤكدة ، وبدون تقرير حازم بأن الدراسة ستكون لها نتائج هامة وذات مغزى ، يصبح المنهج بأكمله مجرد مظهر كاذب لا معنى له .

وبالنسبة لعالم الاجتماع الكلاسيكى ، لا المنهج ولا النظرية يعتبر أى منهما مجال مستقل بذاته ، فالمناهج ستكون مناهج بالنسبة لمجال معين من المشاكل ، والنظريات نظريات بالنسبة لمجال معين من الظواهر . فهما مثل لغة البلد الذى تعيش فيه : فهى ليست بشىء تباهى وتفاخر به لأنك تتحدث بها ، ومع هذا فسيكون شيئا مشينا اذا لم تستطع التحدث بها .

وينبغى دائما على عالم الاجتماع الذى يعمل أن يضع على قمة اهتماماته الاحساس الكامل بالمشكلة التى بين يديه . وهذا معناه بوضوح أنه يتوجب عليه أن يكون على معرفة تامة وجيدة بحالة المعرفة فى دائرة المجال الذى تهتم به الدراسات التى يتم بحثها . كذلك فان هذا الامر معناه ، الى حد لا أعتقد أننى أستطيع توضيحه ، أن مثل هذا العمل يتم بأفضل وسيلة ممكنة عندما تكون الدراسات العديدة موضوع البحث مهتمة بمجالات شبيهة بنفس مجال الدراسة . وأخيرا ، فان هذا العمل لا يتم على أكمل وجه عندما يكون التخصص الوحيد

لشخص ما أقل كثيراً من مستوى التخصص المفروض لباحث يكون فى الحقيقة قد حقق القليل اذا كان قد قام بممارسة عمل فعلى ؛ أو يكون، قد شارك فقط بنصيب فى الدراسات التى تمت بأسلوب معين أو آخر .

ونحن عندما نقف فى دراستنا لكى نتأمل فى النظرية والمنهج ، سيكون أكبر عائد يتحقق من هذا هو اعادة صياغة مشاكلنا . وربما كان هذا هو السبب ، من حيث الممارسة العملية ، فى أن كل عالم اجتماع يقوم بالعمل يجب أن يكون هو صاحب المنهج الخاص به وصاحب النظرية الخاصة به هو ، وهو ما يعنى فقط بأنه يجب أن يكون صاحب صنعة فكرية . وبطبيعة الحال ، فان كل صاحب صنعة فكرية يستطيع أن يتعلم شيئا من كل المحاولات الجارية لتقنين المناهج ؛ وان كان هذا غالبا لا يخرج كثيرا عن كونه مجرد نوع من الادراك العام . وهذا هو السبب فى أن «البرامج المقننة» فى مجال الاساليب المنهجية ليست بقادرة على مساعدة عالم الاجتماع على الظهور أو التطور . أما المناهج المفيدة حقا فهى لا يمكن فرضها بهذه الطريقة ، اذا لم تكن بالفعل لها علاقة قوية تماما بمجال العمل الفعلى للدراسة الاجتماعية ؛ واذا لم يسمح للاحساس بأهمية المشكلة والعاطفة نحو حلها — وهو الشىء المفتقد كثيرا فى أيامنا هذه — بأن يلعبا دورهما الكامل فى ذهن عالم الاجتماع الذى يقوم بعمله .

ومن ناحية أخرى ، فان الصياغات الخاصة بالمناهج والمحاورات التى تدور حولها ، وتوضيح النظرية والمزيد من التوضيح — مهما يكن بها من عوامل تنشيط وامتاع — فانها لا تخرج عن كونها مجرد وعود . فالصياغات الخاصة بالمناهج تمنحنا الوعد بارشادنا وهدايتنا الى أفضل السبل لدراسة شىء ما ، بل لدراسة أى شىء فى الحقيقة . كذلك ، فان

استكمال الوضوح والدقة للنظريات ، نسقية وغير نسقية ، هو شيء يحمل وعدا بتنبيهنا الى جوانب التمايز فيما قد نراه ، أو فيما قد نصنعه بما نراه ، عندما نعمل على تفسيره • ومع هذا فلا المنهج ولا النظرية وحدهما يمكن الاخذ بهما كجزء من العمل الفعلي للدراسات الاجتماعية • بل لو شئنا الحقيقة ، فان كليهما غالبا ما يكونان عكس هذا تماما ، أي وكأنه انسحاب لصاحبي الاختصاص من مشكلات علم الاجتماع • والمنهج والنظرية ، كما رأينا ، يرتكزان عادة على شكل ما من أنمـــاط البحث الكبيرة الشاملة التي يحمل عبئها أناس آخرون • أما كون هذا النمط الكبير الشامل لا يملك امكانيات الفائدة الكاملة ، فهو أمر ربما لا تكون له أهمية كبيرة ، حيث أن استخدامه ربما مازال يتم بطريقة طقسية ، انما هو عادة ، كما شرحت من قبل ، ينشأ انطلاقا من فلسفة ما لعلم الطبيعة ، بل الاغلب المعتاد ، أنه ينشأ من بين جميع الاشياء ، من الشروح والتفاسير الفلسفية للعلوم الفيزيقية ، التي قد تكون جاوزت زمنها الى حد ما • وهذه اللعبة الصغيرة ، وغيرها ذات القواعد المماثلة، لن تؤدي الا الى اضطراد العمل بصورة أقل مما قد تؤدى الى ذلك النوع من الجهل العلمي بما يقول عنه «ماكس هوركهايمر» :

« ان التحذير الدائم من النتائج المبتسرة السابقة لأوانها ومن التعميمات المبهمة المشوشة ، يحمل في طياته ، ما لم يتحدد صفاته بشكل ملائم ، امكانية التحريم لكافة أنواع التفكير • فلو أن كل تفكير سيبقى معلق وموقوفا حتى يتم تعـزيزه وتوطيد أركانه تماما ، فلن يكون من الممكن التوصل الى أي مدخل أساسي للعمل ونكون بذلك قد قيدنا أنفسنا فقط بمستوى المظاهر المجردة »[٣] •

ان عالم الاجتماع الشاب ، وكثيرا ما لوحظ هذا ، غالبا ما يكون قابل للفساد ، ولكن أليس من الغريب أن نرى أساتذة علم الاجتماع الاكبر سنا وقد أصابهم القلق والانزعاج أيضا من المظهريات الكاذبة التى يتحلى بها فلاسفة العلم بيننا ؟ لذلك ، فما أعقل وأبلغ تلك العبارة التى تحادث بها أحد رجال الاقتصاد السويسريين مع نظير له من الانجليز وتعطى صورة جيدة للنظرة الكلاسيكية عن مكانة المنهج ، وتفوق فى تنويرها تلك البلاغات الطنانة التى يرددها بعض علماء الاجتماع الامريكيون :

« الكثير من المؤلفين ينطلقون غريزيا يعملون على التغلب على هذه المشاكل بالطريقة الصحيحة . ولكنهم بعد دراستهم للمنهجية يصبحون على وعى بالعثرات والمخاطر الاخرى التى تنتظرهم . والنتيجة هى أنهم يفقدون لمسة الثقة السابقة التى كانت تملأهم ومن ثم يتوهون فى اتجاهات شاردة أو غير مناسبة . ولهذا ، فان المؤلفين من هذا النمط يخشون ويحذرون المنهجية »[44] .

ومن هنا ، فان الشعارات التى يتوجب أن نرفعها هى بالتأكيد :

كل انسان هو منهج ذاته الخاصة !

فيا أصحاب المناهج ! انطلقوا للعمل !

ومع أننا قد لا نأخذ بمثل هذه الشعارات بصيغتها الحرفية تماما ، الا أننا كعلماء اجتماع عاملين فى حاجة للدفاع عن أنفسنا ، ومع التسليم بما عند بعض زملائنا من حماسة غريبة وغير علمية ، فربما قد يكون لنا العذر فيما نأتى به من مبالغات .

(٢)

ان الطابع الخبروى للفهم اليومى الشائع ، هو فهم ملىء بالفروض والانماط المثالية لمجتمع معين أو آخر ، ذلك لأن هذا الفهم هو الذى يقرر ما يتم رؤياه وكيف يمكن تفسيره • وأنت اذا ما حاولت الهرب من هذا الشرط بخبروية مجتزأة فسوف تصل فى نهاية الامر الى مستوى التفاصيل المجهرية أو المستوى التاريخى الفرعى ، ومن ثم سـوف تحاول ببطء جمع التفاصيل المجتزأة التى تتعامل معها • كذلك ، اذا ما حاولت الهرب من خبروية الفهم الشائع تقع أسير نظرية متضخمة، فأنت بذلك ستكون قد أفرغت المفاهيم التى تتعامل بهـا من المصـدر الخبروى الموجود والواضح ، كما أنك اذا لم تكن حريص ، فى ذلك العالم الانتقالى عبر التاريخى الذى تقوم ببنائه ، فسوف تجد نفسك وحيد تماما •

ان المفهوم هو بمثابة فكرة ذات مضمون خبروى • فاذا ما كانت الفكرة أكبر كثيرا من هذا المضمون ، فانك بذلك تنحو تجاه الوقوع فى فخ النظرية المتضخمة ، أما اذا كان المضمون يبتلع الفكرة ، فأنت بذلك تنجو للسقوط فى حفرة الخبروية المجتزأة • والمشكلة العامة الواردة هنا غالبا ما تتم صياغتها على شكل « الحاجة الى مؤشرات » ، وهى بذلك تعتبر فى مقدمة التحديات التقنية البارزة للعمل الفعلى فى مجال علم الاجتماع اليوم • وهذا هو ما يدركه أعضـاء جميـع المدارس المختلفة • وأصحاب الخبروية المجتزأة غالبا ما يحلون مشكلة المؤشرات بالتخلص من دائرة ومعانى الشىء المفروض أنه يحمل هذه المؤشرات • أما النظرية المتضخمة فهى ، بالمثل ، لا تواجه المشكلة بشكل مفيد ، بل هى فقط تعمل على كمال دقة المفهوم فى اطار مفاهيم أخرى مجردة •

.. وما يطلق عليه أصحاب الخبروية المجتزأة اسم «المعطيات» الخبروية هو شيء يمثل رؤية شديدة التجزيء للمؤسسات الاجتماعية اليومية • فهم عادة ما يتعاملون على سبيل المثال ، مع أحد المستويات العمرية لفصيلة جنسية لأحد مؤشرات الدخل فى المدن المتوسطة الحجم• وهذه هى متغيرات أربعة ، تحوى أكثر بكثير مما يعمل أصحاب الخبروية المجتزأة على تضمينه فى أى رؤيا من رؤياهم الخاطفة للعالم • وبالطبع، فان هذه المتغيرات مازالت تحوى متغير آخر : فهؤلاء الناس يعيشون فى الولايات المتحدة • ومع ذلك ، فان هذا «كأحد المعطيات» ، ليس من بين المتغيرات الصغيرة ، الدقيقة ، والجزئية التى تضع العالم الخبروى فى الخبروية المجتزأة • لذا ، فلكى نأخذ بـ «الولايات المتحدة» ، فالامر يتطلب وجود مفهوم للبناء الاجتماعى وكذلك فكرة عن الخبروية تكون أقل تصلبا •

ومعظم العمل الكلاسيكى (وفى هذا الشأن يسمى أحيانا بعمل الرؤية الكبرى الشاملة) يقع ما بين الخبروية المجتزأة والنظرية المتضخمة• ومثل هذا العمل ينطوى أيضا على نوع من التجزيء لما يمكن أن يشاهد فى البيئة اليومية ، وان كان اتجاه هذا التجزيء يكون نحو البناءات الاجتماعية والتاريخية • فهو عمل يتم على مستوى الحقيقة التاريخية — وهو ما يعنى فقط القول أن صياغة المشكلات الكلاسيكية فى علم الاجتماع تكون قد تمت من منطلق البناءات الاجتماعية والتاريخية ، ومن هذا المنطلق تطرح الحلول •

ومثل هذا العمل لا يقل خبروية عن الخبروية المجتزأة : بل وفى الحقيقة ، غالبا ما يكون أكثر من ذلك ، حيث أنه غالبا يكون أقرب الى عالم المقاصد والخبرات فى الحياة اليومية • والمسألة بسيطة تماما :

فنحن نرى ، مثلا ، أن تقرير «فرانز نيومان» عن البناء الاجتماعى النازية ، هو على الاقل بنفس القدر من «الخبروية» و «النسقية» بمثل تقرير «صامويل ستوفر» عن الروح المعنوية لدى الوحدة العسكرية رقم (١٠٠٧٩) ، كذلك تقرير «ماكس فيبر» عن الموظف الصينى أو الدراسة التى قام بها «يوجين ستانلى» عن البلدان المتخلفة أو استقصاءات «بارينجتون مور» عن روسيا السوفيتية ، جميعها لا تقل خبروية عن دراسات «بول لازار شفيلد» حول الرأى العام فى مقاطعة «ايرى» أو فى مدينة «الميرا» الصغيرة .

الاكثر من هذا ، أنه لا يدخل فى نطاق العمل الكلاسيكى ، أن معظم «الافكار» التى تستخدم على مستوى العمل انفرعى من التاريخ وعبر التاريخ ، قد ظهرت . فما هى الفكرة المثمرة بالفعل ، وما هو ذلك المفهوم عن الانسان والمجتمع والعلاقات بينهما ، هل تجسم عن الخبروية المجتزأة أو عن النظرية المتضخمة ؟ انه بقدر ما يتعلق الامر بالافكار ، فان كلتا هاتين المدرستين تعتبران بمثابة طفيليات تعيش بعيدا عن تقليد علم الاجتماع الكلاسيكى .

(٣)

ان مشكلة التحقق الخبروى هى مشكلة تتعلق بـ « كيف يمكن التوغل فى الحقائق» مع عدم الخضوع لسيطرتها ، وكيف يمكن ارساء الافكار على الحقائق دون أن تغرق هذه الافكار . أى أن المشكلة هى أولا «ما هو» الذى نتحقق منه وثانيا «كيف» نتحقق منه .

ولكن فى النظرية المتضخمة ، عملية التحقق هى عملية استدلالية مليئة بالامل ، فلا الشىء الذى يتم التحقق منه ولا الكيفية التى يتم التحقق بها منه ، تعتبر ، حتى آنئذ ، مسألة محددة وقاطعة تماما .

أما في الخبروية المجتزأة ، فالشيء الذي يتم التحقق منه ، لايبدو وكأنه يؤخذ على أنه قضية جدية ، كما أن كيفية التحقق منه فهو أمر يتوفر بصورة آلية تقريبا من المنطلقات التي تطرح بها المشكلة : وتعمل هذه المنطلقات كجهاز تغذية داخل الاجراءات العلائقية وغيرها من الاجراءات الاحصائية . وفي الحقيقة ، فان التعصب فيما هو مطلوب لعملية التحقق هذه غالبا ما يبدو هو مصدر الاهتمام الوحيد ، ومن ثم فهو يؤدي الى تقييد أو حتى الى تقرير المفاهيم المستخدمة ، كما أن تناول المشاكل يتم عن طريق الذين يلتزمون بهذا الاسلوب المحدود الضيق .

وفي المدرسة الكلاسيكية ، ما يتم التحقق منه يعتبر عادة شيئا هاما أو ربما أكثر أهمية من كيفية التحقق منه . فالافكار تكتمل بشكل وثيق الصلة بمجموعة من المشاكل المعروفة ، واختيار الشيء الذي يتم التحقق منه يتقرر وفقا لاحدى القواعد كالقاعدة التالية : حاول أن تتحقق من صحة سمات الفكرة المكتملة والتي تبدو مبشرة بأقصى قدر من الاستنباطات المتعلقة باكتمال الفكرة . وهذه السمات نسميها سمات «محورية» — فاذا كان «الامر» كذلك ، فعندئذ يستتبع هذا ، أن يكون هذا وذاك وتلك كذلك أيضا . أما اذا لم يكن الامر كذلك ، فبالتالي تكون هناك سلسلة أخرى من الاستنباطات . وأحد أسباب هذا الاجراء هو الشعور بالحاجة الى الاقتصاد في العمل : فالتحقق الخبروي ثم الاستدلال ، ثم التوثيق ، ثم تقرير الحقيقة ، كلها خطوات مستهلكة للوقت ، وغالبا ما تكون مجهدة . وبناء على ذلك ، يريد الانسان لمثل هذا العمل أن يحقق أقصى قدر من الاختلاف بالنسبة للافكار والنظريات التي يعمل بها الانسان .

ولا يقوم الباحث الكلاسيكي عادة ببناء تخطيط واحد كبير لدراسة

خبروية كبيرة واحدة • وسياسته فى هذا أن يتيح ويصنع حركة مكوكية مستمرة بين المفاهيم الواسعة وعمليات الكشف التفصيلية • وهو يفعل هذا بوضع تصميم لعمله يجيء مخططه على شكل سلسلة من الدراسات الخبروية على أضيق نطاق (والتى قد تتضمن بالطبـــع عملا تفصيليا واحصائيا) ، كل منها يبدو محوريا بالنسبة لجزء أو آخر من الحل الذى يعمل على التوصل اليه بصورة دقيقة كاملة • ثم وفقا للنتائج التى تسفر عنها هذه الدراسات الخبروية ، اما يتأكد الحل ، أو يتم تعديله، أو نقضه •

ان صدق الاحكام ، والقضايا ، والوقائع الملموسة ، ليست أمرا صعبا بالنسبة للعلماء الكلاسيكيين ومن على شاكلتهم ، كما هو الحال بالنسبة للباحثين الذين يهتمون بالقضايا الجزئية الصغيرة • فالباحث الكلاسيكى يتحقق من صحة حكم ما بقيـــامه بعملية كشف واستظهار تفصيلية للمواد الخبروية المتعلقة بالحكم • وبطبيعة الحال ، وأنا هنا أكرر ، نحن اذا ما شعرنا بالحاجة الى اختيار ومعالجة مفاهيمنا من حيث صلتها بمشاكلنا بهذه الوسيلة ، فنحن غالبا قد تكون قادرين على انجاز عملية الكشف التفصيلية بالشكل الجزئى والاكثر دقة للبحث الاحصائى• أما بالنسبة للمشاكل والمفاهيم الاخرى ، فسوف تكون عملية التحقـــق التى نقوم بها أشبه بتلك التى يستخدمها المؤرخ ، أى ينقص الامريكيون مشكلة البحث عن دليل وبرهان • وبالطبع ، على الرغم من أنه شيء صحيح أننا لا نكون متأكدين من شيء أبدا ، والحقيقة هى أننا نقوم بـ «التخمين» ، الا أنه ليس صحيح أن كل عمليات التخمين تتـــاح أمامها فرصة متساوية فى أن تكون صحيحة • وهنا ، قد يقال أن علم الاجتماع الكلاسيكى هو ، من بين أشياء أخرى ، محاولة لتحســين الفرص فى أن تكون تخميناتنا حول الامور الهامة هى تخمينات قـــد تكون صحيحة •

وتنطوى عملية التحقق على محاولة اقناع الآخرين ، وكذلك أنفسنا بطريقة عقلانية . ولكن لكى يتم هذا ، ينبغى علينا أن نتبع القواعد المستقر عليها ، وقبلها تلك القاعدة التى تنص على أن العمل يجب أن يطرح بطريقة مفتوحة فى كل خطوة من خطواته لكى يفحصه ويراجعه الآخرون . وليس هناك سبيل واحد للقيام بهذا ، بل ان الامر يتطلب ابداء الحرص والاهتمام بالتفاصيل ، واكتساب عادة الوضوح ، والتمعن فى الحقائق المزعومة بطريقة متشككة ، واستقصاء دائب ولا يكل حول معانيها ومقاصدها الممكنة ، ومدى استنادها على حقائق ومفاهيم أخرى . فالامر يتطلب استخدام النظـم والانساق . أى أن الامر يتطلب ، باختصار ، الممارسة والتطبيق الحازم والثابت للاسلوب الاخلاقى فى أدب العلم والمعرفة . فاذا لم يكن هذا موجود ، فلا أى أسلوب أو منهج سوف يفيد بعد ذلك .

(٤)

ان كل أساليب العمل فى الدراسات الاجتماعية ، وكل اختيار لأنواع الدراسات والمناهج المستخدمة فى دراستها ، يعنى ضمنا وجود «نظرية للتقدم العلمى» . وكما أعتقد ، فان كل شخص يوافق على أن التقدم العلمى هو عملية تراكمية : أى أنها ليست من خلق انسان واحد بل هى محصلة عمل العديد من الناس الذين يقومون بالمراجعة والتنقيح والنقد ، الذين يضيفون الى ، ويطرحون من ، جهود بعضهم البعض . وبالنسبة للعمل الذى يقوم به الانسان بنفسه ، فلابد أن ينسبه الى ما تم انجازه من قبل والى أى عمل آخر يكون فى سبيله للظهور . وهو أمر مطلوب لكى تكتمل عمليـة الاتصـال ، ومطلوب لتحقيـق جانب «الموضوعية» . اذن لابد للمرء من أن يوضح العمل الذى قام به بطريقة تتيح للآخرين امكانية الضبط والمراجعة .

والسياسة التى يتبعها أصحاب الخبروية المجترأة لتحقيق التقدم ، هى سياسة شديدة التحديد وباعثة على الامل تماما ، وهى سياسة تقول: دعنا نجمع الكثير من الدراسات التفصيلية الصغيرة ، ببطء ودقة شديدة، متمثلين فى هذا النمل الذى ينكب على جمع الفتات الصغير وجمعه فى كوم كبير ، فنحن سوف «نبنى العلم» •

أما السياسة التى يتبعها أصحاب النظرية المتضخمة فتبدو وكأنها تقول : فى مكان ما وفى يوم ما ، سوف يتحقق لنا الاحتكاك بصورة حية بالمواد الخبروية ، وعندما يأتى ذلك اليوم ، فاننا ستكون مستعدون لمعالجة هذه المواد بطريقة «نسقية» ، وعندئذ سوف تعرف ما الذى يعنيه جعل النظرية النسقية أمر متاح بصورة منطقية أمام السبيل العلمى الخاص بالتحقق الخبروى •

أما نظرية التقدم العلمى التى يعتنقها أولئك الذين قد يتجاوزون ما يبشر به علم الاجتماع الكلاسيكى ، فهى نظرية لا تسمح لهم بالافتراض بأن سلسلة الدراسات المفصلة الدقيقة سوف تتراكم وتتجمع بالضرورة وتصبح علم اجتماع «كامل النمو تماما» • وهؤلاء لا تحدوهم الرغبة للافتراض بأن مثل هذه المواد تصبح بالضرورة ذات فائدة محققة لأى أغراض أخرى خلاف أغراضهم الراهنة • أى أنهم ، باختصار ، لا يقبلون بتنمية علم الاجتماع وفقا لنظرية كتلة البناء • كما أنهم لا يفكرون فى أنه من مثل هذا العمل سوف ينهض «نيوتن» أو «داروين» ليتولى جمعه كله معا ، ولا هم يفكرون فى أن ما فعله «داروين» أو «نيوتن» هو — تجميع — هذه الحقائق الصغيرة الدقيقة كما فعل علم اجتماع الوحدات الصغرى اليوم • بجانب هذا ، لا يرغب الباحث الكلاسيكى هو الآخر ، كما فعل أصحاب النظرية المتضخمة ، فى الافتراض بأن التروى والفطنة فى تدقيق وتوضيح المفاهيم سوف

يصبح في الوقت المناسب أمرا مناسبا بدرجة ما للمواد الخبروية وبصورة نسقية • وهم كما يعتقدون ، بأنه لا يوجد سبب للاعتقاد بأن اكتمال دقة المفاهيم لن يزيد أبدا عما هو عليه الآن •

اذن ، فعلم الاجتماع الكلاسيكى بايجاز ، لا هو «يبنى» على أساس الدراسة التفصيلية الصغيرة ولا هو «يستخرج» شيئا من المفاهيم بعد إكتمال دقتها • ويحاول الباحثون لعلم الاجتماع الكلاسيكى القيام بعملية البناء وعملية الاستنباط فى نفس الوقت ، وفى عملية الدراسة نفسها ، وهم يقومون بذلك بصياغة واعادة صياغة المشاكل وحلولها المناسبة بطريقة ملائمة • ولكى يمكن ممارسة مثل هذه السياسة ، معناه الاخذ بمشاكل لها كيانها المحدد على المستوى التاريخى للواقع ، وطرح هذه المشاكل فى حدود تتناسب معها ، ثم بعد ذلك لا يهم الى أى آفاق تنطلق النظرية ، ولا يهم أى عناء يتم فى التنقيب بين التفاصيل . بعد اكتمال كل جزء من الدراسة ، عند صياغة الحل فى حدود التفاصيل الدقيقة للمشكلة • اذن ، فبؤرة الاهتمام الكلاسيكى ، باختصار ، تنصب على المشاكل ذات الكيان المحدد • ومن سمات هذه المشاكل أنها تضيق نطاق الدراسة ، وتطرح المناهج والمفاهيم المستخدمة وكيفية استخدامها • وما يدور من جدل حول الآراء المختلفة فيما يتعلق بـ «المنهجية» و «النظرية» ربما كان يجرى وهو على صلة وثيقة ومستمرة بتلك المشاكل ذات الكيان المحدد •

(٥)

سواء كان الانسان يعرف أو لا يعرف ، فان ترتيب المشاكل عنده — كيف يحددها والاولوية التى يضفيها على كل منها — يرتكز على مناهج ، ونظريات ، وقيم •

ومع ذلك ، وهذا أمر لابد من الاعتراف به ، فان بعض العاملين في مجال علم الاجتماع لا يملكون أى اجابات جاهزة على مسألة ترتيب المشاكل التي يواجهونها ، فهم لا يشعرون بالحاجة الى مثل هذه الاجابات . ذلك لأنهم ، في الحقيقة لا يستقرون على المشاكل التى يعملون عليها . البعض منهم يسمح للمتاعب العاجلة التى يعانى منها الناس العاديون في محيط حياتهم اليومية أن تقرر المشاكل التى يعالجونها ، والبعض الآخر يقبل بالقضايا التى تحددها السلطات ومصالحها ، بصورة رسمية أو غير رسمية كمسار لتوجهاتهم . وحول هذا ، نجد أن زملائنا في أوربا الشرقية وروسيا يعرفون أكثر بكثير مما نعرف نحن ، ذلك لأن معظمنا لم يعش في ظل تنظيمات سياسية تفرض ضبطها الرسمى على المجال الفكرى والثقافى ، ومثل هذه الظاهرة لا توجد اطلاقا في الغرب ، وبصفة خاصة في أمريكا . فسوف نرى أن التوجه السياسى ، بل وبصفة خاصة التجارى ، للمشاكل عند علماء الاجتماع يتحقق وفقا لارادتهم ، بل وبالتنسيق الذاتى بينهم .

وعند أصحاب الممارسة الليبرالية من علماء الاجتماع القدامى ، كانت المشاكل تتحدد كثيرا في نطاق مستواهم هم ، كما لم تكن تتم تنقية القيم التى يجرى فحص مشاكلهم وفقا لها ، ولم يكن يتم أيضا معالجة أو مواجهة الظروف البنائية التى ترصد المشاكل في ظلها . وبذلك كان العمل يرتبك ويعوقه عدم استيعاب الحقائق وهضمها ، فلم تكن لدى الدارسين الاساليب الفكرية التى تجعلهم يتمثلون هذه الحقائق وينظمونها ، وقد أدى هذا الى خلق فكرة التعددية الرومانسية للاسباب . وعلى أية حال ، فان القيم ، التى كان يأخذ بها علماء الاجتماع العمليون الليبراليون قد اندمجت الآن والى حد كبير في الليبرالية الادارية لدولة الرخاء والرفاهية .

وفى علم الاجتماع البيروقراطى — وأكثر أدواته المناسبة هى الخبروية المجتزأة ونظريته المتضخمة هى افتقاد النظرية — كان مسعى علم الاجتماع برمته قد انحصر نطاقه على خدمة السلطات السائدة . ولهذا ، فلا الاسلوب الليبرالى القديم ولا علم الاجتماع البيروقراطى يتناولان القضايا العامة والمشاكل الخاصة بشكل يتيح اندماج الاثنين فى مشاكل علم الاجتماع . كما أن الصبغة الفكرية والاستخدامات السياسية لهاتين المدرستين (ولهذا السبب أيضا بالنسبة لأى مدرسة أخرى فى علم الاجتماع) لا يمكن فصلهما : فهذه الاستخدامات السياسية والصيغة الفكرية (وتنظيمها الاكاديمى) هى التى أدت الى ذلك الوضع الذى يشغلانه فى علم الاجتماع المعاصر .

أما فى التقليد الكلاسيكى لعلم الاجتماع ، فتأتى صياغة المشاكل بشكل يجعل بيانها ذاته يحوى عدد من الاوساط البيئية المحددة والمتاعب الخاصة التى يواجهها مختلف الافراد هناك . وهذه الاوساط بدورها ، تتحدد مواقعها وفقا لبناءات تاريخية واجتماعية أكثر اتساعا .

وأى مشكلة لا يمكن صياغتها بشكل ملائم وكاف ما لم توضح القيم المتضمنة وما يواجهها من تهديد ظاهر . هذه القيم وما تتعرض له من تهديد هى التى تشكل حدود ومنطلقات المشكلة ذاتها . وكما أعتقد ، فان القيم التى كانت تمثل الخيط الذى سار عليه التحليل الاجتماعى الكلاسيكى ، هما الحرية والعقل ، أما القوى التى تتهددهما اليوم فهى تبدو متحدة فى انتشارها مع التيارات الرئيسية الموجودة فى المجتمع المعاصر ، هذا اذا لم تكن تشكل السمات المميزة للفترة المعاصرة . وتشترك المشاكل البارزة فى الدراسات الاجتماعية اليوم جميعا فى هذه السمات ، حيث أنها تهتم بالظروف والاتجاهات التى

تعرض هاتين القيمتين للخطر وبالعواقب المترتبة على هذا الخطر بالنسبة لطبيعة الانسان وبالنسبة لصنع التاريخ •

ومع هذا ، فان اهتمامى هنا بأى نوع معين من المشاكل لا يرقى الى اهتمامى بحاجة علماء الاجتماع الى التأمل فى المشاكل الفعلية التى يتبنونها فى الحقيقة فى عملهم وخططهم • وهم بمثل هذا التأمل فقط يمكنهم تقدير المشاكل التى يواجهونها والبدائل الممكنة لها ، بوضوح وحرص ، وأيضا بهذه الوسيلة فقط يمكنهم التقدم فى العمل بموضوعية• والموضوعية فى مجال علم الاجتماع ، هى شىء يتطلب استمرار بذل المحاولة لكى يكون الانسان مدرك بوضوح لكل ما يتضمنه وينطوى عليه مشروع البحث ، ويتطلب عملية تبديل وتغيير نقدية واسعة لمثل هذه المحاولات ، اذ أن التمسك بالنماذج الجامدة للمنهج العلمى والدعاوى المظهرية الكاذبة حول مشاكل علم الاجتماع ليس هو بالوسيلة التى تمكن علماء الاجتماع من الامل فى تطوير نظمهم بشكل تراكمى مثمر •

اذن ، فصياغة المشاكل ، هى عملية ينبغى أن تشمل الاهتمام الواضح بطائفة من القضايا العامة والمتاعب الشخصية ، كما ينبغى أن تكون مفتوحة أمام البحث والاستقصاء عن الروابط السببية بين الوسط البيئى والبناء الاجتماعى • ونحن عند صياغتنا للمشاكل ، يجب علينا أن نبين بوضوح القيم المعرضة للتهديد بالمشاكل والقضايا المتضمنة ، فنبين من ذا الذى يقبلها كقيم ، ومن أو ماذا هو الذى يواجهها بالتهديد • ومثل هذه الصياغات كثيرا ما تتعقد بدرجة بالغة من جراء الحقيقة بأنه قد وجد أن القيم المهددة بالخطر ليست هى دائما بتلك القيم التى يؤمن الافراد والناس بأنها معرضة للخطر ، أو على الاقل ليست هى بالقيم الوحيدة المهددة بذلك الخطر • وبناء على ذلك ، فانه سوف

يتوجب علينا أيضا أن نتوجه بأسئلة مثل هذه : ما هى تلك القيـــم التى يؤمن الفاعلين بأنها مهددة بالخطر ؟ ومن هو الشخص أو ما هو الشيء الذى يعتقدون بأنه يمثل هذا الخطر ؟ وهل هؤلاء الفاعلين يدركون تماما ماهية القيم الواردة حقيقة ، وهل هم سينزعجون لتهددها بالخطر ؟ هنا سوف يكون من الضرورى تماما أن نأخذ هذه القيم والمشاعر ، والحجج والمخاوف فى اعتبارنا عندما نقوم بصياغة المشاكل ، ذلك لأن مثل هذه المعتقدات والتوقعات ، مهما قد تكون غير ملائمة ، هى ذاتها مكمن القضايا والمتاعب . الاكثر من هذا ، أن حل أى مشكلة ، اذا كان هناك حل ، يجب أن يخضع للاختبار جزئيا بمدى فائدته فى تقيبـــير المتاعب والقضايا كما تمارس فى مجال التجربة .

أما بالنسبة لـــ «المشكلة الاساسية» والاجابة عليها ، فهى عادة ما تتطلب الاهتمام بكل من حالة القلق الناشئة من «عمق» سيرة حياة الانسان ، وحالة عدم الاكتراث الناجمة عن البناء ذاته الخاص بالمجتمع التاريخى . ونحن باختيارنا وعرضنا للمشاكل ، ينبغى علينا أولا أن نترجم حالة عدم الاكتراث الى قضايا ، والقلق الى مشكلة ، ثم ثانيا ، يجب علينا أن ندخل كل من المشاكل والقضايا فى طرحنا لمشكلتنا . وفى كلتا المرحلتين علينا أن نوضح بطريقة بسيطة ودقيقة بقدر ما نستطيع ، القيم والتهديدات العديدة الواردة ونسبتها الى مصدرها .

وبالتالى ، فان أى «اجابة» مناسبة على احدى المشاكل ، بدورها، سوف تشتمل على رؤية استراتيجية لأسلوب التدخل ــ أى «الدعامات» التى يمكن بها الحفاظ على البناء أو تغييره ، والتقييم لمن هم فى وضع يمكنهم من التدخل ولكنهم لا يفعلون ذلك . ورغم أنه مازال هنـــاك الشىء الكثير ــ الكثير جدا ــ الذى يدخل فى نطاق صياغة المشاكل ، الا أننى قد أردت الاكتفاء هنا بعرض لاطار واحد فى هذا المجال .

المراجـــــــع

(١) قارن ، الفصل الثالث ، الجزء الاول •

(٢) قارن ، على سبيل المثال ، أســلوبين للبحث فى الدراســات الاجتماعية الراهنة ، فلسفة العلم ، المجلد ٢٠ ، العــدد ٤ ، اكتوبر ١٩٥٣ ، ص ٢٦٦ : ٢٧٥ •

(٣) انظر : «هاولى كانتريل Hadley Cantril » ، التوترات المتسببة فى الحروب ، أوريانا ، الينوى ، جامعــة الينوى ، ١٩٥٠ ، ص ٢٩٧ •

(٤) انظر : « جور وسينجر Johr & Singer » ، دور الرجل الاقتصادى كمستشار رسمى » ، Allenx Unwin ١٩٥٥ ، ص ٣ : ٤ • ويمثل هذا الكتاب ، نمطا للطريقة المناسبة فى كيفية الدخول فى مناقشات حول المنهج فى علم الاجتماع • وجدير بالذكر أنه قد كتب انطلاقا من نوع من الحوار بين اثنين من أصحاب الصنعة المتمرسين •

الفصل السابع

التنوع الانساني

سمارة : ا جتماع دين

الفصل التاسع

التنـوع الانسـانى

بعد أن استفضت طويلا فى نقد الاتجاهات العديدة السائدة فى علم الاجتماع، أريد الآن أن أتحول الى القاء نظرة على الافكار ـــ الاكثر ايجابية ـــ بل والمبرمجة ـــ فى علم الاجتماع • وقد يكون علم الاجتماع مشوشا ومضطربا ، لكن هذا التشوش ينبغى استغلاله بدلا من التباكى عليه • قد يكون علم الاجتماع مريضا ، لكن هذه الحقيقة ، من الممكن بل ويجب أن تؤخذ باعتبارها دعوة للقيام بعملية التشخيص للمرض ، وربما يجب أخذها حتى باعتبارها علامة على الشفاء القادم •

(١)

أن ما يتناوله علم الاجتماع ويدور حوله هو التنوع الانسانى ، ذلك الذى يشتمل على كافة العوالم الاجتماعية التى عاش ، ويعيش ، وقد يعيش فيها البشر • وتتضمن هذه العوالم ليس فقط المجتمعـات البدائية ، وبقدر ما نعرف ، قد تغيرت قليلا على مدى ألف عام ، ولكنها تتضمن أيضا الدول الكبرى التى ظهرت فجأة ، كما حدث ، على سطح الوجود بصورة عنيفة • وفى هذا الشأن ، هناك الامبراطورية البيزنطية والاوربيـة ، وامبراطوريتى الصـين وروما القديمتـين ، ومدينـة لوس انجلوس ، وامبراطورية بيرو القديمة ـــ جميعها عوالم اجتماعية قد عرفها الناس وهى الآن قابعة تحت أنظارنا للتمحص والبحث الدقيق فيهـا •

وداخل هذه العوالم الاجتماعية ، نجد المستوطنات عبر البـلاد المفتوحة ، وجماعات الضغط ، وعصـابات الاولاد الجانحين ، ورجال البترول ، سنجد القوات الجوية وقد دمرت وأزالت العواصم التى تمتد مساحتها مئات الاميال ، سنجد رجال البوليس وهم يقفون عند نواصى الطرق ، سنجد حلقات الاصدقاء وهم جالسون يتحدثون فى حجرة ، سنجد المنظمات الكبرى للجريمة ، سنجد الحشود من الناس ذات ليلة وقد غصت بهم مفارق الطرق والميادين فى المدن فى جميع أرجاء العالم ، سنجد تجارة الاطفال والرقيق عند العرب ، والاحزاب فى ألمانيـا ، والطبقات فى بولندا ، ومدارس أصـدقاء البروتستانت ، واستنزاف العقول فى التبت ، وشبكات الراديو وقد وصلت باذاعاتها حول العالم . هناك أيضا الجماعات العرقية والتفرقة العنصرية ، هناك عمليات الزواج السعيد ومشاعر الكراهية أيضا وكلها تسير بصورة نسقية ، هناك مئات الآلاف من المهن والوظائف التى تحتل مناصبها فى دوائر الاعمـال والصناعات ، وفى الحكومات والمحليات . هناك الملايين من الصفقات التى يتم التعامل فيها كل يوم ، وفى كل مكان ، سنجد المزيد من «الجماعات الصغيرة» التى لا يستطيع أى انسان أن يعدها أو يحصيها .

ويتضمن هذا النوع الانسانى تنوعا أيضا فى الافراد من البشر الذين ينبغى على الخيال العلمى الاجتماعى أيضا أن يستوعبهم ويفهمهم. وفى اطار هذا الخيال العلمى الاجتماعى يقف الهندى من طائفة البراهما عام ١٨٥٠ جنبا الى جنب مع أحد رواد الزراعة فى ولاية الينوى ، وأحد السادة الانجليز من أهل القرن التاسع عشر جنبا الى جنب مع أحد سكان استراليا الاصليين ، بجانب أحد الفلاحين الصينيين منذ مائة عام مضت ، بجانب أحد سياسى بوليفيا اليوم ، وفارس اقطاعى من فرنسا ، وامرأة انجليزية مضربة عن الطعام عام ١٩١٤ تناضل لنيل حقوقها

الاجتماعية والسياسية مثل الرجل ، ونجمة من هوليوود ، وأحد نبلاء روما . اذن ، فلكى نكتب عن «الانسان» معناه أن نكتب عن كافة هؤلاء الرجال والنساء — بدءا من جوته الى تلك الفتاة التى تسكن فى البيت المجـــاور .

*

ومن هنا ، فان عالم الاجتماع يسعى الى فهم التنوع الانسانى بصورة منظمة ، وان كان عليه أن يقدر مجال وعمق هذا التنوع ، بل وقد يتساءل أيضا : هل هذا ممكن حقا ؟ أليس ما تعانى منه العـلوم الاجتماعية من تشويش واضطراب هو انعكاس حتمى لما يحاول الباحثون فيها دراسته ؟ واجابتى على هذا هى أن عملية التنوع قد لا تكون مثل ما يبدو من «سوء النظام» عند مجرد حصر جزء صغير من هذا التنوع ، بل ربما قد لا يكون بمثل ذلك التشويش الذى تجعله مقررات الدراسة فى الكليات والجامعات تبدو كذلك . اذن ، فالنظام واختلال النظـام هو أمر نسبى بالنسبة لوجهة النظر : فالتوصل الى فهم منظم للبشر والمجتمعات مسألة تتطلب وجود مجموعة من وجهات النظر التى تتميز بالبساطة بما يكفى لجعل عملية الفهـم أمرا ممكنا ، وفى ذات الوقت شاملة بما يكفى للسماح لنا بأن ندخل فى وجهات نظرنا ذلك المجـال والعمق للتنوع الانسانى . والنضال فى سبيل مثل وجهات النظر هذه يعد هو النضال الاول والمستمر لعلم الاجتماع .

وبطبيعة الحال ، فان وجهة النظر أيا كانت ترتكز على مجموعة من التساؤلات ، كما أن التساؤلات الكلية التى تتناولها العلوم الاجتماعية (والتى طرحتها فى الفصل الاول) سرعان ما تجوب الذهن المتمكن من المفهوم الموجه لعلم الاجتماع كالدراسة الخاصـة بسـيرة الانسان ، وبالتاريخ ، وبالمشاكل الخاصة بتقاطعهما داخل البناء الاجتماعى . ولكنى

تتم دراسة هذه المشاكل ، وادراك التنوع الانسانى ، هو أمر يتطلب أن يكون عملنا متصل بصورة مستمرة ووثيقة بمستوى الواقع التاريخى ــ وبما يحمله هذا الواقع من معان للافراد من الرجال والنساء • فهدفنا هو تحديد هذا الواقع وتعريفه والكشف بوضوح عن هذه المعانى ، حيث أنه فى نطاق هذا تتم صياغة المشكلات الخاصة بعلم الاجتماع الكلاسيكى، وهكذا تتم مواجهة القضايا والمتاعب التى تضمها هذه المشكلات • اذن الامر يتطلب أن نسعى للوصول الى فهم مقارن كامل للبناءات الاجتماعية التى ظهرت والموجودة الآن فى تاريخ العالم • الامر يتطلب القيام باختيار وسط صغير الحجم لتتم دراسته من منطلق البناءات التاريخية الاوسع نطاقا • والامر يتطلب منا أن نتجنب التخصص المتعسف الذى تتميز به الاقسام الاكاديمية ، وأن نتنوع فى خصوصية عملنا وفقـا للموضوع وقبل كل شىء وفقا للمشكلة ، واننا فى قيامنا بهذا نتوسـم المنظورات والافكار ، والمواد والمناهج ، فى أى من ، بل وفى كافة الدراسات المناسبة عن الانسان كفاعل تاريخى •

ومن الناحية التاريخية ، فاننا نجد أن علماء الاجتماع قد اهتموا اهتماما بالغا بالانظمة السياسية والاقتصـادية ، وان كانت الانظمة العسكرية والقرابية ، والدينية والتعليمية قد حظيت أيضا هى الاخرى بالكثير من الدراسة • ورغم أن هـذا التصـنيف المبنى على الوظائف الموضوعية التى تؤديها الانظمة بصفة عامة هو تصنيف مبسط بصورة خادعة ، الا أنه مازال يؤدى الغرض منه • ونحن اذا ما فهمنا كيف ترتبط هذه الانظمة بعضها ببعض ، فاننا سوف نتمكن من فهم البناء الاجتماعى لمجتمع ما ، ذلك لأن «البناء الاجتماعى» ، كمـا يستخدم المفهوم بشكل شائع ، يدل على الآتى تماما ــ على توافق وتوحد الانظمة

التى تم تصنيفها وفقا للوظائف التى يؤديها كل منها . وبهذا يكون البناء الاجتماعى هو أكثر الوحدات التى يتعامل معها علماء الاجتماع شمولا. وبناء على هذا ، يكون الهدف العريض عند علماء الاجتماع هو فهم كل جانب من جوانب التنوع فى البناء الاجتماعى ، فى مكوناته وعناصره وفى شموليته . حتى تعبير «البناء الاجتماعى» ذاته ، تختلف التعريفات له تماما ، كما تستخدم تعبيرات أخرى لنفس المفهوم ، ومع هذا ، نحن اذا ما احتفظنا فى ذهننا بالفارق بين البناء الاجتماعى والوسط الاجتماعى ، بجانب المفهوم الخاص بالنظام ، فلن يخفق أحدا فى ادراك فكرة البناء الاجتماعى عندما يأتى لها .

(٢)

فى عصرنا هذا ، يتم تنظيم البناءات الاجتماعية فى ظل الدولة السياسية . ومن حيث منطلق القوة ، وغيرها من المنطلقات الهامة الكثيرة ، تعتبر أكثر الوحدات شمولا فى البناء الاجتماعى هى الدولة ـــ الامة . والدولة ـــ الامة هى الشكل السائد فى تاريخ العالم ، وهى بهذا الشكل ، تعتبر حقيقة هامة فى حياة كل انسان . فقد قامت هذه الدولة ـــ الامة بتقسيم وتنظيم «الحضارات» والقارات فى العالم بدرجات وأساليب متفاوتة . لذلك ، فان مدى انتشارها ومراحل تطورها هى بمثابة مفاتيح رئيسية للتاريخ الحديث ولتاريخ العالم الآن . وفى نطاق الدولة ـــ الامة أصبحت وسائل للقرار والقوة ذات الصفات السياسية والعسكرية والثقافية والاقتصادية وقد باتت منظمة الآن ، فجميع المؤسسات والاوساط الاجتماعية المحددة التى يعيش فيها معظم الناس حياتهم العامة والخاصة قد باتت منظمة الآن فى واحدة أو أخرى من الدولة ـــ الامة .

وبطبيعة الحال ، فان علماء الاجتماع لا يكتفون دائما بدراسة البناءات الاجتماعيـــة الوطنيـــة فقط ، لكن النقطة الاساسية هى أن الدولة ـ الامة تمثل الاطار الذى يشعرون فى معظم الاحوال بالحاجة الى صياغة مشاكل الوحدات الاصغر والاكبر فى حدوده • أما «الوحدات» الاخرى فهى سرعان ما تفهم على أساس أنها «قبل ـ قومية» ـ أو «بعد ـ قومية» ، ذلك لأن الوحدات القومية بالطبع قد تكون «منتمية» لاحدى «الحضارات» ، وهو ما يعنى عادة أن أنظمتها الدينية هى أنظمة من واحدة أو أخرى من «الاديان العالمية» • ومثل هذه الحقائق من الحضارة ، بجانب أخرى غيرها كثيرة ، قد توحى لنا بسبل المقـــارنة بين مختلف أنواع الدول ـ الامة فى يومنا الحاضر • لكن مع قيـــام كتاب مثل « أرنولد توينبى» باستخدامها ، نجد أن «الحضارات» كما يبدو لى ، ممتدة وغير دقيقة بأكثر من اللازم لكى تكون هى الوحدات الاساسية ، أى «ميادين الدراسة الظاهرة» ، فى العلوم الاجتماعية •

ونحن فى اختيارنا للبناء الاجتماعى الوطنى كوحدة نوعية للعمل ، نكون بذلك قد أخذنا بمستوى مناسب للقيام بعملية التعميم : فهى وحدة تمكننا من تجنب اهمال المشاكل التى تواجهنا وفى الوقت نفسه من ادخال القوى البنائية المتضمنة بصورة واضحة فى كثير من تفاصيل ومتاعب السلوك البشرى اليوم • بالاضافة لهـــذا ، فان اختيـــارنا للبنـــاءات الاجتماعية الوطنية يمكننا أيضا بصورة سريعة دن تنـــاول القضـــايا الرئيسية ذات الاهتمام العام ، ذلك لأن الوسائل الفاعلة للقوة داخل وفيما بين الدول ـ الامة فى العالم ، ومن ثم والى حد كبير تلك الوسائل الفاعلة فى صنع التاريخ ، قد باتت الآن شديدة التنظيم ، سواء كان ذلك للافضل أو للاسوأ •

وصحيح طبعا أن الدول ـ الامة ليست كلها تتساوى فى قدرتها على صنع التاريخ • فالبعض منها من الضآلة والتبعية لغيرها حتى أن ما يحدث داخلها لا يمكن فهمه الا فقط بدراسة دول القوة العظمى • وان كان هذا هو مجرد مشكلة أخرى فى مجال التوصيف المفيد للوحدات التى نقوم بدراستها ـ الامم ـ وفى مجال ضرورة الدراسة المقارنة لها • ومن الصحيح أيضا أن جميع الدول ـ الامة تتفاعل مع بعضها ، بل وبعض التجمعات منها تتبع من سياقات مثيلة لها فى التقليد ، وان كان هذا صحيح بالنسبة لأى وحدة ذات حجم معين قد نختارها للدراسة الاجتماعية • الاكثر من هذا ، وخصوصا منذ الحرب العالمية الاولى ، أن كل دولة ـ أمة ذات مقدرة قد صارت مكتفية بذاتها بصفة متزايدة •

ومعظم رجال الاقتصاد وعلماء السياسة يعتبرون أن الامر واضح فى أن وحدتهم الاساسية هى الدولة ـ الامة ، حتى عندما يكون اهتمامهم منصب على «الاقتصاد العالمى» و «العلاقات الدولية» ، فهم لابد وأن يعملوا فى حدود وثيقة الصلة بدول ـ أمة مختلفة ومحددة • أما بالنسبة للانثروبولوجيين ، فان الوضع والممارسة المستمرة بالنسبة لهم هى دراسة «الكل» الخاص بالمجتمع أو بالثقافة ، ثم بقدر دراستهم للمجتمعات الحديثة ، يكون استعدادهم بدرجات متفاوتة من النجاح ، لفهم الامم ككيانات كلية • لكن علماء الاجتماع ـ وبدقة أكثر ، الباحثون التقنيون ـ الذين يفتقرون الى التمكن التام من مفاهيم البناء الاجتماعى ، كثيرا ما يعتبرون الامم ككيان ضخم الحجم أمر مشكوك فيه • ومن الواضح أن هذا الاعتبار راجع الى نوع من التحيز لصالح «جمع البيانات» الذى يمكن أن يكون أقل عبئا وتكلفة فى مجال الوحدات

الصغيرة الحجم فقط . وهذا الامر معناه بالطبع أن اختيارهم الوحدات لا يتم وفقا لما هو مطلوب بالنسبة للمشاكل التى وقع اختيارهم عليها أيا كانت ، بل يتقرر اختيارهم لكل من المشكلة والوحدة وفقا لاختيارهم للمنهج .

وكتابنا هذا فى مجمله ، بشكل ما ، هو بمثابة حجة ضد هــذا التحيز . وأنا أعتقد أنه عندما يتأتى لمعظم علماء الاجتماع أن يعكفوا بجدية على بحث احدى المشاكل الهامة ، فانهم يجدون من الصــعب تماما وضع صياغة لها فى نطاق وحدة أخرى أصغر من وحدة الدولة ــ الامة . وهذا صحيح بالنسبة لدراسة التدرج الطبقى ، والسياســة الاقتصادية ، وبالنسبة للرأى العام وطبيعة القوة السياسية ، وبالنسبة للعمل واللهو ، حتى بالنسبة للمشاكل الخاصة بالحكم الادارى المحلى ، فهى لا يمكن صياغتها بصورة كافية وملائمة دون الرجوع تماما لاطارها الوطنى . اذن فوحدة الدولة ــ الامة بهذا الشكل تطرح نفسها مــع قدر كبير من الدليل الخبروى المتاح لأى انسان متمرس فى العمل على مشاكل علم الاجتماع .

(٣)

ان فكرة البناء الاجتماعى ، مع المنازعة فى أنها تمثل الوحــدة النوعية لعلم الاجتماع ، هى فكرة مرتبطة من الناحية التاريخية بصورة وثيقة بعلم الاجتماع ، كما أن علماء الاجتمــاع كانوا هم المنــادين التقليديين بها . لقد كان مركز الاهتمام التقليدى فى كل من علم الاجتماع والانثروبولوجيا هــو دائمــا المجتمــع الشــامل ، أو كمــا يســميه الانثروبولوجيين ، «الثقافة» . فما يعتبر «علم اجتماع» بالتحديد فى دراسة أى سمة معينة للمجتمع الشامل ، هو بمثابة للجهد المستمر لرد

هذه السمة لسمات أخرى غيرها ، وذلك حتى يمكن الحصول على مفهوم للكل . والخيال العلمى الاجتماعى ، كما ذكرت ، فى جانب كبير منه هو نتيجة للتمرس فى هذا النوع من الجهد . ومع هذا ، ففى أيامنا هذه ، مثل هذه النظرة وهذه الممارسة ليست قاصرة اطلاقا على علماء الاجتماع والانثروبولوجيا فقط . فما كان ذات يوم يمثل وعدا فى هذين العلمين قد أصبح يمثل على الاقل ممارسة متعثرة ، بل ونوايا أيضا ، فى مجال العلوم الاجتماعية عموما .

أما الانثروبولوجيا الثقافية ، فى تقليدها الكلاسيكى وفى تطوراتها الراهنة ، فلا تبدو لى متمايزة عن الدراسة فى علم الاجتماع بأى صورة جوهرية . فذات يوم ، عندما كان هناك القليل أو لا توجد عمليات مسحية للمجتمعات المعاصرة ، كان على الانثروبولوجيين أن يعملوا على جمع المواد حول الشعوب قبل ـ المتعلمة فى أماكن فى غير محلها . أما العلوم الاجتماعية الاخرى ـ وبصفة خاصة التاريخ ، والديموجرافيا ، وعلم السياسة ـ فقد اعتمدت منذ بدايتها على المواد الوثائقية المتجمعة فى المجتمعات المتعلمة . وقد جنحت هذه الحقيقة الى فصل النظامين عن بعضهما . لكن الآن ، أصبحت «عمليات المسح الخبروية» تستخدم فى كافة العلوم الاجتماعية ، بل لقد تطور الاسلوب فى الحقيقة الى أقصى حد على يد علماء النفس وعلماء الاجتماع فيما يتعلق بالمجتمعات التاريخية . وفى السنوات الاخيرة كذلك ، قام الانثروبولوجيين بدراسة المجتمعات المتقدمة بل وحتى الدول ـ الامة ، كما قام علماء الاجتماع وعلماء الاقتصاد ، بدورهم ، بدراسة «الشعوب المتخلفة» . وفى حقيقة الامر ، فانه لم يعد هناك اليوم أى فارق أو اختلاف لا فى المنهج ولا فى الحدود الفاصلة للموضوع يمكن أن يميز الانثروبولوجيا عن علم الاقتصاد وعلم الاجتماع اليوم .

لقد كانت معظم العلوم الاقتصادية والعلوم السياسية تهتم دائما بمجالات نظامية خاصة فى البناء الاجتماعى • فعن «الاقتصاد» وحول «الدولة» قام علماء السياسة بدرجة أقل ، وعلماء الاقتصاد بدرجة أكبر ، بوضع «نظريات كلاسيكية» ثبتت واستمرت لأجيال من الدارسين• أى قاموا ، باختصار ، ببناء نماذج وأنماط ، على الرغم من أن علماء السياسة (بجانب علماء الاجتماع) كانوا من الناحية التقليدية أقل ادراكا ووعيا ببنائهم للنموذج عما كان علماء الاقتصاد • وبالطبع ، تتضمن النظرية الكلاسيكية بناء المفاهيم والفروض ، التى تستخرج منها الاستنباطات والتعميمات ، حيث تقارن هذه بدورها بمجموعة متنوعة من الفروض الخبروية • وفى هذه المهام ، يتم تقنين المفاهيم والاجراءات وحتى التساؤلات بصورة ضمنية على الاقل •

وكل هذا قد يكون أمرا جيدا ، ومع هذا ، فبالنسبة للاقتصاديات بصورة مؤكدة ، وبالنسبة لعلم السياسة فى الوقت المناسب ، هناك تطوران ينحيان نحو جعل الانماط الرسمية ذات الصلة الاقل بنموذج الدولة والاقتصاد ذات حدود دقيقة — أى رسمية وقاصرة عليهما بدرجة كبيرة : (١) التطور الاقتصادى والسياسى لما يسمى بالمناطق المتخلفة ، (٢) التيارات الخاصة بأشكال القرن العشرين من «الاقتصاد السياسى» — سواء الشمولية أو الديموقراطية من الناحية الرسمية • لقد كانت النتيجة التى أسفرت عنها الحرب العالمية الثانية ذات أثر فورى مدمر ومثمر بالنسبة للمنظرين الاقتصاديين ، بل وفى الحقيقة ، بالنسبة لكافة علماء الاجتماع الذين يستحقون هذا اللقب •

فمثلا ، «نظرية الاسعار» التى هى مجرد نظرية اقتصادية قد تكون نظرية متقنة ودقيقة من الناحية ... هذا فانها لا يمكن

أن تكون مناسبة من الناحية الخبروية • عهـ ... الأنظمة فى حاجة الى أن يكون هناك تقدير للادارة الخاصة بمؤسسات الاعمال ولدور القرار داخل هذه المؤسسات وفيما بينهما ، كما أنها تتطلب الاهتمـــام بسيكولوجية التوقعات حول التكاليف ، خصوصا فيما يتعلق بالاجور ، كما تتطلب الاهتمام بتثبيت الاسعار من جانب احتكارات العمل الصغيرة التى لابد من فهم القيادات المترعمة لها ••• الخ • وبالمثل ، فانه لكى يمكن فهم «معدل الفائدة» ، فهذا يتطلب غالبا المعرفة بالحركة الرسمية والشخصية بين أصحاب البنوك والمسئولين فى الحكومة ، وكذلك المعرفة بالميكانيزمات الاقتصادية اللاشخصية •

وقد لا يعنى هذا شيئا ، كما أعتقـــد ، ولكن بالنسبة لكل عالم اجتماع ينتمى الى علم الاجتمـــاع ، ولكى يقوم بالمقـــارنة على أكمل وجه ــ وكذلك ، كما أعتقد ، أصبح اتجاه المقارنة تيار جارف فى علم الاجتماع • ويعتبر العمل المقارن ، نظريا وتجريبيا ، يمثل الحظ الواعد لتطور علم الاجتماع اليوم ، كما أن مثل هذا العمل ، يمكننا من تحقيق علم اجتماع موحد •

(٤)

مع التقدم الذى يحققه كل علم اجتماع ، فان تفاعله مع الآخرين يشتد ويتكثف • فمركز الاهتمام عند الاقتصاديين يصبح مرة أخرى ما كان عليه فى البداية ــ «الاقتصاد السياسى» ، الذى تتزايد النظرة له فى نطاق بناء اجتماعى شامل • ولو أخذنا عالم اقتصاد مثل «جون جالبريث John Galbraith » سنجده عالما سياسيا بقدر ما هو عليه «روبرت دال Robert Dahl » أو «دافيد ترومان David Trunan » ، فسنجد أن عمله عن البناء الراهن للرأسمالية الامريكية هـــو نظـــرية

... ـصاد السياسى لا تقـل فى رؤيتهـا عن رؤية سوسيولوجية ... ـبير Schumpeter » للرأسمالية والديموقراطية أو «ايرل لاثام Earllatham » عن سياسات الجماعة • كما لا تقل نظرتها عن نظرة «هارولد لازويز Haroid Lasswell» كعالم اجتماع ، أو «داقيد رايزمان David Riesman» كسيكولوجى ، أو «جابرييل ألموند Gabriel Almond » كعالم سياسى • وهكذا ، هم جميعا منغمسون داخل وخارج العـلوم الاجتماعية ، وبقدر ما يتأتى لأحدهم التمكن وامتلاك جانب أى من هذه «الميادين» يجد نفسه مضطر للدخول فى دائرة اختصاص الآخرين ، أى الى ذلك المجال الخاص بكل من ينتمون الى التقليد الكلاسيكى • وهم بطبيعة الحال قد يتخصصون فى أحد الانظمة ، ولكن بقدر ما يتمكنون من كل العناصر الجوهرية فيه ، فسوف يتأتى لهم فهم مكانته داخل مجمل البناء الاجتماعى الشامل ، ومن ثم فهم علاقاته بالمجالات النظامية الاخرى ، ذلك لأنه يصبح من الواضح ، الى حد كبير ، أن كل حقيقة فيه تتكون من هذه العلاقات •

وبالطبع ، لا يجب الافتراض هنا أن علماء الاجتماع ، وقد ووجهوا بالتنوع الكبير فى الحياة الاجتماعية قد قاموا بتقسيم العمل الذى بين أيديهم بطريقة عقلانية • فسوف نجد ، فى المقام الاول ، أن كل نظام من هذه الانظمة قد نما بذاته واستجابة لمطالب وظروف محددة تماما ، أى لا أحد منها قد تطور كجزء من خطة شاملة • ومن ناحية ثانية ، هناك بالطبع الكثير من جوانب الاختلاف فى العلاقات بين هذه الانظمة المتعددة كما توجد أيضا جوانب اختلاف فيما يتعلق بدرجة التخصص المناسبة • ومع هذا ، فالحقيقة الغالبة اليوم ، أن جوانب الاختـلاف هذه يمكن النظر اليها على أنها حقائق ترتبط بالحياة الاكاديمية أكثر

من كونها متاعب فكرية • بل وحتى من الناحية الاكاديمية فانها ، كما أعتقد ، تميل فى أيامنا هذه الى حل نفسها •

أما من الناحية الفكرية ، فان الحقيقة المركزية اليوم هى تحلل الحدود الفاصلة بين الانظمة بصورة متزايدة ، فالمفاهيم قد أصبحت تتحرك من نظام لآخر بيسر وسهولة متنامية • وفى هذا الشأن ، سنجد أن هناك حالات بارزة فى مجالات العمل ترتكز على الاقتصار على التمكن والسيطرة من لغة ميدان واحد ثم استخدامها بحذق ومهارة فى المجال التقليــدى لميدان آخر • اذن فالتخصص موجود وسيظل موجودا ، ولكنه لا ينبغى أن يكون فى كثير أو قليل فى اطار الانظمة القائمة كما نعرفها • فالتخصص يجب أن يحدث وفقا للمشاكل التى يتطلب حلها اعداد فكرى ينتمى تقليديا الى هذه الانظمة المتعددة • والنتيجة الآن ، هى أن جميع علماء الاجتماع صاروا يستخدمون المفاهيم والمنــاهج المتشابهة ، بصورة متزايدة •

ونحن نجد أن كل علم من العلوم الاجتماعية قد عملت على تشكيله تطورات داخلية ذات صبغة فكرية ، كما أن كل منها قد تأثر أيضــا بصورة قاطعة بــ «أحداث» نظامية — وهى حقيقة تكشفت بوضوح من الطرق المختلفة التى تشكل بها كل منهم فى كل أمة من الامم الغربية الرئيسية • وكثيرا ما كانت مسألتى التسامح أو الاختلاف فى مجال الانظمة القائمة بالفعل ، وتشــمل الفلسفة ، والتــاريخ ، والعــلوم الانسانية ، هما اللذان يحكمان ميادين علم الاجتماع ، والاقتصاد ، والانثروبولوجيا ، وعلم السياسة ، وعلم النفس • وفى الحقيقــة ، فان مثل هذا التسامح أو عدمه ، فى بعض الانظمة ذات المعرفة الراقية كان هو الذى يحكم وجود أو عدم وجود العلوم الاجتماعية كأقسام

أكاديمية • ومثال هذا ، جامعتى أكسفورد وكامبريدج اللتان لا يوجد فى أى منهما أى قسم من «أقسام علم الاجتماع» •

ومكمن الخطر فى أخذ مسألة الاقسام الاكاديمية للعلوم الاجتماعية بجدية شديدة هو فيما يصاحب ذلك من افتراض بأن الانظمة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية الاخرى يعتبر كل منها نسق قائم بذاته • فكما أشرت من قبل ، أن هذا الافتراض كان ومازال يستخدم لبناء «نماذج تحليلية» كثيرا ما تكون ذات فائدة بالغة فى الحقيقة • وربما كان تعميم النماذج الكلاسيكية لـ «النظام السياسى» و لـ «الاقتصاد» يؤدى بالفعل الى تقريب البناء الخادع بانجلترا وخصوصا بناء الولايات المتحدة فى بداية القرن التاسع عشر • وفى واقع الامر ، فان الاقتصاديات وعلم السياسة ، من الناحية التاريخية ، باعتبارهما من العلوم التخصصية ، لابد من تفسيرهما الى حد ما من منطلق الطور التاريخى للغرب الحديث الذى قيل أن كل منهما كان يمثل خلاله مجالا قائم بذاته • ومع هذا ، فمن الواضح أن نموذج للمجتمع كما هو مؤلف من أنظمة مؤسسية قائمة بذاتها من المؤكد أنه ليس بالنموذج الوحيد الذى يتم العمل انطلاقا منه فى علم الاجتماع • فنحن لا نستطيع أن نأخذ بهذا النمط الوحيد باعتباره الاساس المناسب للتقسيم برمته الذى نقوم به للعمل الفكرى • وادراك هذا ، يعتبر واحد من النوازع التى تدفع الآن على العمل فى توحيد العلوم الاجتماعية • ففى نطاق التخطيط للبرامج الاكاديمية وكذلك فى مجال التصميم المثالى للدراسات، كانت تجرى عملية شديدة الفعالية لصهر مختلف الانظمة من علم سياسة، واقتصاد ، وأنثروبولوجيا ثقافية ، وتاريخ ، وعلم اجتماع ، وعلى الاقل أحد الفروع الرئيسية لعلم النفس •

أما المشاكل الفكرية التى كانت تفرضها وحدة العلوم الاجتماعية فقد كانت أساسا مشاكل لها صلة بالعلاقات الخاصة بالانظمة المؤسسية — السياسية والاقتصادية ، والعسكرية والدينية ، والاسرة والتعليم — فى مجتمعات وعهود معينة ، وهى ، كما قلت من قبل مشاكل لها أهميتها. كذلك ، فان الصعوبات العملية الكثيرة التى تفرضها العلاقات العاملة فى مختلف العلوم الاجتماعية لها هى الاخرى صلة بعملية تصميم المناهج الدراسية والعمل الاكاديمى ، وبالبلبلة اللغوية وبأسواق العمل القائمة أمام الخريجين من كل مجال • واحدى العقبات الكبرى التى تقف أمام توحد العمل فى العلوم الاجتماعية هو الكتب التمهيدية التى تتناول نظام واحد • فمن المعروف ، أن نصوص الكتب أكثر من أى انتاج فكرى آخر ، هى فى معظم الاحوال التى تحدث فيها عملية التكامل ووضع الحدود لأنظمة «الميادين» المختلفة ، ومن الصعب تخيل موقع آخر أكثر ملاءمة لحدوث هذا • وبجانب تكامل نص الكتاب ، فان محاولة تحقيق تكامل العلوم الاجتماعية تجرى فى نطاق المفاهيم والمناهج بأكثر مما تتم من منطلق المشاكل والموضوعات ذات الاهتمام • وبناء على ذلك ، فان فكرة وجود «ميادين» مميزة هى فكرة قائمة على المفاهيم المغلفة بدقة أكثر مما هى قائمة على مجالات — المشكلة الاساسية • ومع هذا ، فان هذه المفاهيم هى أمر من الصعب التغلب عليه ، لما لا أعرف ما اذا كان من الممكن التغلب عليه أم لا • ولكن ، هناك مجرد فرصة ، كما أشعر ، فى أنه فى مجتمع الانظمة الاكاديمية سيكون هناك من المؤكد اتجاهات بنائية تمكنها فى الوقت المناسب من التغلب على من لازالوا يحصرون أنفسهم داخل تخصصهم ، ويخترقون حصونهم وممانعتهم •

فى ذات الوقت ، من المؤكد أن الكثير من الافراد من علماء الاجتماع

يدركون أنهم فى «حدود أنظمتهم الخاصة» يمكنهم انجاز أهدافهم على أحسن وجه اذا ما اعترفوا بصراحة أكبر بالمهام ذات التوجه المشترك فى علم الاجتماع . فلقد أصبح من الممكن تماما الآن بالنسبة للممارس الفرد أن يتجاهل التطورات «العارضة» التى تحدث فى الأقسام الاكاديمية ، وأن يختار ويشكل تخصصه الخاص دون أن يواجه عائق كبير مثل هذه الاقسام الاكاديمية . فهذا الممارس بمجرد أن يتأتى له ذلك الحس الاصيل بالمشاكل الهامة ويصير مهتما بصورة عاطفية بحلها ، فهو عندئذ ، غالبا ما سيكون مضطر الى التمكن والسيطرة من الافكار والمناهج التى تكون قد نشأت داخل واحد أو آخر من هذه الانظمة المختلفة . وحينئذ لن يبدو له أى تخصص فى علم الاجتماع وبأى مفهوم فكرى له قيمة بمثابة عالم مغلق أمامه . كذلك ، فانه سوف يدرك أنه فى حقيقة الامر يمارس علم الاجتماع ، أكثر من أى علم آخر من العلوم الاجتماعية ، وأنه لا يهم بعد هذا أى مجال معين من مجالات الحياة الاجتماعية هو الذى يهتم أكثر بدراسته .

وكثيرا ما يكون هناك تأكيد بأنه لا أحد يمكنه أن يكون صاحب ذهن معرفى دون أن يكون فى نفس الوقت مولع بتحصيل المعارف . وأنا لست على علم بصحة هذا ، ولكن لو حدث وكان صحيح ، فمازلنا نتساءل : ألا نستطيع أن نجنى شيئا من هذا الحس المعرفى ؟ أنه لمن المستحيل تماما حقيقة التمكن من كافة المواد ، والمفاهيم ، والمناهج التى يحويها كل نظام من هذه الانظمة . الاكثر من هذا ، أن محاولات «تحقيق تكامل العلوم الاجتماعية» عن طريق «الترجمة التصورية» أو العرض المفصل للمواد ما هى الا لغو لا معنى له ، وهكذا أيضا الكثير مما يجرى فى جانب كبير من المسار المتعاقب لـ «علم الاجتماع العام» . لكن هذا التمكن ، وهذه الترجمة ، وهذا العرض ، وهذا المسار — كل هذا ليس هو المقصود بـ «وحدة العلوم الاجتماعية» .

أما المعنى المقصود فهو : أن تقوم بتحديد وتعمل على حل احدى المشاكل الهامة فى عصرنا هو أمر يتطلب القيام باختيار المفاهيم والمواد والمناهج من أكثر من علم واحد من هـذه العـلوم المتعددة • وعالم الاجتماع ليس فى حاجة الى أن يكون «متمكن من الميدان» لكى يكون على معرفة كافية بالمواد والمنظورات التى يحويها هـذا الميدان حتى يمكنه استخدامها فى اجلاء وتوضيح المشاكل التى تعنيه • اذن ، فمن منطلق مثل هذه «المشاكل» الكبيرة ، وليس وفقا للحدود الاكاديمية ، يجب أن يحدث التخصص • وهذا هو ، كما يبدو لى ، ما يحدث الآن •

الفصل الثامن

توظيف التاريخ



مادة علم جم بحث اجتماعي

الفصل الثامن

توظيف التاريخ

ان علم الاجتماع يتعامل مع مشاكل البيوجرافيا ، والتاريخ ، ومع تقاطعاتهما داخل البناءات الاجتماعية . وكون هذه العناصر الثلاث : البيوجرافيا ، والتاريخ ، والمجتمع — هى نقاط تتساوى فى أهميتها بالنسبة للدراسة المناسبة للانسان ، لذلك فانها كانت تمثل مساحة رئيسية ارتكزت عليها فى نقدى لمختلف المدارس الحالية فى حقل علم الاجتماع التى أهمل ممارسوها هذا التقليد الكلاسيكى . والمشاكل التى نواجهها فى عصرنا —والتى أصبحت تشمل الآن المشكلة الخاصة بطبيعة الانسان ذاته — لا يمكن طرحها بصورة كافية ومناسبة دون ممارسة دائبة لذلك الرأى بأن التاريخ هو العمود الفقرى للدراسة الاجتماعية ، والاعتراف بالحاجة الى مزيد من التطوير لسيكولوجيا خاصة بالانسان لها أساسها السوسيولوجى وتوافقها التاريخى . اذن ، فبدون توظيف التاريخ وبدون حس تاريخى بالامور السيكولوجية ، فان عالم الاجتماع لا يستطيع بصورة ملائمة وكافية أن يقرر أنواع المشاكل التى ينبغى الآن أن تكون نقاط التوجيه للدراسات التى يقوم بها .

(١)

* ان ذلك الجدل المضنى حول ما اذا كانت الدراسة التاريخية هى ، أو ينبغى اعتبارها بمثابة علم اجتماع هو جدل لا هو بذات أهمية ولا هو جدل مثير . وخلاصة هذا يعتمد بوضوح شديد على ما هى

نوعية المؤرخين وما هى نوعية علماء الاجتماع الذين نتحدث عنهـم • فبعض المؤرخين من الواضح أنهم يعملون كجامعى حقائق مزعومة ، تلك التى يحاولون الامتناع عن «تفسيرها» • فهم ينغمسون ، وغالبا بطريقة مثمرة ، فى احدى شرائح التاريخ ويبدون غير راغبين فى تحديد موقعها داخل أى مجال من المجالات الاوسع للاحداث • كما أن هناك البعض الآخر يتجاوزون التاريخ — وبطريقة مثمرة أيضا — ولكنهم ضائعون عبر الرؤى التاريخية للهلاك القادم أو للمجـد المقبل • ان التاريخ كعـلم يدعو بالفعل الى التنقيب عن التفاصيل ، ولكنه يشجع أيضا على توسيع رؤية الانسان لكى تضم فى جنباتها الاحداث المحورية فى الاحقاب التاريخية فى مجال تطور البناءات الاجتماعية •

وربما كان معظم اهتمام المؤرخين منصب على «التأكد من الحقائق» المطلوبة لفهم التحول التاريخى الذى يدخل على الانظمة الاجتماعية ، وعلى تفسير هذه الحقائق ، عادة عن طريق السرد • الاكثر من هذا ، أن الكثيرين من المؤرخين لا يترددون فى أن يتناولوا فى دراساتهم أى مجال وكل مجال من مجالات الحياة الاجتماعية • وبهذا تكون آفاق رؤيتهم هى نفس رؤية علم الاجتماع ، على الرغم من أنهم مثل علماء الاجتماع الآخرين ، قد يتخصصون فى التاريخ السياسى أو فى التاريخ الاقتصادى ، أو فى تاريخ الافكار • ومن هنا ، بقدر ما يقوم المؤرخون بدراسة أنماط الانظمة والمؤسسات ، فانهم يميلون نحو تأكيد التغيرات الواقعة على مدى مساحة زمنية معينـة ، والعمل بطريقـة تخلو من المقارنة ، بينما العمل الذى يقوم به الكثيرون من علمـاء الاجتماع فى دراسة أنماط الانظمة والمؤسسات يتميز بعامل المقارنة أكثر من العامل التاريخى • ومع هذا ، فان هذا الاختلاف هو بالتأكيد مجرد اختلاف يتعلق بجانب التركيز والتخصص فى نطاق المهمة المشتركة •

والآن ، أصبح هناك الكثيرين من المؤرخين الامريكيين ، وقد تأثروا بدرجة بالغـة بالمفاهيـم ، والمشاكل ، والمنـاهج فى مختلف العـلوم الاجتماعية . وفى هذا قال «بارزو» ، و «جراف» Burzun & Graff مؤخرا أن هناك احتمال أن «يستمر علماء الاجتماع فى حثهم للمؤرخين على تحديث أساليبهم» وذلك بسبب «الانشغال الشديد لعلماء الاجتماع بما لا يمكنهم من قراءة التاريخ» ولأنهم «لا يميزون المادة الخاصـة بهم عند تقديمها فى قالب أو نمط مختلف»[1] .

وطبعا ، فى أى عمل من أعمال التاريخ ، سنجد أن هناك المزيد من المشاكل المتعلقة بمسألة المنهج بأكثر مما يحلم به الكثير من المؤرخين عادة . ومع هذا هناك البعض منهم يحلم ، وان لم يكن حول المنهج بقـدر ما هو حول الابستيمولوجيـا — وبطريقـة لا يمكن أن تقضى الا فقط الى نوع من التقهقر الغريب عن الحقيقة التاريخية . وغالبـا ما يكون التأثير سيئا من جانب بعض المؤرخين على أنماط محددة من «علم الاجتماع» ؛ ولكن هذا التأثير يحتاج الى مناقشة مطولة هنا .

بالنسبة للمؤرخ ، فان المهمة الرئيسية عنده هى جعل السجل البشرى عملية مستقيمة ، وان كان هذا التعبير عن الهدف هو فى الواقع تعبير خادع فى بساطته . فالمؤرخ يمثل الذاكرة المنظمـة للبشرية ، وهـذه الذاكرة ، كالتاريخ المكتوب قابلة للتطويع بدرجة كبيرة ؛ فهى تتغير ، وغالبا ما يكون التغير بدرجة شديدة تماما ، من جيل من المؤرخين الى جيل آخر — وليس فقط لأن البحث التفصيلى المستفيض يأتى فيما بعد بحقائق ووثائق جديدة . كذلك ، فانها تتغير بسبب ما يحدث من تغيرات فى مجالات الاهتمام وفى اطار العمل الجارى الذى تتم فى نطاقه عملية التسجيل . وتعتبر هذه هى المعايير التى يتم بها الاختيار من بين الحقائق

المتاحة التى لا عدد ولا حصر لها ، كما تعتبر فى ذات الوقت العناصر البارزة لتفسير معناها . ورجل التاريخ لا يمكنه تجنب القيام بعملية اختيار الحقائق ، على الرغم من أنه قد يحاول التنصل منها بالتعصب فى تفسيراته وانتهاج الحذر ازاءها . ونحن لم نكن فى حاجة الى ذلك التصور الخيالى الذى أتى به «جورج أورويل» Gerge Orwell لكى نعرف كيف يمكن بسهولة تحريف وتشويه التاريخ خلال عملية اعادة كتابته المستمرة . ذلك على الرغم من أن عمله «١٩٨٤» قد أكد هذا بصورة درامية ، بل انه قد أثار الهلع لدى البعض من زملائنا المؤرخين .

كل هذه المخاطر بمشروع المؤرخ تجعل منه واحد من أكثر المشروعات النظرية بين العلوم الانسانية ، والتى تجعل من عدم الوعى المشوب بالهدوء لدى الكثيرين من المؤرخين مسألة أكثر تأثيرا . وعلى الرغم من أنها أكثر تأثيرا ، لكنها أيضا أقرب لاثارة عدم الاستقرار . وأنا أفترض أن هناك فترات كانت فيها المنظورات تتسم بالجمود والتحجر ويمكن أن يظل المؤرخين متحصرين فى أطارها دون وعى أو ادراك للمسائل التى صارت أمور مسلم بها . ولكن الفترة التى نحن فيها ليست هكذا ، فاذا لم يكن لدى المؤرخين «نظرية» ، فربما كان فى امكانهم توفير المادة التى يكتب بها التاريخ ، وان كانوا هم أنفسهم لا يمكنهم كتابتها . قد يكون فى امكانهم التلهى والتمتع بتلك المادة ، ولكن لا يمكنهم جعل السجل التاريخى مستقيما . وهذه المهمة صارت الآن تتطلب اهتماما واضحا وصريحا بأشياء أكثر كثيرا من مجرد «الحقائق» .

وقد يسود الاعتقاد بأن المؤرخين هو بمثابة ملف وثائقى لازم ولا يستغنى عنه علم الاجتماع برمته — وأعتقد أن هذا الرأى صحيح ومثمر . فالتاريخ كعلم يعتبر فى بعض الاحيان أنه علم يشمل علم الاجتماع كله — ولئن كان ذلك فقط من جانب قلة من «أصحاب الدراسات

الانسانية» الذين ضلوا سبيلهم . لكن الشيء الاساسي أكثر من هذا ، هو فكرة أن كل علم اجتماع ، أو بالاحرى ، كل دراسة اجتماعية جيدة — تتطلب مجالا من التصور التاريخي واستفادة كاملة من المادة التاريخية . هذا المفهوم البسيط هو الفكرة الرئيسية التي أتناولها بالنقاش .

وقبل كل شيء ، ربما قد يكون علينا أن نتصدى لأحد الاعتراضات الشائعة ازاء قيام علماء الاجتماع بالاستفادة أو باستخدام المادة التاريخية : فمن المعتقد أن مثل هذه المادة ليست بالدقة الكافية أو حتى معروفة بالكامل بما يكفي لامكانية استخدامها بالمقارنة بالمواد المعاصرة المتاحة الاكثر دقة والموثوق بها بشكل أفضل . ويشير هذا الاعتراض بالطبع الى احدى مشاكل البحث الاجتماعي المثيرة للانزعاج الشديد ، الا أنه رغم ذلك لا يتمتع بالقوة الفاعلة الا فقط اذا قيد الانسان نوع المعلومات المسموح بها . وكما قلت من قبل ، أن المتطلبات الخاصة بالمشكلة التي تواجه المرء ، خلاف ما يفرضه أي منهج جامد من القيود ، ينبغي أن يكون كما كان دائما هو عنصر التقدير المتسع الآفاق عند الباحث الاجتماعي الكلاسيكي . غير هذا ، فان هذا الاعتراض ، لاينطبق الا فقط على مشاكل معينة ، بل وفي الحقيقة ، كثيرا ما لا ينطبق نهائيا : لاننا لانستطيع أن نحصل على المعلومات الكافية والمناسبة بالنسبة لكثير من المشاكل الا «فقط» حول الماضي . والحقيقة المعروفة حول مسألة سرية المعلومات ، سواء بصورة رسمية أو غير رسمية ، وكذلك الاستخدام الواسع للعلاقات العامة ، ما هي الا حقائق معاصرة لابد بالتأكيد من أخذها في الاعتبار ونحن نصدر حكمنا على امكانية الاعتماد على المعلومات المتعلقة بالماضي وكذلك الخاصة بالحاضر . اذن ، فهذا الاعتراض باختصار ، ما هو الا مجرد صورة أخرى من صور القيد المنهجي ،

بالاضافة الى كونه غالبا سمة من أيديولوجية «عدم المعـــرفة بشيء» الباعثة على الاطمئنان السياسى •

(٢)

الاكثر أهمية من المدى الذى يصل اليه المؤرخون فى أن يكونوا علماء اجتماع ، أو كيف ينبغى أن يكون سلوكهم ، هو تلك النقطـــة التى مازالت تثير جدلا فى أن العلوم الاجتماعية هى ذاتها بمثابة علوم تاريخية • فعلماء الاجتماع حتى يمكنهم انجـــاز المهـــام التى يعملون عليها ، أو حتى يقومون بطرحها بصورة جيدة ، يتوجب عليهم استخدام المادة التاريخية • وما لم يأخذ الانسان بنظـــرية ما تتجـــاوز التاريخ وتتحدث عن طبيعة التاريخ ، أو أن الانســان فى المجتمع هو كيان غير تاريخى ، فلن يكون من الممكن الافتراض بأن أى من علوم الاجتمـــاع يستطيع أن يتجاوز التاريخ • وكل العلوم الاجتماعية التى تســـتحق هذا الاسم ، هى «سوسيولوجيا تاريخية» • وهذا على حد التعبـــير البليغ الذى يقول به «بول سويزى» Paul Sweez ، يعتبر بمثابة محاولة لكتابة «الحاضر على أنه تاريخ» • وبالنسبة لهـــذه العـــلاقة الحميمة بين التاريخ وعلم الاجتماع هناك عدة أسباب :

أولاً : ان فيمــا نقوله ذاته عن الشىء الذى هـــو فى حاجة الى تفسير ، يعبر عن حاجتنا الى ذلك المجال الكامل الذى لا يمكن توافره الا فقط عن طريق المعرفة بالتنوعات التاريخية للمجتمع البشرى • فان يكون هناك مسألة معينة ـــ كالعلاقات بين أشكال الصفة القومية وأنماط العسكرية ، على سبيل المثال ـــ التى غالبا ما يجب أن تختلف الاجابة عليها عنها فى حالة التساؤل فيما يتعلق بالمجتمعات والعهود المختلفة ، معناه أن المسألة ذاتها كثيرا ما تكون فى حاجة الى اعادة صياغتهـــا من جديد • فنحن اذن فى حاجة الى ذلك التنوع الذى يوفره التاريخ

حتى يمكن توجيه التساؤلات السوسيولوجية بصورة ملائمة ، فضلا عن الاجابة عليها . وهذه الاجابات أو التفسيرات التى نعطيها هى غالبا ، ان لم يكن عادة ، تتم فى نطاق المقارنات . فعمليات المقارنة هى أمر مطلوب حتى يمكن فهم ما يمكن أن يمثل الظروف الجوهرية للشىء الذى نحاول فهمه ، سواء كانت هى أشكال من الرق والعبودية أو معان محددة للجريمة ، أهى أنماط للاسرة أو مجتمعات زراعية أم مزارع جماعية . اذن ، مما يتوجب علينا أن نفعله هو ملاحظة ذلك الشىء الذى نهتـم به تحت مختلف الظروف ، والا فاننا سنكون قد حصرنا أنفسنا فى عملية الوصف السطحية .

ونحن لكى نذهب الى أبعد من هذا ، فلابد لنا من القيام بدراسة مجال البناءات الاجتماعية المتاحة ، وتشمل البناءات التاريخية وكذلك المعاصرة . ونحن اذا لم نضع فى اعتبارنا مسألة المجال ، وهو الشىء الذى لا يعنى بالطبـع جميـع الحـالات القائمة ، فلن تكون بياناتنا وتقاريرنا مناسبة من الوجهة الخبروية ، ذلك لأن الجوانب الانتظامية المضطردة أو العلاقات كتلك التى يمكن أن تتحقق بين السمات العديدة للمجتمع لا يمكن اظهارها بوضوح . اذن ، تعتبر الانماط التاريخية ، باختصار ، جزء بالغ الاهمية مما نقوم بدراسته ، كما أنها تعتبر لازمة ولا يمكن الاستغناء عنها فى مجال تفسيرنا لها . واستبعاد مثـل هذه المادة التاريخية ــ التى تشكل سجلا لكل ما فعله الانسان وما أصبح عليه ــ من دراستنا سيجعل الامر يبدو مثل دراسة عملية «الولادة» ولكن فى نفس الوقت يتم تجاهل الامومة ذاتها .

ونحن اذا ما قصرنا أنفسنا على وحدة قومية واحدة فى مجتمـع معاصر واحد (وعادة يكون المجتمع الغربى) ، فقد لا يتأتى لنا أن نأمل

فى امكانية الامساك بالكثير من الفوارق الاساسية الحقيقية المتواجدة بين الانماط البشرية والانظمة الاجتماعية • وهذه الحقيقة العامة لهـا مغزى واحد محدد بالنسبة للعمل فى ميدان علم الاجتماع ، وهو أنه : فى لحظة أخذ قطاع مستعرض لأى مجتمع واحد ، فغالبا ما قد نجـد أن هناك عدد وافر من الدلالات المشتركة من العقيدة ، والقيمة ، والشكل النظامى ، والتى مهما تكن دراستنا مفصلة ودقيقة ، فاننا سوف لا نجد حقا فوارق هامة بين الناس والانظمة الاجتماعية فى هذه اللحظة الواحدة فى هذا المجتمع الواحد • وفى الحقيقة ، فان الدراسات الخاصة بالزمن الواحد غالبا ما تتناول أو توحى بوجود التجانس الذى اذا ما صـح وجوده ، فانه يكون فى حاجة بدرجة كبيرة الى «تناوله كمشكلة» • وهو أمر لا يمكن اختزاله بصورة مثمرة ، كما يحدث كثـيرا فى الممارسـة الراهنة لعملية البحث، الى مجرد مشكلة تتعلق باجراءات اختيار العينة• ولا يمكن صياغة هذا التجانس أيضا كمشكلة فى اطار اللحظة الواحدة والموقع الواحد •

فالمجتمعات تختلف فيما يتعلق بمجال التنوع فى الظواهر المحددة الواقعة داخلها ، وكذلك ، وبشكل أكثر عمومية ، فيما يختص بدرجة التجانس الاجتماعى فيها • وعلى حد قول «موريس جينزبرج» Morris Ginsberg ، أنه اذا ما قام شىء ما نعمل على دراسته «باستعراض ما يكفى من الاختلافات الفردية داخل المجتمـع ذاته ، أو فى نفس الفترة الزمنية ، عندئذ قد يكون من الممكن وضع صلات علاقة حقيقية دون الخروج عن هذا المجتمع أو تلك الفترة»[٣]• وهذا غالبا ما يكون صحيحا، وان لم يكن عادة من المؤكد كثيرا أنه يمكن الاخذ به ببساطة، فلكى نعرف ما اذا كان صحيح أم لا ، ينبغى علينا أن نصمم دراستنا على أنها ستكون عمليات مقارنة بين البناءات الاجتماعية • ولكى يتم

هذا بصورة مناسبة ، فانه عادة سيتطلب منا أن نستفيد من جوانب التنوع التى يوفرها لنا التاريخ • فمشكلة التجانس الاجتماعى ـ كما هو الامر فى المجتمع الجماهيرى الحديث ، أو على النقيض ، فى المجتمع التقليدى ـ لا يمكن طرحها بصورة ملائمة ، ناهيك عن حلها بشكل كاف ما لم نضع فى تقديرنا بشكل مقارن المجال الذى تتحرك فيه المجتمعات المعاصرة والتاريخية •

وعلى سبيل المثال ، فان المعنى الذى تكتسبه موضوعات رئيسية فى ميدان علم السياسة مثل «الجماهير» ، و «الرأى العام» لا يمكن جعله واضحا دون القيام بمثل هذا العمل • فنحن اذا لم نأخذ فى دراستنا بمجال كامل للمجتمع ، نكون بذلك قد حكمنا على أنفسنا بالوصول الى نتائج ضحلة ومضللة • وأنا هنا لا أفترض ، مثلا ، أن أى شخص قد يحاول فى القول بأن حقيقة وجود عدم الاكتراث السياسى ليشكل احدى الحقائق الرئيسية السائدة على المسرح السياسى المعاصر فى المجتمعات الغربية • ومع هذا ، ففى تلك الدراسات الخاصة بـ «السيكولوجية السياسية للناخبين» التى لا هى دراسات مقارنة ولا تاريخية ، فاننا لا نجد حتى أى تصنيف لـ «الناخبين» ـ أو «للانسان السياسى» ـ الذى حقا يأخذ مثل عدم الاكتراث هذا فى اعتباره • وفى الحقيقة ، فان تلك الفكرة ذات الصفة المحددة تاريخيا عن عدم الاكتراث السياسى هذا ، ناهيك عن معناه ، لا يمكن صياغتها فى الاطر المعتادة لمثل هذه الدراسات الخاصة بالانتخاب والتصويت •

وأن نقول عن الفلاحين فى دنيا ما قبل الصناعة بأنهم يتصفون بـ «عدم الاكتراث السياسى» فهو قول لا يحمل نفس المعنى اذا ما أطلق نفس القول على الانسان فى المجتمع الجماهيرى الحديث • فمن ناحية ،

ان ما تمثله الانظمة السياسية من أهمية لسبل الحياة وظروفها فى هذين النمطين من المجتمع ، تختلف اختلافا تاما • ومن ناحية أخرى ، أن الفرصة الرسمية المتاحة فى أن تصبح مندمج فى الشئون السياسية ، تختلف هى الاخرى • ومن ناحيـــة ثالثة ، ان ما أثاره المسار الكامل للديموقراطية البورجوازية فى الغرب الحديث من توقعـــات الاندماج السياسى لم يكن يثار دائما فى عالم ما قبل الصناعة • وحتى يمكن فهم «عدم الاكتراث السياسى» وشرحه ، واستيعاب مغزاه بالنسبة للمجتمعات الحديثة ، لهو أمر يحتاج الى أن نقوم بتقييم أنمـــاط وظروف عـــدم الاكترات المختلفة تماما ، ثم أنه لكى نفعل هذا يجب علينا أن نتفحص المادة التاريخية والمقارنة •

ثانيا : ان الدراسات غير التاريخية عادة ما تنحو الى أن تكون دراسات احصائية أو تغطى فترة قصيرة الامر لأوســـاط اجتماعيـــة محدودة • وهذا هو فقط الامر المتوقع ، ذلك لأننا نكون أكثر استعدادا لادراك البناءات الاوسع عندما نكون فى حالة تغيير ، كما من المحتمـــل أن نكون على وعى بهذه التغيرات فقط عندما نعمل على توسيع رؤيتنا لكى تشمل مساحة زمنية تاريخية مناسبة • وبهذا ، فان فرصتنا فى فهم كيفية تفاعل الاوساط الاجتماعية الاصغر والبناءات الاوسع ، وكذلك فرصتنا فى فهـــم الاسباب الاوسع حجما الفاعلة فى هذه الاوســـاط الاجتماعية المحدودة ، هو أمر يتطلب منا ان نتعامل مع المادة التاريخية • فالادراك والوعى بالبناء الاجتماعى والدراية به ، بكل ما يحمله هذا التعبير المركزى من معان ، وكذلك الطرح المناســـب والكافى لمتـــاعب ومشاكل الأوساط الاجتماعية المحـــدودة ، يتطلبان منا أن نسلم وأن نمارس العلوم الاجتماعية كعلوم تاريخية •

ـــ ولا يؤدى فقط العمل التاريخى الى زيادة فرصتنا فى أن تكون على وعى بالبناء الاجتماعى ، ذلك لأننا لا يمكن أن نأمل فى فهم أى مجتمع بمفرده ، حتى ولو من الناحية الاحصائية ، دون الاستفادة بالمادة التاريخية . فصورة أى مجتمع هى صورة محددة من الناحية التاريخية . وما أسماه ماركس بـ «مبدأ الخصوصية التاريخية» يدل ، أولا ، على الخط الذى نهتدى به : فأى مجتمع معين لابد من فهمه فى اطار العصر المحدد الذى يوجد فيه . وأيا كان تعريف «العصر» ، فالانظمة ، والايديولوجيات ، وأنماط الرجال والنساء ، السائدة فى عصر معين هى التى تشكل شيئا له نموذجه الفريد . وليس هذا معناه أن مثل هذا النمط التاريخى يمكن مقارنته بأنماط أخرى ، كما أن ذلك النموذج بالتأكيد لا يمكن استيعابه بالبداهة والحدس فقط . لكن ما يعنيه أن ميكانيزمات معينة للتغيير داخله هذا النمط التاريخى تصل الى نوع محدد من التقاطع . هذه الميكانيزمات ، التى أسماها «كارل مانهايم» ـــ متبعا فى ذلك جون ستيوارت ميل ـــ «المبادىء الاولية الوسيطة» ، هى نفسها ذات الميكانيزمات التى يرغب عالم الاجتماع ، المهتم بالبناء الاجتماعى ، فى ادراكها واستيعابها .

ولقد حاول أوائل المنظرين الاجتماعيين أن يصوغوا قوانين ثابتة لا تتغير عن المجتمع ـــ قوانين تنطبق على كافة المجتمعات ، تماما مثلما أدى علم الفيزيقا باجراءاته التجريدية الى قوانين قللت من ذلك الثراء النوعى الذى تتسم به «الطبيعة» . وعلى حسب اعتقادى ، فانه لايوجد أى «قانون» يمكن القول أن أى عالم اجتماع قد وضعه يمكن أن يتجاوز التاريخ ، وهذا لا يجب أن يفهم على أن له علاقة بالبناء المحدد لعصر ما . كما أن هناك «قوانين» أخرى تتحول لكى تكون مجرد تجريدات خاوية أو مجرد لغو مشوش تماما . والمعنى الوحيد لـ «القوانين

الاجتماعية» أو حتى لـ «العناصر الاجتماعيـة المنتظمة» هى أنهـا «مبادىء أولية وسيطة» ، أو لو شئنا القول أنها تشييد لبناء اجتماعى فى نطاق حقبة تاريخية محددة . ونحن لا نعرف شيئا عن وجود أى مبادىء شاملة لعملية التغير الاجتماعى ، فميكانيزمات التغير التى نعرفها تختلف باختلاف البناء الاجتماعى الذى نبحثه . ذلك ، لأن التغـير التاريخى «هو» تغير فى البناءات الاجتماعية ، وفى العلاقات بين الاجزاء المكونة لهذه البناءات . وكما أن هناك تنوع فى البناءات الاجتماعية ، هناك بالضبط تنوع فى مبادىء التغير التاريخى .

ثالثا : أن تكون المعرفة بتاريخ مجتمع ما هى غالبا أمر لا غنى عنه فى فهم هذا المجتمع ، مسألة تصبح واضحة تماما أمام أى عالم اقتصاد أو سياسة أو اجتماع بمجرد أن يغادر أمته الصناعية المتقدمة ليقوم ببحث الانظمة الموجودة فى أى بناء اجتماعى آخر مختلف — فى الشرق الاوسط ، فى آسيا ، فى أفريقيا . فهو فى دراسته لـ «وطنه هو» ، غالبا ما يهرب فى ثنايا التاريخ ، كما أن معرفته بهذا الوطن تتجسم فى ذات المفاهيم التى يعمل بها . ثم أنه عندما يأخذ بمجال كامل ، وعندما يقوم بعقد المقارنة ، فانه يصير أكثر وعيـا بالعنصر التاريخى كعنصر هام فى حد ذاته لما يريد فهمه وليس فقـط كمجرد «خلفية عامة» .

وفى عصرنا هذا ، نجد أن مشاكل المجتمعات الغربيـة هى نفسها وبصورة حتمية المشاكل التى يواجهها العالم ، بل وربما من المسمات المحددة لعصرنا هى أنه عصر أصبحت فيه ولأول مرة التغيرات المختلفة للعوالم الاجتماعية التى يضمها هذا العصر فى حالة من التفاعل الواضح ، الخطير ، والسريع . ولهذا ، ينبغى أن تكون الدراسة لعصرنا هذا ذات

النفسى تقليد آخر له مصادر مختلفة تماما ظهرت فى السلوكية الاجتماعية عند «جورج ميد Mead » • لكن عندئذ دخل فى الامر نوع من القيود أو من التردد ، فقد ظهر فى الصورة بوضوح ذلك الوضع الضيق النطاق لـــ «العلاقات الشخصية المتبادلة» ، ولم يعد هناك ذلك السياق الاوسع الذى وقعت فيه هذه العلاقات ذاتها ، ومن ثم الفرد نفسه • بطبيعة الحال ، هناك استثناءات من هذا ، وأبرزها «أريك فروم Fromm »، الذى نسب العلاقات بين الانظمة الاقتصادية والدينية واستشرف معانيها بالنسبة للانماط المختلفة من الافراد • ويرجع أحد أسباب التردد العام الذى حدث فى هذا الشأن الى ذلك الدور الاجتماعى المحدد الذى يلعبه المحلل النفسى : ذلك لأن عمله ومنظوره فى الرؤية مقيدان مهنيا بالفرد المريض ، كما أن المشاكل التى يستطيع ادراكها بسرعة ، فى ظل ظروف ممارسته التخصصية ، هى مشاكل محدودة • ولسوء الحظ ، أن رجال التحليل النفسى لم يصبحوا جزءا قويا ومكملا للبحث الاكاديمى(٥) •

والخطوة التالية بعد ذلك فى مجال الدراسات الخاصة بالتحليل النفسى هى العمل بقوة كاملة من أجل مجالات نظامية أخرى بمثل ما شرع فرويد نفسه فى عمله بشكل رائع بالنسبة لأنظمة القرابة فى نمط تم انتقاؤه • والشىء المطلوب هو تلك الفكرة الخاصة بالبناء الاجتماعى باعتباره تركيب مؤلف من أنظمة مؤسسية ، كل منها يجب أن تخضعه للدراسة السيكولوجية كما درس فرويد أنظمة قرابية معينة • وفى مجال الطب النفسى ـــ وهو يمثل العلاج الفعلى للعلاقات « الشخصية المتبادلة » ـــ فاننا قد شرعنا بالفعل فى اثارة التساؤلات حول احدى النقاط المركزية المزعجة وهى : الاتجاه نحو ترسيخ القيم والمعايير فى الاحتياجات المفترضة للافراد «ذاتهم» • ولكن اذا كانت طبيعة الفرد ذاتها لا يمكن فهمها دون الرجوع بشكل وثيق بالواقع الاجتماعى ،

فعندئذ علينا أن نحللها فى اطار هذا الاطار المرجعى • ومثل هذا التحليل لا يشمل فقط تحديد موقع الفرد ، ككيان بيوجرافى ، فى اطار أوساط العلاقات الشخصية المختلفة ، ولكنه يتضمن أيضا تحديد موقع هـذه الاوساط داخل البناءات الاجتماعية التى تشكلها •

(٥)

وعلى أساس التطورات فى مجال التحليل النفسى ، وكذلك فى علم النفس الاجتماعى ككل ، أصبح من الممكن الآن طـرح الاهتمـامات السيكولوجية فى العلوم الاجتماعية بصورة موجزة • وأنا أدرج هنـا باختصار شديد فقط الافتراضات التى أعتبرها أكثر فائدة ، أو على الاقل ، تلك الفروض التى يعتبرها عالم الاجتماع فروضا شرعية (٦) •

ان حياة فرد ما لا يمكن فهمها بصورة كافية دون الرجوع الى الانظمة التى تنتحد فيها سيرته الذاتية ، ذلك لأن هذه السيرة تسجل الامور المكتسبة ، وتسقط ، وتعدل ، بطريقة وثيقة تماما ، عمليـة التحـرك والانتقـال من دور اجتماعى الى دور آخر • فالانسـان يكون طفلا فى نوع معين من الاسرة ، ويكون رفيق لعب فى نوع معين من جماعات الاطفال ، ويكون طالبـا ، وعامـلا ، وملاحظا ، وأبا ، وشخصية عامة • فجزء كبير من الحياة البشرية يتضمن لعب مثل هذه الادوار الاجتماعية فى اطار أنظمة ذات خاصية محددة • ولكى يمكن فهم سيرة حياة فرد ما ، يتوجب علينا أن نفهم أهمية ومغزى الادوار الاجتماعية التى لعبها والتى يلعبها ، ولكى يمكن فهم هـذه الادوار الاجتماعية يتوجب علينا أن نفهم الانظمة الاجتماعية التى تعتبر هذه الادوار جزء منها •

ومع هذا ، فان النظر الى الانسان باعتباره مخلوقا اجتماعيـا

يمكننا من التوغل بعمق أكبر من مجرد الصورة الخارجية للسيرة باعتبارها سلسلة متعاقبة من الادوار الاجتماعية • ومثل هذه النظرة تتطلب منا فهم السمات الداخلية وأكثرها «سيكولوجية» فى الانسان ، وبصفة خاصة صورته الذاتية ، ووعيه ، ونموه الذهنى بالذات • وقد يكون من أكثر الاكتشافات راديكالية فى علم النفس وعلم الاجتماع حديثا ، هو اكتشاف كيفية توحد نموذج عدد وفير من أكثر السمات قربا والتصاقا بالشخص وغرسها اجتماعيا • وفى اطار الحدود العريضة لجهاز الغدد والاعصاب فى الشخص ، ينبغى فهم كل مشاعر الخوف والكراهية ، والحب والغضب ، بكافة مظاهرها المتنوعة ، بالرجوع المستمر والقريب الى سيرة الحياة الاجتماعية والسياق الاجتماعى اللذان مورست وظهرت فيهما هذه المشاعر • كذلك فى نطاق الحدود العريضة لفسيولوجيا الاعضاء الحسية ، فان ادراكنا ذاته بالعالم المادى ، بالالوان التى نميز بينها ، بالروائح التى نصبح على دراية بها ، بالاصوات التى نسمعها ، يتحدد نموذجه اجتماعيا وتتحد خطوطه اجتماعيا • لذلك ، فان الدوافع فى الانسان ، لابد من فهمها من حيث مفردات الدافع ولغته السائدة فى المجتمع ومن حيث التغيرات الاجتماعية وما يحدث من اختلاط بين مثل هذه المفردات •

ان سيرة حياة وشخصية الفرد لايمكن فهمها فقط فى نطاق الوسط البيئى الاجتماعى ، وبالتأكيد ليس على الاطلاق من حيث البيئات الاجتماعية الاولى — تلك الخاصة بمرحلة الشخص وليدا وطفلا • ولكى يتحقق الفهم الكافى والمناسب فهذا يتطلب منا أن نستوعب التفاعل الخاص بهذه الاوضاع الوثيقة باطارها البنائى الاوسع ، وأن نضع فى اعتبارنا للتحولات التى تحدث فى هذا الاطار ، والآثار المترتبة من ذلك على الوسط الاجتماعى • ونحن عندما نفهم البناءات الاجتماعية

والتغيرات البنائية التى لها علاقة بمزيد من مسارح وخبرات الحيـاة الوثيقـة ، فاننا نكون عندئذ قادرين على فهم الاسباب الكامنة وراء السلوك والتصرف الذى يقوم به ، والمشاعر التى يحس بها الفـرد ، والتى لا يكون الناس أنفسهم فى أوساط اجتماعية محددة على وعى بها . ولا يمكن أن يرتكز الاختيار لأحد المفاهيم المناسبة لأى نمط للانسان على ما اذا كان الافراد من هذا النمط يجدونه بصورة مرضية تتفيق مع صورتهم الذاتية الخاصة . والناس ، حيث أنهم يعيشون فى وسط بيئى مقيد ، فليس ولا يمكن أن نتوقع أنهم سوف يعرفون كل الاسباب وراء ظروفهم والحدود الخاصة بوجودهم المنفرد . وفى الحقيقة ، فان جماعات الناس الذين يملكون حقا رؤى كافية عن أنفسهم وعن أوضاعهم الاجتماعية الخاصة هم أناس نادرون . وحتى نفترض العكس ، وكما يحدث كثيرا بفضل ذات المناهج التى يستخدمها بعض علماء الاجتماع ، فمعناه أننا نفترض وجود قدر من الوعى الذاتى الرشيد والمعرفة الذاتية الرشيدة ، تلكما التى لم يكن يسمح بهما حتى علماء النفس فى القـرن الثامن عشر . وفكرة ماكس فيبر عن «الانسان المتزمت فى الدين» ، عن دوافعه وعن وظيفته داخل الانظمة الدينية والاقتصادية ، هى فكـرة تمكننا من فهم هذا الانسان بصورة أفضـل مما يفهـم نفسه بهـا ، فاستخدام فيبر لمفهوم البناء الاجتماعى قد مكنه من تجاوز الادراك الشخصى «للفرد» لنفسه ولوسطى البيئى .

ان تناسب الخـبرة الاولى ، أن «وزن» الطفولة فى سيكولوجية الشخصية البالغـة ، هو ذاته تناسبا يرتبط بنمط الطفولة ونمط سيرة الحياة الاجتماعية السائدة فى المجتمعات المختلفة . فقد بات واضـح الآن ، مثلا ، أن الدور الذى يقوم به «الاب» فى بناء شخصية لابد أن

يوضع فى اطار الانماط المحددة للاسرة ، وفى اطار المكانة التى تحتلها هذه الاسرة فى البناء الاجمتاعى الذى تشكل الاسر جزءا منه •

ولا يمكن أن يتم تكوين فكرة للبناء الاجتماعى فقط من خلال الافكار أو الحقائق التى تدور حول جماعات محددة من الافراد وردود فعلهم ازاء الاوساط البيئية الخاصة بهم • وأى محاولات لتفسير الاحداث الاجتماعية والتاريخية على أساس النظريات السيكولوجية التى تدور حول «الفرد» غالبا ما ترتكز على الافتراض بأن المجتمع ليس سوى بعثرة ضخمة من الافراد ، وأنه طبقا لذلك ، اذا ما استطعنا أن نعرف كل شىء عن هذه «الذرات» فسوف يمكننا بشكل ما أن نضيف المعلومات الى بعضها ومن ثم نتمكن بذلك من معرفة المجتمع • ان هذا الافتراض ليس مجديا ، فنحن ، فى الواقع ، لا نستطيع حتى أن نعرف ما هى أكثر العناصر جوهرية فى «الفرد» من خلال أى دراسة سيكولوجية له كمخلوق منعزل اجتماعيا • فمثلا ، باستثناء البناء المجرد للانماط ، الذى قد يكون مفيدا بطبيعة الحال ، فان رجل الاقتصاد لا يمكنه افتراض الانسان الاقتصادى ، ولا يستطيع ذلك الباحث النفسى فى حياة الاسرة (ومن الناحية العملية جميع الباحثين النفسيين هم فى الحقيقة ، متخصصون فى هذا المجال الاجتماعى الواحد) أن يفترض الانسان الاوديبى الكلاسيكى • لذلك ، فكما أن العلاقات البنائية للادوار الاقتصادية والسياسية تماما هى الآن كثيرا ما تكون حاسمة لفهم السلوك الاقتصادى للافراد ، هكذا أيضا التغيرات الكبيرة ، منذ الابوة فى العصر الفيكتورى ، فى الادوار داخل الأسرة وفى موقع الاسرة كمؤسسة اجتماعية داخل المجتمعات الحديثة •

وينطبق مبدأ الخصوصية التاريخية كذلك على علم النفس كما ينطبق على العلوم الاجتماعية ، اذ حتى السمات الوثيقة تماما للحياة

الداخلية للانسان يتم صياغتها كمشاكل على أفضل ما يكون فى نطاق سياقات تاريخية محددة • ولكى نعرف أن هذا يعتبر افتراضا معقولا تماما ، ما على المرء فقط الا أن يتفكر للحظة فى ذلك التنوع العريض للرجال والنساء الذى تتضح مظاهره على مسار التاريخ البشرى • وفى الواقع ، فان على علماء النفس وكذلك علماء الاجتماع أن يفكروا جيدا بالعقل قبل أن ينتهوا من صياغة أى عبارة يكون موضوعها «الانسان» •

إن التنوع البشرى ليس هو ذلك الذى يمكن لأى علوم سيكولوجية عن «العنصر الجوهرى» ، ولا لأى نظرية عن «الغرائز» ، ولا لأى مبدأ عن «الطبيعة الاساسية للبشر» أن تجعلنا نفسر ونعلل ذلك التنـــوع البشرى الهائل فى الانماط والافراد • وأى شىء يمكن تأكيده فيما يتعلق بالانسان خلاف ما هو متلازم فى الوقائع الاجتماعية ـ التاريخية عن حياة الانسان سوف لا يدل على شىء سوى فقط تلك الحدود والقدرات البيولوجية الواسعة للجنس البشرى • ومع هذا ، ففى نطاق هذه الحدود ومن داخل هذه القدرات تواجهنا بانوراما واسعة للانماط البشرية • ومحاولة تفسير هذه البانوراما من منطلق نظرية عن «الطبيعة الاساسية للبشر» معناه حصر التاريخ البشرى نفسه فى إطار صغير مجدب من المفاهيم حول «الطبيعة البشرية» •

لقد أوضح «بارزوم وجراف Barzum & Graff » أن (عنوان الكتاب الشهير لـــ «كينزى» الذى يحمل اسم «السلوك الجنسى عند الذكر البشرى») هو مثال بارز لافتراض خفى ــ وفى هذه الحالة يكون افتراضـــا زائفـــا • فالكتاب لا يدور حول الذكور من البشر ، بل عن الرجال فى الولايات المتحدة فى منتصف القرن العشرين • والفكرة ذاتها عن الطبيعة البشرية ما هى الا فرض من فروض علم الاجتماع ؛ لذلك

فالقول بأنها تشكل موضوعا لما دار حولها معناه استجداء للمسألة الايساسية ، وقد لا يكون هناك شيء سوى «الطبيعة البشرية» : تلك التي على درجة بالغة من التقلب ولا تثبت على حال (٧) .

- ووجود فكرة شائعة عن شكل ما من «الطبيعة البشرية» للانسان كانسان ، يعتبر انتهاك للخصوصية الاجتماعية والتاريخية التي يتطلبها العمل الدقيق في مجال الدراسات البشرية ، وهي على الاقل ، تشكل تجريدا لم ينل الدارسون الاجتماعيون الحق في القيام به . وبالتأكيد، فانه يتوجب علينا من حين لآخر أن نتذكر أننا في حقيقة الأمر لا نعرف الشيء الكثير عن الانسان ، وأن كل ما نعرفه لا يزيل بالكامل عنصر الغموض الذي يحيط بتنوع الانسان كما يكشف عنه التاريخ وسيرة حياة الانسان . وأحيانا ، نرغب بالعقل في الارتماء في أحضان هذا الغموض ، لكي نشعر بأننا ، قبل كل شيء ، لسنا سوى جزء منه ، بل وربما ينبغي أن نكون كذلك ، ولكن كوننا أناس من الغرب ، فاننا حتما سوف نقوم أيضا بدراسة التنوع الانساني ، الذي يعني بالنسبة لنا ازالة الغموض من رؤيتنا له . ونحن في قيامنا بهذا ، دعونا لا ننسى ما هو ذلك الشيء الذي نقوم بدراسته ، وكم هو قليل ذلك الذي نعرفه عن الانسان ، وعن التاريخ ، وعن سيرة الانسان ، وعن المجتمعات التي كنا ذات مرة مخلوقات فيها وخالقين لها .

المراجـــــع

(١) أنظر : «بارزو ، وجراف» : Barzum & Graff ، البـــاحث العصرى ، نيويورك ، هاركورت ، ١٩٥٧ ، ص ٢٣١ •

(٢) انظـــر : «موريس جينزبرج» ، مقـــالات فى علم الاجتمـــاع والفلسفة الاجتماعية ، المجلد الثانى ، ٣٩ ، هانيمان ، ١٩٥٦ •

(٣) انظر : محسن مهدى ، فلسفة التـــاريخ عـــند ابن خلدون ، Allen Unwin ، ١٩٥٧ ، مقالات تاريخية ، ماكميلان ، ١٩٥٧ ، والتى تتضمن تعليقا مضيئا عليها من «تريفور روبر» •

(٤) وفى هذا أذكر قولا مؤيدا جاء فى تقرير ممتاز عن أنماط تاريخ العمل كتبه « والتر جالنسون Walter Galenson » :

« ••• ان العـــائد الحـــدى من زراعـــة الارض القديمة هـــو عائـــد قليـــل ••• فى غيـــاب •• المواد الجـــديدة الهامة ••• وأن كان هـــذا ليس هـــو التـــبرير الوحيـــد للتركيز على الاحداث الاكثر حداثة • فالحـــركة العمـــالية المعـــاصرة تختلف ليس كميا فحسب بل ونوعيا عن مثيلتها منذ ثلاثين عاما مضت • فقبل الثلاثينات ، كانت الحـــركة العمالية طائفية فى شخصيتها ، ولم تكن قراراتها تمثل عامل اقتصادى له أهميته، وكان اهتمامها بالمشاكل الداخلية الضيقة أكبر من اهتمامهـــا بالسياسة القومية» • (والتر جالنسون ، تأملات فى سجل تاريخ العمل ، مجلة العلاقات الصناعية والعمل ، اكتوبر ١٩٥٧) •

أما فيما يتعلق بالانثروبولوجيا ، فقد كان الجدل بين التفسيرات «الوظيفية» و «التاريخية» يسير فى طريقه منذ مدة طويلة • والاحتمال الاغلب فى أن يكون الانثروبولوجيون وظيفيون فى تفسيراتهم ، هو أنهم لا يمكنهم العثور على أى شىء يتعـــلق بتاريخ «الثقافات» التى يتفحصونها • فهم فى الحقيقة ، عليهم أن يحاولوا تفسير الحاضر بالحاضر ، ويسعون للحصول على

التفسيرات فى العلاقات المتبادلة ذات المغزى بين مختلف السمات المعاصرة للمجتمع • انظر : «ارنست جيلنر Ernest Gellner »، «الزمن والنظـرية فى الانثروبولوجيا الاجتماعية» ، ابريل ، ١٩٥٨ •

(٥) أحد الاسباب الرئيسية الاخرى وراء تأليفه «العلاقات الشخصية المتبادلة» هو تلك النوعية والحدود الهلامية لكلمة «الثقافة» التى فى اطارها تم اقرار وتأكيد الكثير من الجانب الاجتماعى فى أعماق الانسان • فعلى النقيض من مفهوم البناء الاجتماعى ، يعتبر مفهوم «الثقافة» هو أحد أكثر الالفاظ هلامية فى علم الاجتمـاع ، على الرغم ، وربما لهـذا السبب ، من فائدته الهائلة بين يدى الشخص الخبير • أما من ناحية الممارسة ، فان مفهوم «الثقافة» هو فى أغلب الاحيان مرجع مائع للوسـط الاجتماعى زائد «التقليد» أكثر منه فكرة كافيـة عن البنـاء الاجتمـاعى •

(٦) ولمزيد من المناقشة التفصيلية لهذا الرأى الذى عبرنا عنه هنا ، أنظر : «جيرث ، رايت ملز» ، الشخصية والبناء الاجتماعى ، نيويورك ، Brace ، ١٩٥٣ •

(٧) أنظر : «جاك بارزوم وهنرى جراف Barzum & Graff » ، الباحث الحديث ، نيويورك ، Brace ، ١٩٥٧ ص ٢٢٢ : ٢٢٣ •

الفصل التاسع

فى العقل والحرية

مادة اجتماع

الفصل التاسع

فى العقل والحرية

ان ذروة الاهتمام عند عالم الاجتماع بالتاريخ ، هو ما يتأتى له من فكر عن الحقبة التاريخية التى يعيش فيها • وذروة اهتمامه بسيرة الانسان هو ما يتأتى له من فكر عن الطبيعة الاساسية للانسان ، وعن الحدود التى قد تفرضها هذه الطبيعة على تحول الانسان على مسار التاريخ •

لقد كان مثار الاهتمام عند كافة علماء الاجتماع الكلاسيكيين هو السمات البارزة فى عصرهم — وبكيف صيغ التاريخ فى هذا العصر ، أى «بطبيعة الطبيعة البشرية» — وبالتنوع فى الافراد ذلك الذى ساد فى عهودهم • فنجسد ماركس وفيبر وسومبارت ، وكونت وسبنسر ، ودور كايم وفيبلين ، مانهايم ، شومبيتر ، ميشيلز ، كل منهم واجه هذه المشاكل بطريقته الخاصة • أما فى أزمتنا الحالية ، فالكثيرون من علماء الاجتماع لم يفعلوا ذلك • ومع هذا ، فان هذه الاهتمامات قد صارت الآن بالتحديد ، فى النصف الثانى من القرن العشرين ، من القضايا العاجلة ، والمتاعب الثابتة ، والتى تمثل عنصرا حيويا فى التوجه الثقافى لدراستنا البشرية •

(١)

فى أيامنا هذه صار الناس فى كل مكان يسعون الى معرفة الارضية التى يقفون عليها ، والى أين قد يذهبون ، وما هو الشىء — اذا كان

هناك شيء ــ الذي يمكنهم القيام به فيما يتعلق بالحاضر كتـاريخ وفيما يختص بالمستقبل كمسئولية • مثل هذه التساؤلات لا يستطيع أحدا أن يجيب عليها على الفور وبصورة قاطعة • فمن المعروف أن كل عصر يعطى الردود الخاصة به ، وانما بالنسبة للآن ؛ فالامر بالنسبة لنا فيه صعوبة ، فنحن الآن فى نهاية حقبة من الزمن وما علينا الا العمل لكى نتوصل للاجابات الخاصة بنا •

نحن الآن قد وصلنا الى نهاية ما يمكن أن نسميه بالعصر الحديث • وتماما كما حدث وأعقب العصر الاثرى القديم عدة قرون تسيدت فيها العصور الشرقية ، والتى يطلق عليها الغربيون بالتزمت وضيق الافق عصور الظلام ، هكذا الآن العصر الحديث قد أعقبه عصر ما بعد الحديث، وربما قد يعن لنا أن نطلق عليه : الحقبة الرابعة •

وبالتأكيـد ، فان نهاية حقبة تاريخية معينة وبداية أخرى ، هو مسألة تعريف • ولكن التعريفات ، مثلها مثل أى شيء اجتماعى ، تعتبر ذات خاصية محددة من الناحيـة التاريخية • والآن ، فقـد أصبحت تعريفاتنا الاساسية عن المجتمع وعن الذات قد تغلبت عليهـا حقائق جديدة • وأنا بهذا لا أعنى فقط أنه لم يحدث أبدا أن الناس فى اطار الحدود الخاصة بجيل واحد لم يتعرضوا بالكامل لمثل ذلك المعدل السريع من التغيير الذى يشبه الزلازل فى وقوعها • كما أننى لا أعنى فقـط بأننا نشعر بأننا فى مرحلة انتقـال من ذلك النـوع الخاص بالمراحل الحقبية ، وبأننا نجاهد لاستيعاب حدود الحقبة التاريخية الجديدة التى نفترض بأننا سندخلها • وانما ما أعنيه هو أننا عندما نحاول توجيه أنفسنا ــ اذا ما حاولنا فعلا ــ فاننا نجد أن قدرا كبيرا من توقعاتنا وتخيلاتنا القديمة مقيدة فى النهاية بالتاريخ : أى أن قدرا كبـيرا من تصنيفاتنا المعيارية للفكر والشعور هو غالبا بقدر ما يبعدنا عن وجهتنا

فانه يساعدنا على تفسير ما يحدث حولنا ، وأن قدرا كبيرا من توقعاتنا نابع مما حدث من تحول تاريخى كبير من العصور الوسطى الى العصر الحديث ، وأنها عندما بات استخدامها عاما اليوم ، فقد صارت صعبة المأخذ ، وغير مناسبة ، وغير مقنعة . كذلك أعنى أن توجهاتنا الرئيسية ــ الليبرالية والاشتراكية ــ قد انهارت بالفعل على أرض الواقع كتفسيرات ملائمة للعالم ولأنفسنا .

ان هاتين الايديولوجيتين قد جاءا الينا من عصر التنوير ، ويشتركان معا فى كثير من الفروض والقيم . ففى كليهما ، اعتبرت العقلانية المتزايدة هى بمثابة الشرط الاساسى للحرية المتزايدة . فالمفهوم المتحرر عن تحقيق التقدم بواسطة العقل ، والايمان فى العلم كشىء خير لم تشوبه شائبة ، والطلب من أجل التعليم العام والايمان بمغزاه السياسى للديموقراطية ــ كل هذه المثل التى أتى بها عصر التنوير قد ارتكزت على ذلك الافتراض المبهج بوجود علاقة متلازمة بين العقل والحرية . وكل المفكرين الذين بذلوا أقصى جهدهم لتشكيل طرق تفكيرنا قد انطلقوا فى جهودهم فى ظل هذا الافتراض . ففى ظله كانت تتم كل خطوة وكل لحظة من العمل قام بها فرويد : فأن يكون حرا ، على الفرد أن يكون على ادراك ووعى بمزيد من الترشيد والعقلانية ، والعلاج ما هو الا مساعدة لاعطاء العقل فرصته فى العمل بحرية فى مجرى حياة الفرد . ونفس الغرض يرتكز عليه الخط الاساسى للعمل الماركسى : فالناس ، وقد وقعوا فى حبائل فوضى الانتاج غير الرشيد ، لابد أن يكونوا على ادراك رشيد بوضعهم فى المجتمع ، لابد أن يكونوا أصحاب « وعى طبقى » ــ وهو التعبير الذى يتمتع الغرض الماركسى منه بنفس القدر من العقلانية بما لأى تعبير جاء به «بنتام Bentham » .

لقد كانت الليبرالية تهتم بالحرية والعقل باعتبارهما ذروة الحقائق

السامية عن الفرد ، وبالماركسية كذروة الحقيقة عن دور الانسان فى صنع التاريخ من الناحية السياسية • وفى العهد الحديث ، كان الليبراليون والراديكاليون بصفة عامة أناس يؤمنون بصنع التاريخ عقلانيا وبقدرة الفرد الحر على كتابة سيرته الخاصة •

ولكن ما كان يحدث فى العالم يوضح ، كما أعتقد ، لماذا تبـدو الافكار الخاصة بالحرية والعقل الآن يشوبها الغموض فى أغلب الاحيان فى كل من المجتمعات الرأسمالية والشيوعية الحديثة فى زماننا : فلماذا تصبح الماركسية فى أغلب الاحيان بلاغة سقيمة فى مجال الدفاع والذم البيروقراطى ؟ ولماذا تكون الليبرالية وسيلة تافهة وغير مناسبة تخفى وراءها الواقع الاجتماعى ؟ وكما أعتقد ، فان التطورات الكبيرة التى وقعت فى زمنتا يمكن فهمها بطريقة صحيحة ولكن ليس من منطلق التفسير الليبرالى أو الماركسى للامور السياسية والثقافية • فهاتان الوسيلتان من الفكر قد نشأ كخطوط تهتدى بها عملية التأمل فى أنماط المجتمع التى لم تعد موجودة الآن • ونحن نجد مثلا أن «جون ستيوارت ميل» لم يقم أبدا ببحث أنواع الاقتصـاد السياسى القائمة الآن فى العـالم الرأسمالى • كذلك لم يقم كارل ماركس أبدا بتحليل أنواع المجتمعات القائمة الآن فى الكتلة الشيوعية • ولم يحدث أيضا ، أن فكر أيهما أبدا من خلال المشاكل الخاصة بما يسمى بالبلدان المتخلفة التى يحاول سبعة من كل عشر أشخاص فيها الحفاظ على بقائهم اليوم • والآن ، فقـد صرنا نواجه أنواع جديدة من البناء الاجتماعى التى ، من حيث المثل «العصرية» ، تقـاوم التحليـل فى الاطر الليبرالية والاشتراكية التى توارثناها •

والعلامة الايديولوجية المميزة للحقبة الرابعة ـ تلك التى انطلقت

من العصر الحديث ـــ هي أن الافكار الخاصة بالحرية والعقل قد أصبحت موضع نظر ومسألة يدور حولها الجدل ، حيث تزايد العقلانية والرشد قد لايؤخذ به كأمر يؤدى الى تزايد الحرية .

(٢)

تعتبر قضية الدور الذى يؤديه العقل فى شئون البشر وكذلك فكرة الفرد الحر باعتباره ركيزة للعقل هما أكثر الموضوعات أهمية توارثهما علماء اجتماع القرن العشرين عن فلاسفة عصر التنوير . واذا ما كان عليهما أن يظلا القيمتين الرئيسيتين اللذان تتحدد فى اطارهما المشاكل وتتمركز القضايا ، اذن لابد الآن من اعادة صياغة المثل الخاصة بالعقل والحرية كمشاكل بطرق أكثر دقة وأكثر قابلية للحل عما كان متــاح للمفكرين والباحثين الاوائل ، ذلك أن هاتين القيمتين ، العقل والحرية ، هما فى عصرنا هذا ، قد صارا عرضة للخطر الواضح .

والاتجـــاهات البارزة فى هذا المجال معروفة جيدا . فالتنظيمات الكبرى والرشيدة ـــ وهى باختصار البيروقراطيات ـــ رغم تزايد عددها فى الواقع ، الا أن الكيان العقلى للفرد فى مجمله لم يتحقق له هذا . فالناس العاديون ، وقد انحصروا فى قيود الوسط الاجتماعى المحدود لحياتهم اليومية ، غالبا ما لا يستطيعون اعمال عقلهم حول البنـــاءات الكبرى ـــ رشيدة وغير رشيدة ـــ التى تعتبر الاوساط الاجتماعية التى يعيشون فيها أجزاء مساعدة لها . وبناء على هذا ، فهم غالبا ما يقومون بسلسلة من الافعال الرشيدة دون أن يكون لديهم أى فكرة عن الغايات التى يخدمونها ، هذا بالاضافة الى ما هناك من شك متزايد من أن من هم على القمة كذلك ـــ كجنرالات تولستوى ـــ يتظاهرون فقط بأنهـــم يعرفون . ومن هنا ، فان نمـــو مثل هذه التنظيمات ، فى اطار تقسيم

متزايد للعمل ، ينشىء المزيد والمزيد من مجـالات الحياة ، والعمل ، واللهو ، يكون فيها اعمال العقل مسألة أكثر صـعوبة أو مستحيلة . فالجندى ، مثلا ، «يقوم بتنفيذ سلسلة كاملة من الاعمال الرشيدة من الناحية الوظيفية دون أن تكون لديه بالضبط أى فكرة عن الغاية النهائية لهذا الفعل» ، أو عن الوظيفة التى يؤديها كل فعل فى اطار الكل[1] . حتى الناس الذين يتمتعون بأرقى درجات الذكاء التقنى رغم أنهم قد يؤدون العمل الموكول اليهم بكفاءة الا أنهم رغم ذلك لا يعرفون أن هذا العمل سيسفر عن القنبلة النووية الاولى .

والعلم ليس هو بالمحصلة التكنولوجية الثانوية : وكون أن أساليبه التقنية وعقلانيته يلقيان مكانة مركزية فى مجتمع ما ، فليس هذا معناه أن الناس يعيشون بصورة ترتكز على العقل وتخـلو من الاسطورة ، والتدليس والخداع ، والخرافة . كما قد يؤدى التعليم الشـامل الى البلاهة التكنولوجية وضيق الافق الوطنى بأكثر مما يؤدى الى الذكاء المستقل الغنى بالمعرفة . كذلك ، فان التوزع الضخم للثقافة التاريخية قد لا يكون من نتيجته ارتفاع مستوى الحس الثقافى ، بل قد يجعل منها فقط مجرد شىء مألوف — وتتزاحم بشدة مـع فرصـة الابتكار الخلاق . ومن ناحيـة أخرى ، فان وصـول الرشـادة البيروقراطية والتكنولوجيا الى مستوى عال ليس معناه تحقـق المستوى العـالى للفرد أو للذكاء الاجتماعى . أى إنك من المسألة الاولى لا تسـتطيع استنباط الثانية ، ذلك لأن الرشادة الاجتماعية ، أو التكنولوجية ، أو البيروقراطية ليست هى مجرد جمع ضخم للارادة الفردية والقدرة على التعقل . بل ان ذات الفرصة لاكتساب هذه القدرة وتلك الارادة تبدو فى الحقيقة وقد تضاءلت بهذه الرشادة . كما أن الانساق الاجتماعية المنظمـة بصورة رشيدة ليست هى بالضرورة الوسيلة لزيادة الحرية

— سواء للفرد أو للمجتمع ، بل هى فى الحقيقة كثيرا ما تكون وسيلة للطغيان واحتكار الادارة ، ووسيلة لتجريد ذات الفرصة للتعقل ، وذات القدرة على الفعل كانسان حر .

وانه فقط من عدد قليل من المواقع الحاكمة ، أو النقاط المميزة ، فى البناء الرشيد يكون من الممكن فهم القوى البنائية الفاعلة فى الكل الذى بهذا يؤثر على كل جزء محدود يدركه الناس العاديون .

والقوى التى تقوم بتشكيل هذه الاوساط الاجتماعية لا تتـــولد وتتأصل داخلها ؛ ولا هى قابلة للخضوع لسيطرة من يغوصون فيها . أكثر من هذا ، أن هذه الاوساط الاجتماعية هى نفسها يتزايد ترشيدها. فالاسر وكذلك المصانع ، واللهو وأيضا العمل ، وجماعات الجيرة بمثل الدول — جميعها أيضا ، تنزع لكى تكون بمثـــابة آجزاء من شـــمولية رشيدة وظيفيا — أو تخضع لقوى غير رشيدة لا سيطرة عليها .

وعملية الترشيد المتزايدة للمجتمع ، والتعارض بين مثـــل هـــذا الترشيد والعقل ، وانهيار التوافق المفترض بين العقل والحرية ، هذه التطورات كلها تكمن وراء ظهور الانسان الذى «يملك» الرشادة ولكن دون عقل ، والذى تزايد ترشيده الذاتى وأيضا تزايد قلقه . وانه لفى نطاق هذا النمط من الانسان يتم صياغة مشكلة الحرية فى الزمن المعاصر بأفضل ما يكون . ومع هذا فان مثل هذه الاتجاهات والشكوك كثيرا ما لا تصاغ على أنها مشاكل ، كما أنها بالتأكيد لا تلقى اعتراف واسع بها على أنها قضايا أو يسود الشعور بشأنها على أنها تشكل مجموعة من المتاعب . لهذا ، فان حقيقة عدم تمييز صفتها ، ونقص صياغتها ، هو فى الواقع الذى يشكل أهم سمات المشكلة المعاصرة الخاصة بالحرية والعقـــل .

(٣)

من وجهة نظر الفرد ، الكثير مما يحدث يبدو هو نتيجة لاحتكار الادارة ، وللانحراف الاعمى : فالسلطة غالبا لا تكون صريحة واضحة ، فمن هم فى مركز السلطة كثيرا ما لا يشـــعرون بالحاجة الى جعلهـــا واضحة أو بالحاجة الى تبريرها • وهذا هو أحد الاسباب فى أن الناس العاديون ، عندما يقعون فى المتاعب أو عندما يشعرون بأنهم ســـوف يواجهون المسائل ، لا يمكنهم الحصول على رؤية واضحة للاهداف من حيث التفكير والفعل ، كما لا يمكنهم الجزم أو تقرير ذلك الشيء الذى يعرض للخطر تلك القيم التى يرون بشكل غامض أنها تمثل القيـــم الخاصة بهـــم •

ومع التسليم بهذه الآثار الناجمة عن انتشار تيار العقلانية ، فان الفرد «يبذل أقصى ما يستطيع» • فهو يقوم بتعليق تطلعاته وعمله على الوضع القائم فيه ، والذى لا يجد له وسيلة للخروج بها منه • ولكن عندما يحين الوقت المناسب ، نجده لا يسعى الى المخرج ، فهو قد دخل فى حالة تكيف • أما ذلك الجزء من حياته الذى ترك خاليا من العمل ، فهو يستخدمه فى اللهو ، وفى الاستهلاك ، و «للحصول على المتعة» • ومع ذلك ، فان هذه الدائرة الاستهلاكية يكون قد تم ترشيدها أيضا • فهو وقد أصبح مغترب عن الانتاج ، وعن العمل ، يكون مغترب أيضا عن الاستهلاك ، وعن اللهو الحقيقى • وهذا التكيف الذى يحدث للفرد وآثاره الواقعة على وسطه الاجتماعى وذاته ، يفضى ليس فقط الى فقدانه لفرصته ، ثم عندما يأتى الحين ، لقدرته وارادته على التفكـــير العقلى ، بل أيضا على التأثير على فرصه وقدرته على الفعل كرجل حر • وفى الواقع ، فلا القيم الخاصة بالحرية ولا تلك الخاصة بالعقل ، تبدو شيئا معروفا لديه •

وهؤلاء الناس الذين تكيفوا ، ليسوا بالضرورة غير أذكياء ، حتى بعد أن يكونوا قد عاشوا وعملوا ولهوا فى مثل هذه الظروف لفترة كافية من الزمن • ولقد أوضح «كارل مانهايم» هذه النقطة بحديثه عن «الترشيد الذاتى» ، الذى يدل على الطريقة التى يتأتى بها للفرد ، وقد انحصر فى نطاق الشرائح المحدودة للتنظيمات الرشيدة الكبرى ، تنظيم نوازعه وتطلعاته ، أسلوبه فى الحياة وطرائق تفكيره بطريقة نسقية ، وبتوافق أقرب الى التشدد مع «قواعد ولوائح التنظيم» • وهكذا يكون التنظيم الرشيد تنظيما يحقق الاغتراب : فالمبادىء الموجهة للسلوك والانعكاس ، ثم للعواطف كذلك فى الوقت المناسب ، لا تكون قد ترسخت فى الوعى الفردى لانسان عصر الاصلاح ، أو فى العقل المستقل لانسان ديكارت • وتكون المبادىء الموجهة ، فى الواقع ، مغتربة عن ومتناقضة مع كل ما عرف تاريخيا على أنه يمثل الصفة الفردية • وانه ليس من المبالغة القول أن الفرصة أمام العقل بالنسبة لمعظم الناس تتحطم عند أقصى درجة من التطور ، فى الوقت الذى يتزايد فيه الترشيد ، وينتقل موضعه وضبطه من الفرد الى التنظيم الاوسع نطاقا • اذن هناك رشادة دون عقل • ومثل هذه الرشادة لا تتساوى وتتطابق مع الحرية ، بل تكون هى المدمر لها •

وليس من المستغرب أن يكون المثل الخاص بالفردية قد أصبح موضع جدل : ففى عصرنا ما أصبح موضع الاهمية هو طبيعة الانسان ذاتها ، والصورة التى نعرفها عن حدوده ومسئولياته كانسان • فالتاريخ لم ينتهى حتى الآن بعد من اكتشافه لحدود معنى «الطبيعة البشرية» • ونحن لا نعرف كم هو عمق التحول السيكولوجى عند الانسان من العصر الحديث الى الحقبة التاريخية المعاصرة وما قد يكون عليه • ورغم هذا، فلابد لنا الآن أن نتساءل بشكل نهائى : من بين نوعية البشر المعاصرين

التى قد تسود ، أو حتى قد تزدهر ، من هو الذى سيمكن أن نطلق عليه الانسان الآلى السعيد ؟ •

فنحن نعرف بالطبع أن الانسان يمكن أن يتحول الى انسان آلى، بالسبل الكيميائية والطب النفسى ، وبسبل القهر المضطردة ، وبضبط البيئة ، ولكن من الممكن أيضا تحقيق ذلك بفرض الضغوط العشوائية وبتعاقب الظروف التى لا يحكمها أى تخطيط • وان كان التساؤل هو هل من الممكن زرع الرغبة لديه فى أن يكون انسان آلى بارادته وبرضاه ؟ وهل من الممكن أن يكون سعيدا فى هذه الحالة ، وما هى خصائص ومقاصد هذه السعادة ؟ بالطبع لم يعد الامر هو مجرد افتراض ، باعتباره افتراض ميتافيزيقى عن الطبيعة البشرية ، أن الانسان فى أعمق أعماقه لديه الوازع نحو الحرية والارادة فى العقل • وعلينا الآن أن نتساءل : ما هو ذلك الشىء فى طبيعة الانسان ،ما هو ذلك الشىء فى الظرف البشرى اليوم ، وما هو ذلك الشىء فى تلك البناءات الاجتماعية المتنوعة يفضى الى ذلك الانسان الآلى السعيد ؟ وما هو الشىء الذى يقف أمام ذلك ؟ •

ان وجود الانسان المغترب وبكل ما يكمن وراء وجوده من مسائل أصبح يؤثر الآن على مجمل حياتنا الفكرية ويتسبب فى علتنا الفكرية الحالية • وأصبح موضوع الاغتراب من الموضوعات الرئيسية المتعلقة بالظرف البشرى فى الحقبة التاريخية المعاصرة والتى تناولتها كل الدراسات الجادة • وأنا لا أعرف أن هناك فكرة ، أو موضوع ، أو مشكلة كان لها مثل هذا العمق فى التقليد الكلاسيكى ، وبمثل هذا التقصير فى علم الاجتماع المعاصر ، بمثل ما لهذا الموضوع •

لقد كان هذا الموضوع هو ما عرضه ماركس بطريقة ماهرة حيث

تناول فى مقالاته الاولى «الاغتراب» ، وهو موضوع الاهتمام الرئيسى عند جورج سيميل فى مقالته الشهيرة عن «المدينة العاصمة» ، وهو ما كان يعيه جراهام والاس عندما كتب عن «المجتمع الكبير» • ونفس هذا المعنى الذى يتضمنه مفهوم «التحكم الآلى» عند فروم • كذلك فان الخشية من أن تصبح السيادة لهذا النمط من الانسان هى المحرك الاساسى لكثير من الاستخدامات الحديثة لتلك المفاهيم السوسيولوجية مثل : المكانة الاجتماعية والعقد الاجتماعى ، المجتمع والمجتمع المحلى • وتلك هى الفكرة الجوهرية التى تدور حولها مفهومات رايزمان فى «الآخر الموجه» ووليم فوت هوايت فى «الاخلاق الاجتماعية» • ويتضح ذلك المفهوم على نطاق أكثر جماهيرية أو اتساعا «الانتصار» ـــ اذا جاز لنا أن نسميه كذلك ـــ فكرة سيادة مثل ذلك الانسان عند جورج أورويل فى مؤلفه العام ١٩٨٤ •

ومن الناحية الايجابية ، وتلك ناحية تشغل مصدر الصدارة فى أيامنا هذه ، نجد أن مفهوم فرويد عن الهوة ، ومفهوم ماركس عن الاغتراب ، ومفهوم « الأنا » لجورج ميد ، ومفهوم «التلقائية» عند كارين هورنى ، نجد أن هذه المفهومات تستخدم كمقابل مضاد لسيادة الانسان المغترب • فهؤلاء يحاولون البحث عن صفة جوهرية لدى الانسان بوصفه انسان يمكن أن تمكنهم من التسليم بأن ذلك الإنسان فى نهاية الامر ، لا يمكن أن يكون كائنا مغتربا ـــ مغتربا عن الطبيعة ، وعن المجتمع ، وعن نفسه • اذن الدعوة الى سيادة روح «المجتمع» ليست سوى محاولة للدعوة لتوفير المناخ الملائم الذى يمكن أن يستبعد امكانية خلق مثل هذا الانسان ، نظرا لأن الكثير من ذوى النزعة الانسانية أصبحوا يعتقدون بأن الكثير من الاطباء النفسيين يمكنهم من خلال ممارستهم الطبية خلق مثل هذا الانسان المغترب العقلانى ، فانهم

باتوا يرفضون مثل هذه الاساليب التكيفية ، ووراء كل هذا ــ وأكثر منه وراء مشاعر القلق والتفكير التقليدى والحالى عند الدارسون الجديون وأصحاب النظرة العميقة للانسان ــ تكمن تلك الحقيقة البسيطة والحاسمة فى أن الانسان المغترب يشكل نقيض التصور الغربى للانسان الحر • فالمجتمع الذى يزدهر فيه هذا الانسان ، الانسان الآلى السعيد ، هو المجتمع المناقض للمجتمع الحر ــ أو وفقا للمعنى الحرفى والصريح للكلمة المجتمع الديموقراطى • ووجود هذا الانسان ، معناه أن الحرية ازعاج ، وقضية ، ومشكلة لعلماء الاجتماع • فالازعاج بشأن الفرد ــ فى الحدود والقيم التى يدركها بسهولة ــ هو الازعاج المتعلق بعملية «الاغتراب» • والقضية بالنسبة للجماهير ــ من حيث الحدود والقيم التى لا يهتمون بها أساسا ــ هى قضية لا تقل أهمية عن قضية المجتمع الديموقراطى ، كحقيقة وتطلع أيضا •

ولأن هذه القضية وهذا الازعاج لم يحظيا الآن بفهم وادراك واسع ، بل حتى لا يمثلان وجودا صريحا ، فان الشعور بعدم الارتياح وبعدم الاهتمام الذى يحيط بهما هو من العمق والاتساع بدرجة بالغة من حيث المعنى والتأثير • ويعتبر هذا الامر جزء هام من مشكلة الحرية اليوم ، فى سياقها السياسى ، وجزء هام من التحدى الفكرى الذى تمثله صياغة مشكلة الحرية لعلماء الاجتماع المعاصرين •

من هنا ليس تناقضا فى القول ، أن القيم الخاصة بالحرية وبالعقل هى التى تقف خلف غياب عنصر الازعاج ، وخلف الشعور القلق بالعلة والاغتراب • وبالمثل ، القضية الناشئة عن تهديد الحرية والعقل فى الوقت الحالى ، تقود أيضا الى عدم الاهتمام واللامبالاة أكثر منه الى تحديد القضايا الواضحة والصريحة •

والسبب فى أن القضايا والشعور بالازعاج لم يحيطهما الوضوح والصراحة هو أن القدرات والخواص الاساسية فى الانسان والمطلوبة لايضاحهما هما نفسهما الحرية والعقل اللذان يواجهان التهديد والانقاص من شأنهما • فلا مصادر الازعاج ولا القضايا تم صياغتها بجدية كالمشاكل من ذلك النوع الذى يبحثه علم الاجتماع والذى كنت أنتقده فى هذا الكتاب • والوعد الذى يبشر به علم الاجتماع الكلاسيكى ، جزئيا ، هو أن هذه الصياغة سوف تتم فيه •

(٤)

بطبيعة الحال ، مصادر الازعاج والقضايا التى أثير أمرها نتيجة لأزمتى العقل والحرية لا يمكن صياغتها كمشكلة واحدة كبيرة ، وان كان لا يمكن مواجهتها أيضا ، ناهيك عن حلهما ، بتناول كل منهما بتدقيق شديد كمجموعة محددة النطاق من القضايا ، أو من مصادر الازعاج القاصرة على أوساط اجتماعية متناثرة • فهما عبارة عن مشاكل بنائية ، وحتى يتم طرحها يتطلب الامر أن نعمل فى الحدود الكلاسيكية للسيرة البشرية والتاريخ كمراحل حقبية • وفى مثل هذه الحدود فقط ، يمكن تتبع الصلات بين البناء الاجتماعى والاوساط الاجتماعية التى تؤثر على هذه القيم اليوم ونوع التحليل السببى الذى يربطها • ففى اعادة صياغة وتوضيح أزمة الفردية وأزمة صنع التاريخ ، ودور العقل فى حياة الفرد الحر وفى صنع التاريخ يكمن الوعد الذى يبشر به علم الاجتماع •

والوعد الاخلاقى والفكرى لعلم الاجتماع هو أن الحرية والعقل سوف يبقيان قيمتان معززتان ، وأن استخدامهما سوف يتم بصورة جدية ومتماسكة ذاخرة بالخيال فى صياغة المشاكل ، وان كان هذا أيضا يشكل وعدا سياسيا لما يطلق عليه بشكل فضفاض ، الثقافة الغربية •

ففى نطاق العـلوم الاجتمـاعية تتوافق الازمات السياسية والازمات الفكرية الواقعة فى عصرنا : فالعمل بصورة جدية فى أى من المجالـين هو أيضا عمل فى المجال الآخر . ومن ناحيـة أخرى ، فان التقاليـد السياسية لليبرالية الكلاسيكية وللاشتراكية الكلاسيكية معا يستنفذان تقاليدنا السياسية الرئيسية، وانهيار هذه التقاليد باعتبارها أيديولوجيات هو أمر له علاقة بانهيار الصبغة الفردية الحرة وبانهيار العقل فى مجال الامور البشرية . لذلك فان أى جهد لاعادة الصياغة السياسية المعاصرة للاهداف الليبرالية والاشتراكية لابد أن يتضمن ، كعنصر مركزى ، فكرة المجتمع الذى قد يصبح فيه جميع الناس أناس أصحاب عقل له كيانه ، حيث يترتب على العمليات الفكرية فيه نتائج بنائية تتأثر بها مجتمعاتهم، وتاريخهم ، ومن ثم مصائر حياتهم الخاصة .

ومرجع اهتمام عالم الاجتماع بالبناء الاجتماعى لا يتعلق بأى رأى يرى أن المستقبل هو شىء محكوم من الوجهة البنائية . فنحن نقـوم بدراسة الحدود البنائية للقرار البشرى فى محاولة للعثور على نقـاط بمكن تحقيق التدخل الفعال منها لكى نعرف ما هو الذى يمكن ، وما هو الذى يجب ، تغييره من الناحية البنائية اذا ما كان لابد من توسـيع حجم دور القرار الصريح فى صنع التـاريخ . كذلك ، فان اهتمامنا بالتاريخ ليس مرجعـه هو أى رأى يرى أن المستقبل هو شىء حتمى لا مفر منه ، وأن المستقبل مقيد بالماضى . فكون الناس قد عاشوا فى الماضى فى أنواع معينة من المجتمع ، فليس معناه أن هذا يضع حدودا مضبوطة أو كاملة على أنواع المجتمع التى قد يخلقونها فى المستقبل . فنحن ندرس التاريخ لكى نكتشف بوضوح عن البدائل التى يستطيع كل من العقل البشرى والحرية البشرية صنع التاريخ الآن فى نطاقهـا .

وباختصار ، نحن نقوم بدراسة البناءات الاجتماعية التاريخية ، لكى نعثر فى داخلها على السبل التى يمكن بهـا ضبطها ، ذلك لأنه بهـذه الطريقة فقط يتأتى لنا معرفة حدود ومعنى الحرية البشرية .

ان الحرية ليست هى مجرد فرصة لكى يفعل الانسان ما يحـلو له فيها ، كما أنها ليست مجرد مناسبة تتيح الاختيار ما بين مجمـوعة بدائل مقررة ، انما الحرية هى ، أولا وقبل كل شىء ، فرصة لصياغة الخيارات المتاحة ، ولادارة الجدل حولها ـــ ثم بعدئذ تجىء الفرصـة للاختيار . وهذا هو السبب فى أن الحرية لا يمكن أن توجد دون أن يكون هناك دور كبير للعقل البشرى فى الامور البشرية . وفى نطـاق سيرة حياة الفرد وفى نطاق تاريخ المجتمع ، تكون المهمة الاجتماعية التى يؤديها العقل هى صياغة الخيارات ، وتوسيع أفق القرارات البشرية فى مجال صنع التاريخ . فمستقبل الامور المتعلقة بالبشر ليس هو مجرد مجموعة ما من المتغيرات التى يتم التنبؤ بها ، بينما المستقبل هو ذلك الشىء الذى يجب تقريره ـــ فى حدود الامكانات التاريخية . ولكن هذه الامكانات ليست ثابتة ، ففى عصرنا تبدو حدود الامكانات التاريخية واسعة للغاية فى واقع الامر .

وفيما وراء هذا ، نجد أن مشكلة الحرية هى مشكلة كيفية صنع القرارات حول مستقبل الامور المتعلقة بالبشر ومن هو الذى يقـوم بصنعها . فمن الناحية التنظيمية ، المشكلة هى فقط مشكلة الجهاز الخاص بصنع القرار ، ومن الناحية الاخلاقيـة ، تتعـلق المشـكلة بالمسئولية السياسية ، أما من الناحية الفكرية ، فالمشكلة تتعـلق بماهية الشىء الموجود الآن وبشكل المستقبل المحتمل للامور المتعلقة بالبشر . ومع هذا ، فان الجوانب الاوسع فى مشكلة الحرية اليوم تتعلق ، ليس فقط ،

بطبيعة التاريخ وبالفرصة البنائيــة أمام القرارات الواضحة لاحداث اختلاف فى مسارها ، ولكنها تتعلق أيضا بطبيعة الانسان وبحقيقــة أن قيمة الحرية لا يمكن أن ترتكز على «الطبيعة الاساسية للانسان» • وغاية المشكلة بالنسبة للحرية هى مشكلة الانسان الآلى السعيد ، وهى مسألة تنشأ بهذا الشكل فى يومنا هذا ، لأنه قد صار من الواضح لنــا اليوم أن «كافة» الناس «لايرغبون» بالطبع فى أن يكونوا أحرارا ، وأن جميع الناس لا يرغبون أو ليسوا قادرين ، على حسب الحالة ، على بذل جهدهم لاكتساب العقل الذى تتطلبه الحرية •

والتساؤل الآن : تحت أى ظروف يتأتى للناس «الرغبة» فى أن يكونوا أحرارا وقادرين على الفعل بحرية ؟ وتحت أى ظروف تكون لديهم الرغبة والقدرة على تحمل الاعباء التى تفرضها الحــرية وعلى رؤية هذه الاعباء على أنها أقل وطأة من التحولات الذاتية التى يتم تحملها برضاء وسعادة ؟ ثم على الجانب السلبى : هل يمكن بث الرغبة فى الناس لكى يصبحوا أناس آليون «سعداء» ؟ •

ثم ألا يجب علينا ، فى عصرنا ، أن نواجه المسئولية فى أن العقل البشرى كحقيقة اجتماعية ربمــا يكون قد أصــابه التدهور من حيث النوعية والمستوى الثقافى ، ومع ذلك فقد لا يلاحظ الكثيرون هذا بسبب التراكم البالغ للالات التكنولوجية ؟ أليس هذا هو أحد معانى الرشادة دون عقل ؟ وأحد معانى الاغتراب الانسانى ؟ وغياب أى دور حر للعقل فى مجال الامور المتعلقة بالبشر ؟ ان تراكم الآلات التكنولوجية يخفى كل هذه المعانى : فالذين يستخدمون هذه الآلات لا يفهمونها ، والذين يخترعونها لا يزيد فهمهم عن الآخرين • وهذا هو السبب فى أننــا ، ودون قدر كبير من الغموض ، « لا » نستخدم الوفرة التكنولوجيــة كمؤشر عن نوعية البشر وعن التقدم الثقافى •

وحتى يمكن صياغة أى مشكلة ، فالامر يتطلب منا أن نوضح القيم المتضمنة والتهديد الذى تواجهه هذه القيم ، ذلك لأن الشعور بالتهديد الذى تواجهه القيم الاصيلة — كتلك الخاصة بالحرية والعقل — هو الذى يشكل المادة الاخلاقية اللازمة لكافة المشاكل الهامة فى البحث الاجتماعى ، واللازمة كذلك لكل القضايا العامة ومصادر الازعاج الخاصة .

ونحن نجد أن القيم المتضمنة فى المشكلة الثقافية للصيغة الفردية قد تجسمت بشكل مقنع ومناسب فى كل ما طرح من خلال المثل الخاص بانسان عصر النهضة ، والتهديد الذى يواجهه هذا المثل من تسيد وسيطرة الانسان الآلى السعيد بيننا .

كما أن القيم المتضمنة فى المشكلة السياسية المتعلقة بصنع التاريخ ، نجدها قد تجسدت فى مثل «بروميثيوس» فيما يتعلق بصناعته للبشر . والتهديد الذى يواجهه هذا المثل ذو وجهين : فمن ناحية ، أن عملية صنع التاريخ قد تستمر يشوبها القصور والتوقف ، فالناس قد يتخلون عن قصد عن صنع التاريخ ، وهكذا ينجرفون فقط مع التيار . ومن ناحية أخرى ، أن عملية صنع التاريخ قد تتم بالفعل — ولكن عن طريق دوائر الصفوة ودون مسئولية مؤثرة بالنسبة لمن يتوجب عليهم محاولة الابقاء على النتائج التى ترتبت على قراراتهم وعلى أخطائهم .

وبالنسبة لى فليس عندى رد على مسألة اللامسئولية السياسية فى عصرنا أو على المسألة الثقافية والسياسية الخاصة بالانسان الآلى السعيد . ومع هذا ، أليس من الواضح أنه لن يكون من الممكن العثور على اجابات ما لم يتم على الاقل مواجهة هذه المشاكل ؟ أليس من الواضح أن من يتوجب عليهم مواجهتها ، قبل أى أناس آخرون ، هم علماء الاجتماع فى المجتمعات الغنية ؟ ومعنى أن الكثيرين منهم لا يفعلون ذلك الآن لهو بالتأكيد أعظم الاخطاء البشرية يرتكبها فى زماننا أناس مؤهلون لهذه المواجهة .

المراجـــــع

(١) قارن ، مانهايم Mannheim ، «الانسان والمجتمع» نيويورك ، هاركورت ، بريس ، ١٩٤٠ .

الفصل العاشر

في السياسات

الفصل العاشر

فى السياسات

ليست هناك ضرورة تحتم على العاملين من علماء الاجتماع ترك المعنى السياسى لعملهم يخضع «للاحداث» الطارئة فى أوضاعه لكى تقوم هى بتشكيله ، أو ترك توظيف هذا المعنى لكى يتقرر وفقا لأغراض أناس آخرين . فعلماء الاجتماع فى قدرتهم تماما مناقشة المعانى السياسية لعملهم كما فى قدرتهم تقرير توظيف هذه المعانى باعتبار هذا من الامور المتعلقة بسياستهم الخاصة . فهم الى حد كبير لم يختبر مداه بدرجة واسعة ، يستطيعون التأثير أو حتى تقرير هذه السياسات . ومثل هذا التقرير ، يتطلب منهم أن يصدروا أحكاما واضحة صريحة ، وأيضا قرارات تتعلق بالنظرية والمنهج والحقيقة . وهذه الاحكام ، باعتبارها أمور تتعلق بالسياسة ، فهى تشكل الاهتمام المناسب عند الباحث الفرد بمثل ما تمثل عند معشر الدارسين . ومع هذا ، أليس من الواضح أن الاحكام الاخلاقيه والسياسية الواردة ضمنا لها تأثير أكبر بكثير من المناقشات الصريحة ذات السياسة الشخصية والمهنية ؟ انه فقط يجعل مثل هذه المؤثرات أمور تدخل فى نطاق مناقشة السياسة، سيكون فى استطاعة الناس أن يصبحوا على وعى كامل بها ، وهكذا يتأتى لهم محاولة ضبط آثارها على عمل علم الاجتماع وعلى معناه السياسى .

وليست هناك وسيلة يمكن بها لأى عالم اجتماع تجنب الاخذ باختيارات القيمة وتضمينها فى عمله ككل • فالمشاكل ، مثل القضايا ومصادر الازعاج ، تهتم بالتهديدات التى تواجهها القيم المتوقعة ، ولا يمكن صياغتها بوضوح دون الاقرار والتسليم بهذه القيم • وهكذا يتزايد توظيف البحث ، ويتزايد توظيف علماء الاجتماع ، فى أغراض بيروقراطية وأيديولوجية • وكون الامر بهذا الشكل ، فان الدارسون للانسان والمجتمع ، كأفراد وكأساتذة ، يواجهون تساؤلات مثل : هل هم على وعى بالقيم والتوظيفات الخاصة بعملهم ؟ هل هذه القيم والتوظيفات تخضع لضبطهم الخاص ؟ وهل هم يرغبون فى العمل على ضبطها ؟ ثم بعد ذلك ، كيف يجاوبون على هذه التساؤلات ، أو كيف يفشلون فى الاجابة عليها ، ثم كيف يكون توظيفهم أو فشلهم فى توظيف الاجابات فى عملهم وفى حياتهم المهنية هو الذى يحكم اجابتهم على التساؤل النهائى : هل هم فى عملهم كعلماء اجتماع يكونون :

(١) مستقلين ذاتيا من الناحية الاخلاقية ،

(٢) خاضعون للاخلاقيات الخاص بأناس آخرين ، أم

(٣) منساقون أخلاقيا •

ان العبارات التى حملت فى طياتها هذه المشاكل — واننى على ثقة من أنها صيغت بالنوايا الحسنة — لم تعد تصلح بدرجة كافية • لذلك، فقد أصبح على علماء الاجتماع الآن مواجهة هذه التساؤلات المصيرية تماما بصورة فعلية • ومن ناحيتى ، فاننى فى هذا الفصل سوف أطرح لبعض الاشياء التى يبدو من الضرورى وضعها موضع الاعتبار فى أى اجابة على هذه التساؤلات ، كما أننى سوف أطرح تلك الاجابة التى أصبحت أعتقد ، فى غضون السنوات القليلة الماضية ، أنها اجابة معقولة •

(١)

ان عالم الاجتماع وهو منكب على عمله لايواجه فجأة بالحاجة الى اختيار القيم ، اذ هو يمارس عمله بالفعل بناء على قيم معينة . والقيم التى تجسدها الآن هذه العلوم كان اختيارها قد تم من القيـــم التى نشأت فى المجتمع الغربى ، والا بخلاف ذلك يكون علم الاجتماع مستوردا . وبطبيعة الحال ، هناك من يتحدثون بالفعل كما لو أن القيم التى قاموا باختيارها «تسمو» على المجتمع الغربى أو أى مجتمع آخر ، وهناك البعض الآخر يتحدثون عن مستوياتهم النموذجية كما لو أنها كانت «ملازمة» وفطرية فى أحد المجتمعات القائمة ، وكنوع من القدرة الكامنة التى لم يلحظها أحد . ومع هـــذا ؛ فمن المؤكد أن الاتفـــاق سيكون كبيرا الآن على أن القيم المتلازمة وتقاليد علم الاجتماع لا هى سامية ولا هى فطرية . بل هى ببساطة مجرد قيم نادى بها الكثـــيرون ومورست فى حدود دوائر صغيرة . فما يسميه الانسان بالحكم الاخلاقى ما هو الا مجرد تعبير عن رغبته فى التعميم ، وهكذا يتيح للآخرين تلك القيم التى وقع اختياره عليها .

وبالنسبة لى ، تبدو هناك ثلاث مثل سياسية غالبة ومتلازمة مع تقاليد علم الاجتماع ، ومن المؤكد أنها تنطوى فى الوعد الفكرى لهذه التقاليد . أول هذه المثل هى ببساطة تلك القيمة الخاصـــة بالثقـــة ، وبالحقيقة . ومشروع علم الاجتماع ذاته ، حيث أنه يحكم ويقـــرر الحقيقة ، يكتسب معنى ومقصد سياسى . ففى عالم يتواصل فيه اللغو بشكل واسع ، يكون أى تعبير بالحقيقة له مغزى سياسى وأخلاقى . وكافة علماء الاجتماع ، بحقيقة وجودهم ، نجدهم منغمسون فى الصراع

بين التنوير والاظلام . ففي عالم مثل عالمنا ، لكى تمارس علم الاجتماع معناه ، أولا وقبل شيء ، ممارسة السياسات الخاصة بالصدق والحقيقة.

ومع هذا فان تعبير السياسات الخاصة بالصدق والحقيقة ليس هو بالتعبير الكافى والملائم عن القيم التى يهتدى بها مشروعنا . فالصدق والحقيقة فى اكتشافاتنا ، والدقة فى أبحاثنا — عندما ينظر لهما فى وضعهما الاجتماعى — قد تكون أو لا تكون متفقة مع الامور المتعلقة بالبشر . أما بالنسبة لما اذا كانت متفقة ، وكيف هى منفقة ، فهو فى حد ذاته يشكل قيمة ثانية ، هى باختصار ، قيمة الدور الذى يؤديه العقل فى الامور البشرية . ثم بجانب هذا تأتى قيمة ثالثة — هى قيمة الحرية بكل ما يحيط معناها من غموض . وكما دللت من قبل ، أن كلا من الحرية والعقل يشكلان عنصرا مركزيا فى حضارة العالم الغربى ، وكلاهما سرعان ما انتشرا كمثلين ، ولكن فى حالة أى تطبيق معين ، فانهما ، كمعايير وأهداف ، يؤديان الى حدوث الكثير من الخلاف . وهذا هو السبب فى أن احدى مهامنا الفكرية ، كعلماء اجتماع ، هى توضيح التصور الامثل للحرية والتصور الامثل للعقل .

فاذا كان للعقل البشرى أن يلعب دور أكبر وأكثر وضوحا فى صنع التاريخ ، فمن المؤكد أن علماء الاجتماع ينبغى أن يكونوا على رأس أصحاب العقول المؤدية لهذا الدور ، ذلك لأنهم فى عملهم يمثلون كيفية توظيف العقل فى فهم الامور المتعلقة بالبشر ، وهذا هو ما يعملون من أجله . فاذا ما كانت لديهم الرغبة فى العمل ومن ثم للفعل بصورة واعية، فلابد لهم أولا من تحديد موقعهم داخل الحياة الفكرية والبناء الاجتماعى — التاريخى لعصرهم . فهم أولا عليهم تحديد موقعهم فى دوائر الذكاء الاجتماعية ، ثم عليهم بعد ذلك ارجاع هذه الدوائر ،

بدورها ، الى البناء الخاص بالمجتمع التاريخى . وليس هذا هو المجال الذى يتم فيه تناول هذا الموضوع ، وانما هنا أريد بايجاز أن أميز بين ثلاثة أدوار سياسية قد يستوعب عالم الاجتماع نفسه فيها كانسان صاحب عقل .

هناك قدر كبير من العلوم الاجتماعية ، وربما علم الاجتماع بصفة خاصة ، يحتوى على ذلك الخط الرئيسى الذى يعطينا صورة الملك — الفيلسوف . فبدءا من أوجست كونت حتى كارل مانهايم ، يجد المرء تلك الدعوى ومحاولة التبرير للقدرة الاعظم لـ «الانسان صاحب المعرفة» . وبعبارة أكثر تحديدا ، نجد تتويجا لوسائل العقل ، وبالطبع، التتويج لـ «الانسان صاحب العقل» . وهذه الفكرة عن دور العقل فى الامور البشرية ، كانت وحدها ذات تأثير فى جعل علماء الاجتماع، فى نطاق عام ، يقبلون العقل كقيمة اجتماعية . فقد أراد هؤلاء العلماء تجنب ما يحيط بمثل هذه الفكرة من حماقة عند تقييمها وفقا لحقائق القوة . كذلك ، فان هذه الفكرة تسير مناقضة لما يحويه الكثير من صور الديموقراطية من عناصر الضآلة ، حيث أنها تنطوى على نوع من الارستوقراطية ، حتى ولو كانت أرستوقراطية الموهبة والنبوغ وليست أرستقراطية الميلاد أو الثروة . ولكن تلك الفكرة الحمقاء فى أنه ينبغى أن يكون الفيلسوف — الملك هى مجرد فكرة واحدة عن الدور العام الذى يحاول عالم الاجتماع القيام به .

ومن ناحية أخرى ، فان النوعية التى تتسم بها الامور السياسية تعتمد كثيرا على الخواص الفكرية لأولئك الذين ينغمسون فيها . وأنا لو كنت ملكا «فيلسوفا» ، لأغوانى الامر بهجر تلك المملكة ، ولكن عندما يكون الملوك بدون أى «فلسفة» ألن يكونوا عاجزين عن تولى مسئولية الحكم ؟ .

أما الدور الثانى ، والآن هو أكثر الادوار شيوعا ، هو أن تكون مستشار للملك • وتعتبر التوظيفات البيروقراطية التى وصفتها من قبل هى التجسيد الحالى لهذا الامر • وينزع عالم الاجتماع الفرد للانغماس فى تلك التيارات الكثيرة السائدة فى المجتمع الحديث والتى تجعل من الفرد جزء من بيروقراطية رشيدة من الناحية الوظيفية ، والى الغوص فى تخصصه الضيق بطريقة تجعله وكأنه غير مهتم صراحة بالبناء الخاص بمجتمع ما بعد العصر الحديث • ولقد رأينا من قبل ، أن علم الاجتماع فى هذا الدور غالبا ما ينحو لكى يكون جهاز رشيد من الناحية الوظيفية ، حيث ينزع عالم الاجتماع الفرد الى فقد استقلاليته الاخلاقية الذاتية والكيان الخاص برشادته ، كما أن دور العقل فى الامور المتعلقة بالبشر ينحو لكى يكون مجرد تنقية للاساليب التقنية الخاصة بالتوظيفات الادارية واليدوية •

ومع ذلك ، فان هذا هو دور مستشار الملوك فى واحد من أسوأ أشكاله ، وهذا الدور ، كما أعتقد ، ليس فى حاجة لأن يأخذ شكل ومعنى النمط البيروقراطى • فهو دور يصعب القيام به بشكل يتيح الاحتفاظ بالكمال والنزاهة الأخلاقية والفكرية ، ومن ثم الحرية فى العمل على على انجاز مهام علم الاجتماع • لقد صار من السهل على المستشارين تخيل أنفسهم وقد أصبحوا فلاسفة وأن زبائنهم هم من الحكام المتنورين • ومع هذا ، فحتى لو كانوا فلاسفة ، فمن يخدمونهم قد لايكونوا متنورين• وهذا هو أحد الاسباب فى أننى قد تأثرت كثيرا كما أبداهوا بعض المستشارين من ولاء لحكامهم المستبدين ذوى العقول المظلمة ، فهذا النوع من الولاء لا يبدو مقيدا يعجز عن الاستبداد ولا يتعصب أحمق •

وأنا هنا لا أوكد أن دور المستشار لا يمكن القيام به بصورة جيدة ، بل فى الحقيقة أنا أعلم أنه ممكن ، وأن هناك أناس يقومون

به ؛ انما أقول أنه مادام هناك الكثير من مثل هؤلاء الناس ، فان المهام السياسية والفكرية التى يقوم بها علماء الاجتماع الذين يختارون الدور الثالث سيكون عبئها أقل بكثير ، لأنها تنطوى على هذا الدور .

أما الوسيلة الثالثة التى قد يحاول بها علماء الاجتماع ادراك قيمة العقل ودوره فى مجال الامور البشرية ، فهى وسيلة معروفة جيدا ، بل وأحيانا تتم ممارستها . هذه الوسيلة هى أن تبقى مستقلا ، وتقوم بعملك الخاص ، وتختار مشاكلك الخاصة ، ولكن فى الوقت نفسه تقوم بتوجيه هذا العمل «لـــ» الملوك وكذلك الى «عامة الناس» . ومفهوم كهذا يستحثنا على تصور علم الاجتماع على أنه نوع من أجهزة المخـــابرات العامة الذى تعنيه القضايا العامة والمتاعب الخاصة كما تعنيه الاتجاهات البنائية التى تبرزهما فى عصرنا . كما أن هذا المفهوم يستحثنا أيضا على تصور علماء الاجتماع الافراد كأعضاء رشيدين فى رابطة تتمتـــع بالضبط الذاتى ، وهى التى نسميها بالعلوم الاجتماعية .

ونحن بتقلدنا لهذا الدور ، الذى سأشرحه مفصلا بعـــد لحظة ، فاننا نحاول «الفعل» وفقا لقيمة العقل ، وبافتراض أننا قد نكون فى نفس الوقت أصحاب تأثير فعال ، فاننا بذلك نفترض نظـــرية لصنع التاريخ : أى أننا نفترض أن «الانسان» هو شخص حر ، وأنه بمسعاه الرشيد يكون فى استطاعته التأثير على مسار التاريخ . وأنا هنا لست مهتم «بقيمتى» الحرية والعقل ، وانما يعنينى فقط مناقشة تحت أى نظرية للتاريخ يمكن تحقيق هاتين القيمتين فى ظلها .

(٢)

مع أن الناس جميعا أحرار فى صنع التاريخ ، الا أن هناك البعض منهم أكثر حرية من الآخرين . ومثل هذه الحـــرية تتطلب امكانيـــة الوصول الى وسائل اتخاذ القرار ووسائل القوة التى قد يصنع بهـــا

التاريخ الآن • ولكن التاريخ لا يصنع هكذا دائما ، وفيما يلى ، فاننى أتحدث فقط عن الفترة المعاصرة التى باتت فيها وسائل القـدرة على صنع التاريخ غاية فى الاتساع وغاية فى التمركز • واستشهادا بهـذه الفترة بالذات يأتى اعتقـادى أنه اذا لم يكن البشر يقومون بصـنع التاريخ ، فانهم يميلون بصفة متزايدة لكى يكونوا الاوعية والادوات التى يستخدمها صناع التاريخ ولكى يكونوا أيضا عناصر صنع التاريخ •

وأيا كان كبر حجم الدور الذى تلعبه القرارات القاطعة فى صنع التاريخ ، فهى فى حد ذاتها تمثل مشكلة تاريخية • فهذه القرارات تعتمد الى حد كبير على وسائل القدرة المتوافرة فى أى وقت معـين فى أى مجتمع معين • ففى بعض المجتمعات ، تقوم الافعال التى لا حصر لها التى يأتى بها أناس لا حصر لهم بتعديل الاوساط المجتمعية الخاصـة بها ومن ثم تقوم تدريجيا بتعديل البناء ذاته • وهذه التعديلات هى التى تشكل مسار التاريخ ، والتاريخ تيار جارف ، رغم أنه فى المحصلة النهائية ، «الناس هم الذين يصنعونه» • وهكذا ، قد يتمكن العـدد الذى لا يعد ولا يحصى من أصحاب المشروعات والعدد الذى لا نهـاية له من المستهلكين ، وبواسطة عشرات الآلاف من القرارات كل دقيقة ، من تشكيل واعادة تشكيل اقتصاد السوق الحر • وربما كان هذا هو القيد الاساسى الذى كان يعنيه ماركس فى ذهنه عندما كتب يقول فى «ضباب القرن الثامن عشر» : «البشر يصنعون تاريخهم الخاص ، ولكنهم لا يصنعونه كما يحلو لهم تماما ، فهم لا يصنعونه فى ظل ظروف تكون من اختيارهم هم •••» •

اذن ، فالقدر ، أو «الحتمية» التى لها علاقة بالاحداث التاريخية التى تكون بعيدة عن متناول ضبط أى دائرة أو جماعة من الناس تتمتع بثلاث سمات :

(١) أن تكون محكمة بما يكفى للتعرف عليها .

(٢) أن تكون لها القدرة الكافية على التقرير مع ما يترتب على ذلك من نتائج .

(٣) أن تكون فى وضع يتيح التنبؤ بهذه النتائج وهكذا يمكن الاخذ بها فى الاعتبار .

ووفقا لهذا التصور ، تكون الاحداث هى الخلاصة والنتائج غير المقصودة للقرارات التى لا حصر لها التى يصدرها أناس لا نهاية لهم . وبهذا يكون كل قرار من قراراتهم فورى فى نتيجته ويخضع للالغاء أو التعزيز بقرارات أخرى . كذلك ، فانه لا توجد أى صلة بين قصد أى انسان واحد وخلاصة نتيجة القرارات التى لا حصر لها . وبهذا تقع الاحداث من وراء القرارات التى يصدرها البشر ، اذن فصنع التاريخ يتم من وراء ظهر البشر .

وبمثل هذا التصور ، لا يكون القدر المحتوم حقيقة عامة شاملة ، فهو لا يتلازم مع طبيعة التاريخ ولا مع طبيعة الانسان . انما القدر المحتوم هو سمة لنوع من البناء الاجتماعى له خاصته المحددة تاريخيا . ففى مجتمع يكون السلاح النهائى المستخدم فيه هو البندقية ، والوحدة الاقتصادية النمطية فيه هى الاسرة — المزرعة والمحل الصغير ، والدولة — الامة فيه لم تتواجد بعد أو مازالت مجرد اطار بعيد ، وعملية الاتصال فيه تتم عن طريق الكلمة الشفهية ، والاعلانات الموزعة باليد ، ومنصة الخطابة — فى مجتمع مثل « هذا » ، يكون التاريخ فى الواقع قدر محتوم .

ومع هذا ، فلنقدر الآن المفتاح الرئيسى للظرف الخاص بنا : أليس هذا الظرف ، هو التوسع الهائل والتمركز القطعى الحاسم لجميع وسائل

القدرة والقرار ــ أى وسائل صنع التاريخ ؟ فى المجتمع الصناعى الحديث ، نجد أن وسائل وخدمات الانتاج الاقتصادى قد تطورت وتمركزت ــ حيث الفلاحين والحرفيين قد حلت محلهم الشركات الخاصة والصناعات الحكومية • وفى الامة ــ الدولة الحديثة ، تجد وسائل العنف والقهر والالزام والادارة الحديثة قد مرت بتطورات مماثلة ــ حيث الملوك يضبطون النبلاء ، والجيوش النظامية ثم الآن المعدات العسكرية المخيفة قد حلت محل الفرسان ذوى العدة والعتاد • أما ذروة التطورات الثلاث ــ فى مجال الاقتصاد ، والسياسة ، والقهر والالزام ــ فى فترة «ما بعد العصر الحديث» فهى تقع الآن فى أكثر صورها درامية فى الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى • ففى عصرنا هذا ، قد تمركزت الوسائل العالمية والوطنية لصنع التاريخ • اذن ، أليس من الواضح بهذا أن مجال وفرصة العامل البشرى صاحب الوعى فى صنع التاريخ قد صارا متوافران الآن بصورة مزيدة ؟ ان صفوة القوة التى تعمل فى خدمة هذه الوسائل تقوم الآن بالفعل بصنع التاريخ ــ وللتأكيد «تحت ظروف ليست من اختيارهم» ــ ولكن بالمقارنة مع أناس آخرين وحقبات تاريخية أخرى ، من المؤكد أن هذه الظروف نفسها لا تبدو بصورة غالبة •

ان هذا بالتأكيد ليمثل التناقض الذى يتسم به وضعنا الحالى : فالحقائق المتوافرة عن الوسائل الاحدث لصنع التاريخ ما هى الا دلالة على أن البشر ليسوا بالضرورة فى قبضة القدر ، وأن البشر «بامكانهم» الآن صنع التاريخ • ومع ذلك فان هذه الحقيقة باتت تثير السخرية بحقيقة أخرى وهى أن تلك الايديولوجيات التى توفر للبشر الامل فى صنع التاريخ قد ضعفت وفسدت الآن فقط وأصبحت تتهاوى فى المجتمعات الغربية • وما هذا الانهيار الا انهيار أيضا للتوقعات والآمال

التى آثارها عصر التنوير ، وأن العقل والحرية سوف يسودان كقوتان هائلتان فى التاريخ البشرى . ثم وراء هذا يأتى هناك أيضا التخلف والقصور الفكرى والسياسى للمجتمع المحلى .

فأين هى تلك الصفوة الفكرية المثقفة التى تحمل مسئولية ادارة الجدل الكبير فى العالم الغربى « و » التى يكون لعملها كجماعة من المفكرين المثقفين التأثير النافذ بين الأحزاب وعامة الشعب ، وتتصل بالقرارات الكبرى فى عصرنا ؟ وأين هى وسائل الاتصال الجماهيرى المفتوحة أمام هؤلاء الناس ؟ ومن هو من بين أولئك الذين يتحملون مسئولية ويعملون فى خدمة الدولة ذات الحزبين وأجهزتها العسكرية الكاسرة يكون على وعى ويقظة بما يجرى فى عالم المعرفة والعقل والشعور ؟ ولماذا يكون المفكر الحر على هذه الدرجة من البعد والانفصال عن قرارات السلطة ؟ ولماذا أصبح يسود الآن بالفعل بين أصحاب القوة والسلطة مثل ذلك الجهل الرفيع اللامسئول ؟

فى الولايات المتحدة اليوم ، صار المفكرين ، والفنانين ، والوزراء، والدارسين ، والعلماء ، يخوضون المعركة فى حرب باردة يفرزون ويرددون فيها صدى التشويش والاضطراب الذى يسود فى المحافل الرسمية . فلا هم يرفعون المطالب لصاحب القدرة التنفيذية من أجل تحقيق سياسات بديلة ، ولا هم يطرحون مثل هذه البدائل أمام الشعب . انهم لا يحاولون تضمين السياسات الخاصة بالولايات المتحدة أى محتوى أو مضمون مسئول ، بل هم يساعدون فى تفريغ السياسات من مضمونها وابقاءها خاوية . ثم ما يجب أن نطلق عليه القصور والتخلف المسيحى عند رجال الدين ما هو الا جزء من هذه الحالة الاخلاقية المؤسفة وبنفس القدر الذى أصبح فيه العلماء أسرى أجهزة العلم الوطنية .

والكذبة الصحفية ، التى أصبحت روتينا ساريا ، هى أيضا جزء من هذه الحالة ، وهكذا أيضا الكثير من تلك التفاهة المظهرية المحسوبة على علم الاجتماع .

(٣)

انني بالطبع لا أتوقع (ولا مناقشتى الراهنة فى مجموعها تتطلب) قبول جميع علماء الاجتماع بهذا الرأى . انما أقصى ما أريد قوله هنا هو ، وقد تم القبول بقيمتى العقل والحرية ، أنه لمن المهام الرئيسية لأى عالم اجتماع هو تقرير حدود الحرية وحدود دور العقل فى التاريخ.

فعالم الاجتماع بتوليه مهمة الدور الثالث ، لا يرى نفسه على أنه بمثابة كائن مستقل ذاتيا يقف «خارج المجتمع» . فهو بالاشتراك مع معظم الناس الآخرين ، يشعر «فعلا» بأنه يقف بعيدا عن القرارات الرئيسية فى مجال صنع التاريخ فى هذه الفترة ، وفى ذات الوقت ، فانه يعلم بأنه واحد من بين الذين يتحملون الكثير من النتائج المترتبة على هذه القرارات . وهذا هو أحد الاسباب الرئيسية فى أنه بقدر ما هو مدرك لما يفعله ، فانه يصبح رجل سياسى بشكل قاطع وصريح . اذن ، فلا يوجد أحد يقف «خارج المجتمع» ، انما المسألة هى أين يقف كل انسان داخل هذا المجتمع .

ان عالم الاجتماع يعيش عادة فى ظروف وسط بين الطبقة ، والمكانة ، والسلطة . وبالنشاطات التى يمارسها فى هذه الاوساط الاجتماعية ، لا يكون عادة فى وضع أفضل من الفرد العادى فى حل المشاكل البنائية ، لأن حل هذه المشاكل من المكن أن لا يكون أبدا مجرد حل فكرى أو مجرد حل يتسم بالخصوصية . كذلك الصياغة الملائمة

لهذه المشاكل لا يمكن قصرها على الاوساط المفتوحة أمام علماء الاجتماع، ونفس الشيء بالنسبة لحلولها ، وهو ما يعنى ، طبعا ، أنها بمثابة مشاكل لها قدرة اجتماعية وسياسية واقتصادية • ومع هذا ، فعالم الاجتماع ليس فحسب مجـــرد «انسان عادي» لأن مهمته هو بالذات أن يعمل فكريا على تجاوز الاوساط الاجتماعية التى يعيش فيها ، وهو يفعـــل هذا عندما يضع فى تقديره مثلا النظام الاقتصادى لانجلترا فى القرن التاسع عشر أو التنظيم الهرمى للمكانة فى أمريكا القـــرن العشرين ، والمؤسسات العسكرية فى امبراطورية روما ، أو البناء السياسى للاتحاد السوفييتى •

وهو بقدر ما تعنيه قيمتى العقل والحرية ، فان أحـــد الخطوط الاساسية للموضوعات التى يقوم بدراستها يكون له علاقة بالتغيرات الموضوعية المتاحة بالنسبة لأنماط معينة من الناس فى نطاق أنماط معينة من البناء الاجتماعى لكى يكونوا أحرارا ورشيدين كأفراد • وأحـــد الموضوعات الاخرى فى دراسة عالم الاجتماع هو ما يتصل بماهيـــة الفرص ، اذا كانت هناك فرص ، التى تتاح للناس فى الاوضاع المختلفة فى أنماط المجتمع المختلفة ، أولا ، نتيجة لتفكيرهم العقلى وخبرتهم ، بما يمكنهم من تجاوز الوسط الاجتماعى الذى يعيشون فيه كل يوم ، وثانيا ، بفضل قدرتهم ، بما يمكنهم من الفعل مع ما يأتى من ذاك من تأثير بالنسبة للبناء الخاص بمجتمعهم والفترات التى يعيشون فيهـــا • وكل هذا ، يمثل المشاكل الخاصة بدور العقل فى التاريخ •

وفى تقدير هذه المشاكل ، سوف يكون من السهل أن نرى أن بعض الناس فى المجتمعات الحديثـــة يملكون قدرة الفعل بدرجة كبـــيرة من التوافق البنائى ويكونون على وعى تام بالتبعات المترتبة على أفعالهم ،

بينما آخرون يملكون مثل هذه القدرة ولكنهم يفتقدون الوعى والادراك بمجالها المؤثر ، فى نفس الوقت يكون هناك كثيرون لا يمكنهم تجاوز الوسـط اليومى الذى يعيشون فيه بادراكهم للبنـاء الاجتماعى ، أو بالتأثير فى التغير البنائى بأى وسيلة للفعل تكون متاحة لهم •

اذن ، كعلماء اجتماع ، نحن نحدد الموقع الذى نقف فيه • وبطبيعة عملنا ، فاننا نكون على وعى بالبناء الاجتماعى ، وبقدر ما على وعى بالميكانيزمات التاريخية لحركة هذا البناء • ومع هذا ، فمن الواضح أننا لا نملك سبل الوصول الى وسائل القوة الرئيسية الموجودة الآن والتى يمكن التأثير بها الآن على هذه الميكانيزمات ، وانما نحن نملك بالفعل احدى «وسائل القوة» الهشة غالبا ، وهى تلك التى تتيح لنـا مخرجا للدور السياسى الذى نقوم به وللمغزى السياسى لعملنا •

وكما أعتقد ، فان المهمة السياسية لعالم الاجتماع الذى يقبـل بقيمتى الحرية والعقل ، هى التى تمكنه من توجيه عمله لكل نمط من أنماط الناس الثلاث الاخرى والتى قمت بتوصيفها من حيث القـدرة والمعرفة •

فبالنسبة للذين يتمتعون بالقدرة ويكونون على وعى بها ، يعزو عالم الاجتماع درجات مختلفة من المسئولية للنتائج البنائية التى يجد من خلالها عمله أنها قد تأثرت بشكل قاطع بقرارات هؤلاء الناس أو بافتقادهم القرارات •

وبالنسبة للذين تترتب على أفعالهم مثل هذه النتائج ، وان كان لا يبدو أنهم على وعى بها ، فانه يقوم بتوجيه ما اكتشفه عن هـذه النتائج ، فهو يحاول القيام بعملية التهذيب والتعليم ، ثم بعدئذ يقوم مرة أخرى بتوجيه المسئولية •

أما بالنسبة للذين يفتقرون بصفة منتظمة لمثل هذه القدرة ويقتصر ادراكهم على الاوساط اليومية التى يعيشون فيها، فان عالم الاجتماع يقوم بالكشف عن معنى الاتجاهات والقرارات البنائية بالنسبة لهذه الاوساط الاجتماعية ، والطريقة التى ترتبط بها المتاعب الشخصية بالقضايا العامة . وعلى مسار هذه الجهود ، فانه يعلن عما اكتشفه فيما يتعلق بالافعال الخاصة بمن هو أكثر قدرة . وهذه هى مهامه التعليمية الرئيسية ، كما أنها هى التى تشكل مهامه العامة الرئيسية عندما يقوم بمخاطبة جمهور أكبر . وهنا ، لنقم الآن بالقاء نظرة فاحصة على بعض المشاكل والمهام التى يطرحها علينا هذا الدور الثالث .

(٤)

بغض النظر عن مجال وبعد ادراكه ، فان عالم الاجتماع هو عادة بمرتبة الاستاذ ، وهذه الحقيقة المتعلقة بوظيفته هى التى تقرر بقدر كبير ما الذى فى قدرته أن يفعله . فهو كأستاذ يخاطب الطلبة ، وفى بعض الاحيان، يخاطب بالكلام والكتابة، الناس على نطاق أوسع وفى وضع أكثر استراتيجية . وفى مناقشة ماهية الدور العام الذى يقوم به ، فلنقترب من تلك الحقائق البسيطة الخاصة بالقدرة ، أو اذا شئت ، الحقائق الخاصة بعدم قدرته .

انه بقدر اهتمامه بالتعليم الليبرالى ، أى التحررى ، يكون لدوره العام هدفان : أن ما ينبغى أن يفعله للفرد هو تحويل المتاعب والاهتمامات الشخصية الى قضايا ومشاكل اجتماعية تكون متاحة للتفكير العقلى — فهدفه هو مساعدة الفرد على أن يكون انسان يعلم نفسه ، والذى عندئذ يكون متعقل وحر . أما ما ينبغى عليه أن يفعله للمجتمع فهو أن يقوم بمحاربة جميع القوى التى تعمل على تدمير الاصالة فى عامة

الناس وتخلق مجتمعا جماهيريا أو اذا ما وضعنا الهـدف فى صورته الايجابية ، فانه يكون المساعدة على بناء وتعزيز التربية والنشأة الذاتية للناس ، وعندئذ فقط يكون المجتمع متعقل وحر •

وفى الحقيقة ، فان هذه الاهداف ليست بالاهداف البسيطة وانما هى أهداف ضخمة ، ولابد لى من شرحها بطريقة غير مباشرة الى حد ما• فنحن مثلا نعنى ونهتم بالمهارات وبالقيم • ومع هذه ، فانه من بين هذه «المهارات» ، هناك البعض يكون أكثر مهارة والبعض الآخر يكون أقل مهارة ، من حيث صلته وعلاقته بمهام التحرر ، وان كنت لا أعتقد بأن المهارات والقيم يمكن فصلها بمثل تلك السهولة الواردة فى بحثنا عن «المهارات المحايدة» التى نفترضها غالبـا • انما المسألة مسألة درجة ، تكون فيها المهارات فى طرف والقيم على الطرف الآخر • وانما فى الوسط ، يكون هنـاك التدرج فى هـذا القياس ، ويكون هنـاك ما سأسميه بالاحاسيس ، وهذا هو الشىء الذى يجب أن يعنينا أكثر من أى شىء آخر • فمثلا ، انك لكى تقوم بتدريب شخص ما لكى يقوم بتشغيل مخرطة أو لكى يقوم بالقراءة والكتابة ، فهو فى جانب كبـير منه تدريب على اكتساب مهارة ، وأنت لكى تساعد شخص ما على تقرير ما يرغبه حقا من حياته ، أو تتحاور معه فى طرائق الحياة الرواقية ، والمسيحية ، والانسانية ، لهو تهذيب أو تعليم للقيم •

ولكن بجانب المهارة والقيمة علينا أن نضع المشاعر الحسية التى تشملها معا ، ثم تشمل أكثر : نوع من العلاج بالمفهوم القديم الذى يعنى تنقية معرفة الانسان بذاته • فهى تشمل التربية والتهذيب لكافة أنواع الحوار والجدل مع النفس ذلك الذى نسميه بالتفكير ، والذى عندما يتشابك مع الآخرين نسميه حوارا • ويجب أن يبدأ المعلم بمـا

يثير أقصى اهتمامات الفرد ، حتى ولو بدا تافها ورخيصا . وعليه أن يبدأ بطريقة وبمواد تمكن الطالب من الحصول بصورة متزايدة على بصيرة رشيدة ورؤية نافذة لهذه الاهتمامات ، كما أنه بالنسبة للآخرين سوف يكسبهم العملية التى يقوم بالتعليم بها . كذلك ، يجب على المعلم محاولة تطوير الرجال والنساء الذين فى امكانهم والذين سوف يكون فى امكانهم بأنفسهم مواصلة ما بدأه : وعندئذ تكون المحصلة النهائية لأى تعليم هدفه التحرر هو ببساطة التعليم الذاتى ، أى الرجل والمرأة اللذان يربيان ويهذبان أنفسهما ، أى باختصار ، الفرد الحر الرشيد .

ومجتمع يكون لمثل هؤلاء الافراد الغلبة والتسيد فيه ، لهو مجتمع ديموقراطى . وربما أيضا يمكن تعريف مثل هذا المجتمع بأنه مجتمع يسود فيه أصحاب الاصالة من الناس وليس مجرد الحشود الجماهيرية. وبهذا أقصد ما يلى : « الناس فى المجتمع الجماهيرى ، تتملكهم المتاعب الشخصية ، سواء كانوا على وعى بها أم لا ، التى يعجزون عن تحويلها الى قضايا عامة . وهم لا يفهمون ما يجرى من تفاعل بين هذه المتاعب الشخصية للاوساط البيئية التى يعيشون فيها والمشاكل الخاصة بالبناء الاجتماعى . ومن ناحية أخرى ، فان الانسان صاحب المعرفة الذى يعيش وسط أناس أصحاب اصالة ، يكون قادرا على هذا الفهم. فهو يفهم أن ما يعتقد ويشعر بأنه يشكل متاعب شخصية ، هو فى أغلب الاحيان بمثابة مشاكل يشترك فيها مع الآخرين أيضا ، ثم الاكثر أهمية، أنها ليست قابلة للحل على يدى فرد واحد بل يمكن حلها فقط بادخال تعديلات على بناء الجماعات التى يعيش وسطها بل وأحيانا تعديلات على البناء الاجتماعى الخاص بالمجتمع برمته . اذن فالناس الذين يعيشون وسط حشود كبيرة يعانون من المتاعب ، ولكنهم عادة لا يدركون معناها ومصدرها ، والناس وسط عامة الشعب يجابهون القضايا ، ومن ثم مفادة ما يتأتى لهم أن يدركوا حدودها العامة .

وبالنسبة لعلم الاجتماع فان مهمته السياسية — كأى معلم ليبرالى — هى بصفة مستمرة ترجمة المتاعب الشخصية الى قضايا عامة ، والقضايا العامة الى الاطر الخاصة بمعناها الانسانى لمختلف الافراد . كذلك فانها مهمته أن يظهر فى عمله — وفى حياته أيضا ، باعتباره معلم — هذا النوع من الخيال العلمى الاجتماعى ، كما أن هدفه أيضا هو تربية وتنشئة مثل هذه العادات الذهنية عند الرجال والنساء المكشوفون أمامه علانية . وضمان تحقيق هذه الغايات ، هو ضمان للعقل والحرية ، وجعل هاتين هما القيمتان السائدتان فى المجتمع الديموقراطى.

ربما الآن قد تقول لنفسك ، « حسن ، لقد حقق ما يزيد ، فسوف يطرح علينا مثل يبلغ من السمو بحيث يبدو كل شىء فى اطاره بالغ الدنو » . لكن لو كان الظن بأننى سوف أفعل ذلك ، فهو أمر يشهد بالافتقار لصفة الجدية التى ينظر بها الآن لكلمة الديموقراطية وبعدم المبالاة التى يتصف بها الكثير من المراقبين ازاء الانحراف بعيدا عن أى معنى واضح للكلمة . وتعتبر الديموقراطية بالطبع ، احدى الافكار المعقدة والتى يدور حولها الكثير من الخلاف الشرعى ، وان كان المؤكد انها ليست بمثل ذلك التعقيد أو الغموض الذى ربما لم يعد يستخدمه الذين يرغبون فى استخدام العقل فى تفكيرهم .

ان ما أعنيه بالديموقراطية كفكرة مثالية هو ما حاولت من قبل بالفعل أن أوضحه . فالديموقراطية من حيث الجوهر تدل على أن أولئك الذين يتأثرون بصورة حيوية بأى قرار يتخذ يكونون أصحاب صوت فعال فى هذا القرار . وهذا الامر ، بدوره يعنى وجوب اضفاء الشرعية علانية على قدرة صنع هذه القرارات ، كما يجب أن يوضع فى الحسبان علانية صناع مثل هذه القرارات ، وان كان يبدو لى أن واحدة من هذه

البنود الثلاثة لا يمكن أن يسرى مفعولها ما لم يكن يسود فى المجتمع تلك النوعية من الناس وتلك النوعية من الافراد التى وصفتها من قبل، فسوف تكون هناك ظروف أخرى معينة تفصح عن نفسها فى الحال .

ان البناء الاجتماعى للولايات المتحدة ليس فى جملته بناء ديموقراطى ، ولكن هذه النقطة هى أقل ما يمكن أن نتفق عليه . وبالنسبة لى فانه لم يتطرق الى علمى وجود مجتمع هو فى نفس الوقت ديموقراطى ويظل مجتمعا مثاليا . وقد أقول أن الولايات المتحدة اليوم هى أساسا دولة ديموقراطية من حيث الشكل ومن حيث لغة التوقعات . أما من حيث الجوهر والممارسة فهى فى أغلب الاحيان ليست بالدولة الديموقراطية ، كما أنه من الواضح تماما أنها فى الكثير من المجالات النظامية المؤسسية ليست كذلك أيضا . فنجد أن ادارة الاقتصاد المشترك فيها لا هى عبارة عن اجتماعات تتم فى المدينة ولا هى قوى مسئولة أمام من تمسهم أنشطة هذه القوى بدرجة شديدة. أيضا الاجهزة العسكرية ، وبصفة متزايدة ، الدولة السياسية فى نفس الحال أيضا . وأنا هنا لا أريد أن أعطى الانطباع بأننى متفائل ازاء الفرص المتاحة أمام علماء الاجتماع فى امكانية قيامهم بالدور الديموقراطى العام، أو — حتى لو قام الكثير منهم بذلك — ازاء امكانية أن يفضى ذلك بالضرورة الى رد الاعتبار والحقوق للناس . انما ما أقصده فقط هو مجرد تحديد اطار دور واحد يبدو لى أنه متاح ، بل انه فى الحقيقة يمارس من جانب بعض علماء الاجتماع. كما يتصادف أيضا أن هذا الدور يتفق ووجهتى النظر الليبرالية والاشتراكية عن دور العقل فى مجال الشئون المتعلقة بالبشر [1] .

والنقطة التى أود توضيحها هى أن الدور السياسى لعلم الاجتماع — مهما يكن هذا الدور ، وكيف يتحقق ، وبأى درجة من الفعالية — فان هذا يتصل بمدى سيادة الديموقراطية .

ونحن لو أخذنا بالدور الثالث الذى يقوم به العقل ، وهو الدور المستقل ذاتيا ، فاننا بذلك نحاول أن يكون فعلنـــا فى اطار أســلوب ديموقراطى فى مجتمع ليس هو فى جملته بالمجتمع الديموقراطى • ومع هذا فاننا نتصرف كما لو كنا فى مجتمع ديموقراطى تماما ، وبتصرفنا هذا ، فاننا نحاول التخلص من «كما لو» ، اذن فنحن نحاول أن نجعل المجتمع أكثر ديموقراطية • ومثل هذا الدور ليعتبر هو الدور الوحيد الذى قد يمكننا كعلماء اجتماع من محاولة القيام بهذا ، ذلك لأننى على الاقل لا أعرف بوجود أى وسيلة أخرى قد تمكننا من محاولة تقـــديم المساعدة فى بناء نظام سياسى ديموقراطى • ثم بسبب هذا ، فان مشكلة العلوم الاجتماعية باعتبارها ناقل رئيسى للعقل فى أمور البشر ، لتعتبر فى الحقيقة مشكلة رئيسية من مشاكل الديموقراطية اليوم •

(٥)

والتساؤل الآن هو ، ما هى فرص تحقيق النجاح ؟ انه مع التسليم بالبناء السياسى الذى يجب أن نعمل فى نطاقه ، فاننى لا أعتقد بأنه من المحتمل كثيرا أن يصبح علماء الاجتماع من العناصر الفعالة فى نقل التفكير العقلى • فلكى يتمكن أصحاب المعرفة من تنفيـــذ هذا الدور الاستراتيجى ، فلابد أن تتوافر ظروف معينة لذلك • فالناس هم الذين يصنعون تاريخهم ، هكذا قال ماركس ، ولكنهم مع هذا لا يصفونه تحت ظروف من اختيارهم هم • اذن ، ما هى الظروف التى نحتاجها «نحن» لكى نتمكن من أداء هذا الدور بصورة فعالة ؟ الاجابة على هذا هى أن ما نحتاجه هو أن يكون هناك أحزاب وحركات وأناس يتصفون بسمتين: (١) أن تخضع الافكار وبدائل الحياة الاجتماعية للمناقشة الحقة فيما بينهم ، (٢) أن تكون لديهـــم الفرصـــة الحقيقية للتأثير على القرارات

الخاصة بالتبعات البنائية • واذا ما تواجدت هذه التنظيمات ، فعندئذ فقط يمكننا أن نكون واقعيين وذاخرين بالامل بشأن دور العقل فى الامور المتعلقة بالبشر التى عملت على تحديد الاطر الخاصة بها • وبالنسبة لهذا الوضع ، فاننى لأعتبره أحـــد المتطلبات الرئيسية لأى مجتمـــع ديموقراطى كامل •

وفى مثل هذا النوع من السياسة ، فان علماء الاجتماع فى أدوارهم السياسية ربما يكونون «مع» و «ضد» مجموعة مختلفة من الحركات والشرائح الطبقية والمصالح ، بدلا من مجرد مخاطبتهم لجمهور غامض غالبا ، وأخشى أن يكون قليل الشأن • أى أن أفكارهم نتصارع ، وهذا التصارع (كعملية وكذلك فى نتائجه فى أى وقت معين) قد يكون شيئا مناسبا من الناحية السياسية • فنحن اذا ما أخذنا فكرة الديموقراطية بصـــورة جدية ، واذا ما أخذنا الدور الديموقراطى للعقل فى مجـــال الامور المتعلقة بالبشر بصورة جدية ، فان انشغالنا فى هذا التصارع لن يزعجنا بأى شكل على الاطلاق • ونحن بالتأكيد لا يمكن أن نفترض أن جميع التعريفات للواقع الاجتماعى ، ناهيك عن كافة الصياغات عن السبل والوسائل السياسية ، وناهيك عن كافة الاقتراحات الخاصـــة بالاهداف ، سوف يكون من نتيجتها وجود مذهب فكرى موحد غير قابل للجـــدل [٣] •

ومع غياب مثل هذه الاحزاب السياسية والحركات الاجتماعيـــة والناس ، فاننا بذلك نعيش فى مجتمع يكون ديموقراطيـــا أساســـا فى أشكاله القانونية وفى توقعاته الرسمية • وان كان يجب علينا أن لانقلل من شأن القيمة الهائلة والفرصة الضخمة التى توفرها هذه الظروف ، بل يجب علينا أن نعلم قيمتها من حقيقـــة عـــدم وجودها فى العـــالم السوفييتى ، ومن نوع الصراع الذى يواجهه المفكرون فى هذا العالم •

كذلك يجب علينا أن نعلم أنه بينما يوجد هنـــاك الكثـــير من المفكرين يتحطمون جسديا ، فانه يوجد هنا أيضا الكثيرون الذين يحطمون أنفسهم أخلاقيا ومعنويا • وأن تكون الديموقراطية فى الولايات المتحدة بمثل هذا القدر الواسع من الرسمية فليس هذا معناه أننا نستطيع أن نتنصل من النتيجة بأنه اذا ما كان للعقل أن يلعب أى دور حر فى صنع التاريخ بصورة ديموقراطية ، فان أحد العناصر الاساسية التى يجب أن تحمل هذا العقل ، لابد بالتأكيد من أن تكون هى العلوم الاجتماعية • كذلك ، فان غيـــاب الاحزاب السياسية والحـــركات الاجتماعيـــة والجماهير الديموقراطية ليس معناه أنه لا يجب على علماء الاجتماع محاولة جعـــل أنظمتهم التعليمية لتكون اطار قد يضم ، على الاقل فى بداية تكوينه ، مثل هذا الجمهور من الافراد المحررين ، وليكن اطارا يمكن فيه تشجيع ودعم المناقشات التى تدور بينهم • كذلك ، فان هذا ليس معناه أنه لا ينبغى على هؤلاء العلماء محاولة تنشئة هذا الجمهور فى أدوارهم الاقل أكاديمية •

ولكى يتم هذا ، معناه بالطبـــع ، المخـــاطرة بـــ «المتاعب» ، أو الاخطر من هذا ، بمواجهة خلاف قاتل تماما • لذلك فان الامر يتطلب منا القيام بطرح نظريات وحقائق تثير الجدل ، ثم تشجيع هذا الجدل بصورة فعالة • ففى غياب الجدل السياسى الواسع والمفتوح والغزير بالمعلومات ، لن يتمكن الناس من الاحتكاك لا بالاحداث المؤثرة فى واقع عالمهم ولا بالواقع الخاص بهم • ويبدو لى ، وفى أيامنا هـــذه بصفة خاصة ، أن الدور الذى قمت بوصف أبعاده يتطلب على الاقل عرض التعريفات المتصارعة عن الواقع نفسه • فما يطلق عليه عادة «الدعاية» وذات الصبغة الوطنية بصفة خاصة ، تتكون ، ليس فقط ، من آراء

حول مجموعة متنوعة من الموضوعات والقضايا ، بل هى أيضا عملية النشر ، كما ذكر «بول كيسكيميتى» ذات مرة ، للتعريفات الرسمية للواقع .

ان حياتنا العامة الآن غالبا ما ترتكز على مثل هذه التعريفات الرسمية ، وكذلك على الاساطير والاكاذيب والمفاهيم المخبولة . وعندما تكون هناك سياسات كثيرة — سواء نوقشت أم لم تناقش — مرتكزة على تعريفات غير سليمة ومضللة للواقع ، عندئذ فان من يقومون بتعريف الواقع بصورة أكثر ملاءمة لخليقين بأن يكونوا بمثابة مؤثرات مزعجة. وهذا هو السبب فى أن الناس من ذلك النوع الذى وصفته ، وكذلك ممن يتسمون بالحرية هم بحكم وجودهم ذاته فى مثل هذا المجتمع يتصفون بالراديكالية . وهكذا هو أيضا الدور الذى يقوم به العقل ، والدراسة ، والفكر ، والبرهان ، والافكار : وذلك فى تعريف الواقع بصورة كافية وملائمة وبشكل يتفق والعلانية . لذلك فان الدور التعليمى والسياسى لعلم الاجتماع فى الديموقراطية هو العمل على تربية ومساعدة الناس والافراد القادرين على التطور ، والمعايشة ، والفعل وفقا لتعريفات سليمة ومناسبة للوقائع الاجتماعية الشخصية .

ودور العقل الذى قمت بتحديد الاطار الخاص به لا هو يعنى ولا هو يتطلب أن يطرق الانسان الارض بقدمه ، ويستقل الطائرة التالية الى مسرح الازمات الراهنة ، ويهرول الى الكونجرس ، ويشترى دار صحفية ، ويذهب بين الفقراء . صحيح أن مثل هذه الافعال تثير الاعجاب كثيرا ، وفى امكانى فى الحال تصور المناسبات التى أجد من المستحيل بالنسبة لى شخصيا عدم الرغبة فى مزاولة هذه الاعمال بنفسى ، ومع هذا ، فلكى يعتبر عالم الاجتماع أن هذه الافعال تدخل فى

نطاق نشاطاته الطبيعية العادية ؛ معنــاه أنه يتخلى عن دوره ، وأنه يظهر بفعله نوع من عدم الايمان فى الوعد الذى يبشر به علم الاجتماع وفى دور العقل فى الامور المتعلقة بالبشر • فهذا الدور لا يتطلب سوى أن ينهض عالم الاجتماع بالعمل الخاص بعلم الاجتمــاع وأن يتجنب اضفاء المزيد من البيروقراطية على العقل والحوار •

وليس كل عالم اجتماع فى امكانه القبول بجميع الآراء التى أعتنقها بشأن هذه المسائل ، كما أننى لا أرغب منه أن يقبل ذلك • لكن النقطة التى أسعى للوصول اليها هى أن أحدى المهام التى يقوم بها هى أن يعمل على تقرير وتحرير آرائه الخاصة به عن طبيعة التغير التاريخى وعن موقع الانسان الحر العاقل من هذا التغير • وعندئذ فقط سوف يتأتى له معرفة دوره الفكرى والسياسى الخاص داخل المجتمعات التى يقوم بدراستها ، ثم بهذا يمكنه أن يكتشف بالضبط ما الذى يعتقــده بالفعل عن قيمتى الحرية والعقل اللذان يشكلان بدرجة كبيرة من العمق جزءا من تقليد ووعد علم الاجتماع •

فاذا كان الافراد والجماعات الصغيرة من الناس لا يملكون حرية الفعل وفقا للتبعات التاريخية ، وفى نفس الوقت ليسوا من التعقل بما يكفى لرؤية هــذه التبعات ، واذا ما كان البنـــاء الخاص بالمجتمعات الحديثة ، أو بأى مجتمع منهم ، هو الآن أن التاريخ هو بالفعل مجرد ركام يسير فى تيار أعمى ولا يمكن جعله غير ذلك بالوسائل المتــاحة وبالمعرفة التى يمكن اكتسابها ، اذن فان الدور الوحيد لعلم الاجتمـــاع الذى يتمتع بالاستقلال الذاتى هو تأريخ وتفهم ، أن فكرة المسئولية التى يتحملها صاحب القدرة ما هى الا فكرة حمقاء ، وأن قيمتى الحرية والعقل لا يمكن أن يتحققا الا فقط فى الاوســاط الاستثنائية لأناس معينين يعيشون حياة خاصة متميزة •

ومع هذه الكثرة من «اذا» ، وعلى الرغم من أن هنـــاك مجـــال للخلاف حول درجات الحـــرية ومقاييس التبعات التاريخية ، الا أننى لا أعتقد بأن هناك ما يكفى من الدلائل ما يحتم ضرورة اغفال قيمتى الحرية والعقل فى الوقت الذى قد يكونان فيه الآن عنصران موجهان للعمل فى علم الاجتماع .

ومن ناحية أخرى ، فان المحاولات المبذولة لتجنب مثل هذه المسائل المزعجة كما أوضحت من قبل تلقى دفاعا واسعا هذه الايام تحت شعار أن علم الاجتماع ليس «هو بالذى سينقذ العالم» . فى بعض الاحيان يكون هذا الانكار من جانب أحد الدارسين المتواضعين، وفى أحيان أخرى يكون تهكم ساخر وازدراء من جانب المتخصصين ازاء جميع القضايا ذات الاهتمام الاوسع ، وأحيان ثالثة يكون هذا بمثابة زوال للوهم الكاذب عن التوقعات الشابة الفتية ، انما غالبا ما يكون هذا هو موقف من يسعون الى استعارة المنزلة الخاصة بالعلماء ، والمتصور أنها فكر خالص مجرد من التجسيد . ورغم هذا ، فأحيانا يكون هذا الانـــكار قائم على حكم متأن لحقائق القدرة .

وبسبب هذه الحقائق ، فلست أعتقد أن علم الاجتماع ســـوف «ينقذ العالم» برغم أننى لا أرى على الاطـــلاق وجود شىء خطأ فى «محاولة انقاذ العالم» — وهو التعبير الذى آخذه هنا على أنه يعنى تجنب الحرب واعادة ترتيب شئون البشر وفقا للمثاليات الخاصة بالحرية البشرية والعقل البشرى . وهذه المعرفة التى أملكها تقودنى الى الاخذ بتلك التقديرات الاقرب الى التشاؤم بشأن الفرص المتاحة . ولكن حتى ولو كان هذا هو الموقف الذى نقفه الآن ، فمازال علينا أن نتساءل : لو كانت «هناك» أى ســـبل للخروج من الازمات السائدة فى عصرنا

بتوظيف العقل والفكر ، أليس علماء الاجتماع هم الكفيلون بتحـديد وتقديم هذه السبل ؟ فما تمثله نحن ــ برغم عدم وضوح هذا دائما ــ هو الانسـان الذى يصبح مدركا للبشرية • فعلى مستوى الوعى والادراك البشرى يجب أن تقع عليه الآن فى واقع الامر مسئولية ايجاد جميـع الحلول لمشاكل الكبرى •

و «اللجوء» الى صاحب السلطة ، على أساس أى نوع من المعرفة توافر لدينا الآن ، لهو شيء ذو طبيعة يوتوبية بالمعنى المجرد لهـذا اللفظ • فعلا فاننا بأصحاب هذه «السلطة» أقرب لأن تكون فقط تلك العلاقات التى يجدونها مفيدة ، بمعنى أننا نكون فنيين يتقبلون مشاكلهم وأهدافهم ، أو أيديولوجيين يرتقون بمنزلتهم وسلطتهم • ولكى نكون اكثر من هذا ، بقدر اهتمامنا بدورنا السياسى ، فلابد لنا أولا وقبـل كل شيء من اعادة تقدير طبيعة مسعانا الجماعى كعلماء اجتماع • وليس من اليوتوبية فى شيء أن يلجأ أحد علماء الاجتماع الى زميـله لكى يتولى مهمة اعادة التقدير هذه • وأى عالم اجتماع مدرك لما هو مقدم عليه لابد وأن يجابه المعضلة الرئيسية التى تحدثت عنها ضمنا فى هذا الفصل ــ وهى معضلة الاختلاف بين ما يثير اهتمام الناس وما هـو فى صالح الناس •

ونحـن لو أخذنا بالنظـرة الديموقراطية البسيطة التى ترى أن « ما يثير اهتمام الناس » هو كل ما يعنينا ، عندئذ نكون قد قبلنـا بالقيم التى تكون قد وردت فى الذهن وثبتت ، غالبا بصـورة عارضة ومرارا بصورة متعمدة عن طريق المصالح المكتسبة • وكثيرا ما تكون هذه القيم هى الوحيدة التى توافرت الفرصة للناس لاظهارها • وبهذا فهى تكون عادات قد اكتسبت بصـورة لا شـعورية أكثر من كونهـا اختيارات •

أما لو أخذنا بالنظرة الدوجماطيقية التى ترى فى «ما هو فى صالح الناس» ، سواء كان يهمهم أم لا ، هو كل ما يعنينا من الناحية الاخلاقية ، فاننا عندئذ نركب مخاطرة انتهاك الديموقراطية . فنحن عندئذ قد نصبح مستغلين أو عناصر قهر ، أو كلاهما معا ، أكثر من كوننا عناصر اقناع فى مجتمع يحاول فيه الناس التفكير معا ومجتمع توضع فيه قيمة العقل فى مرتبة سامية .

ان ما أود قوله هنا هو أن بتوجيه أنفسنا للقضايا والمتاعب ، ثم صياغة هذه القضايا والمتاعب باعتبارها مشاكل تهم علم الاجتماع ، فاننا نحصل على أفضل فرصة ، وأعتقد أنها الفرصة الوحيدة ، لجعل العقل يتفق بصورة ديموقراطية والامور الخاصة بالبشر فى مجتمع حر ، وهكذا نحقق القيم الكلاسيكية التى تميز الوعد الذى تبشر به الدراسات التى نقوم بهـا .

المراجـــــــع

(١) انني لا أود أن أذكر القارىء ، بصورة عابرة ، أن أســـلوب الخبروية المجتزأة (وكذلك الموانع المنهجيـــة المصاحبة لها) ، وبعيدا تماما عن سياقهـــا واستخدامهـــا البيروقراطى الراهن لا يتناسب جيـــدا والدور السياسى الديموقراطى الذى أقوم بتوضيحه • وأولئك الذين يمارسون هذا الاسلوب باعتباره مجال النشاط الوحيد بالنسبة لهم ، والذين يتصورون أنه يمثل «العمل الحقيقى لعلم الاجتماع» ، والذين يعيشون فى روحه ، ليس فى امكانهم أداء ذلك الدور التعليمى المحقق لحالة التحرر • فهذا الدور يتطلب منح الثقـــة للافراد وللناس فى قدرتهم على استخدام العقل ، ثم بالنقد الفردى ، والدراسة ، والممارسة ، يتم توسيع مجـــاله وتحسين نوعيته • ان هـــذا الدور يتطلب تشـــجيع هؤلاء الناس ، حسب تعبيـــر «جورج أورويل» على «الخروج من بطن الحوت» ، أو على حسب التعبير الامريكى الرائع ، على «أن يصبحوا أنفسهم» • ولكى يقال لهم أنه فى امكانهم «حقا» معرفة الواقع الاجتماعى فقط بالاعتماد على نوع من البحث يكون بالضرورة نوعا بيروقراطيا معناه فرض نوع من التحريم ، باسم العلم ، على جهودهم فى سبيل أن يصبحوا أناس مستقلين ومفكرين حقيقيين • فمما يتدنى بثقة صـــاحب الصنعة فى قدرته الخاصة هو معرفة الواقع • ومما يشـــجع الناس فى الحقيقة على تثبيت عقائدهم الاجتماعية هو الرجوع الى السلطة الخاصة بجهاز غريب ، وهو الشىء الذى يتنسق طبعا ، ويتعزز نتيجة للصبغة البيروقراطية الكاملة التى يتسم

بها العقل فى زماننا • واضفاء الصبغة الصناعية على الحياة الاكاديمية وانقسام المشاكل الخاصة بعلم الاجتماع لا يمكن أن يفضى الى تحرير الدور التعليمى بالنسبة لعلماء الاجتمـاع ، ذلك لأن ما تأخذه هذه المدارس الفكرية مجزءا فانها تنحو لأن تبقى منقسمة فى جزئيات صغيرة حول ما تقول أنه شىء مؤكد • ومع هذا ، فكل ما تستطيع هذه المدارس أن تكون على ثقـة منه فهـو الجزئيـات المقسمة ، لذلك ، فانهـا وظيفة التعليم الليبرالى بالذات ، « و » الدور السياسى لعـلم الاجتماع ، « و » وعده الفكرى ، هو تمكين البشر من تجاوز هذه الاوساط المجـزأة والمنقسـمة : أى أن يكونوا على وعى بالبنـاءات التاريخية وموقعهم داخل هذه البناءات •

(٢) تعتبر الفكرة الكامنة وراء مثل هذا الاحتكار فى مجال الافكار الاجتماعية هى احدى المفاهيم السلطوية التى تدخل فى نطاق الرأى بأن «المنهج» الخاص بصناع العـلوم هو منهج خاص بأناس يديرون العقل ، وهى فكرة تتوارى بدقة بالغة فى «القيم المقدسة» لأصحاب النظرية المتضخمة • بل الاكثر وضوحا أنها تتجسد فى الشعارات التكنوقراطية التى قمت بتحليلها فى الفصل الخامس •

[illegible]

[illegible]

ملحق

محترف الفكر

ملحق

محترف الفكر

بالنسبة لعالم الاجتماع الفرد الذى يشعر أنه يشكل جزءا من التراث الكلاسيكى ، يعتبر علم الاجتماع بمثابة ممارسة لحرفة فكرية ، والانسان الذى يعكف على معالجة مشاكل ذات جوهر ، يكون من بين أولئك الذين يفقدون صبرهم وينتابهم القلق بسرعة نتيجة للمناقشات الدقيقة حول المنهج والنظرية بصفة عامة ، والتى يؤدى الكثير منها الى تعطيل دراساته اللائقة . لذلك ، فهو يعتقد ، أنه من الافضل كثيرا أن يحصل على تقرير واحد من أحد الطلبة الدارسين عن كيفية قيامه بعمله عن عشرات «التقنيات الاجرائية» يقوم بها أخصائيون لم يتأت لهم أبدا انجاز عمل أسفر عن شىء . لكن ، ليس هناك سوى المناقشات والاحاديث التى يتبادل من خلالها المفكرين المتمرسين المعلومات حول أساليبهم الفعلية التى يمارسونها فى العمل هى التى يمكن عن طريقها نقل الفهم المفيد للمنهج والنظرية للدارسين الجدد . لذلك ، فاننى أشعر أنه من المفيد هنا أن أذكر ببعض التفاصيل كيف أسير فى ممارسة هذه الحرفة الفكرية . ومن الضرورى أن أقول أن ما سأذكره هو اجتهاد شخصى من جانبى ، ولكننى أكتبه على أمل أن يتمكن الآخرون ، خصوصا الذين بدءوا القيام بعمل مستقل ، من جعله أقل اتساعا بالنتائج الشخصى عن طريق الحقائق النابعة من خبرتهم الخاصة .

(١)

فى بداية الامــر ، فاننى أعتقــد انه من الافضـــل أن اذكرك ، الدارس المبتدىء ، أن أكثر المفكرين حظوة للاعجاب فى نطاق المجتمع العلمي الذى اخترت الانضمام اليه ، لا يفصلون عملهم عن حياتهــم . ومن الواضح أنهم يأخذون كلا منهما بجدية شديدة لكى يسمحوا بوجود هذا الانفصال ، كما تبدو الرغبة لديهم فى استخدام كل جانب منهمــا لاثراء الجانب الآخر . ومثل هذا الانفصال ، بطبيعة الحال ، هو العقيدة السائدة لدى الناس عموما ، وهذه العقيدة نابعة كما أعتقد من الخواء الاجوف الذى يتصف به العمل الذى يمارسه الناس عموما الآن . ومع هذا ، فانك سوف تدرك ، كدارس للعلم ، أنك تملك فرصة استثنائية لتصميم طريقة للحياة سوف تشجع على انتهاج عادات الحرفة الفكرية الجيدة . فالدراسة والعلم ما هو الا اختيار لكيف يمكن أن تعيش كما هى اختيار لسبيل الحياة ، فالانسان الذى يعمل فى مجال الفكــر ، سواء كان يعلم أو لا يعلم ، يقوم بتشكيل نفسه أثناء عمــله نحــو تحقيق الكمال لصنعته . وهو لكى يحقق قدراته الخاصة ، ويأخذ بأى فرص تظهر فى طريقه ، فهو يقوم ببناء شخصية يكون لها صفات المفكر الجيــد .

وما يعنيه هذا ، هو أنك يجب أن تتعلم كيف تســتفيد وتستخدم تجربتك فى الحياة فى عملك الفكرى : بأن تعمل بصفة مستمرة على فحص ونقسير هذا العمل . وبهذا المفهوم تكون الحرفة الفكرية بمثابة المركز لنفسك وتكون أنت شخصيا منغمس فى كل ناتج فكرى تعمل عليــه . ولكى تقول أنك تستطيع «تملك الخبرة» معناه أن ماضيك يلعب دوره ويؤثر فى حاضرك ، وأنه يحدد قدرتك على اكتساب خبرة المستقبل .

وأنت كعالم اجتماع ، يكون عليك أن تضبط هذا التفاعل الدقيق ، وتغتنم ما خبرته وتقوم بفرزه ، وبهذه الوسيلة فقط يمكنك أن تأمل في استخدامه في ارشاد واختبار ما يعتمل لديك ، ثم أثناء هذه العملية تقوم بتشكيل نفسك كصاحب حرفة فكرية . ولكن السؤال هو كيف نتمكن من عمل هذا ؟ احدى الاجابات هي : أنه سوف يكون عليك أن تنشيء ملفا ، أو على حسب طريقة الباحث السوسيولوجي في التعبير : تحتفظ بسجل، وليس هذا بالشيء الغريب فالكثير من أصحاب الكتابات الخلاقة المبدعة يحتفظون بسجل ، وحاجة الباحث السوسيولوجي الى ممارسة التأمل النسقي يتطلب هذا .

وفي هذا الملف ، وفقا لوصفي أنا ، تتضافر فيه الخبرة الشخصية والنشاطات المهنية ، الدراسات تحت التنفيذ والدراسات التي يجري التخطيط لها . وفي هذا الملف ، ستحاول أنت كصاحب حرفة فكرية ، جمع ما تعمل عليه فكريا وما تخبره كشخص . وهنا ، لن يعتريك الخوف من استخدام خبرتك وردها مباشرة الى مختلف الاعمال السارية في طريقها . وهذا الملف الذي لديك بجانب أنه يخدم في منع أي تكرار في العمل ، فانه أيضا يمكنك من توفير وحفظ طاقتك . كذلك فانه يشجعك على الامساك بـ «الافكار الهامشية» : أي الافكار العديدة التي قد تكون من المتحصلات الجانبية في الحياة اليومية ، أو الاحاديث الخاطفة التي تتردد في سماء الطريق ، أو الاحلام . وهذه الاشياء بمجرد ملاحظتها وتدوينها قد تؤدي الى المزيد من التفكير النسقي ، كما تضفي توافقا فكريا على الخبرة والتجربة الموجهة بصورة أكبر .

لابد وأنك ستكون قد لاحظت كيف المفكرون الذين هذبوا ثقافتهم يعاملون عقولهم ، وكيف يلاحظون بدقة مدى تطورهم وينظمون خبرتهم .

ويرجع السبب فى اختزانهم لخبراتهم الصغيرة هو أن الانسان الحديث، على مدار الحيـاة ، لا يكون لديه ســوى قدر ضـئيل من التجـربة الشخصية ، وتعتبر التجربة ذات أهمية بالغة كمصدر للعمل الفكرى الاصيل • ولقد أصبحت أعتقد أنه لكى تكون قادر على الثقة وفى نفس الوقت الشك فى تجربتك الخاصة لهو دليل على نضج محترف الفكر • فهذه الثقة الغامضة غير المؤكدة تعتبر أمر لا غنى عنه بالنسبة لعنصـر الاصالة فى أى مسعى فكرى ، والملف هو أحـد السبل التى يمكنك بواسطتها تطوير وتبرير هذه الثقة •

وباحتفاظك لملف مناسب ومن ثم تطويرك للعـادات الانعكاسية الذاتية ، فانك تتعلم كيف تجعل عالمك الداخلى متيقظ ومنتبه • ومتى شعرت بالاحداث أو بالافكار بصـورة قوية فعندئذ يتوجب عليك أن لا تتركها تفلت من ذهنك ، وانما عليك أن تصيغها وتشكلها وتضيفها الى ملفك ومن ثم تستخرج منها الدلالات التى توحى بها ، فتبين لنفسك اما كم هى حمقاء هذه المشاعر أو الافكار ، واما كيف يمكن وضعها فى الشكل المثمر • بالاضافة لهذا ، فان الملف يفيدك أيضا فى تكوين عادة الكتابة لديك • فأنت لا يمكنك «غمس يدك فى الكتابة» ما لم تقم بكتابة شىء ما على الاقل كل أسبوع • وفى تطويرك للملف ، يمكنك أن تكتسب التجربة ككاتب ، وهكذا يمكنك ، كما يقولون ، تطـوير قدراتك على التعبير • اذن فامساكك وعنايتك للملف معنـاه انغماسك فى التجـربة والخبرة المحكومة •

ومن أكثر الاشياء سوءا التى تحدث لعلماء الاجتماع هى أنهـم لا يشعرون بالحاجة الى كتابة «خططهم» الا فى مناسبة واحدة فقط : هى عندما تكون لديهم النية لطلب نقود مقابل القيام ببحث أو «مشروع» معين • والامر يبدو وكأنه تمويل لهذا البحث أو المشروع حيث تكون

معظم عملية «التخطيط» قد تمت ، أو على الاقل تحددت معالمها بدقة .
ولكن أيا كان مقياس هذا العمل ، فانني أعتقد أنه أمر سيء للغاية ، ذلك لأنه يرتبط بقدر بحرفة البيع ، وخليق تماما بأن يؤدى ، مع التسليم بالتوقعات السائدة ، الى ادعاءات اجتهادية ، فالمشروع سيكون أقرب للشيء «المظهرى» غير الحقيقى الذى تجسد بطريقة تعسفية قبل أن يظهر حقيقة بمدة طويلة ، أى أنه غالبا ما يكون شيئا وليد الاختراع هدفه فقط الحصول على النقود لأغراض خفية، مهما تكن قيمتها ، وكذلك للبحث المقدم . وينبغى على الممارس من علماء الاجتماع القيام بصورة دورية بمراجعة « الحالة التى عليها مشاكلى وخططى » . لذلك ، فعلى الشخص الشاب ، وعند بدء قيامه بعمله المستقل ، ينبغى عليه أن يتفكر فى هذا الامر ، وان كان لا يجب التوقع منه — كما لايجب هو أن يتوقع من نفسه — أن ينطلق بعيدا فى هذا المجال ، كما لايجب عليه بالتأكيد أن يلزم نفسه بأى خطة واحدة فقط بصورة قاطعة . وكل ما يستطيع أن يفعله هو أن يحدد موضوعه وقضيته ، والذى غالبا ما يكون لسوء الحظ هو أول عمل مستقل ينجزه . وأنت عندما تكون قد قطعت منتصف الطريق فى الوقت المتاح لك للعمل ، أو حوالى ثلثه ، تكون مثل هذه المراجعة فى أوج فائدتها — بل وربما ذات أهمية بالنسبة للاخرين .

وعلى أى عالم لاجتماع من العاملين يسير فى عمله بصورة طيبة أن يتوافر لديه فى جميع الاوقات العدد الوفير من الخطط ، أى الافكار، بحيث يكون السؤال دائما ، أى منها يتوجب على أن أعمل عليه بعد ذلك ، ومن ثم فينبغى عليه أن يحتفظ بملف خاص صغير يستمد منه جدول أعماله الرئيسى ، والذى يكتبه ويعيد فى كتابته فقط لنفسه وربما لتبادل المناقشة مع الاصدقاء . ثم من وقت لآخر ينبغى عليه مراجعة جدول الاعمال هذا بعناية وعزم شديدين ، وقد تتم هذه المراجعة أحيانا ، عندما يكون مسترخيا مستريحا .

ومثل هذا الاجراء ، يعتبر أحد الوسائل التى لا غنى عنها لتوجيه وضبط مشروعك الفكرى • وفى رأيى ، أن التبادل الواسع وغير الرسمى لعمليات المراجعة «لحالة مشاكلى» هــذه فيما بــين علمــاء الاجتماع العاملين ، لهى الاساس الوحيد لوضع صياغة مناسبة «لكبرى مشاكل علم الاجتماع» • وفى أى وسط فكرى حر ، من غير المحتمل بل ومن المؤكد أنه لا يجب أن يكون هناك أى نوع من المشــاكل يعتمد على «حجر أساس واحد» • ففى مثل هذا الوســـط اذا كان الفكر مزدهر بصورة قوية ، سوف يكون هناك حلقات من المناقشة بين الافراد حول العمل فى المستقبل • وفى هذا الاطار ، هناك ثلاثة أنواع من حلقــات المناقشة ــ عن المشاكل ، والمناهج ، والنظرية ــ يجب أن يسفر عنهــا العمل الذى يقوم به علماء الاجتماع ، ويؤدى اليها مرة أخرى ، وهذه الحلقــات النقاشية يجب أن تتشكل من خــلال العمل الذى يتم ، ثم يهتدى هذا العمل نفسه بها بقدر ما • لذلك ، فلمثل هــذه الحلقــات النقاشية تجد الرابطة المهنية المبرر الفكرى لوجودها ، ومن أجلها أيضا يكون ملفك الخاص شيئا مطلوبا •

وتحت مختلف الموضوعات الموجودة فى ملفك ، توجد هناك أفكار ، ومذكرات شخصية ، ومقتطفات من الكتب ، وفقــرات بيبلوجرافية ، وخطوط أولى للمشروعات • ورغم أن المسألة ، كما أفترض ، هى مسألة عادة متحكمة ، الا أننى أعتقد أنك سوف تجد من المفيد أن تقوم بفرز كل هذه البنود فى ملف أساسى لــ «المشروعات» الرئيسية التى تندرج تحتها تقسيمات فرعية • وبطبيعة الحال ، فان الموضــوعات الرئيسية تتغير ، وأحيانا يكون التغيير من حــين لآخر • فمثلا ، أنت كدارس تعمل نحو اجراء بحث أولى ، وتكتب موضوع البحث ، وفى نفس الوقت تقوم بوضع أبحاثك الخاصة بالدراسة ، سوف تجد ملفاتك مرتبة على

حسب هذه المجالات الثلاثة من المشروع • ولكنك بعد عام من عملك الذى ستتخرج به ، سوف تبــدأ فى اعادة تنظيم الملف بأكمله وفقــا للمشروع الاساسى لموضوع البحث • وعندئذ وأنت تســعى فى عملك سوف تلاحظ أنه لا يوجد أبدا مشروع واحد هو الذى يغــلب بطابعه على الملف ، أو هو الذى يفرض التصنيفات الرئيسية التى يجىء ترتيبه عليها • وفى الحقيقة ، فان استخدام الملف يشجع على التوســع فى التصنيفات التى تستخدمها فى ذهنك • كما أن الطريقة التى تتغير بها هذه التصنيفات ـــ بعضها يتم اسقاطه والبعض الآخر يضاف ـــ تعتبر مؤشر على تقدمك ورحابتك الفكرية • وأخيرا ، سوف تجد الملفــات فى نهاية الامر وقد أصبحت مرتبة وفقا لعدة مشروعات كبيرة ، يتبعها الكثير من المشروعات الفرعية التى تتغير من عام لآخر •

وكل هذا العمل يشتمل على وضع الهوامش والملاحظات ، فسوف يكون عليك أن تكتسب عادة استخراج كم ضخم من الملاحظات من أى كتاب تقرأه ذو قيمة ـــ ذلك على الرغم ، وينبغى على أن أقول هذا ، من أنك قد تصل أنت نفسك الى عمل أفضل عنــدما تقرأ كتب سيئة حقا • فالخطوة الاولى فى ترجمة التجربة ، سواء من كتابات الآخرين أو من حياتك أنت ذاتك ، الى دائرة الفكر ، هى أن تعطى هذه التجربة شكلا مجسما • فمجرد تسمية أحد بنود التجربة غالبا ما يدعوك الى تفسيره ، كما أن مجرد استخراجك لملحوظة من أحد الكتب ليعتبر غالبا محركا لعملية التأمل • وطبعا فى نفس الوقت سيكون استخراجك لاحدى الملحوظات بمثابة عون كبير فى فهم الشىء الذى تقرأه •

لكن المذكرات التى تقوم بتدوينها قد تتحول الى نوعين : أنت عندما تقرأ كتب معينة ذات أهمية شديدة ، فأنك تحاول استيعاب بنية الحجة التى أتى بها الكاتب ، وبنــاء على ذلك فانك تقــوم بتدوين

ملاحظاتك ، ولكن فى أغلب الاحيان ، وبعــد عدة ســنوات من العمل المستقل ، فانك بدلا من قراءة كتب بأكملها ، سوف تكتفى بقراءة أجزاء من كتب كثيرة من وجهة نظر موضوع معين أو قضية معينة تثير اهتمامك وتتعلق بخططك الموجودة فى الملف الذى جمعته . ومن ثم فانك سوف تقوم بتدوين الملاحظات التى لا تمثل تماما الكتب التى تقرأها . انما أنت «تستخدم» فكرة معينة أو حقيقة معينة ، التى تمكنك من تحقيق مشروعاتك الخاصة .

(٢)

لكن السؤال الآن هو كيف يمكن استخدام هذا الملف ــ الذى حتى الآن ينبغى أن يبدو لك أكثر شبها بنوع غريب من الجريدة «الادبية» ــ فى مجال الانتاج الفكرى ؟ والرد على هذا هو ، أن الاحتفاظ والاهتمام بمثل هذا الملف «هو» انتاج فكرى . فهو بمثابة مخزون من الحقائق والافكار ينمو بصورة متزايدة ، بدءا من أكثر الاشــياء غموضا الى أكثرها اكتمالا . ومثال ذلك ، أن أول شىء استقر عليه رأيى عندما قمت بدراسة للصفوة هو أننى قمت بوضع اطار عام أولى كان يرتكز على حصر أنماط الناس الذين كنت أرغب فى فهم شخصياتهم .

أما بالنسبة لكيف ولماذا قررت أن أقوم بمثل هذه الدراسة فقد يدل على احدى السبل التى تقوم فيها خبرات حياة الانسان بتغذية العمل الفكرى للمرء . فلقد نسيت تماما متى أصبحت مهتم من الناحية الفنية بمسألة التدرج الاجتماعى ، ولكننى أعتقد أنها كانت عندما قرأت «فيبلين» Veblen لأول مرة . لقد كان فيبلين يبدو لى دائما غــير حاسم تماما ، بلوغامض فيما يتعلق بــ «العمل» والوظائف «الصناعية» التى قال بها ، والتى لم تكن سوى نوع من الترجمة لما قال به ماركس

عن جمهرة الاكاديميين الامريكيين . وعلى كل حال ، فقد قمت بوضع كتاب عن التنظيمات العمالية والزعماء العماليين ــ وهو عمل كان دافعه سياسي ، ثم كتاب عن الطبقات المتوسطة ــ وهو عمل كان دافعه السياسي الرغبة فى ايصال خبرتى الخاصة التى اكتسبتها فى مدينة نيويورك منذ عام ١٩٤٥ . ولقد كان هذا هو ما جعل أصدقائى يقترحون على أن يكون عملى الثالث هو كتاب عن الطبقات العليا . وأظن أن هذه الفكرة كانت تراود ذهنى ، فلقد ظللت أقرأ «لبلزاك» مرة بعد أخرى خصوصا فى الاربعينات ، وأخذت كثيرا بما كرس له نفسه من «تغطية» جميع الطبقات والانماط الرئيسية فى المجتمع فى الحقبة التى أرادها . كذلك قمت بكتابة بحث عن «صفوة العمل» ، وعكفت على جمع وترتيب البيانات الاحصائية عن الحياة الخاصة بالاشخاص الذين تربعوا على قمة الشئون السياسية الامريكية منذ وضع الدستور . ولقد كان عنصر الالهام الرئيسى وراء هذين العملين هو العمل المعرفى فى التاريخ الامريكى .

وفى وضع هذه المقالات والكتب المتعددة وفى الاعداد للخطط الخاصة بموضوع التدرج الطبقى ، كان هناك بالطبع رواسب مخزونة من الافكار والحقائق عن الطبقات العليا . والجدير بالذكر ، أنه فى دراسة موضوع التدرج الطبقى بصفة خاصة يكون من الصعب تجنب عملية الاستطراد الى ما وراء الموضوع الذى يعالجه الانسان ساعتها ، وذلك لأن «الواقع» الخاصة بأى شريحة طبقية واحدة يتمثل فى جانب كبير منه فى علاقاته ببقية الشرائح الطبقية الاخرى . وبناء على ذلك ، فقد بدأت التفكير فى وضع كتاب عن الصفوة .

ومع ذلك ، فان هذا لا يبين «حقا» كيف برز «المشروع» ، فما حدث بالفعل هو الآتى : (١) أن فكرة الدراسة وخطة البحث خرجتا من

ملفاتى ، ذلك لأن جميع المشروعات معى تبدأ بهذه الملفات وتنتهى بها ، وليست الكتب فى الواقع الا تعبيرا متسقا عن الجهود المتصلة التى تدون فى هذه الملفات . (٣) أنه بعد فترة ، بدأت مجموعة المشاكل المتضمنة تسيطر برمتها على .

وبعد الانتهاء من وضع الاطار المبدئى للمشروع ، قمت بفحص ملفى بالكامل ، ولم يقتصر الامر فقط على تلك الاجزاء التى كان من الواضح أنها تتصل بموضوعى ولكنه شمل أيضا تلك التى ليس لهـا علاقة به على الاطلاق . وفى هذا الشأن كثيرا ما يتم استخدام الخيال العلمى فى جمع البنود التى تكون منفصلة عن بعضها قبلئذ ويتم ربطها معا ، عن طريق ايجاد صلات للربط لا يحيط بها الشك . وبذلك ، فقـد قمت بتكوين وحدات جديدة فى الملف لذلك المجال المعين من المشاكل ، وهى التى ، بالطبع ، قد أدت الى وضع ترتيبات جديدة للاجزاء الاخرى الموجودة فى الملف .

وأنت عندما تقوم باعادة ترتيب نسق الافكار ، فانك غالبا تجـد نفسك وقد بدأت تحرر خيالك . ومن الواضح أن هذا الامر يحـدث نتيجة لمحاولتك جمع الافكار والملاحظات المختلفة عن شتى الموضوعات ومزجها معا . وهذا العمل يشكل نوعا من منطق عملية المزج ، وتلعب أحيانا «الصدفة» فى هذه العملية جانبا كبيرا وبصورة غريبة . بعـد ذلك ، وبطريقة مسترخية ، فانك تحاول شغل مصادرك الفكرية ، كما تجسدت فى الملف ، وادخالها فى الموضوعات الجديدة .

وبالنسبة لموضوع الصفوة ، فاننى قد بدأت أيضا فى الاستفادة من استخدام ملاحظاتى وخبراتى اليومية . فكان تفكيرى أولا فى الخبرات المتوافرة لدى ولها صلة بالمشاكل الخاصة بالصفوة ، ثم بعدئذ ذهبت وتحدثت مع من كنت أعتقد أنهم مارسوا الخبرة أو التفكير فى الجوانب المتعلقة بالموضوع . وفى الحقيقة ، فاننى قد بدأت الآن فى تغيير الطابع

الخاص بطريقتى المعتادة بحيث أجعلها تشمل : (١) أشخاص ينتمون الى المجموعة التى أردت دراستها • (٢) أشخاص لهم صلة وثيقة بأفراد هذه المجموعة • (٣) أشخاص لهم اهتمامات مهنية بأفراد هذه المجموعة•

ورغم أننى لا أعرف الظروف الاجتماعية الكاملة التى تكفل بأفضل ممارسة للحرفة الفكرية ، الا أنه من المؤكد أن احاطة الانسان لنفسه بدائرة من الناس الذين يجيدون الاصغاء والحديث — وفى بعض الاحيان لابد أن يكون من بينهم أشخاص وهميون — وعلى أية حال ، فاننى أحاول احاطة نفسى بكل عناصر البيئة الاجتماعية والفكرية التى ترتبط بموضوعى ، والتى أعتقد أنها قد تهدينى الى التفكير فى الاتجاهات التى تتفق وعملى ، وهذا هو أحد المعانى التى قصدتها من ملاحظاتى السابقة عن عملية التحام الحياة الشخصية بالحياة الفكرية •

والعمل الجيد فى علم الاجتماع اليوم ليس ، وعادة لا يمكن أن يكون ، قائم على «بحث» خبروى واحد قاطع ، انما هو ، أقرب لأن يكون مؤلف من عدد وافر من الدراسات التى تحمل عند نقاط رئيسية صياغات عامة عن شكل ومسار الموضوع • وهكذا أيضا القرار لا يمكن أن يتم حتى يعاد تشغيل المواد الموجودة وبناء صياغات فرضية عامة •

والآن ، من بين هذه «المواد العلمية المتوفرة» ، عثرت فى الملفات على ثلاثة أنماط منها تتصل بموضوع دراستى عن الصفوة : كانت هناك عدة نظريات تتعلق بالموضوع ، ومواد كان آخرون قد عالجوها بالفعل كدليل على تأييـــد «تلك» النظريات ، ثم مواد تم جمعها بالفعل وفى أطوار مختلفة من عملية التركيز المطلوب ، وان لم تكن قد اكتسبت بعد الاهمية النظرية • وبعد استكمال الصياغة الاولى للنظرية بمساعدة مثل هذه المواد الموجودة يكون فى امكانى بكفاءة تحديد عناصر التأكيد والحس الخاصة بى ثم وضع تصميم الابحاث التى اختبر هذه العناصر بها — وربما لن يكون من المحتم على أن أفعل هذا ، على الرغم من

أننى أعرف بالطبع بأنه سيكون على فيما بعد أن أظل أروح وأغدو فيما بين المواد الموجودة وبحثى الخاص • لذلك ، فان أى صياغة نهائيـــة لا ينبغى فقط أن «تغطى البيانات» بحسب ما هى متوافر فى أو معروفة لى ، وانما يجب أيضا أن تأخذ فى الاعتبار بصورة ما، ايجابية أو سلبية، النظريات المتاحة• وأحيانا هذا «الاخذ فى الاعتبار» لفكرة ما يتم بسهولة باحداث مواجهة بسيطة بين الفكرة وبين حقيقة تؤيدها أو تهدمها، وأحيانا أخرى تكون عملية التحليل أو التوصيف المستفيضة أمرا مطلوبا• أحيانا يكون فى امكانى ترتيب النظريات المتاحة بطريقـــة نسقية على شـــكل سلسلة من الاختيارات ، وهكذا أتيح لمجال هذه النظريات العمل على تنظيم المشكلة نفسها[1] • ولكننى أحيانا أتيح لهذه النظريات التواجد فقط فى مجال الترتيب الخاص الذى وضعته وفى سياقات مختلفة تماما• وعلى أية حال ، فاننى فى كتاب الصفوة كان على أن آخذ فى الاعتبار تلك الاعمال التى قام بها أناس مثل موسكا ، وشومبيتر ، وفيبلين ، وماركس ، ولازويل ، وفيبر ، وباريتو •

وباستعراض بعض الملاحظات المكتوبة عن هؤلاء الكتاب ، فاننى أجد أنهم يعطوننا ثلاث أنماط من الصياغة : (١) فبعضهم ، نتعلم منه بصورة مباشرة عن طريق اعادة صياغة ما يقول صياغة منهجية ، بالنسبة لنقطة معينة من كتاباته ، أو بالنسبة لكل ما يكتبه • (٢) البعض الآخر، أنت تقبله أو ترفضه ، مع اعطاء الاسباب والمبررات • (٣) البعـــض الثالث ، تنتفع بكتاباتهم كمصدر للايحاءات لاستكمال دقة عملك الخاص ومشروعاتك • ويشتمل هذا الأمر على الاخذ بنقطة معينة ثم تتساءل : كيف أتمكن من وضع هذه النقطة فى شكل يمكن اختباره ، وكيف أتمكن من اختبارها ؟ كيف يمكن لى استخدام هذه النقطة كمركز أنطلق منه لاتقـــان العمل ـــ أى كمنظور تبرز منه التفاصيل الوصفية الملائمة ؟ بطبيعة الحال ، وبمثل هذه المعالجة للافكار الموجودة ، يمكنك أن تشعر أنك فى حالة مستمرة مع العمل السابق • وهنا فاننى أعرض فقرتـــين

من الملاحظات الاولية عن موسكا ، والتى قد تعطى صورة واضحة لما أحاول قوله :

« بالاضافة الى شواهده التاريخية ، فان موسكا يدعم موضوعه بهذا التأكيد : ان قوة التنظيم هى التى تمكن الاقلية دائما من الحكم ، اذ هناك أقليات منظمة تقوم بادارة الامور والناس ، وهناك أقليات غير منظمة تخضع للتوجيه [٢] . ولكن : لم لا نأخذ فى اعتبارنا أيضا : (١) الاقلية المنظمة ، (٢) الاغلبية المنظمة ، (٣) الاقلية غير المنظمة ، (٤) الاغلبية غير المنظمة ، فهذه كلها تستحق الدراسة . ان أول شىء يستحق توضيحه هو : ما هو بالضبط معنى كلمة «منظمة» ؟ فى هذا أعتقد أن موسكا يقصد : القدرة على استمرار وتنسيق السياسات والافعال ، سواء كان هذا الاستمرار والتنسيق كثير أم قليل . فاذا كان الامر هكذا ، اذن فان نظريته تكون صحيحة من حيث التعريف . كذلك قد يقول ، كما أعتقد ، أن «أغلبية منظمة» تعد أمرا مستحيلا لأن كل ما ستصل اليه هو أن زعماء جدد وصفوة جديدة سوف يتربعون على قمة تنظيمات الاغلبية هذه ، كما أنه على استعداد تام لالتقاط هؤلاء الزعماء الجدد ووضعهم فى كتابه «الطبقة الحاكمة» . وهو يطلق عليهم «أقليات موجهة» ، وجميعها تعتبر قميئة تماما بجانب عبارته الضخمة.

وهناك شىء واحد يخطر على بالى (وأعتقد أنه يمثل لب مشاكل التعريف الذى يطرحه موسكا علينا) وهو : منذ القرن التاسع عشر وحتى القرن العشرين ، قد شاهدنا تحولا من المجتمع المنظم كما هو فى ١ ، ٤ الى مجتمع «أكثر» قربا لـ ٣ ، ٢ . وأننا انتقلنا من دولة الصفوة الى دولة التنظيم ، التى لم تعد فيها الصفوة بالغة التنظيم ولا تتمتع بالقوة بمفردها ، وفيها الجماهير أكثر تنظيما وأكثر قوة . وكون أن بعض القوة قد تحققت فى الشوارع وحولها جعل البناءات الاجتماعية بأكملها تبرز بـ «صفوتها» . ثم نتساءل ، أى القطاعات من الطبقة

الحاكمة هى أكثر تنظيما من كتلة المزرعة ؟ وهذا ليس مجرد سؤال بلاغى ، ففى استطاعتى الاجابة عليه بأى طريقة ، والمسألة هى مسألة درجات ، انما كل ما أبغيه الآن هو أن تكون المسألة واضحة .

ويثير موسكا نقطة واحدة ، تبدو لى على درجة بالغة من الاهمية وتستحق مزيد من الدقة ، هذه النقطة هى : **أنه غالبا ما يوجد فى** «الصفوة الحاكمة» ، على حسب ما يقول ، زمرة على القمة ، ثم مرتبة ثانية أكبر حجما ومعها (١) تكون القمة على اتصال فورى ومستمر ، ومعها (٢) تشارك فى الافكار والمشاعر ، ومن ثم ، كما يعتقد ، فى العمل السياسى أيضا (ص ٤٣٠) . بعد ذلك افحص وانظر ما اذا كان هناك فى أى موضع آخر من الكتاب يثير موسكا نقاط أخرى ذات صلة بهذا. هل تتكون الصفوة من المستوى الثانى ؟ وهل القمة ، بشكل ما ، هى المسئولة عن ، أو على الاقل تشعر بالحساسية تجاه ، هذه الطبقة الثانية ؟ .

والآن ، لننسى موسكا ، فقد أصبح لدينا بلغة أخرى (١) الصفوة، والتى نقصد بها هنا زمرة القمة ، (٢) من يمكن وضعهم فى الاعتبار ، (٣) كل الاشخاص الآخرين . وفى هذا المخطط ، نجد أن العضوية فى المجموعتين الثانية والثالثة تتحدد بالمجموعة الاولى ، والمجموعة الثانية قد تختلف تماما فى حجمها وتكوينها وعلاقاتها عن الاولى والثالثة . (وبالمناسبة ، ما هو مجال الاختلاف فى علاقات (٢) بـ (١) و بـ (٣)؟ فلنتفحص موسكا بحثا عن أى تنويهات ثم نوسع فيها بدراستها بطريقة منهجية) .

ان هذا المخطط قد يمكننى بصورة أكثر دقة من أن أضع فى اعتبارى مختلف أنواع الصفوة ، والتى هى بمثابة صفوة مختارة وفقا للابعاد المتعددة للتدرج الطبقى . كما يمكننى ، طبعا ، من أخذ التمييز الذى وضعه باريتو بين الصفوة الحاكمة وغير الحاكمة بصورة دقيقة وذات

معنى ، وبطريقة أقل جمودا من باريتو • ومن المؤكد أننا سنجد أن هناك الكثير من ذوى المراكز العليا موجودون فى المجموعة الثانية على الاقل • وتدل الزمرة أو الصفوة على القوة ، أو على السلطة ، على حسب الحالة • وقد تعنى الصفوة فى لغتنا هذه ، دائما ، صفوة القوة• أما الآخرون ذوى المراكز العليا فقد يكونون هم الطبقات العليا أو الدوائر العليا •

وهكذا وبشكل ما ، ربما قد نستطيع استخدام هذا التوصيف فيما يتعلق بمسألتين رئيسيتين : البناء الخاص بالصفوة ، والاطار التصورى — وربما فيما بعد الكيان — الخاص الذى يربط بين التدرج الطبقى ونظريات الصفوة (فسر هذا) •

أما من وجهة نظر القوة ، فمن السهل الاخذ بمن يمكن وضعهم فى الاعتبار عن الاخذ بالذين يحكمون • ونحن عندما نحاول تنفيذ الجزء الاول فاننا نقوم باختيار مستويات القمة كنوع من عملية التجميع السهل ودليلنا فى هذا هو المركز الاجتماعى • لكن عندما نحاول الجزء الثانى ، عندئذ يجب علينا أن نبين بصورة مفصلة وواضحة كيف يحسن الذين يحكمون استخدام القوة وكيف تكون لهم صلة بالوسائل الاجتماعية التى يمارسون من خلالها قوتهم • كذلك فاننا نتعامل مع الاشخاص بأكثر مما نتعامل مع المراكز الاجتماعية ، أو على الاقل علينا أن نضع الاشخاص فى الاعتبار •

والآن ، فاننا نجد أن مركز القوة فى الولايات المتحدة يشتمل على أكثر من صفوة واحدة • والتساؤل هو كيف نستطيع الحكم على المراكز النسبية المتصلة بمختلف أنواع هذه الصفوة ؟ الاجابة على هذا هو أن هذا الحكم يعتمد على القضية المثارة وعلى القرارات التى تتخذ • فاحدى مجموعات الصفوة قد ترى الاخرى على أنها من بين أولئك الذين يؤخذون فى الاعتبار ، حيث الاعتراف المتبادل موجود بين الصفوة ،

ذلك الذى تعتد به مجموعات الصفوة الاخرى ، اذ أنهم بصـــورة أو بأخرى أناس يشعر كل منهم بأهمية الآخر • وأخـــيرا المشروع الذى عليك تنفيذه : قم باختيار ثلاث أو أربع قرارات خاصة بالعقد الاخير ـ اسقاط القنبلة الذرية ، خفض أو رفع انتاج الصلب ، اضراب شركة جنرال موتورز عام ١٩٤٥ ـ ثم تتبع بصورة مفصلة الافراد الذين لهم صلة بكل منها • وفى امكانك استخدام «القرارات» وصنع القرارات كأسباب تعتمد عليها المقابلة عندما تشرع فى البحث عن أسباب قوية لهـــا •

(٣)

وعلى مدار العمل الذى تقوم به يجىء وقت عندما تجد نفسك وقد انتهيت من الكتب الاخرى ، حيث تكون قد أفرغت ما تريده منهـــا فى ملاحظاتك وفى الملخصات التى دونتها • ثم على هوامش هذه الملاحظات وكذلك فى أحد الملفات المنفصلة تكون قد جمعت الأفكار التى ستستخدمها فى الدراسات الخبروية •

وبالنسبة لى فاننى لا أحب القيام بالعمل الخبروى اذا كان من الممكن تجنبه ، ذلك لأن المرء اذا لم تكن لديه مجموعة تعمل معه ففى هذا قدر كبير من المتاعب ، أما اذا استخدم مجموعة تساعده فالمتاعب غالبا ستكون أكبر •

وفى الظرف الفكرى للعلوم الاجتماعية اليوم ، هناك الشىء الكثير الذى يمكن فعله عن طريق «وضع البناء» الاولى (وليكن هذا التعبـــير فى مقام ذلك النوع من العمل الذى أقوم بوصفه) بما يجعل الكثـــير من «البحث الخبروى» خليق بأن يكون ضعيف وغير مثير للاهتمام • وفى الحقيقة ، فان قدر كبير من هذا العمل يعد تدريبا رسميا للدارسين المبتدئين ، بل وأحيانا يكون مسعى مفيدا لمن ليس لديهم القدرة على

معالجة مشاكل علم الاجتماع الاكثر صعوبة • وهكذا لا يكون للبحث الخبروى أى فضل يزيد عما فى مجرد القراءة فى حد ذاتها • فالغرض من البحث الخبروى هو تسوية عوامل الاختلاف والشكوك حول الحقائق، ومن ثم يتم جعل البراهين أكثر فائدة ومثمرة بشكل أكبر وتأسيس كافة الجوانب بوضعها الحقيقى بصورة أكبر • فالحقائق تقوم بتنظيم وتدريب العقل ، وان كان العقل هو حارس المقدمة اليقظ فى أى حقل تعليمى •

ورغم أنك لن تستطيع أبدا الحصول على الأموال اللازمة التى يمكنك بها انجاز الكثير من الدراسات الخبروية التى تستهدفها ، الا أنه من الضرورى بالنسبة لك أن تستمر فى التصميم والتخطيط لها ، ذلك أنك بمجرد وضع الاطار الخاص باحدى الدراسات الخبروية حتى ولو لم تستكمله للنهاية ، فسوف يؤدى بك الى بحث جديد عن البيانات ، التى غالبا ما تتحول لتكون ذات صلة لا يتطرق اليها الشك بمشاكلك • وبالضبط كما أنه سيكون من الحماقة أن تقوم بتصميم الدراسة الميدانية اذا كانت الاجابة التى تريدها موجودة فى المكتبة ، وسيكون أيضا من الحماقة أن تعتقد أنك قد استنفذت الكتب التى تقرأها قبل أن تكون قد ترجمتها تقريبا الى دراسات خبروية ، وهو الشىء الذى يعنى فقط ترجمتها الى مسائل تتعلق بالحقائق •

ويجب أن تكون المشروعات الخبروية اللازمة لعملى مبشرة ، أولا، بعلاقتها بالصياغة الاولى التى كتبت عنها آنفا ، اذ عليها أن تؤكد على هذه الصيغة فى شكلها الاصلى أو الى تعديلها • وبمعنى آخر ، يجب أن تكون لها دلالات للبنيات النظرية • ثانيا ، يجب أن تتمتع هذه المشروعات بالكفاية والدقة ، وبالبراعة ان أمكن • وبهذا أقصد أن هذه المشروعات يجب أن تبشر بأنها ستثمر عن قدر أكبر من المادة العلمية وفقا لما بذل فيها من وقت وجهد •

ولكن كيف يتم هذا ؟ من المعروف أن أكثر السبل اقتصادا فى طرح مشكلة ما هو حل أكبر جزء منها بواسطة العقل فقط • فنحن عن طريق العقل نحاول (١) عزل كل تساؤل يتعلق بالحقيقة ، (٢) استقصاء هذه التساؤلات المتعلقة بالحقيقة بحيث ان الردود عليها تبشر بمساعدتنا فى حل المزيد من المشاكل بمزيد من العقل [٣] •

ولكى يمكنك السيطرة على المشاكل بهذه الطريقة ، عليك أن تهتم بأربعة مراحل ، وان كان من الافضل عادة أن تتوغل فى هذه المراحل الاربعة أكثر من مرة بدلا من التوقف عند أى مرحلة واحدة منها لفترة طويلة • هذه المراحل الاربعة : (١) تحديد العناصر والتعليقات التى تعتقد ، من ادراكك العام بالموضوع ، أو القضية ، أو مجال الاهتمام ، أنك سوف تأخذها فى اعتبارك ، (٢) العلاقات المنطقية بين التعريفات والعناصر ، لأن بناء هذه الانماط الاولية الصغيرة يتيح أفضل فرصة أمام الخيال العلمى الاجتماعى لكى يلعب دوره ، (٣) استبعاد الآراء الزائفة نتيجة لاسقاط العناصر المطلوبة ، والتعريفات غير المناسبة أو غير الواضحة للمصطلحات ، أو التركيز الذى فى غير محله على جانب ما من المجال وامتداداته المنطقية ، (٤) صياغة واعادة صياغة التساؤلات المتبقية المتعلقة بالحقيقة •

وبالمناسبة ، فان الخطوة الثالثة فى هــذه المراحل الاربعة ، رغم ضرورتها تماما ، الا أنها غالبا ما تكون جانبا مهملا فى أى صياغة ملائمة للمشكلة • كذلك ينبغى الاخذ فى الاعتبار بعناية ودقة الادراك العــام بالمشكلة ــ المشكلة كقضية وكمصدر ازعاج ــ حيث أن هذا يمثل جزء من المشكلة • وبطبيعة الحال ، فان الصياغات العلمية يجب أن تفحص بعناية واما أن تستخدم فى اعادة الصياغة التى تمت واما تستبعد تماما •

وقبل أن يستقر رأيى على الدراسات الخبروية اللازمة للعمــل الذى أتناوله بين يدى ، فاننى قد بدأت فى وضع الخطوط العامة للتصميم

الاوسع للدراسات والذى بدأت تظهر فيه عديد من الدراسات الاقل حجما • ومرة أخرى ، فاننى أستعرض هنا مقتطفات من ملفاتى :

اننى لست بعد فى موقف يتيح لى دراسة الدوائر العليا فى مجموعها ككل بصورة تجريبية منظمة • لذلك فان ما أفعله هو طرح بعض التعريفات والاجراءات التى تشكل نوعا من التصميم النموذجى لهذه الدراسة • اذن ففى استطاعتى أن أحاول ، أولا ، جمع المواد الموجودة التى تقترب من هذا التصميم ، ثانيا ، التفكير فى السبل الملائمة لجمع المواد ، مع التسليم بالمؤشرات القائمة ، التى تشبع متطلبات التصميم فى نقاط معينة حاسمة ، وثالثا ، مع استمرارى فى العمل ، زيادة التحديد النوعى للابحاث التجريبية الشاملة التى سوف يلزم اجراؤها فى النهاية •

وتعريف الدوائر العليا ، بطبيعة الحال ، يتم بصورة منهجية من منطلق متغيرات محددة • ومن الناحية الشكلية — وهذه هى طريقة باريتو — فان هذه الدوائر تتألف من الذين «يملكون» أكبر قدر من أى قيمة معينة أو مجموعة من القيم • لذا كان على أن أتخذ قرارين : ما هى المتغيرات التى أتخذ منها أساسا للقياس ، ثم ماذا أقصد بكلمة «أكبر قدر» ؟ وبعد أن استقر رأيى على المتغيرات ، على بعد ذلك وضع أفضل المؤشرات الممكنة ، وتكون مؤشرات كمية لو أمكن ، وذلك حتى يمكن توزيع مجتمع البحث وفقا لها ، وعندئذ فقط يمكننى البدء فى تقرير ما أعنيه بكلمة «أكبر قدر» ، لأن تحديد هذا المعنى ينبغى ، الى حد ما تركه لما تقرره الفحوص الخبروية للتوزيعات المختلفة ، والتداخلات بينها •

ومن هنا ، ينبغى لمتغيراتى الاساسية ، أولا ، أن تكون ذات صيغة عامة بما يكفى لاتاحة قدر من الحرية والمرونة لاختيار المؤشرات : وفى

نفس الوقت تكون محــددة بما يكفى لاســتثارة البحث عن المؤشرات الخبروية • ومع استمرارى فى العمل ، سيكون على التنقل ذهابا وايابا بين المفاهيم والمؤشرات ، مسترشدا بالرغبة فى عــدم فقــد المعــانى المقصودة ، وفى ذات الوقت يكون موقفى محدد تماما منها • وفيما يلى المتغيرات الاربعة المأخوذة عن فيبر ، والتى سأبدأ بها :

(١) الطبقة : وتشير الى مصادر الدخل وكميته ، لذلك سوف أكون فى حاجة لتوزيعات الملكية وأيضا التوزيعات الخاصة بالدخل • والمادة المثالية هنا (وهى فى غاية الندرة ، وللاسف مؤرخة) هى تبويب متقاطع لمصدر الدخل السنوى وكميته • ومن هنا فاننا نعرف أن «X»٪ من السكان قد تلقى خلال عام ١٩٣٦ «كذا» مليون أو أكثر ، وأن «ز»٪ من كل هذا المبــلغ كان من الملكية ، وأن «و»٪ كان من انســحاب المشروعات استثمارية ، وأن «ل»٪ هو من الاجور والمرتبات • وبناء على هذا البعد الطبقى ، يمكننى تعريف الدوائر العليا ــ أولئك الذين يملكون معظم ــ أو الذين يحصلون كميات معينة من الدخل خــلال فترة زمنية معينة ــ أو أولئك الذين يشكلون الاثنان فى المائة التى تقبع على قمة التوزيع الهرمى للدخل • انظر الى ســجلات وقوائم وزارة الخزانة حول كبار دافعى الضرائب وانظر ما اذا كان من الممكن تحديث الجداول الخاصة بمصدر وحجم الدخل •

(٢) المكانة : وتشير الى حجم ما يتم اسباغه من احترام ورعاية • وبالنسبة لهــذا ، لا توجــد مؤشرات بســيطة أو مؤشرات يمكــن حصرها • والمؤشرات القائمة التى تتطلب اجراء مقابلات شخصية حتى يمكن تطبيقها ، هى مؤشرات محــدودة حتى الآن بالنسبة للدراسات الخاصة بالمجتمع المحلى ، ولم تعد صالحة فى معظمها بأى شــكل من الاشكال • بجانب هذا ، هناك تلك المشــكلة الاخرى فى أن المكانة ،

بعكس الطبقة ، تنطوى على عــلاقات اجتماعية : اذ يوجد على الاقل شخص يتلقى الاحترام وآخر يمنحه .

وفى هذا من السهل الخلط بين الشهرة والاحترام ــ أو بالاحرى ، نحن حتى الآن لا نعرف ما اذا كان ينبغى استخدام حجم الشــهرة كمؤشر على المركز الذى تتمتع به المكانة أم لا ، بالرغم من أنه من أكثر المؤشرات سهولة فى توفيره . (ومثال ذلك : أنه فى غضون يوم أو يومــين متعاقبــين فى منتصف مارس ١٩٥٢ ذكرت الفئــات التالية من الناس بالاسم فى صحيفة النيويورك تايمز ــ أو فى بعض الصفحات المختارة ــ فسر هذا) .

(٣) القوة : وتشير الى تحقيق ارادة شـــخص حتى اذا قاومهــا الآخرون . والقوة ، مثلها مثل المكانة ، ليس هناك مؤشرات جيــدة عليها . ولا أعتقد أنه فى استطاعتى أن آخذ بها كمجرد بعد واحد ، بل سوف يتحتم على أن أتحدث عن (١) السلطة الرسمية ــ وتعرف بحقوق وقدرات المراكز فى المؤسسات المختلفة ، خصوصا فى المؤسسات العسكرية ، والسياسية ، والاقتصادية . (٢) أصحاب القوة المعــروفة بصورة غير رسمية ، أى أنها تمارس ولكنها غير مشرعة رسميا ــ قادة الجماعات الضاغطة ، ومن يقومون بالدعاية ويملكون تحت تصرفهــم وسائل اعلام واسعة وهكذا .

(٤) المهنة : وتشير الى الانشطة التى يدفع أجر مقابلها . وهنا ، مرة أخرى ، على أن أختار بالضبط أى مظهــر من مظاهر الوظيفــة ينبغى أن أركز عليه : (١) فاذا ما استخدمت متوسط الدخول للوظائف المختلفة ، ورتبت مستوياتها ، فاننى بذلك أكون قد استخدمت المهنة كمؤشر ، وباعتبارها أســاس للطبقة . وبنفس الطريقــة ، (٢) اذا ما استخدمت المكانة أو القوة المرتبطان بصورة نمطية بالمهن المختلفة ،

فاننى بذلك أكون قد استخدمت المهـن كمؤشرات ، وكأسس ، للقـوة والمهارة ، أو الموهبة ، وان كان هذا ليس على الاطلاق بالوسيلة السهلة لتصنيف الناس . فالمهارة — وهى فى هذا لا تزيد فى شىء عن المكانة — ليست بالشىء المتجانس فى كثير أو قليل . والمحاولات التى بذلت لتناولها بهذا الشكل عادة ما كانت تتم فى اطار طول الفـترة الزمنية المطلوبة لاكتساب المهارات المتعددة ، وربما كان هذا يؤدى الغرض ، بالرغم من أننى أتمنى فى امكانية التفكير فى شىء أفضل .

لقد كانت هذه هى أنماط المشاكل التى سوف يتوجب على حلها حتى أتمكن من تعريف الدوائر العليا من الناحية التحليلية والضبروية ، فى اطار هـذه المتغيرات الرئيسية الاربعة . وبالنسبة لأغراض تصـميم الدراسات فاننى أفترض بأننى قد تمكنت من حل هذه المشاكل بصورة ترضينى ، وأننى قد قمت بعملية التوزيع السكانى وفقا لكل متغير من هذه المتغيرات . وبهذا توافر لدى أربع مجموعات من الناس : أولئك الذين يحتلون القمة من حيث الطبقة ، والمكانة ، والقوة ، والمهنة . وأفترض أيضا أننى قد أفردت الاثنان فى المائة التى تتربع على قمة كل توزيع باعتبارها احدى الدوائر العليا . بعد ذلك فاننى أواجه السؤال التالى الذى يمكن ايجاد اجابته خبرويا : ما هو مدى التداخل ، اذا كان هناك، بين كل من هذه التوزيعات الاربعة ؟ ان أحد مجالات الاحتمالات الممكنة يمكن وضعه فى الصورة البسيطة التالية : (+ = قمة الاثنان فى المائة ، — = الـ ٩٨٪ الادنى) .

			الطبقة			
			+ المكانة		− المكانة	
			+	−	+	−
القوة	+ المهنة	+	١	٢	٣	٤
		−	٥	٦	٧	٨
	− المهنة	+	٩	١٠	١١	١٢
		−	١٣	١٤	١٥	١٦

أن هذا الجدول التوضيحى ، لو توافرت لدى المواد اللازمة لملئه، فسوف يتضمن بيانات رئيسية ومشاكل هامة كثيرة تتناسب ودراسة الدوائر العليا ، كما أنه سوف يزودنا بمفاتيح رئيسية للكثير من المسائل التعريفية والتوصيفية . وأنا لا أملك المواد ، كما لن يكون فى قدرتى الحصول عليها — مما يجعل للامر كله مزيد من الاهمية فى أن أقوم بعملية التأمل والتفكر حول هذه المواد ، ذلك لأنه فى مجرى هذا التأمل، اذا ما كان يهتدى بالرغبة فى تقريب المتطلبات الخبروية لتصميم نموذجى ، سوف أقع على مجالات هامة قد أستطيع الحصول على مواد بشأنها وتعمل كنقاط ارتكاز أهتدى بها لمزيد من التأمل .

وبالنسبة لهذا النمط العام مازال هناك نقطتان أخريان لابد من اضافتهما حتى يكتمل من الناحية الشكلية . النقطة الاولى : هى أن التصورات والمفاهيم الكاملة للشرائح الطبقية العليا تحتاج الى الاهتمام بعنصرى الديمومة والحراك الاجتماعى . والنقطة الثانية ، هى أن المهمة المطلوبة هنا هى تقرير الاوضاع الاجتماعية (١ — ١٦) التى تحدث فيما بينها حركة نمطية للافراد والجماعات — فى نطاق الجيل الحالى ، ووسط الجيلين أو الثلاث الماضية .

وهذا يعطينا البعد الزمنى لتاريخ حياة الفــرد وللتاريخ نفسه • وهذه ليست فقط مجرد مسائل خبروية أخرى ، بل هى أيضا ذات صلة بالناحية التعريفية ، ذلك (١) أننا نريد ترك الباب مفتوحا أمام التساؤل حول ما اذا كان تصنيف الناس فى اطار أى متغير من متغيراتنا الاربعة الرئيسية ، يوجب علينا أو لا يوجب تعريف الفئات التى توصلنا اليها من حيث المدة الزمنية التى شغلوا فيها ، أو أسرهم ، الوضع الذى نبحث فيه • ومثال ذلك ، هو أننى قد أرغب فى تقــرير أن الاثنـين المتربعون فى المكانة العليا ــ أو على الاقل نمط واحــد هام من صنف المكانة ــ يشتمل على من ظلوا هناك على الاقل لمدة جيلين • (٢) اننى أريد ترك التساؤل مفتوحا حول ما اذا كان يتوجب على أن أضع بنية «طبقة» ليس فقط من حيث تداخل المتغيرات المختلفة ، بل أيضا بمــا يتفق وتعريف فيبر المهمل عن «الطبقــة الاجتماعية» ، من حيث أنهــا تتألف من تلك الاوضاع الاجتماعية التى يقع بينها نوع « الحــراك الاجتماعى السهل والنمطى » • ومن هنــا يمكن القول ، أن الوظائف الدنيا للياقة البيضاء ووظائف العــامل المأجور من الدرجة الوســطى والعليا فى مجال صناعات معينة يمكن أن تشكل بهذا المفهوم شريحــة طبقيــة •

ومن خلال القراءة والتحليل لما وصفه الآخرين من نظريات ، ثم وضع تصميم نموذجى للبحث ، والتنقيب فى الملفات ، فانك ســوف تبدأ فى وضع قائمة تضم دراسات محددة ، بعضها أكبر ممــا يمكن استيعابه ومعالجته ، ومع مرور الوقت يتم للاسف تنحيته جانبا ، أما البعض الآخر فسوف ينتهى فى مجموعة من المواد التى يمكن تركيزها فى فقرة ، فى جزء ، فى جملة ، فى فصل ، ثم هناك البعض الثــالث الذى

يمثل موضوعات أعم وأشمل ويمكن نسجها جميعا فى كتـاب كامل .
وهنا أيضا أقدم بعض الملاحظات الاولية عن مثـل هـذه المشروعات المتعـددة :

١ — تحليل ميزانية زمنية فى يوم عمل نمطى عادي لعشرة من كبار المسئولين التنفيذيين فى شركات كبـيرة ، ونفس الشيء بالنسبة لعشرة من الاداريين فى الحكومة الاتحادية ، ثم يتم مزج هذه الملاحظات بما ينجم عن المقابلات من تفاصيل مستفيضة تتعـلق بـ « تاريخ حياة » هؤلاء الناس . والغرض من هذا ، هو وصف الجوانب الروتينية والقرارات الرئيسية ، جزئيا على الاقل من حيث الزمن المخصص لهاء ولاكتساب رؤية متبصرة فى العوامل المرتبطة بالقـرارات المتخـذة . وهذا الاجراء سوف يتغير بطبيعة الحال بدرجة التعاون الموجود ، وان كان من الناحية النموذجية سوف يشمل : أولا ، اجراء مقابلة يتم فيها شرح تاريخ الحياة والوضع الراهن للانسان بصورة واضحة ، ثانيا ، الملاحظات اليوميـة ، بالجلوس فى ركن مكتب الشخص ، وتتبعه فى تحركاته ، ثالثا ، اجراء مقابلة مطولة فى المساء أو فى اليوم التـالى وفيها يتم مراجعة اليوم برمته واستبار العمليات الذاتية التى ينطوى عليها السلوك الخارجى الذى شاهدناه .

٢ — اجراء تحليل لعطلة نهاية الاسبوع عند الطبقة العليا ، ويتم فيه ملاحظة وتتبع الجوانب الروتينية بصورة دقيقة بعقد مقـابلات استبارية مع الشخص ومع غيره من أفراد الاسرة فى يوم الاثنين التالى ليوم الراحة .

ولانجاز هاتين المهمتين على أن أجرى اتصالات جيـدة تماما ، وبالطبع فان الاتصالات الجيدة ، اذا ما تمت بصورة مناسبة ، سوف

تؤدى الى اتصالات أخرى أفضل . (تم جمع هذا عام ١٩٥٧ ، وقد تحول ليكون مجرد وهم) .

٣ — اجراء دراسة لحساب المصروفات وغيرها من الامتيازات ، التى تؤلف، بجانب المرتبات والدخول الاخرى ، صورة لمستوى وأسلوب معيشة المستويات العليا . والفكرة هنا ، هى الحصول على شىء مادى حقيقى من « الصفة البيروقراطية للاستهلاك » ونقل النفقات الخاصة وتحميلها على حسابات العمل .

٤ — تحديث نمط المعلومات التى تحويها كتب مثل كتاب «لندبيرج» « العائلات الامريكية الستون » ، الذى يرجع تاريخه مع تاريخ عوائد الضرائب فى عام ١٩٢٣ .

٥ — الحصر والتنسيق لتوزيع الملكية الخاصة ذات الانماط المختلفة بحسب الحيازات ، من سجلات وزارة المالية وغيرها من المصادر الحكومية .

٦ — اجراء دراسة لخطط الحياة العملية لرؤساء الجمهورية : وجميع أعضاء الحكومة ، وكافة أعضاء المحكمة العليا . وكل هذا حصلت عليه بالفعل من بطاقات الكومبيوتر I.B.M عن الفترة الدستورية لمدة الولاية الثانية للرئيس ترومان ، ولكننى أريد التوسع فى البنود المستخدمة وتحليلها من جديد .

بخلاف هذا هناك — حوالى ٣٥ — «مشروعا» من هذا النوع (مثل ، مقارنة كميات النقود التى تم انفاقها فى الانتخابات الرئاسية عامى ١٨٩٦ ، ١٩٥٢ ، المقارنة التفصيلية بين الرئيسين مورجان عام ١٩١٠ ، وكايزر عام ١٩٥٠ ، ثم اجراء بحث للحصول على شىء حقيقى

سليم عن حيـاة «أمراء البحر وقادة الجيش»)• ومـع هذا ، فمع استمرار الانسان فى العمل ، لابد بالطبع من مواءمة هدفه مع ما يمكن الحصول عليه •

بعد وضع التصميمات الخاصة بهذه المشروعات ، بدأت فى قراءة الاعمال التاريخية عن جماعات القمة ، وأخذت أدون ملاحظات عشوائية (غير مصنفة فى ملف) وتفسير ما أقرأه • وفى الحقيقة ، فانه ليس من المحتم عليك أن تقوم بـ «دراسة» الموضـوع الذى تعمل فيه ، ذلك لأنه كما سبق وقلت من قبل ، بمجرد أن تعكف عليه ، أصبح الموضوع فى كل مكان • فأنت تكتسب حساسية لمباحثه بحيث تراها وتسمعها فى كل جانب من جوانب خبرتك ، خصوصا ، كما يبدو لى ، فى ميادين قد تبدو بعيدة الصلة بالموضوع ، وحتى وسائل الاتصال الجماهيرى ، خصـوصا الافـلام السيئة والروايات الرخيصة والمجـلات المصورة الرخيصة ، واذاعات المساء فى الراديو ، كلها تتكشف أمامك وتجـذب اهتمامك بصورة جديدة •

(٤)

ومع هـذا ، فانك قد تسأل ، كيف تتوارد الافـكار ؟ كيف تم استثارة الخيال لترتيب الصور والحقائق وجمعها معا ، ولجعل الصور تتوافق وتضفى معنى للحقائق ؟ بالنسبة لهذا لا أعتقد أنه فى امكانى حقا الاجابة عليه ، كل ما أستطيع أن أفعله هو التحدث عن الظروف العامة وعن قلة من الاساليب البسيطة التى بدا أنها قد زادت أمامى من فرص الخروج بشىء بالنسبة لهذه التساؤلات •

وأنا هنا أذكرك ، بأن الخيال العلمى الاجتماعى هو فى جانب كبير منه يكون مشتملا على القدرة على التحول من منظـور لمنظور آخر ،

وكذلك القدرة على بناء وتكوين نظرة مناسبة وكافية لشمول المجتمع ولمكوناته • وهذا الخيال ذاته ، بطبيعة الحال ، هو الذى يخرج عالم الاجتماع من نطاق كونه مجرد شخص صاحب حرفة تقنية • فالذين يتوافر لديهم العناصر التقنية الكافية يمكن تدريبهم فى غضون سنوات قليلة • كذلك الخيال العلمى الاجتماعى يمكن أيضا تربيته واستنهاضه، حيث بالتأكيد نادرا ما يتحقق دون قدر كبير من العمل الروتينى(٤) •
ومع هذا ، فهناك خاصية غير متوقعة بشأنه ، ربما لأن جوهره هو مزج الافكار التى لا يتوقع أحد أنها قابلة للمزج — ولنقل مثلا أنها كخليط الافكار المستمدة من الفلسفة الالمانية والاقتصاديات البريطانية • وفى هذا يكون للعقل دوره الذى يلعبه وراء عملية المزج هذه بقدر ما يكون هناك من وازع حقيقى عنيف يدفع نحو تفهم العـالم ، وهو الشىء الذى يفتقده عادة الشخص التقنى • وربما قد يكون على درجة جيدة من التدريب ، وعلى درجة دقيقة أيضـا من التدريب • لكن حيث أن الانسان فى الامكان «تدريبه» فقط فى مجال الشىء المعروف بالفعل ، فان التدريب أحيانا ينزع من المرء قدراته على تعلم وسائل جديدة ، فهو يجعل المرء متمردا ازاء ما هو خليق بأن يكون سريع الزوال بل والضياع • ومع ذلك ، فيتوجب عليك أن تتعـلق بتلك التصـورات والمفاهيم الغامضة ، هذا اذا كانت تصوراتك ومفاهيمك ، ويجب عليك أن تعمل على ايضاحها وتفسيرها ، ذلك لأنه فى نطاق مثل هذه الاشكال تبدأ الافكار الاصلية ، اذا كانت هناك ، فى الظهور دائما •

أما بالنسبة لتنشيط واستنهاض الخيال العلمى الاجتماعى ، فان هناك كما أعتقد ، عدة سبل محددة لذلك هى :

١ — يعتبر اعادة ترتيب الملف ، على أكثر المستويات واقعية ، كما سبق وقلت من قبل ، هو أحد السبل الداعية لاعمال الخيال • فأنت اولا تقوم بالتقليب فى الملفات التى لا رابط بينهـا قبـلا وتفـريغ

محتوياتها وخلطها معا ، ثم تقوم باعادة فرزها • وأنت تحاول القيام بهذا بشكل مستريح ، كثيرا كان أم قليلا • أما كم مرة وبأى قدر من التوسع فى اعادة ترتيب الملفات ، فهو أمر سوف يختلف بطبيعـــة الحال باختلاف المشاكل وبكيفية ظهورها وتكشفها بصـــورة جيـــدة ، انمـــا الميكانيزمات الخاصة بها فهى غاية فى البساطة • وطبعا وأنت تقوم بهذا سوف يكون فى ذهنك المشاكل المتعددة التى تعمل عليها بنشاط ، ولكنك سوف تحاول أيضا أن تكون متلق بصورة سالبة لجوانب الربط غـــير المرئية وغير المخططة •

٢ — ان اتخاذ موقف التلاعب بالعبارات والكلمات التى تحـــددت بها مختلف القضايا كثيرا ما يؤدى الى تمييع الخيال • ولكى تحيـــط بالمجال الكامل للمدلولات التى يحملها كل مصطلح وتعبـــير تستخدمه عليك أن تبحث فى القواميس والكتب الفنية عن المترادفات الخاصـــة بكل مصـــطلح وكل تعبير • وهذه العادة البسيطة ســـوف تحفزك على تحقيق دقة التعبير عن المشكلة ومن ثم تعريفها وتحديدها بأقل قدر من الكلمات وبأكبر قدر من الدقة ، ذلك لأن مجرد معرفتك بالمعانى العديدة التى تكتسبها المصطلحات والعبارات يجعلك تتمكن من اختيار المعانى الدقيقة التى ترغب فى استخدامها • ومع ذلك ، فأن مثل هذا الاهتمام بالكلمات يذهب الى أبعـــد من هـــذا • ففى كل عمـــل تقـــوم به ، وخصوصـــا فى فحص الصـــياغات النظـــرية ، ســـوف يكون عليـــك محاولة الاحتفاظ بنظرة دقيقة على مستوى التعميم فى كل مصـــطلح رئيسى ، كما سوف تجد غالبا أنه من المفيد تقسيم عبارة على مستوى عال من الصياغة الى معان أكثر واقعية • وعندما يتحقق هذا ، ستجد أن العبارة قد أصبحت تقع فى عنصرين أو ثلاث ، كل منها يسير وفقـــا

لأبعاد مختلفة • هذا بالاضافة الى أنك سوف تحاول أيضا الارتفـاع بمستوى التعميم : فقم باستبعاد الخاصيات المحددة ثم تفحص الصياغة بعد اعادة تشكيلها أو الاستدلال بمزيد من التجريد لكى ترى ما اذا كان فى استطاعتك التوسـع فيه أو جعـله أكثر دقة • وهكذا ، فانك ستحاول أن تستثير ، بحثا عن المعنى الواضح ، كل جانب وكل مدلول للفكرة •

٣ ـ ان الكثير من المفاهيم العامة التى تتوصل اليها ، وأنت تعمل فكرك فيها ، ستكون قد صيغت فى أنماط معينة • ومن هنا يكون وضع تصنيف جد هو عادة البداية لتحقيق تطورات مثمرة • وباختصار ، فان المهارة فى تكوين أنماط ثم البحث عن ظروف ونتائج كل نمط سـوف تصبح معك مجرد اجراء يتم بطريقة آلية • وبدلا من مطابقة المضمون على التصنيفات القائمة ، خصوصا التصنيفات المعتمدة على الفطنة ، فانك ستحاول البحث عن الدالات المشتركة وعن العوامل المميزة فيها وفيما بينها • وتتطلب الانماط الجيدة أن تكون معايير التصنيف واضحة ومنهجية ، ولكى تجعلهـا كذلك عليك أن تربى عادة التصنيف المتقاطع والمتداخل معا •

والتكنيك الخاص بعملية التصنيف المتقاطع ليس بالطبع قاصر على المواد الكمية ، بل هو فى الحقيقة يعتبر أفضل وسيلة للتخيل وللتمكن من أنماط «جديدة» ، وكذلك لانتقاد وتنقية الانماط القديمة • وفى هذا الشأن ، فان المخططات التوضيحية ، والجداول ، والرسـوم البيانية التى تأخذ طابع التوضيح الكمى ليست هى بالوسيلة الوحيدة لتبيان العمل الذى تم بالفعل ، بل هى فى أغلب الاحيان تكون أدوات حقيقية للانتاج • فهى تبين بجلاء «الابعاد» الخاصة بالانماط ، والتى تساعدك

أيضا فى عملية التخيل والبناء • وفى حقيقة الامر ، فانه فى غضـــون الخمسة عشر عاما الماضية ، لا أعتقد بأننى كتبت أكثر من اثنتى عشر صفحة بالنسبة للصياغة الاولية دون أن يكون فيها قليل من التصنيف المتقاطع ــ ذلك على الرغم من اننى ، بالطبع ، لا أعرض دائما أو حتى عادة مثل هذه الرسوم البيانية ، فمعظم هذه الرسوم تتساقط ، وحيث فى هذه الحالة تكون قد تعلمت شيئا • ولكن عندما تكون هذه الرسوم صالحة ، فانها تساعدك على التفكير والكتابة بوضوح أكبر • بالاضافة لهذا ، فهى تمكنك من اكتشاف مجال العلاقات الكاملة بين المعبارات ذاتها التى نفكر فيها والحقائق التى تعالجها •

وبالنسبة للباحث السوسيولوجى العامل ، يعتبر التصنيف المتقاطع هو بمثابة التوضيح البيانى لجملة بالنسبة للباحث اللغوى المثابر • فمن نواح كثيرة ، تعتبر عملية التصنيف المتقاطع هى ذات لغـــة النحـــو والصرف فى الخيال العلمى الاجتماعى • ومثله مثل جميع قواعد اللغة، يجب أن يكون التصنيف المتقاطع خاضـــع للضـــبط ولا يســـمح له بالانصراف عن أغراضه المحددة •

٤ ــ انك غالبا ما تحصل على أفضل نتائج الرؤية المتبصرة المتعمقة بدراسة الجوانب المتطرفة ــ أى بالتفكير فى المقابل المضاد للشىء الذى تهتم به بصفة مباشرة • فأنت اذا ما كنت تفكر فى جانب اليأس ، عندئذ عليك أيضا أن تفكر فى جانب الامل والبهجة ، اذا كنت تفكر فى دراسة البؤس ، عليك أيضا أن تفكر فى التبذير والاسراف • فأصعب شىء فى الدنيا هو دراسة موضوع واحد فقط ، اذ عندما تحاول اجراء مقابلة بين الموضوعات ، فانك بذلك تفرض قبضتك بشكل أفضـــل على المواد التى بين يديك كما أنك عندئذ تستطيع فرز وتصنيف الابعاد التى تتم

فى اطار عمليات المقارنة • وسوف تجد أنك بالانتقال جيئة وذهابا بين الاهتمام بهذه الابعاد والاهتمام بالانماط المادية الثابتة هو عملية بالغة التنوير • وهذا التكنيك يعتبر أسلوبا معقولا منطقيا ، لأنه بدون وجود عينة ، فكل ما تستطيعه هو فقط التخمين بشأن معدلات التردد الاحصائى بأى طريقة : فكل ما تستطيعه هو تبيان المجال والانماط الرئيسية لاحدى الظواهر ، وفى سبيل هذا ، يكون الاكثر اقتصادا للجهد هو البدء بوضع «الانماط المحورية» ، أى المتضادات وفقا للابعاد المختلفة• وهذا الامر ليس معناه بالطبع أنك لن تجاهد فى سبيل تحقيق وتأكيد الاحساس بالتناسب – أى البحث عن دليل يقود الى معرفة معدلات تكرار أنماط معينة • ففى الحقيقة ، يحاول المرء بصفة مستمرة الربط بين هذا المطلب والبحث عن المؤشرات التى من أجلها قد يقوم الانسان بجمع الاحصائيات •

والفكرة وراء هذا ، هو استخدام مجموعة متنوعة من الآراء ووجهات النظر : فأنت ستحاول ، مثلا ، أن تسأل نفسك كيف يمكن لعالم سياسى قد قرأت له مؤخرا الوصول الى هذا ، وكذلك كيف يمكن هذا لذلك الباحث السيكولوجى التجريبى أو ذاك المؤرخ ؟ إنك تحاول التفكير من منطلق وجهات نظر وآراء متنوعة ومتعددة ، وبهذا الشكل تترك ذهنك ليكون بمثابة منشور متحرك يستقطب الضوء من أكبر قدر ممكن من الزوايا • وفى هذا الشأن ، غالبا ما تكون كتابة الحوار عملية مثمرة ومفيدة تماما •

انك فى أغلب الاحيان ستجد نفسك وقد سار فكرك فى مواجهة شىء ما ، كما أنه فى محاولة فهم حقل جديد للفكر ، فان واحد من أوائل الاشياء التى تقوم بها هو وضع المخطط العام للحجج الرئيسية • فأحد

الاشياء المقصودة من «الاستغراق فى أدب المادة» هو أن تكون لديك القدرة على تحديد موقع الخصوم والاصدقاء من كل وجهة نظر متاحة .
وبالمناسبة ، فليس من الامور الطيبة أن «تستغرق فى أدب المادة» بأكثر من اللازم ، حيث أنك قد تغوص وتغرق فيها ، كما فعل « مورتيمر أدلر » ، فالشىء المهم قد يكون فى معرفة متى يجب أن تقرأ ، ومتى لا ينبغى القراءة .

٥ — أن الحقيقــة بأنه ، من أجل التبسيط ، فى عملية التصنيف المتقاطع ، يكون عليك العمل أولا فى نطاق نعم أو لا ، سوف يشجعك على التفكير فى أقصى الجوانب المتضادة . وهذا الامر بصفة عامة شىء جيد ، ذلك لأن التحليــل الكمى لا يمكنه بالطبــع تزويدك بمعدلات التكرار أو بالاحجــام . فالتكنيك الخاص بهــذا التحليل وغايته هو أعطائك مجال الانماط . وأنت بالنسبة للكثير من الاغراض لا تكون فى حاجة لأكثر من هذا ، على الرغم من أنك بالنسبة لبعضها تكون فى حاجة بالفعل الى الحصول على فكرة أكثر دقة بشأن حالات التناسب التى تنطوى عليها هذه الاغراض .

وأحيانا يكون اطلاق العنان للخيال أمر يمكن تحقيقه عن طريق قلب احساسك بالتناسب بصورة متعمدة (٥) . فاذا ما كان هنــاك شىء يبدو طفيف جدا ، فلنتخيل ببساطة أنه شىء ضخم ، واسأل نفسك : ما هو الفارق ؟ والعكس صحيح ، بالنسبة للظواهر العملاقة . فمثلا ، ماذا كانت ستبدو عليه القرى قبل المتعلمة لو كان بها كثــافة سكانية تبلغ ثلاثين مليون نسمة ؟ فى أيامنا هذه على الاقل ، لن يكون على أبدا أن أقوم فعلا باجراء حصر أو قياس حقيقى لأى شىء ، قبل أن أتناول كل بند من عناصره ، وظروفه ، ونتائجه فى عالم أتخيله وأتحكم وأضبط

للقياس لكل شيء فيه . وهذا هو أحد الاشياء التي ينبغي أن يقصدها رجال الاحصاء ، وان كان لا يبدو أنهم يفعلون هذا أبدا ، من تلك العبارة القصيرة المخيفة عن «معرفة الكون قبل تحديد عينته» .

٦ ـ أيا كانت المشكلة التي تشغل اهتمامك ، فانك سوف تجد من المفيد محاولة فرض سيطرة عنصر «المقارنة» على المواد . فالبحث عن حالات قابلة للمقارنة ، سواء في احدى الحضارات والفترات التاريخية المعينة أو في عدة حضارات ، سوف يعطيك مداخل متعددة . فلا ينبغي عليك أبدا التفكير في وصف نظام من انظمة أمريكا القرن العشرين دون أن يكون في ذهنك أنظمة شبيهة لها في أنماط أخرى من البناءات الاجتماعية والفترات التاريخية . فالامر سيكون بالغ السطحية اذا لم تعقد مثل هذه المقارنات الواضحة . وفي الوقت المناسب سوف يتأتى لك بصورة آلية تقريبا توجيه فكرك الى الناحية التاريخية ، وأحد أسباب هذا ، هو أن ما تقوم ببحثه غالبا ما يكون محدود العدد : ولكي تفرض عنصر المقارنة عليه ، عليك أن تضعه في اطار تاريخي . أما بوضعه في صورة أخرى ، فان مدخل نمط المقارنة غالبا ما يتطلب فحص المواد التاريخية . وهذا الامر غالبا ما يفضي الى بروز نقاط مفيدة لتحليل تيار ما ، أو أنه يؤدي الى ايجاد نمطية لأطوار المراحل. اذن ، فأنت سوف تستخدم المواد التاريخية بسبب الرغبة في الحصول على مجال أكمل ، أو مجال أكثر ملاءمة لظاهرة ما ــ وهو المجال الذي أقصد منه أن يشمل الجوانب المتنوعة وفقا لمجموعة معروفة من الابعاد. لذلك ، فان بعض المعرفة بتاريخ العالم يعتبر أمر لازم لا غنى عنه بالنسبة للباحث السوسيولوجي ، حيث يدون مثل هذه المعرفة ، بغض النظر عن أي شيء آخر يعرفه ، سيكون ببساطة مجرد شخص عاجز كسيح .

٧ ــ بعد ذلك ، هناك ، أخيرا ، نقطة أخرى تتصل بحرفة وضع كتاب بأكثر مما لها بعملية اطلاق العنان للخيال • ومع ذلك ، فان عملية وضع كتاب واطلاق العنان للخيال هما فى الغالب شىء واحد : فقيامك بترتيب المواد لعرضها غالبا ما يؤثر فى مضمون العمل الذى تقوم به • والفكرة التى تعتمل فى ذهنى وتعلمتها من أحـد كبـار الكتاب هو : «لامبرت دافيز» الذى لا أعتقد أنه بعد أن رأى ما فعلته بها سوف يقر بانها من نبت أفكاره ، هى التمييز بين المقال والموضوع •

فالمقال يتناول شىء مثل «الحياة العملية للمسئولين التنفيذيين فى الشركات» أو «السلطة المتزايدة للمسئولين العسكريين» أو «افول دور ارباب المجتمع» • وعادة ما يكون معظم ما تقوله حول المقـال يمكن صياغته فى حدود فصل واحد أو جزء من فصل • ولكن النظام الذى ترتب به كافة المقالات التى تتناولها غالبـا ما يأتى بك الى دائـرة الموضوعات •

فالموضوع هو فكرة ، عادة ما تمثل تيارا ذا دلالة معينـة ، أو مفهوم رئيسى ، أو تمييز أساسى ، كالعقلانية والسببية على سـبيل المثال • وأنت عندما تعمل على وضع الاساس البنائى لكتابك ، وعندما يتأتى لك أن تضمن هذا الاساس الفكرتين أو الثلاث ، أو على حسب الحالة التى قد تكون ست أو سبع أفكار ، عندئذ سوف تعرف انك قد وصلت الى قمة العمل • وأنت ستلاحظ وجود هذه الافكار لأنها سوف تصر على فرض نفسها على كافة أنواع الموضوعات التى تتناولها بل وربما قد تشعر أنها مجرد أفكار مكررة • وأحيانا تكون بالفعل هكذا ! ومن المؤكد أنها فى أغلب الاحيان ستتواجد فى أكثر الاجزاء تشويشا وأسوأها كتابة من النص الذى تعمل عليه •

وما يجب عليك أن تفعله هو استخراج هذه الافكار ووضعها فى صياغة عامة بأوضح ما يكون وبأقل الصور ايجـازا • ثم بعـدئذ ، وبصورة نسقية تماما ، عليك أن تختبر وضوحها فى نطاق المجال الكامل لموضوعاتك • وهذا معناه انك سوف تتساءل بالنسبة لكل موضـوع : كيف بالضبط يتأثر بكل من هذه الافكار ؟ ثم : ما هو بالضبط المعنى ، اذا كان هناك أى معنى ، بالنسبة لأى من هذه الافكار فى كل من هذه الموضوعات •

أحيانا قد تتطلب احدى الافكار كتابة فصل أو جزء كامل عنها ، وربما قد يكون هذا فى بداية طرحها لأول مرة أو ربما فى الخلاصـة الاخيرة نحو النهاية • وبصفة عامة ، فاننى أعتقد أن معظم الكتـاب ــ وكذلك معظم من يفكرون بطريقة نسقية ــ سوف يوافقون على أن جميع الافكار فى نقطة معينة يجب أن تظهر وقد بدت الصلة بين كل منهما والاخرى • وغالبا ، وان لم يكن دائما ، من الممكن تحقيـق هذا فى بداية الكتاب • وعادة ما يجب أن يتم هذا ، فى أى كتـاب جيد البناء ، قرب نهايته • وبطبيعة الحال ، عليك طول الوقت على الاقل محاولة ارجاع الافكار الى كل موضوع • طبعا الكتابة فى هذا الامر أسهل من القيـام به ، حيث أنه عادة ليس بالامر الذى يتـم بالصورة الميكانيكية كما يبدو ، وان كان يتم هكذا أحيانا ــ على الاقل اذا كانت الافكار قد صنفت وأصبحت واضحة بصورة ملائمة • ولكن هنا ، طبعا يكمن العيب لأن ما لدى هنا فى سياق الصنعة الادبية وأسميه آراء ، فى سياق العمل الفكرى فاننى أسميه أفكار •

وعلى كل ، ففى بعض الاحيان ، قد تجد أن كتابا ما لا يحـوى حقا أى نوع من الافكار ، بل هو مجرد خط من الموضوعات المحاطة

بتمهيدات منهجيـــة عن المنهج ، ومقدمات نظرية عن النظرية • وهذا بالفعل يعتبر أمر لازم لا غنى عنه فى الكتب التى يضعها أناس خاويين الذهن من الأفكار ، وهكذا أيضا يكون هناك الافتقار لعنصر الوضوح •

(٥)

انني أعلم أنك سوف تتفـــق معى على أنه ينبغى عليك تقـــديم عملك بأوضح وأبسط لغة يسمح بها موضوعك وأفكارك • ومع ذلك ، وربما كما لاحظت ، نجد أن التضخيم وتعدد المقاطع يسودان فى لغة العلوم الاجتماعية • وأعتقد أن الذين يستخدمون هذه اللغة يعتقدون بأنهم يقلدون «علم الفيزيقا» ولا يدركون أن قدرا كبيرا من «هـــذه» اللغة ليست بالشيء الضرورى • وفى الحقيقة ، لقد قيل بشـــكل من الثقة أن هناك «أزمة خطيرة فى مجال القراءة والكتابة» ـــ وهى الأزمة التى ينغمس فيها علماء الاجتماع بدرجة كبيرة[٦] • والسؤال هنا هو هل هذه اللغة الغريبة مرجعها هو حقيقة أن الموضوعات التى تناقش تشمل قضايا ومفاهيم ومناهج عميقة الابعاد ودقيقة ؟ فاذا لم يكن الامر كذلك ، اذن ما هى الاسباب وراء ما يسميه «مالكولم كولى» بحذق ومهـــارة «حصيلة الكـــلام»[٧] • وهل هو ضرورى لكى يكون عملك مناسبا ؟ فلو كان كذلك ، عندئذ لن يكون فى وسعك عمل شيء حياله ، أما اذا لم يكن ، اذن فكيف يمكنك تجنبه ؟ •

وكما أعتقد ، فان الافتقار الى عمليـــة الوضـــوح الفورى عادة ما تكون علاقتها بسيطة أو لا علاقة لها بتعقـــد الموضـــوع ، كما أن لا علاقة لها على الاطلاق بعمق الفكر ، بل ان علاقتها كاملة تقريبـــا ببعض الجوانب المعينة التى تحيط بهـــا البلبلة حول المكانة الخاصـــة للكاتب الاكاديمى •

ففى الكثير من الدوائر الاكاديمية اليوم ، فان أى شخص يحاول الكتابة بصورة كبيرة من الوضوح يكون معرضا للادانة بأنه « مجرد أديب » أو الاسوأ من هذا ، «مجرد صحفى» • وأنت ربما تكون قد تعلمت أن هذه العبارات ، باستخدامها الشائع ، لا تدل الا فقط على نتيجة زائفة : وهى أن هذه الكتابات مصطنعة لأنها مقروءة • والشخص الاكاديمى فى أمريكا يحاول انتهاج حياة فكرية جدية فى سياق اجتماعى غالبا ما يبدو على النقيض تماما من هذه الحياة • فالمنزلة التى يتمتع بها لابد أن تكون عوضا عن الكثير من القيم السائدة التى ضحى بها باختياره للحياة الاكاديمية • فمطلب الشخص الاكاديمى من أجل المنزلة سرعان ما يصبح مقيدا بصورته الذاتية لنفسه كشخص من «العلماء» • أما أن يوصف بأنه «مجرد صحفى» فهو شىء يجعله يشعر بالامتهان والضحالة • وهذا هو الموقف ، كما أعتقد ، الذى كثيرا ما يكون فى أدنى مستوى من مفردات اللغة الدقيقة وما ينطوى عليه أسلوب التحدث والكتابة • وتعلم هذا الاسلوب أقل صعوبة من عدم تعلمه • ولقد صار الاعتقاد أن من لايستخدمونه يتعرضون للاستهجان الاخلاقى • وقد يكون الامر راجع الى أنه نتيجة لنوع من الانغلاق الاكاديمى على صفوف هذا الوسط الذى يود استبعاد فئة المثقفين الاذكياء الذين يحظون بالاهتمام ، أكاديميين أو غيرهم •

ومعنى أن تكتب هو أنك تعمل على اثارة اهتمام القارىء • وهذا يعد جزءا من «أى» أسلوب يتم استخدامه • وأن تكتب معناه أيضا مطلب للنفس باكتساب المكانة على الاقل الكافية لأن تجعلك تقرأ • والشخص الاكاديمى الصغير السن ينشغل كثيرا بكلا المطلبين ، ولأنه يشعر بافتقاره الى المركز الشعبى فانه كثيرا ما يضع مطلبه من أجل

مكانة خاصة لنفسه قبل مطالبه فى سبيل كسب اهتمام القارىء لما يقوله . وفى أمريكا فى حقيقة الامر ، حتى أكثر أصحاب المعرفة ثقافة وعلما لا يتمتعون بالقدر الكبير من المكانة وسط دوائر واسعة وجماهير كبيرة . وفى هذا الخصوص كانت حالة علم الاجتماع حالة متطرفة : فالعادات المرتبطة بالاسلوب السوسيولوجى ترجع الى حد كبير الى ذلك الزمن الذى كان فيه علماء الاجتماع يتمتعون بمكانة بسيطة بين غيرهم من الاكاديميين . لذلك فان الرغبة فى الحصول على المكانة تعد أحد الاسباب فى أن الاكاديميين ينزلقون بسرعة بالغة فى الغموض وعدم الوضوح . كذلك ، فان هذا بدوره يعتبر أحد الاسباب فى أنهم لا يحصلون على المكانة التى يبغونها . وهى بالفعل تعتبر بمثابة دائرة خبيثة ، ومع هذا ، فهى دائرة يمكن لأى عالم تحطيمها والخروج منها بسهولة .

وأنت لكى يمكنك التغلب على لغة «النثر» الاكاديمى ، ينبغى عليك أولا ، التغلب على «الوضع» الاكاديمى . ولكى تجيب على الاسئلة الثلاثة التالية ، تكون دراسة قواعد اللغة وجذورها الانجلو ساكسونية أقل أهمية بكثير من توضيح اجابتك الخاصة عليها . وهذه الاسئلة هى : (١) ما هو مدى صعوبة وتعقد الموضوع الذى أتناوله ؟ (٢) عندما أكتب ما هى المكانة التى أطلبها لنفسى ؟ (٣) من هو الذى أحاول الكتابة من أجله ؟

(١) الاجابة المعتادة على السؤال الاول هى : أنه ليس بالصعوبة والتعقيد بمثل الطريقة التى تكتب بها عنه . والدليل على هذا موجود فى كل مكان : ويتضح من تلك السهولة التى تترجم بها ٩٥٪ من كتب علم الاجتماع الى اللغة الانجليزية[٨] .

ومع ذلك ، فانك قد تتساءل ، ألسنا أحيانا نحتاج الى مصطلحات فنية [٩] ؟ طبعا نحتاج ، ولكن كلمة «فنية» لا تعنى بالضرورة وجود صعوبة ، وبالتأكيد فانها لا تعنى اللغة غير المفهومة . فاذا ما كانت هذه المصطلحات الفنيـــة ضرورية بالفعل وفى نفس الوقت واضـــحة ودقيقة ، عندئذ لن يكون من الصعب استخدامهـــا فى ســـياق لغـــة انجليزية واضحة ومستقيمة ومن ثم تقديمهـــا للقـــارىء وهى غنيـــة بالمعـــانى .

ربما هنا قد تعترض على أن الكلمات العادية ذات الاســـتخدام الشائع كثيرا ما تكون «محملة» بالمشاعر والقيم ، وأنه بناء على ذلك قد يكون من الافضل تجنبها لصالح كلمات أو مصطلحات فنية جديدة . وها هى اجابتى على ذلك : من الصحيح أن الكلمات العادية كثـــيرا ما تكون غنية وذاخرة بالمشاعر والقيم ، ومـــع هـــذا فان الكثـــير من المصطلحات الفنية ذات الاستخدام الشائع فى علم الاجتماع هى الاخرى تكون أيضا ذاخرة وغنية . وأنت لكى تكتب بوضوح معناه ضبط هذا الثراء والغنى ، وأن تقول بالضبط ما تريد قوله بصورة تجعل هـــذا القول وهذا القول فقط مفهـــوم للآخرين ، ولنفترض أن المعنى الذى تقصده محاط بدائرة قطرها ستة أقدام ، وأنت تقف وسطها ، ولنفترض أن المعنى الذى فهمه القارىء هو دائرة أخرى مثلهـــا ، يقف فيهـــا القارىء . وهنا نقول أن الدائرتين تتداخلان معا بالفعل ، أما مدى هذا التداخل فهو يمثل مدى اتصالك . والجـــزء غـــير المتداخل من دائرة القارىء ، يعتبر مجال واحد لايخضع معنـــاه للضـــبط ، والقـــارىء يستكمله . أما فى دائرتك ، فالجزء غير المتداخل ــ معناه مأخذ آخر على فشلك ، فأنت لم تستطع أن تدخله ضـــمن الدائرة . ان البراعة فى الكتابة هى أن تجعل دائرة المعنى الخاصة بالقارىء متوافقة تماما مع

دائرتك ، وأنت تكتب بشكل يجعلكما أنتما الاثنان تقفان فى نفس دائرة الفهم المضبوط .

اذن ، النقطة الاولى التى أقصدها أن معظم «حصيلة الكلام» ليس لها صلة بأى نوع من تعقد الموضوع أو الفكر . بل هى تستخدم لترسيخ المطالب الاكاديمية لذات الباحث ، وأن تكتب بهذا الشـــكل هو أنك تقول للقارئ (وأنا متأكد من هذا دون أن أعرفه) : « اننى أعرف شيئا بالغ الصعوبة وأنت لن تستطيع فهمه الا فقط اذا تعلمت أولا لغتى الصعبة . وفى نفس الوقت ، فأنت لست سوى ، أو غـير ذى تخصص ، أو أى نوع آخر من تلك الانماط المتخلفة » .

(٢) وللاجابة عن السؤال الثانى ، علينا أن نميز ما بين وسيلتين لتقديم عمل علم الاجتماع طبقا للفكرة التى يملكها الكاتب عن نفسه ، وعن الصوت الذى يتحدث به . احدى الوسيلتين تنبـــع من فكرة أن الكاتب هـــو انسان قد يصـــيح ، أو يهمس أو يقهقه ـــ ولكنه فى كل الاحوال يكون دائما موجود هناك . كذلك من الواضح أى نوع من الناس هو . هل هو واثق من نفسه ، هل هو عصبى ، هل هو مباشر أم ملتو ، أى أنه «يكون» مركز للتجـــربة والتمعن العقلى ، ولكنه الآن قد اكتشف شىء ما ، وبدأ يخبرنا عن هـــذا الشىء ، وعن كيف اكتشفه . وهذا هو الصوت الكامن خلف أفضل العروض المتاحة فى اللغة الانجليزية .

أما الوسيلة الثانية التى يعرض بها العمل فهى لا تستخدم أى صوت لأى انسان . فمثل هذا النوع من الكتابة ليس «بصوت انسان على الاطلاق» ، بل هو صوت آخر مستقل ذاتيا . وهو نثر تصنعه آلة ، ومليء برطانة لاتستحق الطريقة القوية التى كتب بها : وهـــو ليس فحسب ذو صبغة غير شخصية ، بل هو ذو صبغة غير شخصية

ذاخرة بالتظاهر . وتكتب النشرات الحكومية أحيانا بهـذا الشكل ، وخطابات العمل أيضا ، بل وقدر كبير من علم الاجتماع . وأى نوع من الكتابة ــ ربما بخلاف ذلك النوع المعـين الذى يكتبه أصـحاب الاسلوب الرفيع ــ ولا يمكن تخيل أنه يعبر عن حديث بشرى ، هو بالفعل بمثابة كتابة رديئة .

(٣) وأخيرا ، هناك السؤال المتعـلق بأولئـك الذين عليهـم أن يسمعوا هذا الصوت ــ مع التفكير فى ذلك الصوت الذى يؤدى أيضا الى تلك السمات المميزة للاسلوب . أنه لمن الاشياء المهمة جدا بالنسبة لأى كاتب أن يضع فى ذهنه تماما أى نوع من الناس أولئـك الذين يحاول التحدث اليهم ــ وأيضا ما هى فكرته عنهـم . وهـذه ليست بالاسئلة السهلة ، ولكى يمكن الاجابة عنها بشكل جيد هو آمر يتطلب قرارات خاصة بالمرء ذاته وكذلك معرفة بالجمهور القارىء . واقـد قلنا أنه لكى تكتب معناه أنك تثير مطلب أن تكون مقروءا ، ولكن من هو ذلك القارىء ؟ .

احدى الاجابات على هذا طرحها زميلى «ليونيل تريللينج» الذى سمح لى بعرض هذه الاجابة ، وهى ، عليك أن تفترض بأنه قد طلب منك القاء محاضرة حول موضوع ما تعرفه جيـدا أمام جمهـور من المدرسين والطلبة من جميع الاقسام باحدى الجامعات الرائدة ، وأيضا أمام مجموعة متنوعة من الناس أصحاب الاهتمام من احـدى المدن القريبة . وافترض أن هذا الجمهور يجلس أمامك وأن لهم الحق فى المعرفة ، وافترض أيضا أنك تبغى فى احاطتهم بهذه المعرفة . والآن عليك أن تكتب .

ان عالم الاجتماع ككاتب تتوافر أمامه أربعة امكانات واسعة . أولها ، هو أنه اذا ما أقر عن نفسه أنه يمثل صوتا وافترض أنه يتحدث

لمثل هذا الجمهور الذى أشرت اليه ، عندئذ فانه سوف يحاول كتابة نثر مقروء • ثانيهما ، انه اذا ما افترض أنه يمثل صوتا ولكنه فى ذات الوقت لا يضع فى ادراكه وجود أى جمهور ، فانه عندئذ سوف يقع بسهولة فى خطرفات غير واضحة • ومن الافضل لمثل هذا الانسان أن يكون حريص وحذر • وثالث الامكانات هو أن يعتبر نفسه كصوت أقل من كونه عميلا لصوت ما غير شخصى ، حينئـذ ـ اذا ما وجـد له جمهور ـ سيكون فى أغلب الاحيان عبارة عن عبادة • أما رابع هذه الامكانات هو أنه ، ودون أن يعرف ماهية صوته الخاص ، اذا لم يجد له أى نوع من الجمهور ، بل يتحدث منفردا حديثا لن يحفظه أحد ، عندئذ أعتقد أنه علينا أن نعترف أنه بمثابة صانع حقيقى للغـة النثر القياسية : وهو صوت مسـتقل بذاته يتردد فى قاعة فسيحة خاوية ، وانه لشىء مخيف ، وكأنه احدى روايات كافكا ، وهو ما ينبغى أن يكون: فقد كنا نتحدث عن حافة العقل •

ـ ان الخط الفاصل بين العمق واللغو والثرثرة هو خط رقيق جدا ، بل وخطر ، ولا ينبغى على أحد أن ينكر ذلك السـحر الغريب الذى يتمتـع به أولئك الذين ـ كما فى منظومة «وايتمان» الصغيرة ـ فى بداية دراساتهم ، يشعرون بالسعادة البالغة وتنتابهم الرهبة من الخطوة الأولى التى نادرا ما يرغبون فى السير أبعد منها • ان اللغة ، بمكنوتها ذاته ، رغم أنها تشكل عالما رائعا ، الا أننا وقد وقعنا فى أحابيل هذا العالم ، لايجب أن نخطىء بالخليط بـين البـدايات وعمـق النتائج النهائية • وأنت بصفتك عضو فى الوسط الاكاديمى ينبغى أن تفكر فى نفسك على أساس أنك تمثل لغة عظيمة بالفعل ، وأنه ينبغى أن تتوقع وتطلب من نفسك عندما تتحدث أو تكتب محاولة ادارة الحديث والنقاش كرجل متحضر •

بعد ذلك ، هناك نقطة واحدة أخيرة تتصل بتفاعل الكتابة مع التفكير . فأنت اذا ما كتبت فقط مستعينا بما أسماه «هانز ريشنباخ» «سياق الاكتشاف» فلن يفهمك سوى قلة ضئيلة من الناس ، والاكثر من هذا هو أنك سوف تنحو لكى تكون ذو طابع ذاتى تماما فى تعبيرك. وأنت لكى تضفى على ما تفكر فيه صفة أكثر موضوعية ، ينبغى عليك أن تعمل من خلال سياق العرض . فأنت فى بداية الامر تقوم بـ «عرض» ما تفكر فيه على نفسك ، وهو ما يسمى غالبا بعملية «التفكير بوضوح» . بعدئذ وعندما تشعر بأن ما تفكر فيه قد صار مستقيما واضحا ، فانك تقوم بعرضه على الآخرين — وغالبا ما تجد أنك لم تجعله فكرا واضحا . والآن أنت قد صرت فى «سياق العرض»، أحيانا سوف تلاحظ أنه أثناء محاولتك عرض أفكارك ، فانك سوف تقوم بتعديلها — ليس فقط من حيث شكل صياغتها بل غالبا من حيث فحواها كذلك ، فبينما أنت تعمل فى سياق العرض ، فانك سوف تحصل على أفكار جديدة . والامر باختصار هو أنه سوف يصبح لديك سياق جديد للاكتشاف ، يختلف عن السياق الاصلى ، وعلى مستوى أعلى كما أعتقده لأنه أكثر موضوعية من الناحية الاجتماعية . وهنا ، مرة أخرى، لن يكون فى امكانك الفصل ما بين الكيفية التى تفكر بها والكيفية التى تكتب بها . فسوف يكون عليك عندئذ أن تتحرك جيئة وذهابا بين السياقين ، وأينما تحركت عليك أيضا أن تعرف الى أين أنت ذاهب ؟ .

(٦)

مما قلت ، سوف تفهم أنك عند الممارسة والتطبيق لن تكون أبدا، « فى بداية العمل فى مشروع» ، بل أنت بالفعل فى خضم «العمل» ، سواء فى مجرى شخصى ، أو فى الملفات ، أو فى وضع الملاحظات بعد

التنقيب هنا وهناك ، أو فى أى مساع أخرى لها خطوطها المحــددة .
وباتباع هذه الطريقة فى الحياة والعمل ، فانك سوف تكون دائما قد حصلت على الكثير من رؤوس الموضوعات التى تود العمل عليها بصورة أكبر . وبعد ما تستقر على «مخرج» معين فانك ستحاول اســتخدام ملفك كامــلا ، ومحصــلة تنقيبك وبحثك فى المكتبــات ، وحواراتك ، وما أخترته من الناس ــ كل هذا تضعه فى خدمة هذا الموضوع أو ذلك الرأى . انك بهذا تحاول بناء عالم صغير يتضــمن جميــع العناصر الاساسية التى تدخل فى نطاق العمل الذى تقوم به ، وتحاول وضع كل من هذه العناصر فى مكانه بطريقة منهجية ، كما تحاول بصفة مستمرة اعادة ترتيب ومواءمة هذا الاطار حول ما يحدث من تطورات فى كل جزء منه . ومجرد أن تعيش فى هذا العالم البنائى ، معناه أن تعرف بمــا هو مطلوب : أفكار ، حقائق ، أفكار ، شخصيات ، أفكار .

وهكذا ، فانك سوف تكتشف وسوف تصف ، وتقوم بوضع أنماط لترتيب وتنظيــم ما اكتشفته ، كمــا تقوم بتركيز وتنظيــم التجربة بتمييز البنود باسمها . وهذا البحث عن النظام سوف يجعلك تسعى للحصول على نماذج وتيارات ، ولايجاد العلاقات التى قد تكون نمطية وسببية . أى باختصار ، سوف تبحث عن المعانى لما وصــلت اليه ، ولما يمكن تفسيره بأنه يشــكل دلالة ظاهرة لشىء آخر ليس بظاهر . كما أنك ستقوم بوضع قائمة تحوى كل شىء يبدو واردا فى كل ما تحاول فهمه ، وسوف تعريه وتجرده الى عناصره الجوهرية ، ثم بعدئذ بعناية وبطريقة منهجية سوف تنسب هذه البنود كل منها للاخر لكى تشكل نوعا من النمط العامل . وآنئذ فانك سوف تعمل على ارجاع هذا النمط وتنسبه الى ذلك الشىء الذى تحاول تفسيره . وفى بعض الاحيان يكون هذا العمل سهلا ، ولكنه كثيرا ما لا يتحقق هكذا .

ومع ذلك ، فدائما ووسط كل التفاصيل ، فانك سوف تكون فى عملية بحث من مؤشرات قد تتوجه صوب التيار الرئيسى ، وصوب الاشكال والاتجاهات البارزة فى مجال المجتمع فى منتصف القرن العشرين ، ذلك لأن هذا فى نهاية الامر هو التنوع البشرى الذى تكتب دائما عنه •

ان عملية التفكير هى نضال من أجل النظام وفى ذات الوقت من أجل الفهم الشمولى • وأنت لا ينبغى عليك التوقف عن التفكير بأسرع من اللازم — والا فانك سوف تفشل فى معرفة كل ما ينبغى عليك معرفته ، كما أنه ليس فى امكانك ترك هذا التفكير يستمر الى ما لا نهاية، والا فانك سوف تنفجر • وهذه هى المعضلة التى أعتقد أنها تجعل عملية التأمل ، فى تلك المناسبات النادرة عندما يتحقق النجاح كثيرا أو قليلا ، هى أكثر المساعى حماسة وحرارة فى نطاق قدرة الكائن البشرى •

وهنا ، قد يكون فى امكانى تلخيص ما حاولت أن أقوله بشكل أفضل فى شكل عدة توصيات ومحاذير قليلة :

١ — كن صاحب حرفة ماهر : تجنب اللجوء الى أى قاعدة للاجراءات تتسم بالجمود ، وعليك قبل كل شىء السعى نحو تطوير واستخدام الخيال العلمى الاجتماعى • تجنب صنمية المنهج والتكنيك ، حث على اعادة تأهيل صاحب الحرفة الفكرية غير المصطنعة ، وحاول أن تصبح أنت نفسك صاحب الحرفة هذا • دع كل انسان ليكون صاحب منهجية الخاصة ، دع كل انسان ليكون هو صاحب النظرية ، دع النظرية والمنهج مرة أخرى ليكونا جزء من ممارسة الحرفة • عليك أن تناضل فى سبيل اعطاء الاولوية للدارس الفرد ، عليك أن تناضل

فى مواجهة فرق البحث من التقنيين • كن عقــلا واحــدا يرتكز على مواجهته الخاصة لمشاكل الانسان والمجتمع •

٢ — تجنب صفة الشـــذوذ البيزنطية التى تتسم بهـا المفاهيـم المترابطة وغير المترابطة ، والثرثرة المصطنعة • حث نفسك والآخرين على انتهاج الصياغة الواضحة ببساطتها • استخدم عبارات ومصطلحات أكثر دقة فقط عندما تؤمن بشدة أن استخدامها يوســـع من مجـال أحاسيسك ، ومن دقة مراجعك ، ومن عمــق تفكيرك العقلى • تجنب استخدام الغموض كوسيلة للتملص من استخراج الاحكام عن المجتمع — وكوسيلة للتهرب من حكم قرائك عن عملك الخاص •

٣ — ضـــع أى بناءات مستخرجة عبر التاريخ وتعتقد أن عملك يتطلبها ، وعليك ايضــا أن تغوص فى التفاصــيل الجزئيـــة للتفرعات التاريخية • عليك أيضا تكوين نظرية رسمية تماما وبناء أنماط بقـــدر ما تستطيع • عليك بالفحص التفصيلى للحقائق الصغيرة والعــلاقات بينها ، وكذلك للاحداث الكبيرة الفريدة • ومع ذلك ، لا تكن متعصبا : انسب كل هذا العمل ، بصفة مستمرة ولصيقة ، الى مستوى الواقع التاريخى • لا تفترض أن شخصا آخر سوف يفعل ذلك نيابة عنك ، فى وقت ما ، وفى مكان ما • اعتبر مهمتك هى تعريف هـــذا الواقـــع وتحديده ، وقم بصياغة مشاكلك فى عباراتها المناسبة ، وعلى مستواها حاول أن تحل هذه المشاكل ومن ثم حل القضايا والمتاعب التى تتضمنها، ولا تكتب أبدا ما يتجاوز ثلاث صفحات دون أن يكون فى ذهنك على الاقل مثال قوى •

٤ — لا تكتفى فقط بدراسة مجرد وسط صغير واحد بعد الآخر ، بل قم بدراسة البناءات الاجتماعية التى تنتظم فيهـــا هذه الاوساط

الاجتماعية • وفى نطاق هذه الدراسات للبناءات الاكبر ، قم باختيار الاوساط الاجتماعية التى تحتاجها لكى تدرسها بالتفصيل ، ثم قم بدراستها بصورة تمكنك من فهم تفاعل الاوساط الاجتماعية مع البناء الاجتماعى • بعد ذلك سر قدما بطريقة مشابهة بقدر ما تتطلبه مساحة الزمن • لا تكن فقط مجرد صحفى ، مهما يكن يتسم بالدقة ، وعليك أن تعرف أن الصحافة من الممكن أن تكون مسعى فكرى عظيم ، ولكن عليك أن تعرف أيضا أن مسعاك أكثر عظمة !! لذا ، فلا تكتفى فقط بسرد الابحاث الصغيرة فى لحظاتها الجامدة القاطعة ، أو فى مجراها الزمنى القصير الامد • اعتبر مسار التاريخ البشرى هو مساحتك الزمنية التى تعمل عبرها ، وقم فى نطاقها بتحديد الاسابيع ، والسنوات، والحقب التاريخية التى تتولى فحصها •

٥ — لاحظ أن هدفك هو الفهم المقارن تماما للبناءات الاجتماعية التى ظهرت والموجودة الآن بالفعل فى تاريخ العالم • لاحظ أنه لكى تحقق هذا يجب عليك تجنب التخصص التعسفى للاقسام السائدة • عليك أن تنوع طابع التخصص فى عملك ، طبقا للموضوع ، وفوق كل شىء طبقا للمشكلة المهمة • وعند صياغة ومحاولة حل هذه المشاكل ، لا تتردد ، بل عليك فى الواقع أن تسعى ، بصورة مستمرة وذاخرة بالخيال ، الى العمل بناء على المنظورات والمواد ، الافكار والمناهج ، الخاصة بأى وبجميع الدراسات المعقولة عن الانسان والمجتمع • فهى تعتبر جميعا دراسات خاصة «بك» ، انها بمثابة جزء مما أنت جزء منه ، ولا تدع أحد يأخذها منك من أولئك الذين قد يغلقونها أمام وجهك برطانتهم الغريبة وبدعوى «الخبرة» •

٦ — دع عينيك دائما مفتوحتان على صورة الانسان — على المفهوم الوراثى لطبيعة البشرية — التى يجسمها ويوحى بها عملك ، وكذلك

على صورة التاريخ — أي مفهومك عن كيف صنع التاريخ • وباختصار، عليك باستمرار تفسير ومراجعة آرائك عن مشـاكل التـاريخ ، وعن مشاكل البيوجرافيا ، وعن مشاكل البناء الاجتماعي الذي تتقاطع فيـه البيوجرافيا مع التاريخ • دع عينيك مفتوحتان على جوانب التنوع فى السمة الفرديه ، وعلى انماط التغـير للحقبات التاريخيـة • استخدم ما تراه وما تتخيله كمفاتيح لدراستك عن التنوع البشرى •

٧ — اعلم أنك ترث وتعمـل على استمرارية تقليـد التحليـل الاجتماعي الكلاسيكي ، لذا حاول أن تفهـم الانسان ليس باعتباره شريحة منعزلة ، وليس كحقل أو نسق جلى مفهوم فى ذاته ولذاته • حاول أن تفهم الرجال والنساء باعتبارهم فاعلين تاريخيين واجتماعيين، وأن تفهم السبل التى تستخدمها المجتمعات البشرية المختلفة فى انتقاء وتشكيل الرجال والنساء بصورة معقدة ومحيرة • وقبل انتهائك من أى عمل ، مهما تكن صلته غير مباشرة فى حينه ، عليك بتوجيهه الى المهمة المركزية لفهم البناء الاجتماعي والتيارات السائدة ، وفهم التشـكيل والمعانى ، المقصودة من عصرك الخاص ، ذلك العالم الرهيب الرائع من المجتمع البشرى فى النصف الثانى من القرن العشرين •

٨ — لا تسمح للقضايا العـامة على حسب ما تصـاغ رسميا ، ولا للمتاعب بحسها الشخصى ، أن تقـرر لك المشـاكل التى تتناولها بالدراسة • وقبل كل شىء ، عليك أن لا تتخلى عن استقلالك الاخلاقى والسياسى بتقبل صياغات شخص آخـر للعملية الليبرالية الخاصـة بالروح البيروقراطية أو للعملية الليبرالية بالنسبة للشتات الاخلاقى • عليك أن تعرف أن الكثير من المتاعب الشخصية لا يمكن حلهـا فقـط باعتبارها مجرد متاعب ، بل عليك أن تفهمها فى اطار القضايا العـامة

ـ ومن حيث المشاكل المتعلقة بصنع التاريخ • عليك أن تعـرف أنه ينبغى الكشف عن المقصد البشرى للقضايا العامة بارجاعها الى المتاعب الشخصية ـ والى المشاكل الخاصة بحياة الفرد • واعلم أن المشـاكل الخاصة بعلم الاجتماع ، عند صياغتها بصورة كافية ومناسبة ، لابد أن تتضمن كل من المتـاعب الشخصية والقضـايا العـامة ، وكل من البيوجرافيا والتاريخ ، وكذلك المجال الذى تتشابك فيه علاقاتها • ففى نطاق هذا المجال تتحقق حياة الفرد ويتم صنع المجتمعات ، وفى نطاق هذا المجال يجد الخيال العلمى الاجتماعى فرصته فى إحداث اختلاف فى نوعية الحياة البشرية فى عصرنا •

المراجـــع

(١) انظر على سبيل المثال «س. رايت ميلز» ، «الياقة البيضاء» ، نيويورك ، جامعة اكسفورد ، ١٩٥١ ، الفصل ١٣ . ولقد فعلت أنا نفس الشيء ، في ملاحظاتي عن «ليدرر وجاسيت» مقابل «منظرى الصفوة» وباعتبارهما رد فعل ازاء المذهب الديموقراطي في القرنين الثامن والتاسع عشر .

(٢) هناك عبارات أيضا عند موسكا عن القوانين السيكولوجية التي من المفترض أنها تدعم رأيه . فانظر الى استخدامه لكلمة «طبيعى» ، مثلا ، وان كان هذا لا يمثل شيئا مركزيا ، ولايستحق وضعه في الاعتبار .

(٣) ربما ينبغي على أن أقول نفس الاشياء بلغة أكثر ضخامة ، حتى أقدم الدليل للذين لا يعرفون ، مدى أهمية كل هذا للعقل: ان المواقف التي تتسم بالمعضلة ينبغي أن تضاغ مع الاهتمام الواجب بمدلولاتها النظرية والتصورية ، وأيضا بنماذج البحث الخبروي وكذلك بالانماط المناسبة لعملية التحقق . وهذه النماذج والانماط بدورها يجب أن تكون بنيتها محكمة بحيث تسمح باستخراج المزيد من المدلولات النظرية والتصورية نتيجة لاستخدامها . لذلك ينبغي أولا استكشاف أبعاد المدلولات النظرية والتصورية الخاصة بالمواقف التي تتسم بالمعضلة بصورة كاملة . ولكي يتم هذا ، فالامر يتطلب من عالم الاجتماع أن يحدد خصائص كل مدلول من هذه المدلولات ويدرس أبعاده بالنسبة لكل المدلولات الاخرى ، وان كان هذا يتم أيضا بصورة تتناسب ونماذج البحث الخبروى وأنماط التحقق .

(٤) انظر المقالات الممتــازة عن «الرؤية البصيرة» وعن «المسعى الخلاق» بقــلم «هتشينسون» فى «دراســـة عن العـــلاقات الشخصية المتبــادلة» اعــداد «باتريك مولاهى» ، نيويورك ، نيلسون ، ١٩٤٩ •

(٥) وبعض هــذا هـــو ما أســـماه «كينيث بـــيرك» فى مناقشته لـــ «نيتشه» بـــ «المنظور عن طريق عدم التناسب» ، أنظـــر «بيرك» ، «الديمومة والتغير» ، نيويورك ، ١٩٣٦ •

(٦) بقلم «ادموند ويلسون» ، الذى يعتبر بدرجة كبيرة «أفضل ناقد فى دنيا المتحدثين باللغة الانجليزية» ، وقد كتب يقـــول : «أما بالنسبة لخبرتى بالمقالات التى كتبها خبراء الانثروبولوجيا والسوسيولوجيا ، فقد أدت بى الى التوصـــل الى أن المطلب الخاص ، فى جامعتى المثالية ، بوجوب مرور الابحاث فى كل قسم على أستاذ للغة الانجليزية قد أمضى الى اضفاء الصبغة الثورية على هذين الموضوعين ، هذا اذا ما قدر لثانيهما البقاء على قيد الحياة» • انظر : «قطعة من عقـــلى» ، نيويورك ، ١٩٥٦ ، ص ١٦٤ •

(٧) انظر : «مالكولم كولى» ، «نماذج العادة السوسيولوجية فى التجسيد اللغوى» ، The Reporter ، ٢٠ سبتمبر ١٩٥٦ ، ص ٤١ وما يليها •

(٨) من أمثلة هذه الترجمة ، انظر الفصل الثانى • وعن موضوع الكتابة ، فان أفضـــل كتاب فى هذا الشأن هو كتاب «روبرت جريفز وآلان هودج» ، «القارىء فوق كتفيك» ، نيويورك ، ماكميلان ، ١٩٤٤ • وانظر أيضا : المناقشات الممتازة بقـــلم

«بارزون وجراف» ، «الباحث المعاصر» ، نيويورك ، ١٩٥٧ ، وانظر أيضا : «مونتاجيو» ، «مذكرات كاتب حول تجارته» ، بيليكان ، ١٩٤٩ • وكذلك «بونامى دوبريه» ، «أسلوب النثر الحديث» ، اكسفورد ، ١٩٣٤ — ١٩٥٠ •

(٩) ان الذين يفهمون لغة الرياضة بصورة أفضل منى يقولون لى أنها « دقيقة ، واقتصادية ، وواضحة» وهذا هو السبب الذى يجعلنى أشك كثيرا فى الكثير من علماء الاجتماع الذين يطالبون بمكانة مركزية للعلوم الرياضية بين مناهج الدراسة الاجتماعية ومع هذا فهم يكتبون النثر بشكل غير دقيق ، وغير اقتصادى ، وغير واضح • وعلى هؤلاء أن يأخذوا درسا من «بول لازار سفيلد» ، الذى يؤمن بالرياضيات ، والذى يكشف نثره دائما، حتى فى مسودته الاولى ، الخواص الرياضية المشار اليها • وأنا عندما لا أتمكن من فهم لغته الرياضية ، فاننى أعرف أن عدم الفهم هذا مرجعه هو أننى فى غاية الجهل ، كما أننى عندما أختلف معه فيما يكتبه بلغة غير رياضية ، فاننى أعرف أن سبب هذا هو أنه قد أخطأ ، ذلك لأن الانسان دائما يعرف ما يقوله ومن ثم يعرف تماما أين مكمن الخطأ فيما ذهب اليه •

شكر وتقدير

لقد تم عرض صور سابقة من هذا الكتاب فى احدى الندوات عن علم الاجتماع عقدت خلال ربيع الاول عام ١٩٥٧ فى كوبنهاجن وقام بترتيبها «هيننج فريز Henning Friis » مستشار وزارة الشئون الاجتماعية . وأنا أدين له ولأعضاء الندوة التالية أسماءهم بالعرفان الكثير على انتقاداتهم النافذة واقتراحاتهم الرقيقة : كيرشتين رود فيلد، بنت أندرسون ، كول ، بول فيدريكسين ، فود أيريك سفينسين ، تورين أجرسناب ، البزلينج .

ولقد تم عرض الفصل الاول «الوعد» ، بجانب أجزاء أخرى قصيرة من هذا الكتاب فى صورة مختصرة فى الجمعية الامريكية لعلم السياسة فى سبتمبر عام ١٩٥٨ فى سانت لويس . وفى الفصل السادس، فانتى قد اعتمدت على مقالة : «أسلوبان للبحث فى مجال الدراسة الاجتماعية الراهنة» ، التى نشرت فى «فلسفة العلم» المجلد العشرون ، العدد ٤ ، أكتوبر ١٩٥٣ . كما أن احدى المسودات الاولى للاجزاء الخمسة الاولى من الملحق قد ظهرت فى « مقالة عن النظرية السوسيولوجية » ، أعدها : جروس ، ايفانسوتن ، بيترسون ، عام ١٩٥٩ . أما الجزئين الخامس والسادس من الفصل الثامن فقد طبعا فى« Monthly Review » ، اكتوبر ١٩٥٨ . وبصورة عامة ، فاننى أيضا قد استخدمت الملاحظات التىنشرت لأول مرة فىThe Saturday Review الصادرة فى الاول من مايو ١٩٥٤ . كذلك فقد استخدمت صفحات من الفصل التاسع والفصل العاشر فى محاضرات عامة ألقيت فى مدرسة العلوم الاقتصادية بلندن وفى الاكاديمية البولندية للعلوم فى وارسو

خلال شهر يناير وأذيعت عبر (بى. بى. سى) فى البرنامج الثالث فى فبراير ١٩٥٩ .

أما مسودات النص الاطنى التى كتبت فيما بعد فقد تعرضت ، كليا أو جزئيا ، لنقد الزملاء التالية أسماءهم ، والذين أدين لهم بالفضل بالنسبة للكثير من أى قيمة يستحقها الكتاب . وكل ما كنت أتمناه هو أن تكون هناك وسيلة أكثر ملاءمة للتعبير عن تقدير لمساعدتهم الكريمة: « هارولد بارجر ، روبرت بيرشتات ، نورمان بيرنباوم ، هيربرت بلومر ، توم بوتومور ، ليمان بريسون ، لويس كوزر ، آرثر داقيز ، روبرت دوبن ، مارجورى فيسك ، بيتر جاى ، ساى جود ، ليولين جروس ، ريتشارد هوفستادر ، ايرفنج هاو ، ستيوارت هيوز ، فلويد هانتر ، سيلفيا جريكو ، دافيد كيتلر ، والتر كلينك ، تشارلز لند بلوم ، ارنست مانهايم ، ريس ماكجى ، رالف ميليباند ، بارينجتون مور الصغير ، دافيد رايزمان ، ماير شابير ، جورج راويك ، أرنولد روجو ، بول سويزى » .

كذلك ، فاننى ممتن كثيرا لصديقى ، ويليام ميللر ، وهارفى سوادوس ، على جهودهما المتواصلة فى مساعدتى على الكتابة بوضوح .

دار نشر الثقافة

١٢ شارع حسبو ـ منشا ـ محرم بك

تليفون ٤٩٣٢١٩٨ ـ ٤٩٢٠٦٢٥

